



دار الكتب والوثائق القومية

الثورة .. والحرية

نضال شعب مصر

١٧٩٨ - ١٩٥٦

تأليف: محمد عبد الرحمن حسين

نضال شعب مصر

١٧٩٨ - ١٩٥٦



إِذَا الْبُكْبُ وَالْوُثَايُ الْبَقَعُ نَسِيَتْ

الثورة .. والحرية (١٣)

نضال شعب مصر

١٧٩٨ - ١٩٥٦

المستشار

محمد عبد الرحمن حسين

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣٢ هـ - ١٩١١ م) طبعة

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

حسين ، محمد عبدالرحمن.

فضال شعب مصر: ١٧٩٨ - ١٩٥٩ / تأليف محمد
عبدالرحمن حسين. - القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ،
2011-

٤٢٢ ص: 20 سم. . (الثورة والحرية)
تدمك 9 - 0816 - 18 - 977 - 978
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث.
أ - العنوان.

٩٦٢

إخراج وطباعة:

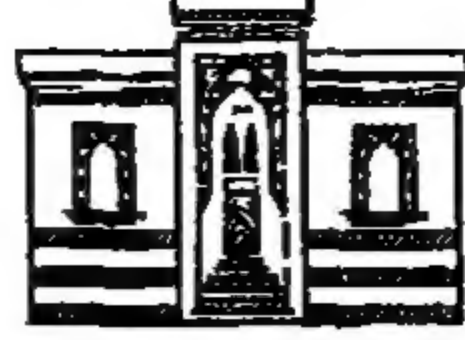
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٩٠٠٣

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0816 - 9



مركز الكتب والأوراق القومية

الثورة .. والحرية سلسلة غير دورية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

إشراف
أ. د. أحمد زكريا الشلق

سكرتارية التحرير
ميادة مدحت عاشور

الإشراف الفني
محمد علي الشريف

تصميم الغلاف
محمد عماد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

وبعد فهذه صفحات تحمل الأسى والمجد معا .

وهي دراسة جديدة تبرز كفاح الشعب المصرى فى تاريخه الحديث والمعاصر ، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . والشعب المصرى دائما أبدا شعب مكافح مناضل ، يابى الظلم والضميم ، ويتطلع الى حياة التحرر والحرية ، ولذا أصبحت مصر دائما مقبرة الغزاة .

أدى موقع مصر الاستراتيجى الممتاز عند التقاء ثلاث قارات كبرى ، وبحرين عالميين ، البحر المتوسط والبحر الأحمر ، الى أن أصبحت مصر هدفا لأطماع المستعمرين خلال القرن التاسع عشر ، وتنافست الدول الأوروبية على مد نفوذها الى الأراضى المصرية ، وتكاثفت عوامل ترتبط بالسياسة العالمية على أن مصر أصبحت تعاني أحيانا من الاحتلال والاستعمار . ولكن الشعب المصرى شعب أبى ، لم يستسلم فى أى عصر من العصور ، فكان يهب دائما معلنا ثورته على الاستعمار والاستغلال ، مناضلا من أجل حريته واستقلاله ، وانتصر دائما على كل مستعمر وطامع ، بفضل إيمانه العميق بحقه فى الحياة الحرة الكريمة ، وبفضل روحه الثورية وكفاحه ونضاله ، مما كان يضطر المستعمرين والغزاة الى القاء سلاحهم والاعتراف بهزيمتهم والجللاء عن أرض السكناة .

ولم يقتصر كفاح الشعب المصرى على مقاومة الاستعمار ، بل حطم كل قيد قد يحد من حركته أو حريته ، أو يمنعه من المضى فى طريق الحرية والرخاء والحضارة ، والمشاركة فى الموكب الانسانى الكبير . ولذا قاوم المصريون

الفرنسيين والانجليز ، كما كفحوا استبداد أسرة محمد علي وأذناها من الانطاعيين والرجعيين .

وتوج الشعب المصري كفاحه بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تلك الثورة المباركة التي كانت الحلقة الرئيسية الكبرى في سلسلة النضال والكفاح ، وجنى المصريون ثمار كفاحهم وجهودهم ، فكانت ثمارا ياتمة عوضتهم عما بذلوه من دماء وعرق خلال عصور الكفاح .

انقشع ظلام الاستعمار والاستبداد والاقطاع في ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأشرفت في صباح هذا اليوم الخالد شمس جديدة ساطعة أنارت أرجاء مصر ، وأقطار الوطن العربي ، والعالم الاسلامي ، وأفريقية ، والعالم أجمع ، وأصبحت هذه الثورة الخالدة ثورة رائدة ، وقوة تحتذى حذوها جميع الشعوب التقدمية المناضلة التي تسعى الى التحرر والانطلاق الثوري .

اعتمدنا في هذه الدراسة على المصادر التاريخية والحديثة ، وعلى كثير من السجلات والتقارير كما أسعدتني الظروف أن أكون شاهدا عيانا لكثير من الأحداث المعاصرة ، وشاركت في بعض عمليات الكفاح والنضال ، وكنت قريبا من كثير من الأبطال والفدائيين ، مما ساعدني على أن أقدم للقارئ صورة حقيقية تنبض بالحياة ، وعاونني على الوفاء بالبحث والدراسة .

وهذه الدراسة تربط الماضي التليد بالحاضر المجيد ، وتجعلنا نشق في مستقبل مشرق سعيد ، فانا نعيش في عصر حرية واشتراكية ووحدة ، وفي مجتمع الكفاية والعدل ، وفي مصر جمال عبد الناصر ، الزعيم الوطني المكافح المناضل ، وقائد كفاحنا الشعبي ، ورمز الحرية والسلام . والى سيادته أتشرف باهداء كتابي هذا (كفاح شعب) .

والله ولي التوفيق ، والمجد للعرب ، والعزة والنصر لكل شعب مكافح .

المؤلف

الباب الاول

كفاح الشعب المصرى للاطماع الفرنسية
والانجليزية في مطلع القرن ١٩

- ١ — الكفاح الشعبى للحملة الفرنسية.
- ٢ — الشعب المصرى يكافح استبداد محمد على.
- ٣ — الكفاح الشعبى للانجليز فى رشيد.

١ - الكفاح الشعبي للحملة الفرنسية :

بقلعة مصرية قبل قدوم الحملة الفرنسية :

فتح العثمانيون مصر في سنة ١٥١٧ ، إذ دخل السلطان سليم الأول القاهرة وقضى على دولة المماليك التي قامت في مصر والشام . وبدأ الحكم العثماني منذ الحين ، واستمر الى مطلع القرن العشرين . وان كان الحكم العثماني حكما اسلاميا الا أنه يختلف كثيرا عما سبقه من حكم العرب والمسلمين في القرون الماضية . فقد حكم العثمانيون مصر لصالحهم ، واعتبروها ضيعة خصبة تدر عليهم دخلا ثابتا وفيرا . وأهمل العثمانيون تماما كل اصلاح اقتصادي أو ثقافي أو اجتماعي ، ونقلوا كثيرا من الصناعات المصرية الماهرة الى القسطنطينية ، فحرموا مصر من الأيدي العاملة الفنية ، كما استولوا على كثير من الأموال والخامات العربية التي لا يستغنى عنها في النهضة الصناعية ، وأهمل العثمانيون تطهير الترع حتى جفت ، وترميم الجسور حتى انهارت ، وأهملوا المرافق الصحية فانتشرت الأمراض والأوبئة . وأغلق العثمانيون المدارس ، واقتصروا التعليم على الأزهر والكتاتيب . وأوقع نظام الالتزام أعباء كثيرة على الفلاحين فساءت أحوالهم الاجتماعية .

وأدت هذه السياسة العثمانية الى توقف التقدم والاصلاح ، مما أدى الى ركود وجمود . في وقت كانت دول أوروبا تمشي في طريق الحضارة في خطوات سريعة . وخشيت الدولة العثمانية أن تمتد الاطماع الأوروبية الى العالم العربي ، فنهبت ستارا كثيفا يحجبه عن أوروبا ، بما منع أي اتصال اقتصادي أو ثقافي وأراد السلطان العثماني أن يضمن ولاء العرب والمسلمين له ، فأعلن أن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة ، وأن السلطان هو الخليفة الذي يدين له كل المسلمين في الأرض بالطاعة والولاء . ورفض الشعب المصري الاستعمار العثماني المقنع باسم الخلافة ، وأبى أن يكون الدين وسيلة للاستعمار والاستبداد ، فالاسلام أسمى من أن يسخره السلطان من أجل تدعيم نفوذه السياسي الاستعماري .

ونجد في كتب المستشرقين أحاديثا كثيرة ، وكأها تدور حول أثر الحملة الفرنسية على مصر في يقظة الشعب المصري ، ويحاول هؤلاء المستشرقين أن يقنعوا قراءهم بأن هذا الشعب الآبي كان في سبات ، ثم قدمت الحملة الفرنسية فأيقظته وأثارت مشاعره الوطنية . ولكن هذه الأقوال هي في الحقيقة منالطات واضحة تهدمها الحقائق التاريخية الثابتة . هؤلاء المستشرقين كعهدنا بهم يحاولون تبدير الأطلاع الأوروبية ، ويضعون حيثيات لكل احتلال واستعمار أوروبي .

والشعب المصري شعب مكافح مناضل ، شهدنا كفاحه وجهاده على مر العصور التاريخية ، وهو يابى الضيم والظلم ، والاحتلال والاستغلال ، ويدافع دائما عن وطنه وحرية ومصالحه . وهو ليس في حاجة الى مؤثر خارجي يذكره بوطنيته وقوميته .

والحقيقة التاريخية الثابتة أنه قد ظهرت بوادر اليقظة المصرية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، قبل قدوم الحملة الفرنسية الى مصر والشام . فقد بدأ المصريون يعملون على الخلاص من الحكم العثماني الناشم الذي حرم المصريين وسائر العرب من حقوقهم السياسية . هذا ، والحملة الفرنسية لم تتمكن في مصر الا نحو ثلاثة أعوام ، وهي فترة قصيرة لا تؤدي الى نتائج حيوية أو آثار عميقة في الثقافة والحضارة . وهذه الأعوام القليلة تعجز عن بناء شعور وطني وتنمية روح كفاح ونضال . بل كان هذا الشعور وهذه الروح قائمين وظاهرين ومنتعقين في كل أرجاء مصر . بل كافح المصريون هذا الاستعمار الفرنسي كما كافحوا بالأمس الاستعمار العثماني . وإن كانت قد ظهرت معالم نهضة حضارية أو ثقافية بعد جلاء الفرنسيين ، فإن هذه النهضة ليست نتيجة لقدوم الحملة الفرنسية ، بل هي من آثار اليقظة المصرية التي ظهرت بوادرها قبل قدوم الفرنسيين .

وتبدو هذه الحقائق واضحة ناصحة في الميثاق الخالد حين يقول : « ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هي التي حسنت اليقظة المصرية في ذلك الوقت » . كما يقول بعض المؤرخين - فإن الحملة الفرنسية حين جاءت الى

مصر وجلت الأزهر بموج بتيارات جديدة تتعلو جدرانها الى الحياة في مصر كلها ، كما وجلت أن الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المقنع باسم الخلافة ، والذي كان يفرض عليه دون مامبر حقيق تصادما بين الايمان الديني الاصيل في هذا الشعب وبين ارادة الحياة التي ترفض الاستبداد . ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك وتمردا مستمرا على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصري . .

وهكذا كان الأزهر منبعا للشعور الوطني المصري ، وقد رفض علماءه مساندة السلطان العثماني الذي أراد أن يسخر الدين في استمرار الحكم العثماني لمصر . وفي كل قرية في مصر كانت تضطرم الثورة في نفوس المصريين ، ووقف الفلاحون في وجه نظام الالتزام الظالم الذي فرضه العثمانيون .

تنظيم شعبي وزعامة شعبية :

اقتصرت التعليم في العهد العثماني على الأزهر الشريف وبعض الكتائب الصغيرة المنتشرة في مدن وقرى مصر . ولذا أصبح الأزهر هو المنار الوحيد للعلم والثقافة ، وهما أساس كل كفاح وطني ، ولذا حفل الأزهر بتيارات الوطنية ، وتمتعت هذه التيارات جدران الأزهر الى سائر عناصر الشعب المصري . وبدأ المصريون يعملون من أجل التحرر من الاحتلال العثماني ، ومظالم المماليك ، ويأملون في قيام حكومة مصرية وطنية ، تحكم مصر من أجل صالح المصريين .

وفي الوقت الذي تهب فيه المصريون للخلاص من الحكم العثماني ، قدمت الحملة الفرنسية الى مصر . وزعم الفرنسيون للسلطان أنهم إنما قدموا لتأديب المماليك الذين اعتدوا على التجار الفرنسيين في مصر ، ووعدهوا السلطان بأنهم سيعملون على إعادة سيطرته على مصر . وزعم الفرنسيون للمصريين أنهم قد قدموا لتحريرهم من الاحتلال العثماني الغاشم ، ومن استبداد المماليك ، وأنهم مبعوثو العناية الالهية للأخذ بيد المصريين لينهضوا ويتحرروا ويرتقوا .

والفرنسيون في كل هذه المزاعم يكذبون ويضالون ، فالحقيقة التاريخية التي اعترف بها جميع المؤرخين الأوروبيين أن الحملة الفرنسية على مصر والشام مشروع استعماري فرنسي ، نتيجة التنافس الاستعماري بين إنجلترا وفرنسا ، وقد بدأ هذا التنافس في المستعمرات الأمريكية والهند ، ثم امتد الى الشرق العربي . فقد رأى ساسة فرنسا أن خير طريقة للتغلب على إنجلترا هو هزيمتها في مستعمراتها الشرقية والقضاء على تجارتها بتحويل التجارة الشرقية الى خليج السويس والبحر المتوسط بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذي تسيطر عليه إنجلترا ، ولا يكون ذلك الا بتكوين امبراطورية شرقية تكون مصر قاعدتها ، تموض على فرنسا بعض ماقدته من المستعمرات .

لم ينعت الشعب المصري الى مزاعم الفرنسيين ، ولم يصدق منشوراتهم وما حوتها من وعود براءة ، ولم يتأثروا بكتابة هذه المنشورات باللغة العربية لأول مرة ، ولم يتخدع المصريون بؤلاء العلماء الذين صحبوا جيش الاحتلال الفرنسي ، فالعلم لا يأتى بالسيف ، والوطنية قبل كل نفع دنيوى .

وأعلن المصريون عداؤهم للفرنسيون منذ نزولهم على الاراضى المصرية فى الاسكندرية ، وبدأت عناصر الشعب المصرى تتجمع وتكتل ، لتنظيم جهودها من أجل الكفاح الشعبى . ويبحث المصريون عن زعيم وطنى يلتفون حوله ويسيروا خلفه فى كفاحهم ، فلم يختاروه من العثمانيين ، أو من بين المماليك ، ولكنهم اختاروا مصريا من بين أبناء الشعب ، وهو عمر مكرم .

وسيرة عمر مكرم صورة مشرقة لزعمائنا المصريين ، فقد ولد فى مدينة أسيوط ، تخرج من الأزهر الشريف ، وظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه ، واشتهر بين الناس بكرم النفس ودعائه الخلق وعلو الهمة وهدوء الطبع ، كما كان دائما عفا اللسان نزيه اليد ، مما أهله لتولى رئاسة نقابة الاشراف . وكانت روح الثورة الوطنية تضطرم فى نفس عمر مكرم ، حتى إذا قدم الفرنسيون ، نزل الى الشعب ودعاه الى الجهاد ، والتف حوله آلاف من المصريين ، وتزودوا بما وجدوه من

أسلحة خفيفة ، بل بالمعنى والمراوات والخنجر ، فقد كان شعورهم الوطني الجارف يوضحهم هذا النقص في السلاح والمتاد .

وهكذا نجح عمر مكرم في إيجاد تنظيم شعبي تأهب للدفاع عن الوطن ضد الفرنسيين . وفي نفس الوقت استعد المماليك بقيادة إبراهيم بك ومراد بك لقتال الجيش الفرنسي . ورأى التنظيم الشعبي المصري أن يتعاون مؤقتا مع المماليك ضد العدو المشترك ، فقد كان المماليك هم الطبقة الحاكمة ويملكون من الموارد المالية والأسلحة والمؤن ما يمكنهم من القتال . وإن كان المصريون يطمحون في الخلاص أيضا من حكم المماليك ، إلا أنهم رأوا أن يتفرغوا في هذه الظروف لقتال هؤلاء المستعمرين القادمين من أوروبا .

كفاح الشعب المصري في الصعيد والدلتا :

صمم الشعب المصري على كفاح الجيش الفرنسي وادغامه على الجلاء عن الوطن ، فقد اعتبر المصريون الحملة الفرنسية حلقة في سلسلة الاطماع الأوروبية الاستعمارية التي شهدتها مصر والعالم العربي والاسلامى خلال الحروب الصليبية ، فهي حروب استعمارية امتدت وراء الدين .

جاء في الميثاق : « وقبل أن ينزل ظلام الغزو العثماني على المنطقة بأسرها ، فإن شعب مصر قد تحمل ببسالة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها . كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية في صد أول موجات الاستعمار الأوروبي التي جاءت متسترة وراء صليب المسيح ، وهي أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم ، »

بدأ كفاح الشعب منذ اللحظة الأولى لتزول الفرنسيين على أرض مصر ، وواجه الجيش الفرنسي جيش المماليك توازره القوات الشعبية ، ولم تكن الحرب متكافئة ، فالفرنسيون يحاربون بأسلحة حديثة ، فهم حرب بين نتاج الحضارة الأوروبية الحديثة ، وبين بقايا الحضارة العثمانية الغاربة البائدة ، فقد عمل العثمانيون على إبعاد

المصريين عن الجيش ، وحرهم من التزود بالسلاح الذى يدافعون به عن وطنهم ، وكانت أسلحة الممالك عتيقة تمثل تراث القرون الوسطى . ولذا شق نابليون طريقه الى القاهرة ، ولكن سالت دماء فرنسية كثيرة ارتوت بها أرض الدلتا .

ولم يكن استيلاء نابليون على القاهرة يعنى سيطرته على القطر المصرى ، لأن مدن وقرى الوجهين البحرى والقبلى كانت تضطرم بالثورة . كما كان علماء الأزهر يعبثون قوى الشعب المصرى لبدأوا الجولة الثانية من الكفاح . وأدرك نابليون الحقيقة ، فهو يحكم عاصمة ثائرة ، ولا يحكم صعيد مصر ودلتاها . ولذا رأى أن يحاول إخضاع الثورة الشعبية فى الوجهين القبلى والبحرى . ورأى أن يعد الى قائده (ديزيه) بإخضاع الصعيد ليتفرغ هو لاختداد الثورات التى قامت بالوجه البحرى والقاهرة .

ولم تكن مهمة (ديزيه) سهلة يسيرة كما ظن ، ولم تنجح أسلحته الحديثة فى اختداد الروح الثورية المضطربة فى نفوس المصريين . فقد لاقى مقاومة شعبية جارفة ، تجلّت فى أول مدينة واجهته أثناء زحفه وهى مدينة الفيوم ، فقد خرج أهلها يقاومون مدافع الفرنسيين بما يحملون من بنادق قديمة وعصى ، وجعلوا من أجسادهم سدوداً تمنع زحف الفرنسيين ، ونجح (ديزيه) فى دخول الفيوم ، وظن أنه قد فاز بانتصار حاسم ، ولكن خاب ظنه ، فقد قام أهالى مدينة الفيوم بالثورة فى الثامن من نوفمبر سنة ١٧٩٨ . وكانت ثورة ملتبة ، جعلت ديزيه يبعث برسلة الى نابليون ، يطلب فى الحاح مده بالسلاح والعتاد ، حتى يواجهه عمليات المقاومة الشعبية . ونجح أهالى الفيوم فى إبادة عدد كبير من الجنود الفرنسيين .

واستمر (ديزيه) فى رحلة الموت ، يتنقل بين مدن الصعيد ويتناقص عدد جنده يوماً بعد يوم ، ويواجه المقاومة الشعبية فى كل قرية مصرية . ولم تنجح حملة ديزيه النجاح المأمول ، وعاد الجنود الفرنسيون من الصعيد يقصون على نابليون مآلاتهم من الأهالى طوال زحفهم الشاق .

وهذه هي شهادة شاهد منهم ، فقد كتب الجنرال الفرنسي (بليار) : « أثناء زحفنا وقفنا نستريح بجوار بلدة الفشن ، ووضع الجنود بنادقهم على مقربة منهم ، وفوجئوا بغيري لا يتجاوز اثني عشر عاما يخطف البنادق ويهرب بها ، وقد تمكن أحد الجنود من اللحاق به بعد أن أصابه بسيفه إصابة أعجزته ، ثم قاده والدم يترف منه الى الجنرال ديزيه الذي سأله عما ألجأه الى خطف البنادق فأجاب الصبي في شجاعة قائلا : لكي يستعملها أهلي في محاربتكم افعاد ديزيه وسأله عن المحرضين له على هذا العمل ، فنظر الصبي الى السماء وقال : أن الله الذي خلقنا والقادر على كل شيء هو الذي أمرنا بذلك . فتعجب ديزيه ومن معه ، وارتج عليهم ، وبدأ عليهم أنهم قاتلوه ، ولكن الصبي تقدم من ديزيه وصاح فيه بشجاعة نادرة : أيها القائد فيم انتظارك ؟ هذا رأسي أفصله عن جسدي بضربة من سيفك فاني لا أبالي فقد وهبها لوطني ١١ . وأعجب الحاضرون بشجاعة الصبي وسرعة بديته ، وعدل ديزيه عن اعدامه ٢ » .

ولاقى الفرنسيون في الوجه البحري مالا قوه في الوجه القبلي من مقاومة وكفاح شعبي ، وسالت دماء الفرنسيين أنهارا ، ولم ير الفرنسيون وسيلة لاشفاء غليلهم واخلفاء عجزهم سوى التشكيل بالمصريين ، وحرقت القرى ، وايداء المدنيين الآمنين ، فقد كتب القائد الفرنسي (مينو) الى نابليون في الثالث عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : « قت اليوم بحملة لمعاقبة السالمية بمركز فوه ، حيث قتل بعض الفرنسيين ، فأحرقت القرية ، وقتلت تسعة من الأهالي لمعاقبتهم وردعهم » .

الكفاح الشعبي في القاهرة :

شهدت مصر قبل قدوم الحملة الفرنسية يقظة وطنية ، وبدأ الشعب المصري يعي جهوده وينظم صفوفه . وأدرك نابليون هذه الحقيقة الواضحة ، ورأى أنه من الضروري لاستقرار الحكم الفرنسي من أن ينال ثقة الشعب المصري ورضاه . ولكن الشعب يسكره النفوذ الأجنبي في كل صورة وأصبح من الوعي والادراك بحيث يفتن الى أساليب الطامعين والمستعمرين : وبندل نابليون جهودا

كثيرة في سبيل استمالة علماء الأزهر ، وزعماء الشعب المصري ، وبذل العهود والوعود ، ولجأ أحيانا الى الوعيد والتهديد، ولكن هذه المحاولات كلها كان نصيبها الاخفاق التام ، فقد أصر الشعب المصري على المضي في طريق الحرية والاستقلال، وأصبح لا يقبل حلا وسطا .

ظن نابليون أنه إذا ولي المصريين المناصب الحكومية فإنه يكسب رضامهم ويقتنعهم بقبول حكم الفرنسيين ، فقال في منشور له : « ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا يأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء منهم سيدبرون الأمور ، وبذلك تصلح حال الأمة كلها . » وتنفيذا لهذه السياسة أنشأ ديوان القاهرة من العلماء ، وجعل لهم حق مناقشة المسائل العامة . وأراد نابليون أن يرضى أهالي أقاليم الوجهين البحري والقبلي ، حيث ثارت مقاومة شعبية عنيفة ، فأتبع نفس النظام في دواوين الأقاليم ، ولكنه الشعب المصري رأى أنه إنما استرد حقا شرعيا له كان منتصبا ، وأن الحكم ليس منحة من المستعمر الأجنبي ، وأن المناصب لن تلبسهم عن طلب الحرية والاستقلال .

وتظاهر نابليون باحترام الاسلام والتقاليد العربية ، وتقرب الى علماء الأزهر ، وأخفقت كل هذه الأساليب . وقامت ثورة القاهرة الأولى في ٢١ من أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت ثورة شعبية منظمة ، اشتركت فيها جميع عناصر الشعب ، على اختلاف أديانهم وأصولهم وحرفهم ، وتآلفت لجان المقاومة الشعبية من أجل تنظيم المتطوعين ، وتزعم الشعب عمر مكرم والشيخ السادات ، واتخذت الثورة الأزهر مركزا لها ، وحشد الفرنسيون قواتهم وأسلحتهم الحديثة للقضاء على هذه الثورة الشعبية الجارفة ، وسقط أكثر من مائتي ضابط وجندي فرنسي قتلا ، ومن بينهم قائد القوات الفرنسية في القاهرة ، وسلط نابليون مدافعه على المدينة عامة وعلى مواقع الثوار خاصة ، وإن كانت قد نجحت في قتل أرواح وطنية بريئة إلا أنها لم تقض على الشعور الوطني الملتهب في أعماق القلوب ، وحاول نابليون أن

يستميل اليه عمر مكرم الزعيم الشعبي المصري ، ولكن عمر مكرم كان قد باع
عرض الدنيا الزائل من أجل وطنه ومواطنيه .

وشعر نابليون باليأس ، وأدرك أن مهمته في مصر لم تكن كما توقع سهلة
ميسورة ، وأنه لن ينجح في تحقيق أطماع فرنسا في تكوين مستعمرة فرنسية
في مصر ، ولن ينجح هو في تحقيق أطماعه الشخصية في السلطة والمجد . ورأى نابليون
أن يسارع بالرحيل عن مصر إلى فرنسا ، حتى لا تلحق به هزيمة أخرى تفضي على
انتصاراته الرائعة التي شهدتها أوروبا . وعاد نابليون إلى وطنه ، تاركاً مصير
الحملة الفرنسية في يد كليبر ، أو في يد القدر .

وقامت القاهرة بثورتها الثانية في أواخر مارس سنة ١٨٠٠ ، وكان مركز
هذه الثورة هو حى بولاق ، الحى الشعبي الأصيل ، وقاد هذه الثورة زعماء
مخلصون منهم عمر مكرم ، والسيد أحمد المحزوقى ، والحاج مصطفى البشتيل ، وكان
البشتيل من كبار تجار بولاق ، وأنفق كل أمواله التي جمعها طوال حياته من التجارة
على الثورة ، ثم استشهد أثناء كفاحه . وأقام المصريون المدارس في الشوارع
والحارات وأنشأوا مملاً للبارود في حى الخرنفش ، وصنعوا آلات الحرب
بأيديهم وأقاموا مصنعا حريياً في حى بيت القاضى .

وعندما انتصر كليبر على الجيش التركى الذى كان يريد الاستيلاء على مصر ،
عاد إلى القاهرة لإخماد الثورة التي كانت قد بدأت منذ أسبوعين ، ولم يكن يعتقد أنها
إلى هذا الحد من الخطورة . ولكنه مرعان ما تغيرت نظرتة إليها ، بعد أن عجم
عودها فوجدما صلبة لا تلين ، شبانها يسابقهم الأطفال ، ولساؤهم في الصف
مع الرجال .

عاد كليبر إلى القاهرة ، فوجدما في أيدي الثوار المصريين ، ولم ير بدا من
حصار القاهرة ، وصب عليها سيلاً لا ينقطع من القنابل ليطحن جذوة الكفاح ،
ويخمد الثورة الشعبية . وكما بذل المصريون الأموال في سبيل الاستعداد للثورة ،

قد بذلوا الدماء ليوفروا لها أسباب النجاح . ولم تخمد قتابل الفرنسيين روح الوطنية ، ولجأ كبير إلى سلاح الغدر ، فقد رأى أن يقتل المصريين جوعاً ، وقد عجز عن قتلهم بمداخله ، فنع الأتوات عن القاهرة ، بما أدى إلى ارتفاع الأسعار . وصبر المصريون على الجوع ، فالوطنية زادم الأول ، بل أثار هذا الجوع مشاعر المصريين وأحب حاستهم ، فأقبلوا يهاجمون الفرنسيين المحتشدين على أطراف المدينة ، بينما عكف عمر مكرم والزعماء الآخرون على تنظيم عمليات التموين ، وحشد القوات ، وتنظيم المقاومة .

ولم ينجح كبير في استرداد القاهرة إلا بعد أن اتبع أساليب الغدر والخيانة ، وضرب أمثلة للوحشية والمهجة ، فأقام المذابح في الميادين ، وفرض الاتاوات والضرائب الباهظة على كل حي ، ولم تزد هذه الأساليب المصريين إلا حماسة وإصراراً على المقاومة . وقد أكدت الإحصاءات الرسمية الفرنسية أن الفرنسيين خسروا من الجند في شوارع القاهرة وبقاى مدن القطر المصرى ما يفوق كل خسائرهم في حروبهم ضد المالك والأتراك مجتمعين .

قام الأزهر الشريف بدور رئيسى فى إذكاء روح الثورة ، وفى قيادة المقاومة الشعبية . ومن بين جدران الأزهر العتيد ، ولدت فكرة الانتقام من كبير لقاء ما قام به من فظائع ، تبناها خمسة من الطلبة . ونفذها واحد منهم هو (سليمان الحلبي) الذى وفد من حلب وظل يدرس فى الأزهر أكثر من ثلاث سنوات متملة ، أفزعه وراعه خلالها ما اقترف كبير والفرنسيون من جرائم فى حق إخوته فى العروبة والإسلام ، فرأى أن يثار لهؤلاء الإخوة ، وفى الرابع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٠٠ تمسكن سليمان من الدخول إلى حديقة قصر الأوبكية حيث كان يقيم كبير ، وقتله بخنجره ، بعد أن اقتنى أثره ساعات طوالا . وعند ما قبض عليه ، رفض الاعتراف على باقى شركائه فى الحادث ، ولكن الفرنسيين عذبوه ، فأطلق لسانه مرغماً وباح بأسماء باقى شركائه ، فقبضوا عليهم ، وأعدموا جميعاً . واقتصر سليمان بأنه وطنى عربى (ابن عرب) ، لم ينفه إلى قتل كبير إلا عروبه

وقومته دون أى دافع أجنبي ، سواء أكان بريطانيا أو عثمانياً ، وكان الفرنسيون يظنون أنه قد حررته البريطانيون أو العثمانيون .

وفي متحف باريس الجنائي يرى المشاهد رأس السيد سليمان الحلبي وهي معنطة ، فوق لافتة مكتوب عليها (رأس قاتل) ، وإلى أقرح أن ننشئ بالقاهرة معرضاً نضع فيه نماذج لروس كل من أكرم في حق وطننا ، مثل كبير ، وتوفيق ، وسيمور ، وكتشز ، والنبى ، وفاروق ، ومايلز لامبسون ، وغيرهم من الخونة ، مع بيان موجز بما اقترفته كل حائن منهم ، حتى تذكر الأجيال القادمة خيانتهم . وانتصار الشعب المصرى عليهم .

وقد روى لنا الجبرتي فيما روى واقعة مقتل كبير فقال : « في ذلك اليوم وقعت واقعة عجيبة ، وهي أن سارى عسكر كبير كان مع كبير المهندسين يسيران داخل البستان الذى بداره في الازبكية ، فدخل عليه شخص حلي قصده — فأشار كبير إليه وقال له : (مافيش) وكررها فلم يرجع وأوممه أن له حاجة وهو مضطرب في قضائها فلما دنا منه مد إليه يده اليسرى كأنه يريد تهليل يده ، فد كبير يده فقبض سليمان عليها وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه ، وسقط إلى الأرض صارخاً فصاح زميله المهندس — فذهب إليه سليمان وضربه أيضاً ضربات ، وهرب — وسمع العسكر الذين خارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مدرعين فوجدوا كبير مطروحاً وبه بعض الرمح — ولم يجدوا القاتل ، فأنزعجوا وضربوا طلبهم وخرجوا مدرعين وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل ، واجتمع رؤسائهم وأرسلوا العساكر إلى الحصون والقلاع ، فأحاطوا بالبلدة وعمرؤا المدافع وقالوا لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم . ووقعت هوجة عظيمة وكرشة وشدة انزعاج وأكثر الناس لا يدري حقيقة الحال ، ولم يزالوا يفتشون عن القاتل ، حتى وجدوه منزوياً في البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح بجوار حائط متهدم فقبضوا عليه . »

وحاول خاف كبير ، وهو الجنرال ميتو أن يفوز برضاء المصريين ، ولكن

دون جدوى ، فهو يوما يتظاهر باهتاق الإسلام ، ويوما يتزوج من مصرية
مسلمة ، ولكن الشعب المصرى فطن إلى هذه الأساليب الخادعة ، ومنه فى طريق
الكفاح والنضال .

وشجعت المقاومة الشعبية فى مصر الإنجليز والعثمانيين على التدخل ، ولم يكونوا
يمهروا على التدخل لو كان الشعب المصرى قد هدأ وقبل الحكم الفرنسى . واضطر
الفرنسيون إلى الجلاء التام عن مصر ، والسبب الأول فى هذا الجلاء هو كفاح
الشعب المصرى ، وليس جهود الإنجليز أو العثمانيين ولو ركن المصريون إلى
الهدوء والسلام فى الداخل ، لتفرغ الفرنسيون لقتال أعدائهم الخارجيين ، وربما
نجحوا فى صدم ، ولكن الفرنسيين كانوا يعانون من المقاومة الشعبية التى أقلت
مضاجعهم ، وأثارت المتاعب والفلاقل دائماً أمامهم ، ولذا كان عمر الحملة الفرنسية
فى مصر قصيراً ومات المشروع الاستعمارى الفرنسى وهو فى المهد ، وكان السحاب
الفرنسيين تتويها لجهود المصريين وكفاحهم الشعبى .

٢ — الشعب المصرى يكافح استبداد محمد على

مرحلة جديدة من الكفاح الشعبى :

اضطر الفرنسيون إلى الجلاء التام النهاى عن مصر ، بعد أن عجزوا تماماً عن إخماد روح الثورة الشعبية المصرية ، وبعد أن ذافوا الأمرين من كفاح المصريين ونضالهم . وبدأ كفاح الشعب المصرى يدخل فى دور جديد متميز .

شهد المصريون تنافس القوى الأجنبية حول السيادة على وطنهم ، فقد حاول كل من العثمانيين والفرنسيين والإنجليز والماليك بسط نفوذهم على مصر . ولكن الشعب المصرى عقد العزم على ألا يسمح لأى جماعة من هذه الجماعات أن تطلأ أرضه أو تحتل شبراً منه ، وأصر على أن يكون تقرير مصيره بيده ، فتصبح مصر للمصريين ، وأن يقطف هو ثمار جهوده وكفاحه الباسل . وأخذ العامل القوى فى الظهور واضحاً جلياً على مسرح السياسة فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ورأى المصريون أن يتحرروا تماماً من الحكم العثماني ، وأن يضعوا نهاية لاستبداد الماليك بشئون مصر ، وبدأ الشعب المصرى بزعامة عمر مكرم يعمل على تنفيذ هذه السياسة الوطنية .

واتخذت هذه السياسة الشعبية المصرية الجديدة صوراً إيجابية عديدة ، فأعلن المصريون عدم رضاهم عن بقاء الجيوش البريطانية فى الأراضى المصرية ، وكانت هذه الجيوش قد تراكمت فى الانسحاب بعد جلاء الفرنسيين . وعندما أعلن الجنود الألبانيون بزعامة طاهر باشا تمردهم على الوالى التركى خسرو باشا واضطروه إلى الفرار إلى دمياط ، اجتمع شيوخ الأزهر والعلماء فى ٦ مايو سنة ١٨٠٣ فى بيت القاضى لبحث الأمر ، وأفروا طاهر باشا قائماً إلى أن يوافق السلطان على ولايته أو يعين والياً آخر . وأعلنوا طاهر باشا بذلك ، وطلبوا منه رفع المظالم التى وقعت بالشعب المصرى . وبذلك أصبحت بمقاييد الحكم فى يد الشعب .

واستمر الشعب المصرى صاحب السلطة الحقيقية . فنسبنا وقع اختيار

الانكشارية بعد مقتل طاهر باشا على أحمد باشا والى المدينة ، وكان موجوداً
حيث بالقاهرة ، تقرب أحمد باشا من العلماء والوعماء المصريين ، ولكنهم رأوا
أن أحمد باشا غير جدير بحكم مصر ، بل رأوا ضرورة خروجه هو والجند
الانكشارية من مصر ، وساءلوا محمد علي في طرد جميعاً من مصر في مايو
سنة ١٨٠٣ .

وتحالف محمد علي مع المماليك وتولوا الحكم قرابة عام ، حفل بالمظالم ، وعانى
الشعب المصري من الضرائب الباهظة وارتفاع الأسعار واعتداء المماليك على
ممتلكات المصريين . وامتنع المصريون عن دفع هذه الضرائب ، واحتشدوا في
شوارع القاهرة ، واحتجوا على حكم المماليك ، واتجهوا إلى الأزهر حيث التقوا
بشيوخه وطلبوا منهم الاحتجاج لدى المماليك . وأدرك محمد علي قوة الشعب المصري ،
فانقلب على حلفائه المماليك ، وانضم إلى صفوف العلماء وشيوخ الأزهر ، وتهدد
لهم بالعمل على إلغاء هذه الضرائب ، وأنزل جنوده إلى شوارع القاهرة ،
وأوصاهم بمعاملة الشعب معاملة طيبة . وحاول المماليك مقاومة الشعب وفرض
إرادتهم وحكمهم عليه ، ولكن الشعب تحالف مع الجند الألبانيين واضطر المماليك
إلى الفرار إلى الصعيد .

الشعب المصري يول محمد علي :

أدرك محمد علي أنه لن يستطيع تحقيق أطماعه وآماله إلا إذا اعتمد على نيله
ثقة الشعب المصري به ، وقد حاول كما رأينا الاعتماد على المماليك ، فلم تفلاح المحاولة ،
فقد أصبح الشعب المصري قوة عظيمة تقبض يديها على أزمة الأمور ، وتمسك
ببذمة الحكم والسياسة . فأخذ محمد علي يتقرب إلى العلماء والوعماء ، ويتظاهر أمامهم
بأنه رجل يحب العدل ، ويكره الظلم ، ويؤثر مصلحة الشعب المصري .

أصبحت قوة الشعب المصري حقيقة واقعة ، وقد لمسها خورشيد باشا حينما عينه
السلطان العثماني والياً على مصر ، ورأى خورشيد أن يتخلص من محمد علي صديق

المصريين ، وهو لا يستطيع بطبيعة الحال الخلاص من الشعب المصرى . فاستصدر خورشيد من الأستانة فرماناً بعودة الألبانيين ورؤسائهم من مصر . وتظاهر محمد على لخورشيد بقبول الأوامر ، ولكنه لجأ إلى العلماء وزعماء الشعب ، واستنجد بهم ، طالباً معاونتهم له على البقاء فى مصر ، واضطربت القاهرة ، وأقفلت الأسواق احتجاجاً على ذلك . واضطر السلطان وخورشيد على النزول على رأى الشعب المصرى .

ولكن خورشيد أدرك أنه لن يستطيع ممارسة سلطاته كاملة طالما هذا المنافس ، أى محمد على مقيماً فى مصر ، يسانده الشعب المصرى ، فلجأ إلى وسيلة أخرى ، فطلب من الحكومة العثمانية أن تمدّه بقوات جديدة يدلاً من القوات الألبانية التى تدين بالطاعة لمحمد على ، فأرسلت له جيشاً من الولاة وعاش هؤلاء الجند فى مصر فساداً ، وارتفعت أصوات الشعب بالاحتجاج ، وعجلت هذه الأحداث بقيام ثورة الشعب ضد هذا الوالى ونظام الحكم القائم .

وانتشر لهيب ثورة الشعب المصرى فى كل أرجاء القاهرة ، احتجاجاً على تمسك خورشيد هؤلاء الجنود وتأييدهم لمظالمهم وحمايتهم لهم . ورفض العلماء والزعماء ، وعلى رأسهم عمر مكرم ، أن يتدخلوا لإيقاف الثورة ، وحددوا موعداً يجلى فيه خورشيد هؤلاء الجنود عن القاهرة ، وتظاهر محمد على بأنه مع هؤلاء الزعماء فى موقفهم من خورشيد . حتى إذ علمت أن الأجل المحدد ، اجتمع زعماء الشعب ، وانجمهوا إلى دار المحكمة الكبرى يحيط بهم جموع الشعب المصرى ، يرددون الهتافات المعادية للوالى والعثمانيين .

اجتمع زعماء الشعب فى ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ بدار المحكمة وحرر الزعماء مطالبهم ، فطالبوا بالافتراض ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وأعيان الشعب ، وأن تجلو الجنود عن القاهرة ، وتنتقل حامية القاهرة إلى الجيزة . ورفض خورشيد مطالب الشعب . فاجتمع الزعماء فى اليوم التالى بدار المحكمة ، واحتشدت جماهير الشعب خارجها ، وقرروا عزل خورشيد وتولية محمد على . وانجمه زعماء

الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم إلى دار محمد علي ليعلنوه بقراراتهم . وألبسه عمر مكرم والشيخ الشرفاوى خلعاً الولاية .

وهكذا قام زعماء الشعب المصري بتولية محمد علي الحكم ، واشترطوا عليه سيره بالعدل ، وإقامة الأحكام والشرائع ، والكف عن المظالم ، وألا يفعل شيئاً إلا بمشورة العلماء ، وأنه متى ساد عن هذه الشروط عزله عن الحكم . وأصبح يوم ١٣ من مايو سنة ١٨٠٥ عيداً من أعياد مصر القومية ، فقد أصبح الشعب المصري من القوة بحيث يختار من يراه الحكم ، فيولية على شروط يشرطها عليه ، وعلى قواعد يرسمها له ، ولم يعد السلطان العثماني هو الذي يعين الولاة ، ولذا يمكن اعتبار هذا اليوم ، هو اليوم الذي أعلن فيه المصريون استقلالهم عن الحكم العثماني البغيض وانتصر المصريون بما يحملونه من عصي ومراوات ، على جيوش السلطان التي تحمل البنادق والمدافع ، فقد أحالت الروح الوطنية هذه العصي والمراوات إلى أسلحة جبارة ساحقة .

الشعب يكافح استبداد محمد علي :

لم يصل محمد علي إلى الحكم إلا على أكتاف الشعب المصري ، وقد تظاهر بالخنوع والخضوع ، وتقرب إلى العلماء والزعماء ، بما جعلهم يولونه حكم البلاد . ولم ينخل زعماء الشعب على محمد علي بتأييدهم ، فكانوا يقدمون له الأموال والهبات تباعاً ، وأعانوه على أعدائه حتى ثبت أقدامه في حكم البلاد . وكان محمد علي طوال صراعه مع أعدائه يحرص على استمالة زعماء الشعب ويشيد بفضيلهم عليه ، ويعمل بمشورتهم ، وينفذ الشروط التي شرطها على نفسه .

ولكن محمد علي كان (ينسكن) حتى (يتمكن) ، لما كاد يتخلص من أعدائه ومنافسيه حتى ظهر على حقيقته المارية ، فقد كانت نفسه المنطوية على الاستبداد تنفر في قراراتها من هذه السلطة الشعبية ، وتنتظر اليوم الذي تثبت فيه أقدامه فيعمل على التخلص من زعماء الشعب ، وشجع محمد علي على الإقدام على هذه الخطوة

الجريئة ما لمسه من تناقض بعض العلماء وتفرق كلمتهم ، وقد صور المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي هؤلاء الثغر من العلماء فقال عنهم أنهم « صار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية ، وذلك زيادة عما هو بينهم من التناظر والتحامد والتعاقد على الرياسة والتكالب على سنافس الأمور » . أما عمر مكرم ونفر آخر من الزعماء المخلصين ، فقد ظلوا عنواناً للكفاح الشعبي والإخلاص لمصالح الشعب المصري .

وبدأ محمد علي ينفذ سياسته في الخلاص من الرعامسة الشعبية عند ما حاول الإنجليز غزو مصر في سنة ١٨٠٧ ، فقد طلب عمر مكرم تمجيد الشعب المصري لصدا الإنجليز ، ورفض محمد علي هذا الاقتراح ، فهو يرمي إلى تكوين جيش مصري يهدد سلطانه ، ويمكن أن يكون بعد جلاء الإنجليز سلاحاً يشهره الشعب المصري في وجهه . وقال محمد علي أنه يكفي الشعب أن يدفع الضرائب ، على أن يتولى هو المسائل العسكرية ١١

واستمر محمد علي في هذه السياسة المعادية للصالح الشعبية ، ورواته فرصة أخرى في سنة ١٨٠٩ حينما احتاج إلى مزيد من الأموال ، فلبأ إلى فرض الضرائب الباهظة التي أثقلت كواهل الشعب المصري ، فارتفعت أصوات الاحتجاج ، ولجأ المصريون كما دأبتهم إلى الأزمهر ، فاجتمع المشايخ والعلماء ، وتعاهدوا ، وأقسموا على الاتحاد وبذ الفرقة والخلاف ، وكتبوا إلى محمد علي يطالبونه برفع المظالم والاستجابة لرغبات الشعب .

ورأى محمد علي أن يلجأ إلى سياسة (فرق تسد) ، فطلب الاجتماع بزعماء الشعب ليفاوضهم في الأمر . ورفض عمر مكرم مبدأ المفاوضة ، واشترط قبل التفاوض أن يصدر محمد علي بياناً رسمياً ، يعد فيه الشعب بأن يشركه في حكم بلاده ، وأن يحكم محمد علي بمشورة هذا الشعب ، وألا يفرض ضرائب جديدة إلا بعد الرجوع إليه باعتباره مصدر السلطات .

ونجح محمد علي بأساليب الترغيب والترهيب أن يستميل إليه بعض العلماء ،

ولكن عمر مكرم تمكن بمبادته وإخلاصه للشعب ، وحاول محمد علي أن يستميله إليه ، ولكن دون جدوى ، وطلب أن يلتقى به ، فأجاب عمر مكرم بأن الوالى إذا أراد لقاءه فليكن ذلك فى بيت السادات . حتى إذا اطمأن محمد علي أنه استمال إليه معظم العلماء والمشايخ ، نفى عمر مكرم إلى دمياط ، ووزع وظائفه على هؤلاء المشايخ ومنها نقابة الأشراف ونظارة أوقاف الإمام الشافعى . وظن محمد علي أنه قد حطم الزعامة الشعبية ، لينفرد بالحكم ، فيحكم حكما مطلقا مستبدأ ، ولكن الفناء يلحق بالظفارة ، والشعوب خالدة باقية عبر الأجيال .

صّور الميثاق هذه الأحداث تصويراً رائئاً ، فقد أوضح كيف كانت اليقظة الشعبية التى دفعت بمحمد علي إلى الحكم ، وبين كيف كان موقف محمد علي من الحركة الشعبية سلباً لنكسة شعبية أضرت بالمصالح المصرية ، وعقد الميثاق مقارنة رائدة بين أحوال كل من مصر واليابان فى تلك الفترة فقال :

« ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية هى القوة المدافعة وراء عهد محمد علي . وإذا كان هنا شبه إجماع على أن محمد علي هو مؤسس الدولة الحديثة فى مصر ، فإن المأساة فى هذا العهد هى أن محمد علي لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر إلا بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه . ولقد ساق مصر وراءه إلى مغامرات عظيمة استهدفت مصالح الفرد متجاهلة بمصالح الشعب . »

« إن اليابان الحديثة بدأت تقدمها فى نفس هذا الوقت الذى بدأت فيه حركة اليقظة المصرية وبينما استطاع التقدم اليابانى أن يعضى ثابت الخطى ، فإن المغامرات الفردية عرقلت حركة اليقظة المصرية وأصابها بنكسة ألحقت بها أضراراً . »

٣ - الكفاح الشعبى للانجليز فى رشيد

حكم محمد على نكسة للاح الشعبى :

شهدنا كفاح الشعب المصرى الحملة الفرنسية ، مما جعل عمر هذه الحملة قصيراً محدوداً ، وكان هذا الكفاح هو العامل الاول والاخير لإخفاق هذه الحملة وما وراءها من أطماع وأحلام استعمارية . وجنى الشعب المصرى ثمار كفاحه ، إذ أصبح صاحب السيادة الحقيقية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ورأينا الشعب يولى محمد على الحكم ، ولكن هذا الحاكم المستبد تنكر للزمامة الشعبية وحاول الخلاص منها ، وأصبح حكم محمد على يمثل نكسة للكفاح الشعبى . وأدت هذه النكسة إلى عودة الأطماع الأجنبية من جديد ، وكان الإنجليز هم الطامعين فى هذه المرة ، وظهرت أطماعهم واضحة فى حملة فريزر .

صّور الميثاق هذه النكسة وما جرته على مصر من تدخل أجنبى فقال : « إن هذه النكسة فتحت الباب للتدخل الأجنبى فى مصر على مصراعيه ، بينما كان الشعب قبلاً قد رد بهائم ونجاح محاولات غزو متوالية كانت أقربها فى ذلك الوقت حملة فريزر ضد رشيد . ومن سوء الحظ أن النكسة وقعت فى مرحلة هامة من مراحل تطور الاستعمار . فإن الاستعمار كان قد تطور فى ذلك الوقت من مجرد احتلال المستعمرات ، واستنزاف مواردها إلى مرحلة الاحتكارات المالية لاستثمار رؤوس الأموال المنهوبة من المستعمرات . »

لفتت الحملة الفرنسية أنظار الإنجليز إلى مصر ، وإلى موقعها الإستراتيجى الممتاز ، وطمعت انجلترا بعد جلاء الفرنسيين فى تثبيت أقدامها فى مصر استكمالاً لسيادتها فى البحار ، وضماناً لسيطرتها على الطرق المؤدية إلى الهند . ولذا تطلعات فى الجلاء عن مصر مدعية أنها لن تترك البلاد إلا بعد استتباب الأمن فى القطر المصرى . وعمت انجلترا فى الوقت نفسه على التحالف مع الممالك فى مصر ، ليكونوا عملاء سياسيين لهم يعملون على تنفيذ سياستها وأطماعها ، إذا عجزت عن

الاحتفاظ بجيوشها في مصر ، ورحب المماليك بهذا التحالف مع الإنجليز ، فقد كان ظهور الزعامة المصرية يهدد سلطان المماليك بالأخطار .

تمهت إنجلترا لفرنسا في صلاح أميان في مارس سنة ١٨٠٢ بالجللاء عن مصر ، ولكنها ما عادت في تنفيذ هذا التعمد ، مما اضطر نابليون وتركيا إلى إخراج القوات الإنجليزية سنة ١٨٠٢ ، وصحب الجيش الإنجليزي في دعوته محمد بك الالني أحد زعماء المماليك للتفاوض في تحالف الإنجليز والمماليك . ولم ينجح هذا التحالف ، فقد عاد الالني ، فوجد الشعب المصري مسيطراً على السلطة ، وقد تأهب لتولية محمد علي .

ولم يبد الإنجليز ارتياحاً لتولية محمد علي الذي كان في نظرهم يمثل السيادة المصرية ، وطلبوا من السلطان العثماني عزله ، وتولية وال آخر يتيح الفرصة لحلفائهم المماليك بممارسة سلطتهم القديمة وأخفق الإنجليز في سياستهم سنة ١٨٠٦ ، وما لبثت أن توترت العلاقات بين إنجلترا وتركيا ، ورأت إنجلترا أن تنتهز هذه الفرصة للاستيلاء على مصر ، فأرسلت إليها حملة فريزر ، فزلات الإسكندرية في ٢١ مارس سنة ١٨٠٧ ، وسلم المحافظ التركي أمين أغا المدينة للإنجليز . وكانت الحملة تتألف من حوالي ستة آلاف مقاتل ، فقد اكتفت إنجلترا بهذا العدد القليل ، إذ اعتمدت على قوات المماليك بزعامة الالني ، ولكن خابت آمالهم ، إذ مات الالني قبيل وصول الحملة الإنجليزية إلى مصر .

الشعب يواجه الإنجليز في رشيد :

كان محمد علي يحاول القضاء على المماليك في الصعيد قبل التفرغ لمحاربة الإنجليز الذين توصلوا إلى رشوة حاكم الإسكندرية التركي أمين أغا ليسلمهم المدينة نظير مبلغ كبير من المال ونزل الإنجليز بساحل المعجمي ، واستولوا على ميناء أبي قير ، وما لبثوا أن دخلوا الإسكندرية واحتلوها واستقبلت البلاد هذه الأنباء بالغضب والجزع . ولكن المصريين قرروا أن يقفوا صفاً واحداً وتعاهدوا على القضاء على

الإنجليز ، الذين رأوا بعد احتلالهم للإسكندرية أن يتخذوا من بلدة رشيد قاعدة لهم في زحفهم الطويل داخل البلاد ولذلك قرروا احتلالها . وفي ٢٩ من مارس سنة ١٨٠٧ تقدم الجنرال ويكوب بأمر من الجنرال فريزر^(١) إلى بلدة رشيد ومعه ألفا من الجنود للاستيلاء عليها ، وكان يتولى شتون رشيد رجل وطني هو على بك السلاتكي ولم يكن معه سوى ستمائة جندي فلم يجد بداً من اللجوء إلى شعب رشيد يطلب منه العون .

وكان الشعب عند حسن ظنه ، بل أنه كان قد وطد نفسه على لقاء الإنجليز وعزم على عدم تسليم مدينة رشيد كما سلمت الإسكندرية ، إلا بعد أن تصبح ألقاضاً وعلى جثث أهلها . ولما اطمأن محافظ المدينة إلى حسن إدراك الأهالي ووعيم الوطني أمر بإبعاد القوارب والمراكب من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي ليؤكد لرجالها بأن لا سبيل إلى التفكر ، وأنه لم يبق عليهم إلا مقاتلة الإنجليز وجهاً لوجه ومحاربتهم . ووضعت خطة المقاومة على أساس أن تحصن الأهالي مع الجنود الستمائة بأسلحتهم في المنازل على أن يكونوا على أهبة الاستعداد لقتال عند أول إشارة تصدر إليهم . وبذلك خلت الحامية من الجند وخيم السكون على رشيد وبنت المدينة وكان أهلها قد هاجروا منها . وعندما تقدم الجنرال ويكوب على رأس جيشه وشاهد هذا السكون خيل إليه أن المصريين ولوا قارين خوفاً من لقائه ، وأن المدينة قد سقطت بين يديه ، ودخل الإنجليز رشيد مطمئنين ، وانتشروا في الشوارع والطرقات وبدأوا يحشون عن مأوى يلجئون به ليستريحوا من عناء السفر ، وألقوا رحلهم مطمئنين ليقضوا ليلتهم .، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى صدرت إشارة البدء في الكفاح ، فاستيقظت المدينة النائمة وفتحت النوافذ والأبواب المغلقة وانهار الرصاص على الإنجليز كالطرر . وتسانط الجنود الغزاة الذين أذهلتهم المفاجأة وولى من بقى منهم على قيد الحياة فراراً من هول الرعب الذي جثم عليهم وفرروا طالبين النجاة من هذا الجحيم الذي فتح قاه على حين

(١) قائد الحملة .

فجأة . وعلى الرغم من هروب الكثير من الإنجليز فقد قتل الوطنيون ما يزيد على ١٧٠ قتيلًا كما جرح ٢٥٠ وأمروا ١٢٠ أسيرًا وكان البجترال ويكوب قائد الحملة على رأس من قتلوا .

وهكذا انتصرت المقاومة الشعبية التي نظمها أهالي رشيد ضد جنود بريطانيا المسلحة المدربين على الحروب النظامية . وكان لهذا الانتصار أثر بالغ في جميع أنحاء البلاد ، ورتة فرح تجاوبت أرجاء مصر ، فلبست الإسكندرية لباس الفرحة وسعد أبنائها لهذا الانتصار الذي عوضهم عن بعض ما هم فيه من ذل الاحتلال . وأما دمنهور فقد عادت إليها ثقتها بنفسها ورجع جنود حاميتها الذين هربوا منها عند ما علموا باحتلال الإنجليز للإسكندرية واستعدوا للقائهم إذا ما سوات لهم أنفسهم التوغل في البلاد ، أليسوا أكثر عدداً وعدة من حامية رشيد ؟ كما أن عدد أهاليها يجاوز ضعف عدد أهالي رشيد أما صدى الانتصار في مصر فقد فاق كل حد فالبشر على كل ثغر ، والنيطة تمثلا كل قلب ، ورفع انتصار شعب رشيد من الروح المعنوية الأهالي وحجب إليهم الكفاح . في سبيل الوطن ، وثبت إيمانهم بالجهاد لنصرة الحق . حتى أن الأهالي خرجوا من منازلهم يطالبون بالتطوع لمحاربة الإنجليز بنفس راضية وحاس بالغ عارضين أرواحهم وأموالهم فداء للوطن .

وقد بلغ حماس أهالي القاهرة مداه عند ما شاهدوا أمرى بريطانيا وقتل المفركة في المركب الكبير الذي سار في شوارع القاهرة ويقول الجبرتي في ذلك :

« فلما كان يوم الأحد السادس والعشرين من محرم ١٢٢٢ هجرية شاع وصول رؤوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فخرج الناس إلى الذهاب للفرجة ، ووصل الكثيرون منهم ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومنهم طوائفهم — وتطلّموا إلى البر وصحبته جماعة العسكر المسكرين معهم وأتوا بهم من خارج مصر ، ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم وسط المدينة ومنهم فسيال ضابط كبير

السن ، وهو راكب حاراً والبقية مشاة في وسط العسكر ، ورؤوس القتلى معهم على نيايت وعدتها أربعة عشر رأساً والأحياء خمسة وعشرون ، ولا يزالون سائرين بهم إلى بركة الأزيكية ، وضربوا عند وصولهم سنكا ومدافع وطاقوا بالأحياء وهم في سبيلهم إلى القلعة .

وفي يوم الإثنين وصل أيضاً حلة من الرؤوس والأسرى إلى بولاق فطاموا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأساً وثلاثة عشر أسيراً ومنهم جرحى ، هكذا أعطت رشيد درساً لجميع البلدان في الوطنية والكفاح . وكانت الصدمة شديدة الوقع على قادة الجيش البريطانى . ولما تواترت الأنباء بهزيمة بعثة فريزر على رشيد وقتل قائدها ويكوب ومن معه من الضباط والجنود وفرار باقى الجيش ، حزن فريزر حزناً شديداً وقال لمن حوله من كبار الضباط : « إنها معركة غير متوقعة وكارثة فادحة حلت بقواتنا » .

وكان انتصار الوطنيين في رشيد بمثابة الشرارة التى أشعلت الشعور الوطنى في كل بلد وفي كل بيت ، وشعر الوطنيون بمزيد من الثقة ، وعمر قلوبهم إيمان عميق ورغبة جياشة إلى لقاء فاصل مع الإنجليز وهو اللقاء المرتقب ، ذلك لأن بريطانيا وقد آلمتها الهزيمة أرادت أن — تمحوها بنصر يثبت أقدامها وينتقم لجنودها ولكنها كانت بذلك كالنعامة التى ذهبت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين !

حملة الانتقام أو الدرس الثاني لرشيد

كانت مصر تعلم عن يقين أن بريطانيا لن تسكت على هذه الهزيمة النكراء التي حاقّت بها على يد الوطنيين في رشيد ، ولذلك فقد أخذ الشعب يستعد ، وهب العلماء والشيوخ في القاهرة بزعامة السيد عمر مكرم يدعو طوائف الشعب للتطوع لكفاح الإنجليز وموازرة شعب رشيد وبدأوا في تحصين مدينة القاهرة ، فحفروا الخنادق وأقاموا المتاريس ووزعوا السلاح على القادرين من الأهالي ، لا فرق بين مسلم ومسيحي ولا فبطى فالجميع في حالة جهاد للدفاع عن وطن واحد .

يقول الجبرتي : « وفي يوم الأربعاء ٢٩ من المحرم ركب السيد عمر النقيب والقاضي والاعيان (الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وكتخدا بك وحسن باشا والمدفردار وفي صحبتهم قنصل النمساوية وفي صحبتهم أيضا الجمل الكثير من الناس والأتباع والكل بالأسلحة وشرعوا في حفر الخنادق على مياسير الناس ، وكذلك أهل بولاق والعماري والأروام والشوام والأقباط واشتروا المقاطف والقفص والفؤوس وآلات الحفر ، وشرعوا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبئية . »

ولما انتهى المصريون من تحصين القاهرة شرعوا في إرسال المتطوعين إلى رشيد لموازرة أهلها .

وكان الإنجليز في ذلك الوقت قد أعدوا حملة الانتقام بقيادة الجنرال ستوارت على رأس جيش قوامه ٤٠٠٠ جندي مسلحين بأحدث الأسلحة وخرجت الحملة من الإسكندرية في الثالث من أبريل سنة ١٨٠٧ ، ولما وصلت إلى مشارق رشيد احتلت كتيبة منها بلدة الحماد التي تقع بين أدكو وبين النيل وجنوب رشيد سعيًا وراء تطويق رشيد لمنع وصول الإمدادات إليها من الجنوب . كما احتلت كتيبة أخرى هضبة أبي مندور وأقاموا عليها المدافع وأما باقي الجيش فانتشر حول رشيد من الغرب والجنوب ، ولما أتموا حصارها بدءوا في ٧ أبريل في ضربها بقنايل

مدافعهم ، وكان الانجليز يعتقدون أن رشيد ستينل لهم وأنها لن تصمد لوابل قنابلهم ، خاصة وأنها أصبحت مكشوفة أمامهم بعد أن طوقوها من كل جانب ولكن رشيد صمدت ولم تستسلم وصبرت رغم تهمد الكثير من المنازل وسقوط العديد من الضحايا بين قتلى وجرحى . وقد انزعج الانجليز أمام هذه المقاومة الرائعة . وتحيروا في سر استبسال الوطنيين الذين أصبحوا في عزلة تامة عن باقي المدن ولم يعد أمامهم سوى الاستشهاد تحت الجدران التي كانت تنهار من أثر قصف المباني بالمدافع ، وقد بدت دهشة الانجليز واضحة في الكتاب الذي أرسله الجنرال ستوارت قائد الحملة الى فريزر في الاسكتندرية يقول فيه : تبين لنا أن الأعداء لا يكثرثون بالمصائب التي تنزل بهم . وأن قواتهم لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان و ٨٠٠ من الارناؤط وألف من الأهالي المسلحين ، ولكنه نظرا لسمة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم أرى من الحكمة أن أنعجل باقتحام المدينة وأن نجاحتنا متماثلة على نجدة الممالك فإذا جاءوا إلينا أمكننا أن نرسل الى البر الشرقى من النيل قوة تشترك معنا في القتال أما الآن فيستحيل علينا ذلك لأن العدو متفوق علينا في قوة فرسانه وليس لدينا مثل هذه القوة التي لها عمل كبير في الجهات المنبسطة كإدلتنا ، وفي انتظار تلك النجدة تبين لنا أهمية موقفنا في الحماة فانا نتوقع أن يهاجمنا الأعداء فيها وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها في يدنا .

وكان أهل رشيد في صمودهم المعجيب لقوات الغزو تنتظر النجدة من مصر هي الأخرى وأرسل السيد نقيب الأشراف برشيد رسالة الى السيد عمر مكرم يستعنه فيها على إرسال الرجال والعتاد استعدادا للمعركة الفاصلة . ولم يكن السيد عمر مكرم في حاجة الى رسالة نقيب الأشراف برشيد لأنه منذ أن تحركت حملة ستوارت وهو دائم الحركة لا يهدأ له قرار فقرأه بخطب في الجماهير يحضهم على التطوع لمحاربة العدو ثم يعقد الاجتماعات لأعيان البلاد ليحثهم على التبرع بالمال . وأخيرا تجده بين العمال والأهالي الذين يحفرون الخنادق ويقيمون الاستحكامات وقد لبى نداء السيد عمر مكرم كثير من الأهالي والوطنيين الذين سافروا على الفور الى رشيد ، وفي ذلك الوقت عاد محمد علي من الصعيد وكان يطارد الممالك هناك

لمجابهة الموقف في مصر . ورأى أن لا يترك الشعب في رشيد يكافح بمفرده —
قوات الغزو واجتمع مع العلماء وقادة الشعب وقرروا ارسال جزء من الجيش
لموازة الوطنيين هناك . وكانت الحملة ينقصها المال وعلى الفور تبرع أهالي القاهرة
بسمائة كيس من النقود لتغطية نفقات الحملة وانضم الجيش الى رجال المقاومة في
رشيد الذين ظلوا يقاومون الانجليز وحدهم ما يقرب من أسبوعين وبوصول
التجديدات ارتفعت معنوية الشعب وزادت حماسه وقويت شكيمته وأسرع للقاء
الانجليز وكان أول لقاء بينهما في قرية أبي حماد التي كان يحتلها الانجليز لاهميتها الحربية،
اذ كانت تقع في برزج بين النيل وبحيرة أدكو . وفي ٢٠ أبريل سنة ١٨٠٧
دارت المعركة للاستيلاء على هذه القرية ذات الموقع الهام وطرد الانجليز —
الذين أرسلوا في ٢١ أبريل قوة كبيرة لتعزيز حامية قرية أبي حماد ولكن المصريين
المتعطشين للانتقام باغتها وأحاطوا بها من كل جهة ، وحمى وطيس المعركة
ورجعت كفة المصريين، وسقط الانجليز وتهاوت الرؤوس الحراء تحت الأقدام،
واستسلم بعضهم وهرب البعض الآخر . وتعقب المصريون قتل حملة فريزر في
السهول والوديان حتى كتب لهم النصر بعد أن قتلوا من الانجليز ما يزيد على ٤٥٠
قتيلا ، وأسروا أكثر من ٤٠٠ جندي وضابط من جنود الامبراطورية ولما علم
الجنرال ستوارت بنتيجة المعركة وما أصاب جيشه من هزيمة قرر الانسحاب من
رشيد ، فأطلقت مدافعه ومعداته وقفل راجعا الى الاسكندرية يجر أذيال الخيبة
والخذلان . وعلى الرغم من تكتم الانجليز لأمر انسحابهم فإن المصريين عرفوا
به وتعقبهم أثناء انسحابهم وظلوا يطلقون عليهم النار طوال طريق انسحابهم الذليل
وانتقلت أنباء انتصار الوطنيين في رشيد الى جميع الأرجاء . واحتفلت مصر رسميا
بهذا اليوم فاكادت شمس يوم ١٣ أبريل تبرز حتى دوت طلقات المدافع في الأفق
تعلن فرحتها بهذا الانتصار الكبير ويقول — الجبرتي في هذا : « في يوم الخميس
حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الانجليز وهزيمتهم ، وذلك أنه
قد اجتمع الحجم الكبير من أهالي البحيرة وغيرها وأهالي رشيد ومن معهم من
المتطوعين والمساكر وأهل دمنهور وصادف وصول كتخدا بك واسماعيل كاشف

الطوبى الى تلك الناحية ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الانجليز طائفة ، وقتلوا منهم عدة رؤوس فخلع الباشا محمد على على الساعيين جوختين ، وفي أثر ذلك وصل أيضا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر وبالغا في الاخبار وأن الانجليز انجملوا عن متاريس رشيد الى مندور والحامد — ولم يزل المقاتلون من أهالى القرى خلعهم الى أن توسطوا البرية وغنموا ضيائناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين .»

وفي ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وقعت معاهدة الصلح بين انجلترا ومصر على جلاء القوات البريطانية من الاسكندرية في مدى عشرة أيام على أن يسلم محمد على الى القوات البريطانية الأسرى والرهائن الانجليز .

وبهذا النضال الرائع ، سجل الأهالى في رشيد أروع صفحة من صفحات الكفاح التى قام بها الوطنيون المصريون في كفاحهم الطويل ضد المستعمرين والفرقة .

الباب الثاني

الشعب والجيش
في الثورة العراقية

- ١ - أسس الثورة .
- ٢ - الجيش أمل الشعب .
- ٣ - الشعب والجيش يواجهان الاحتلال .

١ - أسس الثورة

اعراض النكسة :

وصف الميثاق حكم محمد علي بأنه (نكسة) ، عرقلت اليقظة المصرية ، وألحقت بها أفدح الأضرار . وقد استمرت هذه النكسة طوال حكم أسرة محمد علي ، حتى ثار الشعب والجيش بزعامة أحمد عرابي .

وكانت الاحتكارات المالية الدولية أبرز أعراض هذه النكسة ، وقد أمدنا الميثاق بصورة تاريخية رائعة فقال : « وبدأت الاحتكارات المالية الدولية دورها الخطير في مصر ، وركزت نشاطها في اتجاهين واضحين ، هما حفر قناة السويس ، وتحويل أرض مصر الى حقل كبير لزراعة القطن ، لتعويض الصناعة البريطانية عن أفطان أمريكا التي قل ورودها الى بريطانيا بسبب انتهاء سيطرتها على أمريكا . ثم انقطاع وصولها تماما بسبب ظروف الحرب الأهلية الأمريكية ، .

ومن أعراض هذه النكسة أيضا استنزاف القوى الأجنبية كل امكانيات الثروة الوطنية في مصر ، وأبرز الميثاق هذه الحقيقة فقال : « ولقد عاشت مصر في هذه الفترة تجربة مروعة استنزفت فيها كل امكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الأجنبية ، ومصلحة عدد من المغامرين الأجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء أسرة محمد علي ، ومساعدتهم على ذلك فداحة النكسة التي أصيبت بها حركة اليقظة المصرية . »

وقد استترت هذه القوى الأجنبية في هذه السياسة الفادحة وراء الامتيازات الأجنبية أولا ، ثم عن طريق الازمة المالية ثانيا . وأدى هذا كله الى التدخل في مشون مصر الداخلية ، بما أثار مشاعر الشعب المصري ، فقامت الثورة العرابية .

كان الأصل في الامتيازات الأجنبية تسهيلات و ضمانات منحتها الدولة المتأينة

الأجانب المقيمين في أراضيها ، ومنها مصر ، وذلك تشجيعا لهم على الإقامة والتجارة واستغلال أموالهم في المجال الاقتصادي . ولكن هذه الامتيازات اتخذت صورة خطيرة بعد انحلال الدولة العثمانية وضعفها ، فقد أصبحت هذه الامتيازات جبرا عبره الأوروبيون للتدخل في شئون مصر وسائر الولايات العثمانية . وتدفع الأجانب على مصر في القرن التاسع عشر بشكل لم يسبق له مثيل ، وبلغت اقامتهم حد الاستيطان الدائم . وبما أدى إلى زيادة خطر الامتيازات ضعف الحكومة المصرية في عهدى سعيد وإسماعيل واتباع هذين الحاكين سياسة مكنت الأجانب في مصر ، وشجعهم على التدفق إلى البلاد حتى بلغ عددهم أكثر من سبعين ألفا سنة ١٨٧٨ مقابل ثلاثة آلاف سنة ١٨٢٦ ، واستسلم سعيد لقناصل الدول الأجنبية ومنحهم حقوقا واسعة لم تكن لهم . كما استفاد هؤلاء الأجانب من تبذير إسماعيل وسفاهة وفازوا بالمزيد من الامتيازات . وأصبح الأحانب لا يحاكمون إلا أمام المحاكم القنصلية بما أنفص من سيادة الدولة المصرية . ومالبت إسماعيل أن أنشأ المحاكم المختلطة وجعل معظم قضائتها من الأوروبيين الذين تحيزوا الأجانب ضد المصريين .

أما الأزمة المالية فقد ظهرت بواكرها في عهد سعيد ، فقد منح امتياز قناة السويس الأجانب ، وأسرف في الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية لينفق على مآذنه ورفاهيته . وكان سعيد يستدين من المرابين ديونا سائرة بواسطة مستندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقرضة . ومات سعيد تاركا وراءه ديونا يزيد أصله على عشرة ملايين من الجنيهات . وصار إسماعيل على نفس السياسة ، فافترض من البنوك مبالغ كبيرة بفوائد عالية ورهن عليها موارد البلاد لسداد أنفساطها ، وتراكت الديون على مصر حتى بلغت سنة ١٨٦٩ أى بعد ست سنوات من توليته الحكم مبلغ ٣٥٠.٦١٥.٠٠٠ جنيها . وأنفق إسماعيل حوالي ٣ مليون جنيه على الهدايا والرشاوى التي بذلها وحاشيته للحصول على فرمان سنة ١٨٦٦ الذي جعل وراثته العرش في أكبر أبنائه ، كما أنفق حوالي ٢ مليون جنيه للحصول على لقب (خديو) سنة ١٨٦٧ . كما أنفق مليونا ونصف مليون جنيه في حفلات افتتاح

قناة السويس سنة ١٨٦٩ . ورهن اعماعيل أطيانه الخاصة ، ثم رهن ايرادات السكك الحديدية والخرائب الشخصية والخرائب غير المقررة وعوائد الملح ، ثم لما الى عقد فروض داخلية من أهالى البلاد سنة ١٨٧١ اتخذت صورة اجبارية .

وفى سنة ١٨٧٥ وصلت الازمة المالية الى ذروتها ، وتضخمت الديون وفوائدها الباعظة ، وعجزت الحكومة عن سداد الأقساط ، وكادت تعلن إفلاسها ، وكادت جميع موارد الدولة مرهونة للديون ، فأقدم اسماعيل على بيع أسهم مصر فى قناة السويس وهى ٧١٦٠٢٠٢ سها أى ما يقرب من نصف رأس مال شركة قناة السويس ، اشترتها إنجلترا بشمن بخس قدره ٥٨٣٠٦٧٠٣ ر جنيه ، فأصبح لإنجلترا نفوذ قوى فى شئون القناة ، ومهدت هذه الصفقة للاحتلال البريطانى فيما بعد .

وأدت الازمة المالية الى التدخل الأجنبى ، وعرضت إنجلترا على اسماعيل ارسال (بعثة كيف) سنة ١٨٧٥ لحل المشكلة المالية ، فوافق اسماعيل ، فكان هذا اعترافا منه بالتدخل الأجنبى . ومالبثت فرنسا أيضا أن أرسلت أحد موظفيها ، واشتد التنافس بين الدولتين حول التدخل فى شئون مصر . ثم تكون (صندوق الدين) سنة ١٨٧٦ من مندوبين عن الدول الدائنة ، وأصبح هذا الصندوق أول هيئة رسمية أوروبية أنشئت لغرض التدخل الأجنبى فى شئون مصر . ثم قدمت بعثة (جرشن — جوبير) الانجليزية الفرنسية ، ثم قام نظام المراقبة الثنائية ، فقد تولى مراقبان ، أحدهما انجليزى والآخر فرنسى ، للإشراف على مالية مصر .

ازدادت أحوال مصر المالية سوءا ، فانتشرت المجاعة فى البلاد ، ومساءت حال الموظفين بسبب عدم دفع مرتباتهم ، واضطر الفلاحون الى بيع محصولهم قبل الحصاد بنصف الثمن أو أقل ليحصلوا على أقواتهم الضرورية ، وانتشرت الأوبئة ، وتناقص عدد السكان . وفرضت إنجلترا وفرنسا تأليف وزارة مختلطة يدخلها وزيران أوروبيان ، أحدهما انجليزى لوزارة المالية ، والثانى فرنسى لوزارة الأشغال ، وأوعزت الدولتان الى الخديو باختيار نوبار باشا لرئاسة هذه الوزارة ، وهو معروف بولائه للدولتين وتمييز نوبار الأجانب ، وأبعد الموظفين

المصريين بحجة الاقتصاد في النفقات ، واشتد في جمع الضرائب ، بما ألهب مشاعر المصريين ، وبدأ الكفاح الشعبي يظهر على مسرح الأحداث في مصر .
روح الشعب لم تستسلم :

اقتبسنا هذا العنوان من الميثاق ، فالشعب المصري يتميز دائما بالحيوية المتدفقة ، التي تجعله مستعدا للكفاح والنضال في كل حين ، وكانت هذه الكوارث هي الوقود الذي ألهب زيران الثورة الشعبية ، وكانت هذه المحن هي التي أطلقت طاقات الشعب المصري .

قال الميثاق : « على أن روح هذا الشعب لم تستسلم ، وإنما استطاعت تحت المحن العvisية في هذه الفترة أن تخزن طاقات تحفز لاطلاقها في اللحظة المناسبة . »

وكان (العلم) هو مصدر هذه الطاقة ، وكان شباب مصر المتعلم هم أساس اليقظة المصرية التي بددت النكسة التي أصابت الكفاح الشعبي بعد حكم محمد علي ، فقال الميثاق : « وكانت هذه الطاقة هي العلم الذي حصل عليه آلاف من شباب مصر الرواد من أرسلوا أيام الصحوة التي سبقت النكسة من حكم محمد علي ، إلى أوروبا ، ليتمكنوا من العلم الحديث ، فإن هؤلاء استطاعوا بعد عودتهم إلى الوطن أن يجلبوا معهم بذور صالحة ما لبثت التربة المصرية الخصبة لمصر أن احتضنتها لتخرج منها بشائر نبت ثقافي جديد راح ينشر ألوانا رائعة من الأزهار على ضفاف النيل الخالد . »

وأصبح هؤلاء الشباب المصري منبرا للفكر العربي ، ومشعلا للكفاح الشعبي ، فقال الميثاق : « وليس صدفة أن هذه الذهور المتفتحة على ضفاف وادي النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التي لفتت أنظار العناصر المتطلعة إلى التقدم في المنطقة كلها نحو مصر ، وجعلت منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربي كله ، ومسرحا لفتونه ، وملتقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة . »

المصريين بحجة الاقتصاد في النفقات ، واشتد في جمع الضرائب ، مما ألهب مشاعر المصريين ، وبدأ الكفاح الشعبي يظهر على مسرح الأحداث في مصر .
روح الشعب لم تستسلم :

انتبنا هذا العنوان من الميثاق ، فالشعب المصري يتميز دائماً بالحيوية المتدفقة ، التي تجعله مستعداً للكفاح والنضال في كل حين ، وكانت هذه الكوارث هي الوفود الذي ألهب نيران الثورة الشعبية ، وكانت هذه المحن هي التي أطلقت طاقات الشعب المصري .

قال الميثاق : « على أن روح هذا الشعب لم تستسلم ، وإنما استطاعت تحت المحن العصية في هذه الفترة أن تخزن طاقات تحفز لاطلاقها في اللحظة المناسبة » .

وكان (العلم) هو مصدر هذه الطاقة ، وكان شباب مصر المتعلم هم أساس اليقظة المصرية التي بددت النكسة التي أصابت الكفاح الشعبي بعد حكم محمد علي . فقال الميثاق : « وكانت هذه الطاقة هي العلم الذي حصل عليه آلاف من شباب مصر الرواد من أرسلوا أيام الصحوة التي سبقت النكسة من حكم محمد علي ، إلى أوروبا ، ليتمكنوا من العلم الحديث . فان هؤلاء استطاعوا بعد عودتهم إلى الوطن أن يجلبوا معهم بذور صالحة مالبثت التربة المصرية الخصبة لمصر أن احتضنتها لتخرج منها بشارت نبت ثقافي جديد راح ينشر ألواناً رائعة من الأزهار على ضفاف النيل الخالد » .

وأصبح هؤلاء الشباب المصري منبرا للفكر العربي ، ومشعلا للكفاح الشعبي ، فقال الميثاق : « وليس صدفة أن هذه الذهور المتفتحة على ضفاف وادي النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التي لفتت أنظار العناصر المتطلعة إلى التقدم في المنطقة كلها نحو مصر ، وجعلت منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربي كله ، ومسرحاً لفنونه ، وملقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة » .

خاصة ، وفي العالم العربي عامة الفيلسوف جمال الدين الأفغاني ، وكان يدعو الى الحرية والمساواة ويطالب بحقوق الانسان والشعب ، ومن أجل هذا أنشأ صحيفتي مصر بالقاهرة والتجارة بالاسكندرية كما خطط لجريدة ثالثة اسمها «أبو نضارة» رأس تحريرها الأستاذ يعقوب صنوع ، وكان ينتقد سياسة اسماعيل ويهاجمها ، وكان يلتقي تعاليمه على مردييه وطلبته في منزله بخان الخليلي أو بقهوة البوسطة «بالعنة الخضراء» وهم كثيرون نذكر منهم : الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، ومحمود سامي البارودي ، وعبد السلام الموالحي ، وسعد زغلول ، وسرت تعاليم جمال الدين بين الناس - ريان النار في الهشيم . فخشي الخديوي توفيق على نفسه من هذه الآراء الحرة فاستدعى الأفغاني وقال له : «إني أحب كل خير للمصريين ويسرني أن أرى بلادى وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح - ولكن مع الأسف أكثر الشعب جاهل لا يصلح أن يلتقي عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » .

ورد جمال الدين قائلا : « ليسمح لي أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادهم ولكنه غير محروم من وجود العالم والعامل - فالنظر الذي - تنظرون به الى الشعب المصري ينظر به اليكم وإن قبلتم نصيح الخادم وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد وعن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم ، وقد أخذ جمال الدين الأفغاني يدرب الشباب على الكتابة ، ويوحى اليهم بالمعاني الجديدة التي يكتبونها ، ويشجعهم على إصدار الصحف التي تتصدى للكتابة في الموضوعات التي تمس حياة الأمة في صميمها . فشجع أديب اسحق على أن ينشئ جريدة «مصر» التي كان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ويكتب بنفسه مقالاتها باسم مستعار . كما شجعه على إصدار صحيفة «التجارة» ، وأخذت هاتان الجريدتان تنشران ما يوضح مبادئ الوطنية ، ويعرف الناس بأصول

المبادئ الحرة ، وأصدر ميخائيل عبد السيد — بإيحاء من جمال الدين — جريدة الوطن ، ذات الصبغة السياسية الأدبية التي انضمت الى شقيقاتها قبل الاحتلال وبعده في تعضيد الحركة الوطنية . وشجع يعقوب صنوع على انشاء مجلة هزلية اسمها « أبو نضارة » التي كانت أولى الجرائد العربية التي تكتب بأسلوب عامي فكاهي ساخر ، وانتقدت التدخل الاجنبي والامتيازات التي تتمتع بها الاجانب ، بل نقدت اسماعيل نفسه فصادر المجلة .

ومن وراء هذه الصحافة الناشئة كان نشاط جمال الدين في الهيئات الماسونية الاجنبية التي كانت تضم فئات مصرية مختلفة : من أدباء وضباط وعلماء وباشوات وطلبة الأزهر وخريجيها ، وبعض أعضاء مجلس شورى النواب الذي أنشاه اسماعيل في عام ١٨٦٦ ولم ترق هذه الآراء ولا ذلك النشاط بطبيعة الحال للحدوى توفيق فقبض عليه ونفاه الى خارج مصر في ٢٤/٨/١٨٧٩ .

ومن خطباء الثورة العربية عبد الله النديم الذي اعتنق مبادئ — جمال الدين — فأنشأ مدرسة خيرية اسلامية بالاسكندرية من التبرعات التي جمعها من الأعيان وأدخل فيها لأول مرة تعليم البراجج الوطنية والقومية ثم أنشأ صحيفة أسماها « التنكيك والتبكيك » وعندما قامت الثورة العراقية انتقل الى مصر وتعرف على زعمائها وانضم الى الثورة ثم أصبح خطيبها والمتحدث بلسانها .

ومن العلماء الذين كان لهم أثر بالغ في اليقظة الفكرية وقتذاك الشيخ محمد عبده — تلميذ جمال الدين والحافظ لتعاليمه ، وقد دعا هو أيضا الى الحرية وسعى الى نشر الوعي الوطني والقومي بين أفراد الشعب — وعندما قامت الثورة العراقية انضم اليها ودعا لها . وبعد فشل الثورة نفى الى الخارج مع زميله عبد الله النديم وغيره من زعماء الثورة .

هؤلاء كانوا بعض العلماء والمفكرين الذين كان لهم أثر في نشر الوعي الوطني بين الشعب — وما لبثوا أن تأثروا بالثورة العراقية وتفاعلوا معها .

٢ - الجيش أمل الشعب

غضبة الجيش :

لم يكن ثمة عدل ولا قانون ولا قضاء ينصف المظلوم ويسطي كل ذي حق حقه ولا حرية ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية ، تنقل للناس حرة رقهم وحياتهم وكان الخرب بالكرباج شائعا يتخذة الأحكام وسيلة لتعصيل الأموال وأداة للقسوة والتعذيب .

ومما زاد الطين بلة أن النفوذ التركي والشركسي كانا يسيطران على المجتمع المصري ، وزاد الحالة سوءا وجود عثمان رفقي وهو شركسي متعصب - وزيرا للحرية في وزارة رياض باشا، وكان يؤثر الضباط الأتراك على زملائهم المصريين ويفرق بينهم في المعاملة وكان من نتيجة ذلك أن احتل الضباط الأتراك المراكز الهامة في الجيش ، في حين تخلف المصريون وظلوا في رتبهم مددا طويلة دون ترقية بل أنه كان يعين الضباط الأتراك في المدن الرئيسية والوظائف المرموقة ، ويترك ماعدا ذلك للضباط المصريين دون أي اعتبار لكفاءة أو شجاعة .

وكان من أثر هذه التفرقة الناشئة أن شعر الضباط المصريون بوطأة الظلم عليهم فبدأوا يتجمعون - ويتشاورون لرد طغيان الضباط الشراكسة ووقف حملة الظلم التي شنها رئيسهم عثمان رفقي . ووجدوا في أحمد عرابي (١) وكان ضابطا برتبة أميرالاي بالجيش بغيتهم ، وكان يمتاز بدماثة الخلق والجرأة فضلا عما يتمتع به من شخصية جذابة فالتفوا حوله وعقدوا عليه الآمال، وصاروا يحتمون به في بيته بين الحين والحين ، وفي ذلك الوقت صدر قانون القرعة العسكرية الذي كان من شأنه الحيلولة دون ترقى الضباط من تحت السلاح وفتح باب الترقى الأتراك وحدهم مع ما كان معروفًا عنهم من جهل وغباء يناقضهم فيها وزيرهم عثمان رفقي الذي وردت

(١) ولد أحمد عرابي في ٣١ من مارس سنة ١٨٤١ بقرية هرية بمحوار مدينة الزقازيق شرابية من أسرة عربية صعيدية .

أنباء جهله بين ما ورد عن ثورة عرابي من أنباء وزادت الحالة سوءا عندما أصدر عثمان رفقى أمره بنقل الأميرالاي عبد العال حلمي قائد آلاي طره الى ديوان الجهادية برتبة معاون بها تنزيلا لدرجته ، وتعيين خورشيد الشركسي مكانه ، كما فصل مصريا آخر هو أحمد عبد الغفار من الجيش وعين مكانه ضابطا تركيا هو شاكر بك طمازة .

فامتشاط عرابي غضبا لهذه الأنباء ، وكان مدعوا بمنزل نجم الدين باشا ، وقال لمن معه : ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى على هضمها ، وتوجه الى منزله وكان به بمض الضباط الذين تعودوا الاجتماع به من أمثال الأميرالاي عبد العال حلمي قائد آلاي طره المنقول ، والبكباشي خضر ، والأميرالاي على فهمي قائد الآلاي الاول وهو آلاي حرس الخديوي ، والبكباشي ألني يوسف وأحمد عبد الغفار ، واجتمع بهم وفي هذا الاجتماع انتخبوا عرابي رئيسا لهم ، ويقول عرابي في مذكراته أنه رفض هذه الانابة ولكنهم صمموا عليها وقال لهم : « انظروا الى غيري وأنا أسمع وأطيع وأنصح له جهدي فقالوا انا لا نبغي غيرك ولا نثق الا بك فأثبت لهم أن الأمر عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى لها ، فقالوا نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا فقلت لهم : أقسموا على ذلك فأقسموا على السيف ، والمصحف ، وأرسل عرابي على الفور رسالة الى رئيس الوزراء رياض باشا أوضح فيها ما يقع في الجيش من الظلم بالفرقة التي يقوم بها عثمان رفقى بين الضباط والأتراك وزملائهم المصريين ، وطالب بارجاع من عزلهم وزير الحرية . ووقع على هذه العريضة عدا عرابي كل من على فهمي وعبد العال حلمي .

وفي يوم ١٧ من يناير سنة ١٨٨١ — أى غداة يوم الاجتماع — قدموها الى رئيس الوزارة رياض باشا الذي حاول تهديدهم قائلا : « ان تقديم مثل هذه العريضة يؤدي الى الهلاك ، ولكن عرابي وصحبه لم يرهيبهم تهديد رياض وأجابوه بأن مطالبهم تستند الى العدالة والحق والقانون ، ولولا — اقتناعهم لما كتبوها ولا حضروا . وأخيرا قال لهم رياض أنه سينظر في طلباتهم واجتمع مجلس الوزراء

بعد ذلك في مرآى عابدين بحضور الخديوى توفيق وقرروا القبض على الزعماء الثلاثة ومحاكمتهم عسكرياً ، وكان صاحب هذا رأى عثمان باشا رفقى ، وأيده الخديوى ، وكان يعارضه رئيس الوزراء وبعض الوزراء ، ولكنهم لم يلبثوا أن وافقوا على رأى وزير الحربية والخديوى . وتألف المجلس العسكرى برئاسة الجنرال ستون رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، ثم تحاييل عثمان رفقى لى يقبض على عرابى وصاحبيه بأن وجه لهم بطاقات دعوية لحضور الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوى ، وشعر عرابى وصحبته بما يدبر لهم ، فاتفقوا مع باقى وحدات الجيش لمراقبة الحالة ، وذهبوا الى ديوان الوزارة بقصر النيل ، التى أصبحت ثكنات الجيش الانجليزى بعد ذلك وبمجرد حضورهم جردهم الضباط الشرا كمة الموالون للحكومة من أسلحتهم وقرأ الجنرال ستون عليهم الأمر القاضى باعتقالهم ومحاكمتهم . وسار الممتقون الثلاثة بين صفين من الضباط الشرا كمة الذين كانوا يشهرون فى وجهه عرابى وصاحبيه سيوفهم ويوجهون اليهم أقذع الألفاظ حتى أودعوا السجن بقصر النيل . وعين عثمان رفقى على الفور ضابطاً بالجيش مكان عرابى — وصاحبيه . ولما علم الجيش ما وقع لعرابى ورفيقه ثار الضباط وقام — البكباشى محمد عبيد فامر الجند بالتوجه لانقاذ المعتقلين ولما حاول القائمقام خورشيد بسمى الذى عينه عثمان رفقى مكان على فهمى الاعتراض ، أمر عبيد باعتقاله . واتجه الجيش بكامل أسلحته بقيادة محمد عبيد الى قصر النيل ، فلما علم الخديوى بتحريك الجيش أرسل لهم ياوره الخاضع الفريق راشد باشا لتهدئة الحالة ، ولكنهم لم يعبأوا به ، فعاد الخديوى وطلب مقابلة الضباط فرفضوا ولم يستمعوا له وضربوا حصاراً حول قصر النيل وهاجموه شاكى السلاح ودخلوا الى القصر مهلين متصرين ، فهرب الضباط الشرا كمة منه وعلى رأسهم عثمان رفقى ، ولم يحددوا بالقصر سوى أفلاطون باشا وكيل وزارة الحربية ، وأستون باشا رئيس المحكمة العسكرية التى كانت ستحاكم قادة الثورة ، وبعض الأجانب فاعتقلوهم وأنفذوا الضباط الثلاثة أحمد عرابى وعبد العال حلى — وعلى فهمى — وكان أول شخص اقتحم الحجرة التى اعتقلوا بها البكباشى الشجاع محمد عبيد — وقد استشهد بعد ذلك أثناء مقاومة الانجليز فى معركة التل الكبير .

كان الآلاى الأول بقيادة البطل محمد عبيد هو أول من خف لإنفاذ الضباط المعتقلين وتبعه آلاى طره الذى كان يرأسه عبد العال حامى قبل أن يفصله عثمان رفقى — وقد عين مكانه الأمير الآلاى خورشيد نمان — وعند ما سمع هذا بأنباء الإضرابات حضر ليتسلم الآلاى وكان معه خورشيد باشا طاهر وأحمد بك حدى ياور الخديوى ولكن البكباشى حضر أفندى حضر واعتقلهم كما اعتقل من كان معهم من الضباط ثم قاد فرقته بعد أن سلحها إلى قصر النيل وقد أرسل الخديوى للبكباشى خضر ياوره ليقتنه بالعودة لأن عرابى ورفيقه كان قد فك اعتقالهم محمد عبيد فلم يستمع له واعتقد أن الخديوى يقرر به . وعند ما وصل آلاى طره إلى ميدان عابدين التقى بالآلاى الأول بعسد أن فك أمر الضباط الثلاثة ، وكان لقاء حاراً وما لبث أن عزفت الموسيقى وتعاليت هتافات الناس معربين عن فرحتهم بهذا الانتصار ، وتوافدت جماعات من الشعب لتحية الجيش معربة بذلك عن سرورها لهذه الظفرة — الجديدة التى كانوا ينتظرونها منذ أمد طويل . وكانت لهذه المظاهرة العسكرية دوى كبير فاضطر الخديوى للإذعان لطلبات الجيش .

فمزل عثمان رفقى وعين مكانه محمود سامى البارودى الذى كان يعطف على حركة الضباط . واستمر عرابى يوالى طلباته ويجمع سرراً بمنزله مع زملائه حتى استجابت الحكومة لمطالبه العادية الأخرى وتحسنت حالة الجيش عن ذى قبل ، وارتفعت مرتبات الجند والضباط ولكن الخديوى والضباط — الشراكسة لم يعجبهم انتصار الوطنيين ، فبدؤوا فى إثارة الفتن وحرك الدسائس من ذلك ما ثبت من مؤامرة يوسف باشا ناظر الخاصة الخديوية ، وتحريض الخديوى لبعض الضباط السودانيين كفرنح الزينى وغيرهم . وفى أثناء ذلك أقال الخديوى سامى البارودى من وزارة الحرية على أثر ما أبداه من ملاحظات على قسوة الحكم الذى أصدره الخديوى على بعض الجنود لقاء احتجاجهم على مقتل زميل لهم^(١) . فغضب الجيش وتوجس

(١) أصاب أجنبى أثناء قيادته امرئته أحد الجنود المصريين فقتله — فملاؤه إلى قصر رأس التين بالاسكندرية وكان الخديوى توفيق يعطاف بها عاوضين عليه شكواهم فاعتبر الخديوى هذا العمل إهانة لقامه وأصدر حكماً عسكرياً عليهم وكانوا ثمانية جنود بالأشغال الشاقة المؤبدة .

خيفة ، وأراد عرابي أن يستعين بنصيحة إسماعيل باشا راغب الذي عرف عنه بعد النظر ومصادد الرأي ، فأشار على عرابي بضرورة قتل الخديوى وتولى الجيش السلطة ، وقد رفض عرابي هذه النصيحة وذكر ذلك في مذكراته بقوله :

« فعلنا مبلغ حكمه ، واستعدنا بالله من شر رأيه لأننا لم نر إلا الإصلاح بالتي هي أحسن ولأن ذلك العمل الفظيع كان ضد مبادئنا على خط مستقيم ، ولو أن عرابي استمع لهذه النصيحة ، واستولى الجيش على الحكم واكتفى بنفى الخديوى بدل قتله لوضع الإنجليز خاصة والدول عامة أمام الأمر الواقع ، ولا استتب الأمر لحكم الشعب . ولما وجد الإنجليز الوسيلة التي تذرعوها بها بعد ذلك للاستيلاء على مصر وهى حماية الخديوى ولكن إحجامه على اتخاذ هذه الخطوة أعطى الإنجليز والخديوى وأعوانهم من الأتراك — والإقطاعيين فرصة لرسم الخطط ثم للاتقضاض . ولقد مرت نفس هذه الظروف تقريباً على مصر سنة ١٩٥٢ فلم يتوان الجيش ولم يقع فى الخطأ الذى وقع فيه عرابي وقام البكباشى جمال عبد الناصر فقاد الجيش والأمة وطرده الملك فاروق وأذنا به وحرر البلاد من الإنجليز وأعوانهم... ومع ذلك فلم تسفك قطرة دم واحدة .

ولا يهمنى فى هذه العجالة أن تورخ الثورة المرارية أو نبين أسبابها وبواعثها ولا التسلسل التاريخى لها بقدر إبراز ما اقترفه الخديوى من الخيانة بتعاونه مع الإنجليز والأتراك والأجانب ضد البلاد فى الوقت الذى تفاعل فيه الشعب والجيش مع قادتهما من أبناء البلاد الحقيقيين .

ف نقول أنه كان يحج إلى دار عرابي فى ذلك الوقت العصيب كثير من العلماء والأعيان يؤيدونه ويبايعونه بما شجعه على الماضى فى طريقه ، وقد أوضح ذلك فى مذكراته بقوله :

(ثم أخذت فى نشر أفكارى بين العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخها وقد وفقت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر وملتتنا عرائض النيابة عنها وفوضت

إلينا العمل لما فيه مساعدة البلاد وخلصها من براثن رجال الاستبداد ومعلنة تضامنها
منا في كل ما نقوم به من أعمال الإصلاح وما ينتج عنها من النتائج .

ولكن الخديوى ظل سادراً في غيه ، فبعد أن أقال محمود سامي البارودي عين
مهرة داود باشا يكن وزيراً للحرية ليبدأ في تشتيت فرق الجيش الموالية لعرابي
ونفيها لجهات متفرقة مع تقريب الموالين للخديوى في القاهرة لموازنته عند اللزوم
ووجد عرابي أن الحالة تتفاقم سوءاً يوماً بعد يوم وأن الخديوى لا يني في تدبير
مكائده ، ورأى أن الوقت قد حان ليقوم بالثورة ليحقق مطالب البلاد .

الجيش يتحرك :

عند ما سادت الحالة إلى هذا الحد اجتمع قادة الشعب وتشاوروا فيما بينهم
عما يفعلوه لوقف تيار الطغيان — ورأوا أن يواجهوا الخديوى بطلباتهم وأن
يتوجهوا إليه في مظاهرة رسمية ، وعلى أثر ذلك أمر عرابي زملاءه في الجهاد بأن
يكونوا بفرقهم وبكامل سلاحهم بميدان عابدين في تمام الرابعة من مساء يوم الجمعة
الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وأخطر الخديوى بهذا الميعاد الذي حاول تهدئة الحالة
والسيطرة على الموقف دون جدوى ، ولقد بلغ به الأمر أن ذهب بنفسه ومعه
رئيس الوزارة رياض باشا إلى رجال الجيش وحاول استمالة الضباط والجنود ،
ومر على جميع الفرق في قشلاق عابدين والعباسية والقلعة وراح يستعطفهم ويتودد
إليهم ويقول لهم : « ألسن خديوكم — ألسن ولي أمركم — هل تأخر لأحد
منكم راتب أو — نقصت له مؤونة ؟ » .

ولكن الجنود والضباط كانوا قد أصموا آذانهم ولم يستمعوا — لاستعطاف —
الخديوى ولا لتوسلاته — وعند ما اقتربت الساعة من الرابعة عاد الخديوى إلى
عابدين وقد نمي إليه أن عرابي في طريقه على رأس الجيش متجهاً إلى الميدان الكبير .
ويصف أستاذنا الكبير عبد الرحمن الراجحي هذا اليوم المجيد في تاريخه المحقق
فيقول :

و احتشد الجيش في الموعد المختروب في ميدان عابدين — وكان أول من
حضر إلى الميدان آلاى الفرسان (السوارى) بقيادة أحمد عبد الغفار ، ولعله بادر
بالحضور لأنه كان أول الناقين على النظام القديم ، إذ فصله عثمان رفقى وزير
الحرية الشركسى لغير ما سبب ، ثم جاء عرابى عمتياً جواده شاهراً سيفه يقود
آلاى العباسية وبصحبه آلاى المدفعية يقوده إسماعيل بك صبرى ومعه المدافع
بذخيرتها ، وكانت المدافع تتخلل أشرطة المشاة أثناء المسير ولما وصل عرابى
تفقد على بك فهمى فلم يجده — وأخبره بعض الضباط أنه وزع آلاى الحرس
داخل السراى ومعه كمية وافرة من الذخيرة ، وأنه على استعداد للدفاع عنها إذا
دعت الحاجة . فبعث إليه من فوره بالملازم محمد أفندى على ليستدعيه فحضر فسأله
عرابى عن سبب جعله العساكر على أبواب السراى ، ومنافذها من الداخل ولم يكن
هذا اتفاقهم من قبل ، فطمأنه على فهمى وقال له أن السيامة خداع وأنه باق على
عهده ، فطلب إليه عرابى أن يسحب آلايه من السراى ويأخذ مكانه في الميدان
فقبل وأمر بخروج الآلاى من السراى . فخرج منها الجند جميعاً واصطفوا إلى
جانب إخوانهم ، ثم تم ترتيب آلاى المدفعية والفرسان والمشاة على شكل
مربع ، وجاء بعد ذلك الآلاى الثانى من قصر النيل يقوده بعض ضباطه ، ثم
جاء الآلاى الثالث قادماً من القلعة بقيادة البكباشى فودة أفندى حسن ، والآلاى
السودانى قادماً من طره بقيادة عبد العال حلى ثم أشرطة المستحفظين يقودها
القائم مقام إبراهيم بك فوزى ، وبذلك اكتمل الجيش في ميدان عابدين .

وخرج عليهم الخديوى توفيق وكان معه المستر كوكسن قنصل إنجلترا في
الإسكندرية والمستر أوكلين كولفن المراقب المالى الإنجليزى وبعض حرسه وظل
سائراً حتى وصل إلى مكان وقوف الجيش في الميدان ، وكان يتقدمه عرابى ومعه
بعض ضباطه ، فترجل عرابى ونزل من فوق جواده . وهنا سمع عرابى مستر
كوكسن ينصح الخديوى بقتله ، فقال الخديوى .

أأقتله أمام كل هؤلاء الجنود الذين يحيطون بنا ؟ ولم يستمع لنصيحة

كوكسن ، والتفت لعرابي وقال له ما هو سبب حضورك ومعك الجيش إلى هنا ؟
فأجاب عرابي . « جئنا يا مولاي لنعرض عليك مطالب الجيش والأمة وجميعها
طلبات عادلة ، وهنا سأله الخديوي عن هذه الطلبات . فقال عرابي : طلباتنا هي
عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش إلى ١٨ ألف
جندي . »

فامتشاط الخديوي غضباً وقال : « كل هذه الطلبات لا حق لكم نهائياً فيها ،
وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أتم إلا عبيد إحساناتنا :
ولكن عرابي لم يهتز لهذه الغضبة بل أجابه بهذه الإجابة القوية التي ظلت خالدة
على مرّ الزمن :

« لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً وعتقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو
أنا سوف لا نورث بعد اليوم . »

وعند ذلك أشار مستر كوكسن على الخديوي بالرجوع إلى القصر فامثل
وبدأت المناقشة بين عرابي وكوكسن كالآتي قال كوكسن لعرابي : « إن عزل رياض
من اختصاص الخديوي وحده ، ولكن طلب الجيش تشكيل مجلس النواب ليس
من اختصاصه وفي زيادة الجيش إرهاب للمالية الحكومة ولا داعي لها . »

فرد عرابي قائلاً : « طلباتي يا حضرة القنصل متعلقة بالأهالي ولم أطلبها إلا
لأنهم انتخبوني نائباً عنهم في تنفيذها عن طريق هؤلاء الجنود الذين هم بمثابة
إخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التي يعتمد عليها الوطن وإذا نظرت إلى هؤلاء
المحتشدين بخلف الجنود لوجدتهم أهالي البلاد الذين أنا بوني عنهم البطالة بحقوقهم
ولتعلم ييقين أنني لن أتنازل عن طلبات الأمة ، ولن نبرح مكاننا هذا حتى
نحاجب لها ،

فقال كوكسن : « أعلم من حديثك أنك ستنفذ طلباتك بالقوة ، وهذا معناه
ضياع مصر ومحوها . »

فقال عرابي : « بأى حق تقول ذلك ، ومن الذى يحاول أن — يتعرض لنا في أحوالنا وأمورنا الداخلية ؟ ولتعلم يا حضرة القنصل بأننا متقاوم من يقف في طريقنا مقاومة شديدة حتى آخر جندي ، فقال كوكسن : « وأين لكم بالقوة التي ستدافع بها ، فقال عرابي :

إذا لزم الأمر فمن الممكن تمهيد ما يزيد على المليون جندي للدفاع عن الوطن ، وسيكون الجميع تحت قيادتي ينفذون ما أمر به ، وعندئذ سأل كوكسن عما يفعله عرابي إذا رفضت طلباته ؟ فقال عرابي — وكان مع كوكسن مستر أوكلين كولفن — أقول كلمة أخيرة ، فقال كوكسن وما هي قال : لن أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

ورجع كوكسن وكلفن إلى الخديوي ورأوا جميعاً الموافقة على طلبات الجيش فاستقال رياض وألف شريف باشا الوزارة وبدأ في الإصلاحات ، فقام بتنفيذ مطالب الجيش والشعب وأنشئ في عهده مجلس الأمة في ديسمبر سنة ١٨٨٢ الذي نظرت إليه فرنسا وإنجلترا بعين المستريب ودفعهما ذلك إلى تقديم مذكرة في يناير سنة ١٨٨٢ يتدخلان بمقتضاها في الشؤون الداخلية لمصر .

وسقطت وزارة شريف باشا على إثر ذلك ، وتولى الوزارة محمود سامي البارودي باشا صديق العرابيين ، وأمسد وزارة الحرية لأحمد عرابي . وبذلك انتصرت الثورة مرة أخرى ، وكانت الفرصة سانحة لخلع الخديوي وطرد أعوانه ، ليتفرد الشعب ويحكم نفسه بنفسه بعيداً عن مؤامرات الإنجليز والضباط الأتراك ولكن الثورة ، أخطأت مرة أخرى فتركته ولم تعرض له عما أعطى الفرصة لإنجلترا وفرنسا لمعاودة التدخل وخاصة بعد أن أعلنت وزارة البارودي الدستور . كما بدأ الضباط الشراكسة بالجيش المصري في إثارة الفتن ، ومن ذلك تدبيرهم مؤامرة لقتل عرابي وقد انكشف أمرهم وحوكموا وكان من بين الضباط المؤتمرين عثمان رفقي وزير الحرية التركي السابق والعدو الأول لعرابي وأصحابه خاصة والمصريين عامة .

وقد كانت محاكمة هؤلاء الضباط والحكم عليهم مثار خلاف كبير بين الحكومة والخبديوى الذى استعان بقناصل الدول الاجنبية يسترشد بأرائهم ، لأنه كان يرغب فى تخفيف الحكم على الضباط الشراكسة ، وقد عدل الحكم فعلا بعد ذلك وأصبحت المسألة منتهية ، ولكن الإنجليز المتربصين ، وجدوا من هذا الحادث مبرراً لتدخلهم بعد أن طال انتظارهم وكان مسفير انجلترا فى مصر الميسور إدوارد مالت لا ينفك مشيراً للدساتير بين الوزارة والخبديوى ، وكان يرسل الشائعات المفرضة لبلاده وللبلاد الأوروبية الأخرى يصورها الحالة فى مصر بصورة قائمة تنذر بأوخم العواقب ، ويعلن بأن الوزارة الوطنية مستولى على الحكم وتطرده الخديوى وتهدر حقوق الأجانب . وعلى الرغم من أن الوزارة قد وعدت السفراء — والقناصل الأجانب بضمان استتباب الأمن واستقرار الحالة فإن السير مالت أبقى للخارج يقول : (إن ما أعطاه النظار من ضمان للحفاظ على حياة الخديوى والأوروبيين لا يعتد به) . وكان لهذه البرقية الأثر الذى أرادته السفير ، فثار الرأى العام فى فرنسا وانجلترا وطلب السفير الإنجليزى من وزارته ضماناً لاستقرار الحالة فى مصر أن ترسل الأسطول الإنجليزى لحماية المصالح الأوروبية المهددة بالانهيار ، ورأت انجلترا أن تستعين بفرنسا وأقنع اللورد جرنفيل وزير خارجية بريطانيا ميسو نيسو مسفير فرنسا فى لندن بضرورة تعاون الدولتين فى إرسال أسطولهما إلى المياه المصرية للقيام بمظاهرة بحرية لتهديد الحكومة المصرية ومنعها من الاعتداء على المصالح الأوروبية .

وكانت انجلترا غير صادقة فى ذلك ، لأن الموقف فى مصر كان قد استتب وإنما هى وسيلة رأتها انجلترا سانحة لى تتدخل توطئة لاحتلال مصر .

فبعد أن وصل الأسطولان إلى مياه الإسكندرية تقدم القنصلان الإنجليزى والفرنسى ببلاغ إلى الحكومة المصرية فى ٢٥/٥/١٨٨٢ يطلبان منها استقالة الوزارة وإخراج أحمد عرابى من البلاد وإبعاد عبد العال حلى وعلى فهمى إلى الريف المصرى .

وقد كشفت إنجلترا وفرنسا بهذا البلاغ عن غرضهما ، وأصبح واضحاً من بلاغهما سوء ما انتويا القيام به إذا ما رفضت الوزارة طلباتهما خاصة وأن الخديوى الذى كان يعمل مع الإنجليز فى السر وافق على الفور على مطالب الدولتين الاستعماريتين ، فاستقالت الوزارة واستشاط الوطنيون والاهالى غضباً .

’ . وقرر عرابى وصحبه خلع الخديوى توفيق والترجه بالجيش لمحاصرة قصر الإسماعيلية وإجباره على ذلك ، ولكن الأعيان وبعض النواب طلبوا التريث قليلا ، وقاموا بالوساطة لارجاع أحمد عرابى ووزيراً للحربية ، فوافق الخديوى على هذا التعيين ، ولكن الحالة كانت قد ساءت لدرجة كبيرة ، وخاصة وأن إنجلترا قد أفصحت عن نواياها عند ما جلبت العديد من بوارجها ومدمراتها إلى المياه الإقليمية المصرية دون سبب ظاهر سوى احتلال البلاد تنفيذاً لمطامعها فيها .

وكان الأمر يحتاج إلى سبب يبرر الاحتلال ، وكان لا بد من خطة ، ووجدتها الإنجليز بعد موافقة الخديوى ومعارنيه .

٣ — الشعب والجيش يواجهان الاحتلال

مذبحة الاسكندرية :

. وكانت الخطة تركز على إثارة الشعب على أن يصر بأنه اعتداء على الأجانب فتسح الفرصة بذلك الأسطولين الإنجليزى والفرانسى الراسيين بميناء الإسكندرية للتدخل بحجة حماية الأجانب تمهيداً لاحتلال مصر .

وقد وقع الاختيار على مدينة الإسكندرية لتكون مسرحاً لتمثيل هذه المسرحية الدينية لبعدها عن نفوذ الشعب الحساس التأثير فى القاهرة وعن قاداته المخلصين وتمت المؤامرة كما أرادها الإنجليز .

ففى صبيحة يوم الأحد الموافق : ١١/٦/١٨٨٢ قتل أحد المعلمين من رعايا إنجلترا حماراً لأنه تجرأ وطالب بأجر ركوب الحمار وهرب ولما تجمهر الأهالى انهال الأجانب عليهم بالرصاص من المنازل فقتلوا كثيراً من الأهالى الذين ردوا الاعتداء بالمثل ، ولكن بالعصى ، فقتل فى هذه المذبحة ١٦٣ — مصرياً وه من الأجانب ، وشبت الحرائق فى كثير من المباني ، وعمت المدينة الفوضى وبذلك تحققت المكيدة التى رسمها الخديوى بمعاونة الاستعمار . وقد يظن أو يتبادر إلى الذهن أننا نغالى إذا قلنا أن الخديوى هو المنظم الأول لهذه المجزرة ، فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه حاك خيوطها مع محافظ الإسكندرية الذى يطمع فى وزارة الحربية مكافأة له على نجاح هذه المؤامرة .

فقد أرسل له الخديوى برفية فى ٣/٦/١٨٨٢ — أى قبل المذبحة بأسبوع يقول له فيها : « إن عرابياً قد تمهد بالمحافظة على الأمن العام ونشر ذلك فى الصحف وجعل نفسه مشغولاً أمام القناصل ، فإذا بر بعهده ، وثقت به الدولة وسقطت هيبتنا ، ثم أن الأسطولين راسيان فى ميناء الإسكندرية وخواطر الناس هائجة والنخام بين الأوروبيين وغيرهم ليس بعيد ، فاختزل نفسك فيما أن تخدم عرابياً وتريده وإما أن نخدعنا » .

ولم يكتفى الخديوى بهذه البرقية بل أرسل ابن عمه حيدر باشا إلى المحافظ —
ليشرف على تنظيم وتنفيذ خطة المؤامرة — التى تتلخص فى وقوع الاحتكاك على
أن يظل البوايس بعيداً يشاهد ولا يتعرض المعتدين — وساعد الأجانب من
ملاطين وأروام ويونانيين وإنجليز وفرنسيين فى نجاح خطة الخديوى ، فصاروا
يتسلحون علناً بالمسدسات والبنادق التى كانوا يشترونها من محال الأسلحة ، حتى
أنها نفذت من هذه المحال فى ساعات قليلة ، كما أمد الأسطولان الراسيان فى مياه
الإسكندرية بالجاليات الأجنبية بأسلحة كثيرة . وذلك بإرشاد القنصل البريطانى
بالإسكندرية ، وقد بلغ من تحريضه على الفتنة أن قال لرعايا بريطانيا عند ما سأله
عن - ر - حضور الأسطولين — البريطانى والفرنسى ، عليكم أن تتسلحوا لتحموا
أنفسكم من الشعب . .

وقصارى القول أن مذبة الإسكندرية دبرت تدبيراً عكياً ، وضع خطتها
الخديوى مع عمر لطفى المحافظ الذى لم يحرك ساكناً أثناء المذبحة ، لا هو ولا مأمور
ضبطية الثغر الذى ادعى المرض ، وأهم فيها الإنجليز بتوزيع الأسلحة وعملوا
على إثارة أعصاب الأجانب ، وسخروا المالطى ليمثل هذه التمثيلية المؤسفة ، وقد
ثبت فيما بعد ، أن هذا المالطى أخ لخدّام القنصل البريطانى فى الإسكندرية .

وبهذا يتضح بجملاء أن هذه المذبحة كان وراءها الخديوى والإنجليز لتكون
ذريعة للاحتلال بحجة حماية الخديوى والأجانب من نفوذ عرابى الذى كان يتزايد
يوماً بعد يوم .

وقد تكررت المأساة بمسند ٦٨ عاماً وكان بطلها الملك السابق فاروق حفيد
الخديوى توفيق عندما أحرق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ لما رأى حركة
الوطنيين قد قويت واشتدت ، فاتحد الشعب بعد فرقة ليحارب الإنجليز والفساد ،
ولم يرش فاروق بطبيعة الحال على هذه الطفرة التى كانت تهدد عرشه فأقدم على
جريمته ليتخذ من حريق القاهرة سبباً لواد حركة — الوطنيين ، وبذلك أعطت
الأمرة الحاكمة لمصر أسطح الأمثلة على الخيانة والغدر والإجرام .

غدر واحتلال :

وكان الإنجليز عقب مذبحة الإسكندرية يبحثون عن وسيلة للاحتلال وقد وجدوها أخيراً كما يجد الذئب الوسيلة لاقتراس الحمل ، فقد وجد الأميرالسيمور قائد الاسطول البريطاني من الترميمات التي كانت تقوم بها القوات المصرية في حصون الإسكندرية وسيلة لتحقيق غرضه فأرسل في ١٨٨٢/٦/٦ بلاغا إلى قومندان موقع الاسكندرية هذا اسمه (البارجة أنفيل في ١٨٨٢/٦/٦ صاحب السعادة أشرف بإخباركم أني قد علمت عن طريق رسمي أنه قد صار البارجة تركيب مدفعين جديدين أو أكثر في خطوط اندفاع القائمة على البحر وأن بعض الاستعدادات الحربية قد عملت في واجهة الاسكندرية الشمالية تهديداً للاسطول الذي تحت قيادتي فيجب على والحالة هذه أن أنبئكم بوقف هذه الأعمال ، فإن لم تقف يكون واجبا على تدمير المعدات الجارية العمل فيها) وعلى الرغم من أن مجلس الوزراء أبلغ قائد الاسطول أنه وإن كان يرفض طلباته ولكن حقناً للدماء وإظهاراً لحسن النية فإنه سيبادر في إنزال ثلاث مدافع ، ولكن انجلترا قد بينت النية على الغدر لم يكن في وسعها أن تراجع فرفضت عرض الحكومة ، وطالب قائد الاسطول بإنزال جميع المدافع الساحلية ، وخشى أن تقبل الوزارة — عرضه . فتفوت بذلك فرصة الاحتلال. فأضاف إلى طلباته السابقة طلباً جديداً ، وهو الاحتلال بعينه ، وهو تسليم حصون المكس والعجمي وباب العرب وما وراء طاية المكس من الأراضي لاتخاذها معسكراً لجنود الانجليز وإلا بأشر ضرب المدينة عند الفجر .

وقد رفضت مصر هذا الإنذار بطبيعة الحال لما كانت شمس يوم ١٨٨٢/٧/١١ تبرز حتى قصفت البوارج الانجليزية المدينة وهدمت معظم حصونها وكثيراً من المباني وقتل من جراء ذلك العديد من الأهالي الآمنين بلغوا ٢٠٠٠ قتيل .

ويحذر بنا هنا أن نشير إلى ما قام به الأهالي من تضحية وجهاد ، فكانوا يساعدون الجنود بمدحهم بالمؤن والذخيرة ، وينصبون المتاريس في الشوارع والأزقة

وهم يذنبون الأناشيد الحماسية غير مكترئين بالقنابل التي كانت تساقط فوق رؤوسهم ، ولم يرعبهم كثرة الشهداء الذين كانوا يسقطون أمام أعينهم . . . وتجلى في هذا اليوم التعاون الوثيق بين الجيش والشعب وتأزرهما ضد الانجليز ولم يذنب عرابي الدور الذي قام به الشعب فقال : « وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين — ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات ، .

كما أوضح الشيخ محمد عبده في كتابه عن الثورة مدى تعاون الشعب مع الجيش أثناء ضرب المدينة ويقول في مذكراته ، فكان الرجال والنساء تحت — مطر الكل ويران المدافع ، يتعاون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا بها وكانوا يغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله ، وبينما كان الجيش والشعب يكافحان قوة تفوقهم بكثير نرى الخديوي يدير أمرا في الخفاء لأنه كان في قرارة نفسه يحقد على عرابي ومن معه ويضمر لهم الشر . فما كاد الانجليز يحتلون سراي رأس النين وشبه الجزيرة المتاخمة للسراي حتى أبدى — الخديوي لمن بقى معه من الأتراك والشراكسة رغبته في الاتصال بالأميرال سيمور ، والانضمام إليه ضد جنوده وشعبه ، وقد أبدى هذه الملاحظة عند ما قال لاتباعه :

(إن أم الأمور في نظري الآن أن ألفت نظر سيمور وأجعله على علم بامرنا وحقيقة نوايانا من جهته إن أمكن ذلك) . وكان يقصد بطبيعة الحال نواياه الحسنة تجاه الانجليز نظير حمايتهم له وبقائه حاكما على البلاد فأرسل من يدعى زهران بك إل قائد الأسطول يبلغه رغبة الخديوي في الحضور إليه والاحتفاء عنده من عرابي والشعب . مبديا استعدادا لكل معاونة تطلب منه وبعد ظهر يوم ٣١ يوليو سنة ١٨٨٢ سلم الخديوي نفسه إلى سيمور الذي استقبله هاشا باشا مرحبا ، في الوقت الذي كانت فيه مدينة الاسكندرية تحترق . ولقد كان لخيانة الخديوي للثورة صدى أليما في نفوس الشعب ، كما كان موقفه هذا من أسباب هزيمة مصر .

وجدير بالذكر أن فرنسا لم توافق انجلترا على موقفها القادر ، فأمرت أسطولها الراسى فى ميناء الاسكندرية بالانسحاب وعدم الاشتراك فى ضرب المدينة فانسحب الأسطول الفرنسى فى يوم ١٨٨٢/٧/٥ بناء على ما ورد لرئيس وزراء فرنسا من أن قائد الأسطول الفرنسى لم يشاهد أى ترميمات فى الحصون المصرية أو أى أعمال عدوانية ، كما أرادت انجلترا أن تصور الموقف فى ذلك الوقت ، بل أن رئيس وزراء فرنسا المسمى دى فرسينيه صرح ، بأن المعلومات التى لدينا لم تكن بالخطورة التى تبدو من رسالة الأميرال سيدور ، بحيث أن ضرب الاسكندرية فى الظروف التى وقع فيها إنما كان عملاً هجوماً لا دفاعياً ، وبذلك أطلقت فرنسا لانجلترا الحرية فى احتلال مصر . وعقب احتلال الانجليز لمدينة — الاسكندرية أخذ الأهالى فى الهجرة منها ، ووقعت فى ذلك الحين فجائع ومآسى تحدث عنها المؤرخين . ولم يتعاون مع المستعمر سوى الخديوى الذى أرسل إلى عرابى لتفراغه المشهور فى ١٨٨٢/٧/١٧ الذى — يدافع فيه عن نيات الانجليز ويأمره بالحضور فوراً . وقد رفض عرابى أوامر الخديوى ، وبدأ يستعد لمواجهة الانجليز . وكان هذا القرار بناء على إجماع الشعب والجيش الذى أصدر فى ١٨٨٢/٧/١٧ البيان الوطنى المشهور بوجوب الاستمرار فى الاستعدادات لمواجهة الانجليز .

وما كاد الخديوى يعلم بهذا البيان حتى عزل عرابياً .. ولكن ماذا يعنى ذلك العزل بمن لا يملكه ومن عرف بالخيانة ، حتى قبل أن يلجأ إلى — الانجليز .. إن الشعب هو الذى ولى عرابياً وقد وفى كل منهما لصاحبه فكيف يعزله الخونة ؟ .

تتابعت الحوادث بعد ذلك فى سرعة مذهلة ، تحوى بين طياتها ما جبل عليه الانجليز من خيانة وغدر . فقد ظن عرابى أن الانجليز سيحترمون حياد قناة السويس ويحافظون على المواثيق الدولية وخاصة أن — دليدبس خدعه عند ما طمأنه بقوله : « إن الانجليز مستحيل أن — يدخلوا القناة مستحيل ، وعلى هذا الأساس لم يوافق محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش على ردم القناة وأقام معسكراً فى بلدة التل الكبير ، أما الانجليز فقد احتلوا بور سعيد

في ٢٠/٨/١٨٨٢ وبذلك انحصر الجيش المصري ، ولم يكن لهذا الحصار أثر كبير في الهزيمة التي منيت بها مصر لولا عوامل الخيانة ومؤامرات الخديوى والانجليز فقد كانت البلاغات التي يصدرها الإنجليز تصدر باسم الخديوى ، ولم يكتف الخديوى بذلك ، بل عين الضباط المواليين له لمساعدة الانجليز فعين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب نائباً عنه لمراقبة قائد الجيش الانجليزى الجنرال ولسون في زحفه على العاصمة وقد اتبع من الوسائل الدنيئة ما يتدى له الجبن ، فاقبل بالعرب القاطنين في مديرية الشرقية وحنضم بالوعد مرة ثم بالوعد حيث لا ينفع الوعد ، ووزع من الأموال ما يكفي لشراء الذمم الخفية ، فأرشدوا العدو على الطرق والمسالك التي يجهلها . وبذلك تضافرت عوامل الغدر والخيانة والرشوة على الهزيمة ، وما كانت معركة ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ المعروفة بمعركة التل الكبير التي هزم فيها الجيش المصري إلا نتيجة حتمية لسلسلة الخيانات التي قام بها الخديوى وأعوانه الذين قبضوا ثمن خيانتهم وأسلموا بلادهم إلى العدو لقمة سائغة وقد فتحت معركة التل الكبير الأبواب إلى القاهرة فاحتلها الانجليز في ١٤/٩/١٨٨٢ وقبض على عرابي وصحبه ورجع الخديوى الخائن إلى العاصمة يحكم بمعاونة أسياده الانجليز الذين ظلوا جاثمين على قلب مصر زهاء سبعين عاماً حتى أخرجهم وطني آخر جاء من الشعب وقاد الجيش وهزم الاستعمار في كل معركة وتجنب الأخطاء التي وقع فيها من سبقه فغسل العار الذي لحق بنا فترة طويلة مريرة تعتبر من أحلك الفترات التي مرت على مصر .

الباب الثالث

الشعب المصرى يكافح الاحتلال البريطانى

- ١ - الاحتلال لم يطفىء شعلة الثورة .
- ٢ - صور من الكفاح الشعبى للاحتلال .
- ٣ - ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ .

١ - الاحتلال لم يطفىء شعلة الثورة

ارادة الحياة لاتموت :

اقتبسنا عنوان هذا الفصل ، وعنوان هذه الفقرات ، من الميثاق أيضا . وفي الميثاق دراسة رائعة لتاريخ مصر ، ولتكفاحها الشعبي . فتحدث الميثاق عن الاحتلال البريطاني كنتيجة لظهور الاحتكارات الاستعمارية الطامعة في منطقة الشرق الأوسط ، فقال الميثاق : « ولقد أحست الاحتكارات الاستعمارية الطامعة في المنطقة بالأمل الجديد يستجمع قواه ويتحفز . وكانت بريطانيا بالنات لا تحول أنظارها عن مصر بحكم اهتمامها بالطريق الى الهند . ومن ثم ألقت بثقلها كله في المعركة الثورية التي لاحت مقدماتها بين القوى الشعبية وبين أسرة محمد علي المدخلة المغامرة . »

وأشاد الميثاق بثورة عرابي التي اشترك فيها جميع المصريون ، شعبا وجيشا ، ووصف الميثاق هذه الثورة الوطنية فقال عنها : « وكانت ثورة عرابي هي قوة رد الفعل الثوري ضد النكسة . »

احتل الانجليز مصر ، ليضمنوا استمرار الامتيازات الأجنبية وما تؤدي اليه من احتكارات ، الى الأبد . وايضمنوا بقاء الخديوى صديقهم ، وعدو الشعب . فقال الميثاق : « وكان الاحتلال البريطاني العسكري لمصر سنة ١٨٨٢ ضمانا لمصالح الاحتكارات المالية الأجنبية وتأيدا لسلطة الخديوى ضد الشعب . هو التعبير عن ارادة الاستعمار في استمرار بقاء النكسة ومواصلة القهر والاستغلال ضد شعب مصر . »

حقا . نجح الانجليز في احتلال مصر ، وضمنوا امتيازاتهم ، وساءلوا صديقهم الخديوى ، وأيدوا مصالح الاحتكاريين والاقطاعيين ، ولكن هذا كله لا يطفىء شعلة الثورة في مصر ، فهي تستطيع الصمود أمام هذه الرياح والعواصف . فيقول

الميثاق : ، ان قوة الاحتلال البريطاني العسكرية ، وموافقات المصالح الاحتكارية والافطاع الذى أقامته أمرة محمد على باحتكارها الأرض أو اقتسام جزء منها بين أصدقائها أو أصدقاء المستقلين الأجانب ، ذلك كله لم يستطع أن يطفى شعلة الثورة على الأرض المصرية . .

لم تكن هذه المصائب الا عوامل جديدة لاذكاء نيران الكفاح الشعبى فى مصر ، وفى وادى النيل ، فارتفعت أصوات الشعب الثورية تعارض الاحتلال الأجنبى وارهاب أمراء أمرة محمد على . ان ارادة الحياة عن الشعب المصرى لاتموت ، بل كانت أصوات المدافع فى الاسكندرية من دوافع ازدياد اليقظة الوطنية . فقال الميثاق : ، ان وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة هذا الارهاب المتحكم الذى تستند قوى الاحتلال الأجنبى والمصالح الدولية الاستعمارية . أن اصدااء المدافع التى ضربت الاسكندرية ، واصدااء القتال الباسل الذى طعن من الخلف فى التل الكبير لم تكذب تخفت حتى انطلقت أصوات جديدة تعبر عن ارادة الحياة التى لاتموت لهذا الشعب الباسل ، وعن حركة اليقظة التى لم تقهرها المصائب والمصاعب . .

ما بعد الثورة العراقية :

عملت انجلترا على تصفية الثورة العراقية والتمهيد لسياستها الاستعمارية . وعملت انجلترا على كبت صورة لاعماء الثورة وعلى رأسهم عرابى . ودمرح جيش الثورة ، وشتت من اشتركوا فيها ، وثبت الخديوى على عرشه ، وحكم على زعماء الثورة — وعلى رأسهم عرابى والبارودى — بالنفى المؤبد الى جزيرة سيلان ، وهناك أمضوا ردها من الزمن حتى صدر الحكم بالافراج عنهم فى أوائل القرن العشرين .

وفى الجنى كتب البارودى روايته الشعرية التى تصور أحاسيسه عن الثورة وتعبير عن أشواقه الى الوطن . وخط عرابى مذكراته التى نشر بعضها بعنوان (كشف الستار عن سر الامرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العراقية) ،

ومنعت أسرة محمد علي نشر ما بقى من هذه المذكرات الى أن نشرتها (دار الهلال)
كاملة سنة ١٩٥٣ في عهد الثورة المباركة .

وأصدر المهندس محمود فهمي ، الذي اشترك في الثورة ، سجلا حافلا بعنوان
« البحر الزاخر في تاريخ الاوائل والاواخر » .

ولم يكن نزول الجيش البريطاني أرض مصر ، وانتصاره في موقعة التل
الكبير ودخوله القاهرة مجرد انتصار على عرابي ورجاله وحرمان البلاد من
استقلالها ، وإنما كان ذلك انتصارا على الحركة الدستورية التي كانت قد تمت في
أواخر عهد اسماعيل ، إذ عادت البلاد سيرتها الاولى من الاستبداد . فالغى
الاحتلال النظام الدستوري الذي نالته البلاد من قبل ممثلا في قيام مجلس النواب
وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية ، وألغى الانجليز بدلا منها نظاما صوريا قوامه
مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وكانت هئتين استشاريتين اجتماعاتها غير
علنية ولا سلطة ولا نفوذ لها .

سيطر الانجليز على مرافق البلاد وادارتها ، وأصبح المعتمد البريطاني هو حاكم
مصر الحقيقي ، يستمد الخديوى والوزراء منه السلطة . وينفذون أوامره ويسبحون
بحمده ، واستأثر الانجليز بالمناصب السياسية والادارية الكبرى ، فزاد عدد
الانجليز في الوزارات والمصالح الحكومية ، وتقاضوا مرتبات كبيرة . كما كان
لسائر الأجانب نصيب كبير في مناصب الدولة ، وأبعد الانجليز المصريين عن
الوظائف ومنعهم عن الاضطلاع بمسؤوليات الحكم .

وانبع الانجليز سياسة الارهاب ، ففرضوا القوانين التي تقيد الحريات ،
وامتثلت السجون بالوطنيين ، وألغيت حرية الصحافة ، ونجح الانجليز في السيطرة
على معظم الصحف المصرية ، مثل الوطن والاهرام والمؤيد . ولم تقو على مهاجمة
الاحتلال في جرأة وشجاعة ، سوى جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها السيد
جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده من باريس . وقامت هذه الصحيفة بدور

كبير في مقاومة الاحتلال البريطاني ، وبت آمال والتفاؤل في نفوس الشعب المصري ، ولذا عملت إنجلترا على منع دخول هذه الصحيفة الى مصر ، وفرضت غرامة مالية كبرى على من يحتفظ بنسخة منها .

تجلت مساوىء الاحتلال البريطاني في جوانب كثيرة : عسكرية ، واقتصادية واجتماعية وحضارية . فقد عمل الانجليز على القضاء على نهضة الجيش التي ظهرت واضحة خلال الثورة العربية ، وأرادت إنجلترا أن تضعف الروح العسكرية في مصر ، زاعمة أنها الكفيلة بالدفاع عن مصر ، ولذا عينت ضابطا انجليزيا كقائد أعلى للجيش المصري ، كما عينت كثيرا من الضباط الانجليز الذين سيطروا على الجيش ، وأصبح (الجنرال بيكر) مفتشا عاما للشرطة ، يساعده كثير من الضباط والجنود الانجليز .

وتجلت مساوىء الاحتلال البريطاني واضحة في الميدان الاقتصادي ، فعين الانجليز مستشارا ماليا بريطانيا سيطر على مالية البلاد ، ولم يهتم الا بتسديد استحقاقات الأجانب وديونهم ، واستغذت هذه الهيئات بعنف الميزانية ، فتوقفت الإصلاحات والمشروعات . وعانى الفلاح المصري من الضرائب الباهظة والمظالم ، وعملت إنجلترا على التوسع في زراعة القطن لتمد المصانع البريطانية بحاجتها ، وكان هذا التوسع على حساب المحصولات الأخرى التي يعتمد عليها المصريون في أنواتهم ، كما كان اعتماد مصر على محصول واحد يؤدي الى أفدح الكوارث اذا انخفض ماء النيل أو انتشرت دودة القطن ، وحدث هذا فعلا في سنوات ١٩٠٤ و ١٩٠٦ و ١٩٠٨ .

واجتهد الانجليز في أن يذيعوا أن مصر بلد زراعى ، حتى يروجون للمصنوعات الانجليزية في مصر ، وفرض اللورد كرومر رسما قدره ٨٪ على جميع المصنوعات المصرية تشجيعا لاستيراد المنسوجات القطنية الانجليزية حتى كانت ترقف صناعة الغزل والنسيج في مصر . وأقبل الأجانب على انشاء المصانع برؤوس أموال أجنبية للقضاء على الصناعات المصرية ، وسيطر الأجانب على جميع الموارد الاقتصادية في مصر .

أما مساوىء الاحتلال الاجتماعية . فقد ظهرت واضحة في إهمال الانجليز لكل إصلاح اجتماعى ، ونقل الانجليز الى عصر مساوىء حياتهم الاجتماعية الأوروبية، وما تتصف به مادية وعدم اكتراث بالأخلاق والقيم الروحية ، والمبث بالآداب العامة .

وامتدت هذه المساوىء الى جوانب الحضارة المختلفة . فقد أهمل الانجليز التعليم والثقافة في مصر ، وأصبح التعليم بمعروفات باحظة ، ووضع الانجليز سياسة تعليمية تقضى بتخريج موظفين للدولة . ونفذ هذه السياسة المستشار الانجليزى (دنلوب) الذى عمل على نشر السلية وروح الامتسلام ، وامتلات المدارس المصرية بالمدرسين الانجليز ، وأصبحت اللغة الانجليزية لغة التعليم ، وأصبحت الأمية بعد أربعين عاما من الاحتلال البريطانى تمثل ٩٢ ٪ من البنين و ٩٧ ٪ من البنات .

أبحاث الكفاح الشعبي من جديد :

حاول الانجليز عبثاً أن يخمدوا الروح الوطنية، وأن يكمدوا الأفواه، ولكن روح الكفاح لم تخمد ، وأصبح الخلاص من الاحتلال البريطاني مسألة حياة أو موت لكل مصري . فقد كان تيار الوطنية من القوة بحيث يحرف أمامه كل عقبة قد يحاول الانجليز أن يضموها في طريقه . كانت كل عوامل الثورة والكفاح موجودة وكامنة ، لا ينتصها الا ظهور زعامة وطنية رشيدة تقود الكفاح ، وكان مصطفى كامل هو ذلك الزعيم المنشود المرتقب .

شهد مصطفى كامل احتلال البريطانيين لبلاده ، وكان حزيناً في الثامنة من عمره ، وسافر بعد ذلك الى فرنسا لدراسة القانون ، وعاد سنة ١٩٨٤ ليشهد مساهمة الاحتلال التي عددها جوانبه ، ورأى أن مصر في حاجة الى أبنائها النخاسين المثقفين ، وأدرك أنه لا بد من مرحلة جديدة من الكفاح الشعبي حتى يتحقق أمل الشعب في الجلاء والدستور .

وعمل مصطفى كامل على بلورة هذه الأفكار الوطنية ، واتخذ الى تحقيق ذلك سبيلين ، أولهما الخطابة ، فقد كان يتمتع بمواهب خطابية واضحة ، وثانيهما الصحافة ، فبدأ بنشر مقالات تفيض وطنية في صحيفة الأهرام والمؤيد ، ثم رأى مصطفى كامل أن ينشئ جريدة خاصة تكون منبرا لأفكاره الوطنية التحريرية فأصدر في سنة ١٩٠٠ جريدة (اللواء) التي أقبل الشعب المصري على قراءتها في حاس وشرق ، ودعا مصطفى كامل فيها الى نشر التعليم القومي ، وإنشاء المدارس الأممية التي تصطبغ بصيغة وطنية تميزها عن المدارس الحكومية التي سيطر عليها الانجليز ، كما دعا الى إنشاء جامعة مصرية . اذ أن العلم الحر هو السبيل الى الاستقلال الحر . واستجابت عناصر الشعب الى دعوات مصطفى كامل . فقامت مدارس أهلية مصرية حملت أحدها اسمه ، وأقبل الناس على التبرع بأموالهم من أجل إنشاء الجامعة المصرية ، وتألقت لجنة تأسيسية للجامعة سنة ١٩٠٧ ، وحارب

الإنجليز هذه المشروعات ، ولكن روح الشعب القوية حققت لها النجاح . وامتد نشاط مصطفى كامل الى الميدان الاقتصادي ، فدعا الى الاهتمام بالصناعات المصرية الى جانب الاهتمام بالزراعة ، ودعا الى أن مصر بلد زراعى وصناعى فى وقت واحد .

وامتد نشاط مصطفى كامل الوطنى الى خارج مصر ، فنشر مقالات وطنية حماسية فى الصحف الفرنسية ، كشف فيها عن مساوىء الاحتلال البريطانى ، وقام بحملات ناضجة فى العواصم الأوروبية، فزار باريس وبرلين وينا ولندن، وناشد الشعوب الأوروبية أن تعاضد الشعب المصرى فى مطالبه العادلة، وفى تمته بحقوقه فى الاستقلال والحرية . وبذلك نجح مصطفى كامل فى أن تصطبغ المسألة المصرية بالصبغة الدولية .

ووقف مصطفى كامل من اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ موقفا وطنيا حازما ، فقد عارض هذه الاتفاقية وقال عنها أنها دجامت برهانا جديدا على عدم مراعاة إنجلترا للعهود والمؤتمرات . . لأنها تخالف نصروس القرمات العائدة الى خديوى مصر .

٢ - صور من الكفاح الشعبي للاحتلال

جهود مصطفى كامل :

بعد هزيمة عرابي ونفيه مع زملائه خارج البلاد ومصادرة أملاكهم احتل الانجليز مصر (١) ولم يخرجوا منها كما كانوا يتشددون بأنهم ما جاءوا إلا لحماية الخديوى والرعايا الأجانب ولكي يتخاضوا من الرايين فلما تحقق لهم كل ذلك ظلوا يحتلون البلاد ويستنزفون مواردها ولم يف الانجليز على مر السنين بأى وعد فطموه بالجلاء ، ولكن المصريين لم يخضعوا ولم تن عزيمتهم وهبوا يقاومون الاحتلال كما قاوموه فى جميع المهور والعمور بايمان وعزم ، لا يرهيبهم الحديد ولا النار ، فتألفت الجمعيات السرية وقام الزعماء المخاضون يقاومون الاستعمار باخلاص وعلى رأسهم الزعيم مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى الذى هب يقاوم الانجليز بايمان ثابت وعقيدة راسخة ، وكرس حياته لمحاربتهم وفضح أساليبهم أمام العالم ، وكان جهاده هو الشعلة الأولى التى أيقظت الشعور الوطنى وأشعلت الحماس فى قلوب الوطنيين عقب الاحتلال ، وأنارت الطريق أمام المجاهدين لمقاومة الغاصب وكان مصطفى كامل أول من ندد بالاستعمار وفضح أساليبه . وفى سبيل تحقيق ذلك سافر الى الخارج وترددت صيحاته فى القارة الأوروبية فوجه نداءه المشهور الى مجلس نواب فرنسا فى يونيو سنة ١٨٩٥ وكان له قوى كبير فى جميع أنحاء العالم ، ثم خطب فى مدينة تولوز فى يوليو سنة ١٨٩٥ منددا بالاستعمار الانجليزى وكتب فى صحف فرنسا والنمسا مدافعا عن القضية المصرية . وفى سبتمبر سنة ١٨٩٥ تعرف بمدام جوليت آدم ذات النفوذ والشهرة العظيمة بفرنسا فقدرت جهاده وعاونته معاونة صادقة فى كفاحه ضد الانجليز وحصل من جلاديستون زعيم الأحرار بانجلترا على وثيقة يقر فيها بضرورة جلاء الانجليز

(١) أعادت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ للرايين أموالهم كما أقامت تمثالا لمرابي

بمدينة الزقازيق .

عن مصر ، وذلك في يناير سنة ١٨٩٦ وأصدر جريدة اللواء باللغات الثلاث ،
الانجليزية ، والفرنسية والعربية ، للدعاية لقضية المصرية . ثم أنشأ الحزب الوطنى
فكانت هذه الجهود المحمسة هي : الوقود الذى أذكر جذوة الوطنية في نفوس
المصريين وأعاد اليهم ثقتهم بأنفسهم ، فالتفوا حوله وذكرهم ذلك بالبطل عرابى
حينما انضم الشعب اليه . ولما وقعت حادثة دنشواى في ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ هزت
مصر هزا عنيفا كما حركت الضمير العالمى . وانقلبت صفحة سوداء أضيفت الى
الصفحات السود لتاريخ إنجلترا ، وكان الفضل في إثارة فظائع هذه الحادثة لمصطفى
كامل ، وكان رحمه الله في أوروبا عندما نفذت إنجلترا حكم المحكمة الانجليزية
فقام يتدد بالاستهزاء ويصور حادثة دنشواى على حقيقتها وبين العالم جرائم
الانجليز الوحشية . وقد غنى الحكم بالثمن والأشغال الشاقة والجلد على الكثير
من الأهالى وتم تنفيذ الحكم بطريقة بدائية وحشية لم يرو التاريخ لها مثيلا .

مأساة دنشواى :

وخلاصة هذا الحادث الأليم أن بعض الضباط الانجليز أرادوا أن يذهبوا
الى إحدى القرى في نزهة لصيد الحمام فدلهم بعض الناس على قرية تسمى دنشواى
يكثر فيها الحمام فتوجهوا اليها ، وكانوا خمسة من الضباط هم الميجور كوفن والكابتن
بول والملازمان بورتر وسميث وطبيب يعطرى يدعى بوستك ، وكان يرافقهم
عسكري مصرى أوفده ضابط نقطة الشهداء ليسر لهم عملية الصيد ، ولينع احتكاكهم
بالأهالى وعند وصولهم لقرية دنشواى توجه العسكري لاحتضار العمدة ولكنه لم يجده
لتنبيه عنها في عمل خارج القرية فلم ينتظروا وباشروا الصيد ، وتوجه بعضهم الى
داخل القرية حيث يعيش أهلها — وكان الوقت منتصف شهر يونيو سنة ١٩٠٦
والأجران ممتلئة بأعواد القمح وكانت تقف على أحد هذه الأجران بعض الحمام
وصوب أحد الضباط الانجليز بندقيته نحوها فتعدى له صاحب هذا الجرن وهو
شيخ يبلغ من السن ٧٥ ، ورجاه ألا يطلق النار حتى لا يحترق الجرن ، ولكن
الانجليزى لم يعبأ باعتراضه وأطلق النار فأصاب فلاحا هي زوجة صاحب الجرن ،
وشبت النار في الجرن وتجمع الأهالى لمساعدة مواطنهم ضد الانجليز الغرباء الذين

اقتحموا بلدتهم الآمنة لأول مرة في حياتهم ، كما حضر شيخ الخفراء والخفراء لقيام بواجبهم نحو حفظ النظام والامن ومنع الاعتداء من أى طرف حتى يحضر أولو الامر . فما كان من الانجليز الخمسة الا أن أطلقوا نيران بنادقهم على الأهالي ، فأصابوا ثلاثة من الخفراء من بينهم شيخ الخفراء وتمكن الأهالي وباقي الخفراء من القبض على ثلاثة من الضباط الانجليز واحتجزوهم حتى جاء ضابط نقطة الشهداء الذى أوصلهم الى معسكرهم سالمين ، وقد هرب أثناء ذلك الكابتن بول والطبيب البيطرى بوستك وكان الأول قد أصيب فى رأسه أثناء المهرج الذى ساد خلال إطلاق النار نتيجة القاء بعض الطوب والحجارة عليه وظل الضابطان الهاربان يجران من الخوف والملع ثمانية كيلو مترات تحت أشعة الشمس المحرقة حتى سقط بول صريع ضربة الشمس ببلدة سمرنا فتركه زميله الطبيب البيطرى ولم يقدم له يد المساعدة ولم يحاول علاجه بل ظل يعدو هاربا حتى وصل الى بلدة كشوش حيث كانت تمسك كتيبتهم ، وقد مات بول متأثرا من ضربة الشمس كما ثبت من تقرير الطبيب الشرعى وهو انجليزى الجنسية ولم يكن لاحد بعينه يد فى قتله اللهم الا زميله الذى تركه لمصيره . ومع ذلك فقد حكمت انجلترا بالقتل على أربعة من الأهالي وعلى تسعة بالاشغال الشاقة وعلى ثمانية بالحبس والجلد أمام ذويهم وأهلهم فور صدور الحكم الذى تم فى القرية الآمنة المناضلة .

ويصف الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل طريقة تنفيذ الحكم فيقول : ، فكان التنفيذ فى اليوم التالى لصدور الحكم فى المكان الذى مات فيه الكابتن بول . وفى مثل الساعة التى وقعت فيها الحادثة وفى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليهم بالاعدام والمحكوم عليهم بالجلد الى نقطة الشهداء على مسافة عشرين كيلو مترا من شين الكوم وأربعة كيلو مترا من قرية دنشواى ، وأنزلوا بها بحراسة الجنود الانجليز والمصريين حتى اذا اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر جرى بهم الى دنشواى وهناك نصبت المشنقة وآلة الجلد ، ونفذ الحكم فى المشنوق الأول علنا على مرأى ومسمع من أهله وذويه وبين صياح

النساء ونواحهم وبقى معلقا بينما نفذ حكم الجلد في اثنين ثم شق الثاني بهذه الطريقة. يليه جلد اثنين آخرين وهكذا حتى تمت المجزرة في منتصف الساعة الثالثة مساءً .

فلما بلغت مصطفى كامل أخبار هذه المجزرة وطريقة تنفيذها هب على الفور يستصرخ الضمير العالمى رغم مرضه وكتب مقاله التاريخى (الى الأمة الانجليزية والعالم المتدين) وكان له أثر كبير فى شرح القضية المصرية ، وكان من نتيجته اقالة كرومر واشتداد الحركة الوطنية ، ثم تحققت الدعوة التى طالبها كانينادى بها مصطفى كامل مطالبا بإنشاء جامعة فى مصر فتأسست الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ .

وظل مصطفى كامل يطالب بالعفو على من سجن فى حادثة دنشواى واتصل بالنواب الأحرار فى البرلمان الانجليزى وتحت هذا الضغط أفرجت انجلترا عن مسجونى هذا الحادث المشنوم فى ٨ يناير سنة ١٩٠٧ .

ووافقه الأجل من أثر الجهد الذى قام به فى سبيل مصر فى ٢/١٠ سنة ١٩٠٧ عن أربعة وثلاثين عاما قضاهما فى الكفاح والنضال ومحاربة المستعمرين حتى هزم هذا عنيفا، وأوضح للعالم الصورة المشينة التى كانوا يتسمون بها وأسلم قيادة الحركة الوطنية الى زميله المجاهد محمد فريد فتسلم الأمانة وحمل الرسالة وسار فى نفس الطريق الذى رسمه مصطفى كامل بشرف وأمانة فسافر الى الخارج متأميا خطى مصطفى كامل ليدعو للقضية المصرية وعقد المؤتمرات فى جميع أنحاء العالم منها المؤتمر الذى عقد بجنيف سنة ١٩٠٩ ، واستوكلم سنة ١٩١٠ وبروكسل سنة ١٩١٠ وبرلين وغيرها مما ضايق الانجليز فسجنوه بتهمة صحفية مختلفة ابتغاء الحد من وطنيته ، ولكنه خرج من السجن أقوى وأثبت على النضال من ذى قبل . وقال كلمته المشهورة لمن حاولوا معه من السفر الى أوروبا خوفا على صحته :

(اتنا نعرف كيف نسير على المكاره ، ولكننا لانعرف التسليم فى حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا) .

هتري مصرع بطرس غالى :

وقد وقع فى أوائل هذا العام حادث خطير هو اغتيال بطرس باشا غالى رئيس مجلس النظار فى ذلك الوقت، وكان لاغتياله دوى كبير فى جميع الأوساط الداخلية والخارجية . وبطرس غالى يعتبر من أسوأ من تولوا الوزارة المصرية ولا يذكر له الممريون حسنة من الحسنات ، فقد كان رئيسا للمحكمة المخصوصة التى حكمت على ضحايا دنشواى سنة ١٩٠٦ — وهو الذى ساهم وساهم الانجليز على مد اتفاقية قناة السويس — وفى عهده خفقت الحريات وأعيد العمل بقانون المطبوعات كما كانت له اليد الطولى فى اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان التى بمقتضاها تركنا السودان لقمة سائغة للانجليز ، وقد كتبت عن هذه الاتفاقية جريدة الجرنال أجبثيان فى عددها الصادر فى ١٨٩٩/١/٢٠ : «لقد وقع أمر أفظع اغتصاب فى هذا الجيل وهو عقد الاتفاق الذى أبرم بين الناصب القاهر والمنصوب العاجز ، فقد وقع مجلس النظار المصرى العقد المشتمل لانتخليا عن السودان مؤقتا فذهب ، وإنما تنازلا منه عن ملكية أراضيه الفسيحة لانتجلترا — وهكذا دخلت انتجلترا السودان وتمصنت فيه وبعد ما كان بالأمر أرضا مصرية أصبح فى أيدي الانجليز ومدافعهم الى الشمال .»

هذا هو بطرس غالى باشا رئيس مجلس النظار الذى قتل بعد تاريخ سافل بالحيانة والغدر ، وكأته أجنبي جاء ليعكم البلاد .

فن هو القاتل وكيف وقع الحادث

قام بالأمر فى هذه الواقعة ابراهيم الوردانى من أعضاء الحزب الوطنى، وكان شابا لم يتمد منه واحدا وعشرين عاما ، تلقى علومه فى سويسرا وانتجلترا وكان يؤمن بمبادئ الحزب الوطنى ويتأجج وطنية وحامية وغيره على وطنه . وكانت تأتبه أخبار مصر المحزنة وهو يتلقى علومه فى الخارج فكان يحزن لها ويتألم وقد تأثر بحادث دنشواى وأوغر صدره وزاد حنقه عندما علم أن رئيس المحكمة أصبح ناظرا للنظار فصمم على اغتياله .

وفي صباح يوم ٢٠ من فبراير سنة ١٩١٠ عندما هم بطرس غالى بركوب عربته سمع من يناديه من الخلف بأن له شكوى فالتفت الى مصدر الصوت فهاجله ابراهيم الوردانى بثلاث رصاصات خر بعدها بطرس باشا مخرجا بدمائه ، وكان معه في ذلك الوقت فتحي زغلول . وعندما قبض على ابراهيم الوردانى وسأله رئيس النيابة عن سبب القتل قال : لانه خائن للوطن والخائن جزاؤه البتر . وكان ابراهيم الوردانى في جميع مراحل التحقيق رابط الجأش ثابت الجنان ، لم يرهبه وعد أو يخيفه وعيد ، ولم يعترف على غيره رغم مالاتي من تعذيب . وان كانت الحكومة قد قبضت على بعض رجال الحزب الوطنى وزجت بهم في السجون . وقد مثل النيابة النائب العام عبد الحالى ثروت الذى تولى الوزارة بعد ذلك وطالب رئيس المحكمة . وكان يدعى مستر وليوجلو ، بعدم الخوض في السياسة واسماعيل أبو النصر ، واسماعيل الشيمى ، وكانت المحكمة تمنع المحامين من التحدث في السياسة ، ولكن ابراهيم الهلباوى أجاب عندما طلب منه رئيس المحكمة . وكان يدعى مستر وليوجلو ، بعدم الخوض في السياسة . كيف تطلب منى ذلك . أتريدون رأس المتهم دون أن أفتح فى . كيف لا أتحدث في السياسة والجريمة سياسية ووطنية مشرفة دفعت المتهم الى ارتكابها دوافع سامية شريفة ، وقد قضت المحكمة باعدام المتهم .

وفي صباح يوم ٢٨ من يونيو سنة ١٩١٠ تقدم ابراهيم الوردانى بخطوات ثابتة نحو المشقة وهو يهتف : الله أكبر الذى يمنح الحرية والاستقلال .

ومات الشاب ابراهيم الوردانى ضحية رأيه وعزمه ومات رئيس نظام مصر بطرس غالى ولم يذكره سوى الحديوى ومن يلوذ به من الخونة والمستعدين .

جهود محمد فريد :

عندما شبت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ كان محمد فريد محامى مصر الأول لدى دول العالم .

فوجه دعوته وتداعياته الى هذا الدول مطالبا بحق مصر في الاستقلال والحرية ،

وكان شعاره ، مصر للمصريين ، منددا بالاستعمار وأعوانه مطالباً بالجلاء الناجز عن مصر ، ودعا الى انشاء مجلس النواب وایجاد حكومة وطنية وكان له بجانب نشاطه السياسى نشاط آخر اجتماعى فأنشأ مدرسة ليلية فى بولاق لتعليم الفقراء والعمال بالمجان وأشرف على ادارتها والتدريس بها أعضاء من الحزب الوطنى بدون أجر .

وطالب محمد فريد بمجانبة التعليم . على أن يكون الزاميا للجميع فى الدور الابتدائى . كما كان يعطف على الفلاحين والعمال وأنشأ أول نقابة عمالية فى مصر يولاق ١٩٠٩ — ونادى بتخفيف عبء الضرائب على الفلاحين وبفضل حملة محمد فريد لم تمكن وزارة بطرس غالى من تنفيذ المزامرة التى دبرها الانجليز معها لمد امتياز قناة السويس . وكانت هذه الاتفاقية تدور فى كتمان شديد — ولكن محمد فريد حصل على نسخة من هذه الاتفاقية ونشر فحواها فى جريدة اللواء وكشف بذلك الخيانة التى كانت تدبر ليل — مما أساء الى مركز الحكومة وأخرجها أیما احراج فاضطرت الى الاقلاع عن تنفيذ الاتفاقية . وظل يحمل الرسالة حتى ضمنت صحته ووافاه الاجل غريبا وحيدا ببرلين فى نوفمبر سنة ١٩١٩ بعد أن شبت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نتيجة لكفاح الشعب المستمر وأثر من آثار الجهاد الذى قام به أبناؤه المحاصرون منذ أن وطأ الاستعمار أرض الوطن فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وقد كان ذلك من دواعى السرور وتبلج الامل فى قلب فريد الكبير فختم حياته الخافلة وهو يكتب عنها فى مذكراته بأنه رأى فجر الامل يرمم على الافق خطا من النور اللامع يأمل أن يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو .

وكانت هذه المذكرات آخر ما كتبه محمد فريد من منغاه ، حيث مات فى ١٥ سبتمبر ١٩١٩ فنصرت مصر وطنيا كبيرا وابنا بارا .

٣ - ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩

مصر قبل الحرب العالمية الاولى :

فى مطلع القرن العشرين ظهرت تيارات عربية كثيرة ، شاركت مصر فيها ، وأثرت فيها وتأثرت بها . فقد قام بعض العرب يلفت النظر الى الفساد المنتشر فى الدولة العثمانية ، وطالبوا باصلاح أحوال البلاد العربية ، وبدأوا يقارنون بين الولايات العربية وصائر الولايات العثمانية ، وخرجوا بنتيجة هى أن حقوق العرب مهضومة وظهرت تيارات عربية فى العالم العربى ، قبل الانقلاب الذى حدث فى تركيا سنة ١٩٠٨ ، عملت على القضاء على فكرة الجامعة الاسلامية ، وعلى احياء القومية العربية .

وكان لوقوع مصر خارج نطاق حكم السلطان العثمانى المستبد عبد الحميد ، مما جعل القاهرة مركزا من مراكز مقاومة استبداده ، وكانت باريس المركز الثانى . وفى هاتين العاصمتين أخذت جماعة من اللاجئين السياسيين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « تركيا الفتاة » تدبير انقلاب فى تركيا ونجحت مؤامرتهم فى ٢٤ يوليو ١٩٠٨ .

كانت نهاية حكم السلطان عبد الحميد ايذانا بغروب شمس الجامعة الاسلامية ، وشروق شمس القومية العربية ، فقد ساعد استبداد وظلم عبد الحميد على نمو الشعور القومى الكامن المتأصل عند العرب . وكانت الفترة التى انقضت بين سقوط عبد الحميد فى سنة ١٩٠٨ وقيام الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فترة حافلة بالنشاط القومى المركز ضد السيادة التركية التى أدت الى الإطباع الأوروبية فى العالم العربى .

وكان أمل العرب فى الدستور الذى أعلنه الأتراك سنة ١٩٠٨ عظيما ، فقد أملوا أن يسوى الدستور بين الترك والعرب ، ولكن سرعان ما خاب أملهم . فقد قام على أساس (الدولة الطورانية) التى تحبى محمد جنكيزخان وتيمور لنگ ، ولم

يعبأ واضعوه بالروابط التي تربط تركيا بالعروبة والاسلام . فوقف العرب في العراق واليمن وسوريا ولبنان ومصر من تركيا وجها لوجه معلنين عروبتهم وقوميتهم .

استولت « جمعية الاتحاد والترقي » على الحكم في اسطنبول سنة ١٩٠٩ ، وبدأت الصحف التركية بالاشادة بأجداد الطورانيين وسب العرب ، وتدعو الى تطهير اللسان التركي من الالفاظ العربية ، ورفع أسماء الخلفاء الراشدين من المساجد . وأصبح واضحا أن بقاء العرب تحت سيطرة الترك معناه افناء القومية العربية ولغة العرب ، ولذا بدأ العرب يدعون الى استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية .

اعلان الحماية البريطانية على مصر سنة ١٩١٤ :

لم يسكت المصريون عن المطالبة بالاستقلال وانهاء الاحتلال البريطاني ، منذ قدوم الانجليز سنة ١٨٨٢ ، وقد رأينا جهود الشعب المصري ، وجهود زعمائه المخلصين أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهما . ورغم وفاتها ، فقد استمر السكتاح ، واستمرت المطالبة بجلاء الانجليز . ولكن قيام الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ خلق ظروفا دولية أضرت بالحركة الوطنية في مصر . فقد قامت حرب دولية كبرى ، وانقسم العالم الى كتلتين متصارعتين ، كتلة تزعمها ألمانيا والنمسا وكتلة أخرى تترأسها إنجلترا وفرنسا . ولوجود الجيوش البريطانية في مصر وسيطرة الانجليز على المرافق المصرية ، أصبح محتما أن تبحر إنجلترا بمصر الى ويلات هذه الحرب العظمى ، سواء شاء المصريون ذلك أو أبوا . فقد أرغم الانجليز الحكومة المصرية على الامتناع عن التعامل مع ألمانيا وحلفائها ، وعلى تحويل القوات البريطانية البرية والبحرية على استعمال جميع الأراضي والمرافق المصرية ، وأن تعلن الاحكام العرفية ، وتفرض الرقابة على الصحف ، وبدأ حكم ارهابي شديد الوطأة .

وانضمت تركيا الى جانب ألمانيا في الحرب في نوفمبر ١٩١٤ ، ووجد الانجليز

في ذلك فرصة لينتزعوا مصر تماماً من تركيا ، وكانت مصر حتى ذلك الوقت تابعة من الناحية الاسمية لتركيا . وأدركت انجلترا أن مصر ستكون قاعدة حربية كبرى ، ومركز تجمع لقواتها الحربية القادمة من الهند وأستراليا وجنوب أفريقيا ، ولذا رأت انجلترا أنه من الضروري تغيير وضع مصر السياسي الذي حددته معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والقرمانات التي صدرت في عهد إسماعيل ، وهو الوضع الذي يعترف بالسيادة التركية .

أصدر القائد العام البريطاني في مصر بياناً أعلن فيه انضمام تركيا إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، ثم ختم بيانه بهذه العبارات : « ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمي القطر المصري ، فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصري أية مساعدة ، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالي وتطلب إليهم الامتناع عن أي عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها أو أي مساعدة لأعدائها . »

وأعلنت انجلترا حمايتها على مصر في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وانتهاء السيادة التركية ، وعزلت الخديوي عباس الثاني ، وكان حينئذ في زيارة لتركيا ، كما كان معروفاً بميوله التركية ، وولت بدله الأمير حسين كمال ومنحته لقب (سلطان) ، وبدأت انجلترا تخطط لضم مصر إلى إمبراطوريتها والقضاء التام على استقلال مصر وأصبح المعتمد البريطاني هو الحاكم الحقيقي لمصر ، وأخطرت انجلترا السلطان الجديد أن المعتمد البريطاني سيتولى كل شؤون مصر الخارجية ، وهذا معناه إلغاء وزارة الخارجية المصرية .

أثارت هذه القرارات الظالة لمشاعر المصريين ، وما لبثت الأراضي المصرية أن شهدت آلافاً من الجنود من مختلف العناصر والأجناس ، وقد حشدتهم انجلترا في مصر ، وقاسى المصريون من وجودهم الكثير ، وارتفعت أصوات المصريين بالاحتجاج ، ولكن انجلترا اتبعت سياسة القمع والارهاب وملاّت البجون بالوطنيين المصريين ، كما نفت كثيراً منهم خارج القطر ، ثم عطلت الجمعية التشريعية

التي كانت حينئذ رمزاً متواضعاً لاشتراك المصريين في حكم بلادهم .

وأصبحت الحرب العالمية الأولى كارثة بالنسبة للمصريين ، فقد أصبح الفلاحون المصريون مرغمين على أن يقدموا محصولاتهم إلى هذه الآلاف من الجنود البريطانيين ، واستولى الانجليز على دواب وحيوانات هؤلاء الفلاحين . وسخر الانجليز المصريين في حفر الآبار ومد أنابيب المياه وتعميد الطرق ، وهلكت أرواح كثيرة في هذا السبيل ، كما حملت الميزانية المصرية أعباء هذه الأعمال .

مصر والثورة العربية سنة ١٩١٦ :

كانت ثورة العرب على الحكم العثماني عند إعلان الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ تقل على اقتراحهم من فكرة الجامعة العربية وتحقيق قوميتهم في صورة عملية إيجابية. فقد انضمت تركيا إلى ألمانيا ، وبدأ الأتراك يقتلون رجالات العرب ، وينفون الأسرى العربية الكريمة إلى الأناضول لتنفيذاً لسياستهم العربية القاضية بتتريك العناصر غير التركية بالقوة . وكان العرب في الدولة العثمانية لهم أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما :

أولاً : الإغضاء عن فظائع الأتراك والسكوت عن مذابحهم ، على أن تسوى شئون العرب معهم بعد انتهاء الحرب .

ثانياً : الثورة على الأتراك ، ومحاربتهم في جانب الحلفاء .

وكان اتباع الخطة الأولى معناه القضاء المبرم على العرب وقوميتهم ولغتهم، لأنه كان من المستحيل زحزحة الأتراك الاتحاديين عن سياستهم التركية والطورانية ، كما كان هؤلاء لا يعترفون باللغة العربية في الحكومة والمدارس وكان الأتراك لا يعترفون بكيان سياسي أو قومي للشعب العربي . وكان الاتحاديون يرون أن يصبنوا العرب بالصبغة التركية أو يفنوم . ومن المعروف أن ألمانيا كانت تطمع في العراق وفي قسم من الأناضول ، وأن خط بغداد الحديدي كان الأداة الكبرى

لتطبيق سياسة ألمانيا الاستعمارية ، وكان هناك كثير من العرب ممن يخافون على قوميتهم العربية من أطماع ألمانيا .

وإن كان العرب يفضون الممثلين المقاطنين على السواء لما يعرفونه من أطامهم السياسية الاستعمارية ، إلا أن العرب كانوا مرغبين بحكم ظروفهم السياسية أن يحددوا موقفهم من الأطراف المتصارعة . ورأى العرب أنه إذا انتصرت ألمانيا وتركيا ، فمير الشام والعراق يكون إلى التريك ، وإلى التعرض للنفوذ الاستعماري الألماني . ورأى بعض العرب تأييدهم للغرب ربما يكون أهون شراً وأخف وطأة ، وربما يعترف الخلفاء بفضل العرب إذا أبدوا في محنتهم ، فيمنحوا الأقطار العربية ما يطمحون فيه من حرية واستقلال .

بدأت الثورة العربية الكبرى في الحجاز في سنة ١٩١٦ ، ومن أسباب هذه الثورة الفظائع والجرائم الوحشية التي اقترفتها الحكومة التركية في بلاد الشام خلال الحرب العظمى الأولى ، وجعلت القائد جمال باشا منظماً ومنفذاً لها . وهذه المذابح تبين ما كان الأتراك الاتحاديون يبيتونه للعرب ، تلك السياسة التي أساسها (القومية التركية) وتترك العرب بالقوة . فقد بدأ جمال باشا سنة ١٩١٥ بتشتيت شمل الضباط العرب ، فوجههم إلى جهات القتال في الأردنيل وجبال القوقاز ، ثم اعتقل نخيرة شباب العرب ودفع بهم إلى محكمة عسكرية ، فحكمت عليهم بالقتل ، ونفى مئات من الأعر العربية الكبيرة إلى الأناضول بغية تتركهم فيها ، واتخذ سياسة تهويج عرب الشام ومات مئات الألوف من العرب جوعاً .

كانت الخطة الحربية التي وضعتها القيادة العثمانية — بالاتفاق مع الألمان — تعود بأشد الضرر على الأقطار العربية ومنها مصر . فقد أرسل العثمانيون الجنود العراقيين إلى قافقاسيا في شمال شرق الأناضول ، فمات معظمهم نتيجة البرد القارس . كما أن هذه الخطة أدت إلى أن تركت العراق محروماً من حامية قوية . ولذلك عند ما أرسل الإنجليز من الهند جيشاً لامتلاك البصرة استطاع الإنجليز احتلال جنوب العراق بسهولة ، ثم تقدموا نحو الشمال رويداً رويداً ، واستلزمته خطة

القيادة حشد الجيوش وتعبثها في سوريا وفلسطين ، وكانت تتطلب اجتياز صحراء النقب مع شبه جزيرة سيناء ، وكانت تهدف إلى فتح مصر وطرد الإنجليز منها . أخذت القيادة العامة العثمانية تحشد الجيوش في سوريا لهذا الغرض ، وعهدت بقيادة هذه الجبهة إلى وزير البحرية جمال باشا ، وأعطته سلطة مطلقة في جميع الشؤون العسكرية والإدارية والمالية . وكان جمال باشا هذا أحد الثلاثة الذين يسيطرون على مشئون الدولة والحرب سيطرة تامة ، وكان معروفاً بميوله الطورانية ، فقد كان يدعو إلى القومية التركية ، ولا شك أن هذا باعد كثيراً بينه وبين العرب .

هذا الإرهاب أزال الثقة من نفوس العرب بوعود الأتراك ، ورأى العرب أنه لا سبيل إلى تمام جدى . وبدأ العرب يقولون : لا بد أن تنتهى الحرب بانتصار أحد الطرفين . وإذا انتصرت دول الحلفاء استولت جيوشها على البلاد العربية ، وسينسحب الأتراك منها ، وستبقى تحت رحمة هؤلاء الحلفاء . أما إذا انتصر الأتراك ، فيفعلون بنا أضعاف ما كانوا يفعلونه قبلاً ، وسيستمرسلون في سياسة التريك فيحرموننا من حقوقنا القومية ، ويسعون للقضاء على قوميتنا . ولذا قام العرب بثورتهم سنة ١٩١٦ .

غدر الحلفاء بالعرب :

اشترك في الثورة رجال من مختلف البلاد العربية ، كما كان بينهم المسلم والمسيحي . ولكن الحلفاء طعنوا العرب من الخلف ، فقد بدأت مفاوضات سياسية بين الدول المؤلفة الثلاث ، إنجلترا وفرنسا وروسيا ، على اقتسام ميراث الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب ، منذ أواسط سنة ١٩١٥ وانتهت هذه المفاوضات باتفاقيتين سريتين : عقدت الأولى منهما بين الدول الثلاث في شهر مارس سنة ١٩١٦ ، والثانية بين فرنسا وإنجلترا ، إلتصاماً للاتفاقية الأولى في شهر مايو من نفس السنة ، وهى اتفاقية سايكس بيكو .

حددت روسيا حصتها بالاتفاقية الأولى بالمضائق والقسطنطينية والولايات

الشرقية ، وتركت أمر التصرف في شئون الولايات العربية إلى فرنسا وانجلترا على أن تأسس حكومة إسلامية مستقلة في الجزيرة العربية ، وأن توضع القدس والأماكن المقدسة المجاورة لها تحت إدارة دولية ، وفق الشروط التي تقرر فيما بين الدول الثلاث .

قامت الثورة العربية من أجل ضمان استقلال الولايات العربية بأكملها ، وبأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة . ومساعد العرب الدول المتحالفة بكل الوسائل الممكنة . ثم انتهت الحرب بانتصار الجانب الذي ناصره العرب ، وذهب مندوبوهم إلى مؤتمر فرساي بباريس ليطالبوا بتنفيذ الوعود التي ارتبط بها الحلفاء على لسان مكMahon وغيره ، ولكن مع الأسف لم تتحقق الآمال ولم تنفذ الوعود .

ومن أبرز مظاهر غدر انجلترا ونكثها لعهودها مع العرب ، ما تعهدت به الحكومة البريطانية لليهود مما ينافي التزاماتها للعرب ، وعرف هذا الالتزام بوعده (بلفور) وهو وزير خارجية انجلترا الذي أصدره .

جاء في وعد بلفور : « إن حكومة جلالة ملك انجلترا لتتظر بعين الارتياح إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي ، وستبذل أطيب مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية ، وليكن معلوماً بجلاء أنه لن يعمل شيء من شأنه أن يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف الأخرى غير اليهودية الموجودة بفلسطين أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر والمركز السياسي الذي حصلوا عليه فيه » .

ويرجع إصدار هذا الموعد إلى عاملين : أولهما سياسي ، فقد أرادت انجلترا استمالة العناصر الصهيونية في ألمانيا والنمسا وأمريكا ، وكانت هذه العناصر ذات نفوذ كبير في السياسة والصحافة والاقتصاد .

والعامل الثاني يحمي المصالح البريطانية ، ففي مقابل هذا الوعد يؤيد اليهود

احتلال الإنجليز لفلسطين ، وبذلك تكون حصناً تحمى مركز بريطانيا في مصر وقناة السويس ، ويؤمن الاتصال البرى مع الشرق ، وتستطيع انجلترا بذلك إفساد النص الذى ورد فى اتفاق (سايكس - بيكو) بشأن جعل فلسطين منطقة دولية فتصبح بذلك منطقة نفوذ إنجليزى .

تقدم بعض زعماء العرب المقيمين في مصر في سنة ١٩١٨ بمذكرة إلى انجلترا طلبوا فيها إليها تحديد سياستها المتعلقة بمستقبل البلاد العربية في بيان واضح شامل ، فأصدرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً أكدت فيه تعهدات بريطانيا السابقة للعرب بصراحة وعزمها على الاعتراف للعرب بالسيادة والاستقلال التام ، وأن يكون الحكم في البلاد العربية في المستقبل متفقاً مع رغبات المحكومين . ونظر العرب إلى هذا التعهد على أنه نتيجة طبيعية لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها الذى أعرب عنه الرئيس الأمريكى قبل ذلك بعدة شهور .

كما أصدرت بريطانيا وفرنسا في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، أى قبل انتهاء الحرب بأيام ، تصريحاً مشتركاً أكدوا فيه أن هدفها تحرير الشعوب التى كانت تخضع للحكم التركى ، ومنها إنشاء حكومات وطنية يختارها العرب . ولكن هذا التصريح لم يكن إلا ستاراً يخفى الأطماع الاستعمارية لكل من الدولتين ، وقد ظهرت هذه الأطماع واضحة في صورة عملية بعد انتهاء الحرب مباشرة .

مقدمات ثورة ١٩١٩

ترقب المصريون انتهاء الحرب العالمية الأولى حتى يطالبوا انجلترا بتنفيذ وعودها . وفي ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، وبدأ زعماء مصر المختصون يستعدون للمطالبة بالاستقلال ، وظن المصريون أن انجلترا ستعترف بالجميل وتقدر موقفهم منها وقت محنتها ، وما قدموه من مساعدات جليلة وحيرية . وانتعشت الآمال عند ما أعلن الرئيس (ولسن) مبادئه الأربعة عشر التي تضمن أحدها حق كل شعب في تقرير مصيره ، وخاصة أن الرئيس ولسن دعا الدول الاستعمارية إلى أن (تترك لكل شعب الحق وحده في تقرير سياسته ، ورسم طريقه الذي يراه مؤدياً إلى التقدم بدون إحراج أو تهديد أو إرهاب) . فتولى زعامة المصريين في هذه الفترة سعد زغلول .

تحدث الميثاق عن الموجه الثورية الجديدة فقال عنها أنها : « ما لبثت أن تفجرت سنة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبعد خيبة الأمل في الوعود البراقة التي قطعها الحلفاء على أنفسهم خلال الحرب ، وفي مقدمتها وعود ويلسون التي ما لبثت هو أن تنكرها واعترف بالحماية البريطانية على مصر . وركب سعد زغلول قبة الموجه الثورية الجديدة يقود النضال الشعبي العنيد الذي وجهت إليه الضربات المتلاحقة أكثر من مائة عام متواصلة دون أن يستسلم أو ينهزم ، »

تلكأت انجلترا في الوفاء بوعودها ، وانكرت جميل المصريين ، فقد كانت مساعداتهم العظيمة من عوامل انتصارها . ورأى المصريون أن يعودوا ثانية إلى الكفاح والنضال والجهاد . ورأوا أن يبدأوه بالوسائل السلمية ، ووجدوا في مؤتمر الصلح الذي عزمته الدول على عقده في باريس مجالا لرفعوا أصواتهم بالمطالبة بالحرية والاستقلال .

رأى زعماء مصر الوطنيون أن يخاطبوا الضمير العالمي ، ويطالبوا الدول الأوروبية بتحقيق وعودهم . وفي يوم ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وهو يوافق

يوم عقد الهدنة بين الحلفاء وألمانيا ، اتفق سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ،
وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى العضوان بها على مقابلة للسيور ويجنلد ونجت
المندوب السامى البريطانى لإبلاغه رغبة المصريين — وقد حدد لهم المنسوب السامى
يوم ١٣ نوفمبر ميعاد للمقابلة — وجدير بالذكر أن حسين رشدى رئيس الوزراء
هو الذى أوحى إليهم بذلك — كما أنه هو الذى مهد للمقابلة ..

وفى الاجتماع واجهوا المنسوب السامى برغبتهم فى السفر إلى الخارج لتمثيل
مصر فى مؤتمر الصلح ليطلبوا بالاستقلال ودارت بين الطرفين مناقشة هامة أجز
منها ما يلى :

سعد زغلول :

الهدنة قد أعلنت والمصريون لهم الحق فى أن يكونوا قلقين على مستقبلهم
ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انجلترا لهم — كأن
لا عمل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات .

ونجت :

يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم فإن المصريين فى الحقيقة
لا ينتظرون للعواقب البعيدة .

سعد زغلول :

إن هذه العبارة مبهمه المعنى ولا أفهم المراد منها .

ونجت :

أريد أن أقول أن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر .

سعد زغلول :

لا أستطيع الموافقة على ذلك فإن إن وافقت أنكرت صفى — فإنى منتخب

في الجمعية التشريعية ، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام مع معارضة الحكومة
واللورد كاتشر في انتخابي — وكذلك الأمر مع زميلي علي شـمـراوى ،
وعبد العزيز فهمى .

ونجت :

إن قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله
من الحزب الوطنى وكان ذلك بلا تعقل ولا روية .

عل شمراوى :

إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر .

ونجت :

إذن أنتم تطلبون الاستقلال .

سعد زغلول :

ونحن أهل له ... وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المستقلة .

ونجت :

ولكن الطفل إذا أعطى من الغذاء أزيد مما يلزم تنخم .

عبد العزيز فهمى :

نحن نطلب الاستقلال التام ، وقد ذكرتم أن الحزب الوطنى أتى من الحركات
والكتابات بما أضر — وأقول لجنابكم أن الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال ،
وكل البلد تطلب الاستقلال . أما من وجهة تشيئنا بالطفل يتنخم إذا غذى بأزيد
من اللازم فاسمعوا لى أن أقول أن حالنا ليست بما ينطبق عليها هذا الشبه — بل
الواقع أننا كالمريض مهما آتيت له من نطس الأطباء استحال عليهم أن يعرفوا من
أنفسهم موقع داءه بل هو نفسه الذى يحس بألم الداء ويرشد إليه — فالمصرى

وحده الذى يشعر بما ينقصه — والاستقلال التام ضرورى لرقينا — وإذا كانت بلاد العرب وهى دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك .

ونجحت :

قد كانت مصر عبداً لتركيا — أف تكون أحمط منها لو كانت عبداً لانجلترا ؟

شعراوى :

قد أكون عبداً لرجل من الجميلين ، وقد أكون عبداً للمستمر ونجحت الذى لا مناسبة بينه وبين الرجل الجملى ، ومع ذلك لا تسرنى كلتا الحالتين لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسى أن تبقى تحت ذلها ونحن كما قلنا نريد أن نكون أصدقاء لانجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد .

وقد أبدى ونجحت لرشدى باشا بعد ذلك تعجبه من أن ثلاثة من المصريين جاءوا له يتحدثون باسم مصر ، دون أن يكون لهم صفة أو وكالة عن الأمة تخول لهم ذلك وأخطر رشدى سعد بملاحظة ونجحت فاتفقت الكلمة بعد ذلك على تشكيل هيئة تسبغ عليهم الصفة التى أشار إليها ونجحت ، فتكونت هيئة الوفد المصرى وشكلت من سعد زغلول رئيساً — وعلى شعراوى وعبد العزيز فهيم — ومحمد محمود — وأحمد لطفي السيد — وعبد اللطيف المكباتى — ومحمد على علوبة أعضاء — وحرروا صيغة توكيل ليوقعه الشعب ممثلاً فى هيئته وطوائفه . . . ؟ ليسموا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسمى سبيلاً فى استقلال مصر تطبيقاً لمبادئ الحرية والعدل التى تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب ، . وقد أغضب صيغة التوكيل رجال الحزب الوطنى لعدم النص على الاستقلال التام ولقصر المطالبة بالاستقلال على مبادئ العدل التى تنشر رايتها بريطانيا العظمى — مع أن أصل البلاء هو السياسية التى اتبعتها بريطانيا نحو مصر ومن ثم فقد توجه الأساتذة عبد المقصود متولى ، ومصطفى الشوربجى ، ومحمد زكى على ، ومحمد عبد المجيد السعيد من أعضاء الحزب

الوطني إلى بيت سعد زغلول وتناقشوا معه في صيغة التوكيل ويثبوا له وجهة نظرهم واحتدوا عليه ففضب سعد وقال لهم : كيف تهينونني في منزلي ؟ فرد عليه محمد زكي قائلاً : إننا نعتبر أنفسنا في بيت الأمة لا في بيت سعد الخامس — ومن هذا اليوم سمى بيت الأمة — وعلى أثر هذه المقابلة عدل الوفد صيغة التوكيل وأصبحت : نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات ... في أن يسعوا بالطرق السلمية حينما وجدوا للسعي سبيلاً في استقلال مصر استقلال تاماً ، وحذفوا النبذة الخاصة ببريطانيا العظمى — وطبع التوكيل وأرسل لجميع الأفراد والهيئات للتوقيع عليه — ولم تعرض له وزارة رشدي — بل أصدرت أمراً للبوليس ولرجال الإدارة بتيسير التوقيع على هذه التوكيلات — ولكن تصدت لهذه التوكيلات السلطة العسكرية — ثم رفضت السماح للوفد المصري بالسفر إلى مؤتمر الصلح بما حدا للوفد إلى عرض مطالب مصر على معتمدى الدول الأجنبية ثم توالى اجتماعاتهم وندواتهم وخطبهم وما لبثوا أن أرسلوا احتجاجاتهم إلى الوزارة والسultan وإلى سفراء الدول الأجنبية على منع الوفد من السفر إلى الخارج وقالوا في إحدى هذه الاحتجاجات : ما نحن أولاء بحكوم علينا بالكم نملك فيه شكينة الفيظ — وبالحزن المبرح نلبس ثيابه حداداً على حريتنا المسلوقة . إن الدولة تسومنا الخسف ، ما لبثت أن قررت نهائياً قطع الطريق علينا إلى المؤتمر ماخرة بوعودها كأنها لم تكن تقصد بهذه الوعود سوى أن تفوت على الأمة فرصة نفيسة وأن تعي همم بنينا ، ورأت السلطات العسكرية البريطانية أن نشاط الوفد يشكل خطراً جدياً عليها فاستدعى الجنرال وطسن قائد القوات البريطانية رئيس الوفد وأعضائه لمقابلته يوم ٦ من مارس سنة ١٩١٩ وألقى عليهم الإنذار التالى باللغة الإنجليزية : علمت أنكم تضعون مسألة وجود الحماية موضع المناقشة وأنكم تهيمون العقبات في سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى في منع تشكيل وزارة جديدة وحيث أن البلاد لا تزال تحت الأحكام العسكرية لذلك يلزمنى أن أنذركم أن أى عمل منكم يرمى إلى عرقلة سير الإدارة يحملكم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية ، وعند ما هم أحد الأعضاء بالكلام قاطعه وطسن قائلاً :

« لا منافاة ، ثم تركهم وانصرف . وبعد يومين أى فى يوم ٨ مارس ألفت السلطة العسكرية القبض على محمد زغلول ، ومحمد محمود ، وإسماعيل صدق ، وحمد الباسل ونفثهم إلى جزيرة مالطة — ولم يضعف هذا الإجراء التعسفى عزم رجال الوفد المصرى فمقدوا التية على الماضى فى الكفاح . وبأدروا بإرسال احتجاج إلى السلطان قالوا فيه : « قبلتم استقالة الوزيرين رشدى وعدلى فلما فهمنا أن هذا ربما كان الحل الوحيد لمسألة سفر الوفد المكلف بالدفاع عن قضية بلادكم الأسيفة — وأنه لا يسمح لرجل مصرى ذو كرامة ووطنية أن يقبل تأليف الوزارة ما دام الوزيران المستقلان علما سحب استقالتهما على أمر سفر الوفد — عرضنا لسيادتكم العلية — متضرعين أن تعرفوا على رأى الأمة قبل البت نهائياً فى هذا الأمر وأن تعيدوا النظر فى الخطوة التى اختطها مستشاروكم وأن تبدو للأمة من آيات ما جبلتم عليه من حبا فتكونوا فى صفها مدافعين عنها لتتال غرضها ، ثم ذكروا فى البيان تعرض السلطة البريطانية لهم ومنعهم من السفر ثم القبض على زملائهم ونفيهم ، ثم ساقوهم إلى بور سعيد إلى حيث لا نعلم ، وطلب الوفد فى ختام البيان من السلطان أن يقف فى صف المدافعين عن قضية العدالة ، ويتعين علينا أن نشيد بالموقف الوطنى الجليل الذى وقفه حين رشدى رئيس الوزراء فى تلك الأيام فهو الذى أوعز لسعد وزميليه بمقاومة ونجحت — وهو الذى أمر — رجال الإدارة بعدم التعرض للتوكيلات وظل يؤازره ويعضده حتى رأى أن من واجبه كرئيس للوزارة أن يسافر إلى مؤتمر الصلح ليرض مطالب مصر وأمانها ولكن الإنجليز منعه أيضاً — فتقدم باستقالته من الوزارة هو وزميله على يكن وصفا عليها وقال حين رشدى فى كتاب استقالته للسلطان ، عند ما أخذت على عاتقى أمام حميرى وأمام وطنى وأمام التاريخ مسئولية منصبى فى عهد النظام الجديد قد طأهت نفسى عهداً أساسياً أن أطلب من الحكومة الإنجليزية عند الشروع فى مفاوضات الصلح أكثر ما يمكن من الحرية لمصر . والآن وقد أوشكت هذه المفاوضات أن تبتدىء طلبت من الحكومة الإنجليزية بعد تصديق عظمتكم أن تسمع أقوالى فكان جوابها بمثابة التسوية إلى ما بعد الصلح — فلهذه الأسباب

أشرف بتقديم استعفائي بين يدي عظمتكم وأن زميلي عدلي يكن باشا الذي عيّنتموه لمرافقتي في مهمتي يتمسك بمشاركتي هذا الأمر فهو يقدم شخصياً استعفائه من وزارة المعارف العمومية ، — ولم يوافق السلطان على قبول استقالة الوزيرين إلا بعد إلحاح شديد منهما . ولم يكده يعلم الشعب بنياً القبض على سعد وزملائه حتى قامت الثورة التي كانت تنتظر إشارة البدء بها — كالبركان الملىء بالحلم يتلمس الطريق للقوران .

موجة ثورية جديدة :

وقد يعتقد البعض أن سبب الثورة هو اعتقال سعد وصحبته ونفيهم إلى مالطة ولكن أسباب الثورة الحقيقية هي أن الحركة الوطنية كانت قد بدأت تقوى نتيجة لتعبئة الشعور القومي والوطني بفضل جهود أبنائها المكافحين وعلى رأسهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد وندائتهما التي ظلت تتجارب أصدائها أرجاء الوادي أكثر من ثلاثين عاماً ، وكان لها أثر كبير وعميق بالغ في نفوس المواطنين ثم أن المصريين لم ينظروا للاحتلال في أي فترة من فترات تاريخهم إلا على أنه اعتداء مستمر على حرياتهم وأنهم كانوا يتربصون به ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه والتخلص منه — خاصة وأن الاحتلال الذي نكبت به البلاد منذ سنة ١٨٨٢ اتسم بالظلم ، والاضطهاد وكبت الحريات وتكديس الآفواه وكان الإنجليز يستأثرون بالوظائف الهامة في الدولة حتى أنهم عينوا مستشارين عنهم في كل مصلحة ووزارة — وكان سلطان المستشار الإنجليزي يفوق سلطان الوزير المصري — بل ويتوقف بقاء هذا الأخير في الحكم على موافقة المستشار ورضائه — ويرأى الإنجليز أن في بقاء الجيش المصري ما يهدد كياناتهم فمرحوه — وبقيت مصر بدون جيش يحميها — وألفوا مجلس النواب وسعوا لفصل السردان عن مصر وانفردوا بحكمه — وصحب إعلان الحرب في سنة ١٩١٤ رأوا أن الفرصة سانحة فأعلنوا الحماية على مصر في ديسمبر سنة ١٩١٤ وفرضوا الرقابة على الصحف والمطبوعات — ولم يكتف الإنجليز بكل هذا بل جندوا ما يزيد على مليون مصري وأرسلوه إلى سيناء والشام لمحاربة أعدائهم الألمان والأتراك ، وكانوا يؤخذون كرهاً باسم المتطوعين وما هم بمطوعين

ويعاملون معاملة المعتقلين وما هم بملذنين — يربطون بالحبال ويساقون كالأنعام ويتنقلون بالقطارات في مركبات الحيوانات ويعاملون أسوأ معاملة (١) .

وكما جند الانجليز المصريين بالقوة — استولوا كذلك على اقتصاديات البلاد — ومقدراتها قسراً . وكانت السلطة الانجليزية تصادر الحاصلات الزراعية والمواشي وتستولي عليها وتحرم أصحابها منها بطرق غاية في القسوة والوحشية — حتى إن إحدى الكاتبات الانجليزيات وتدعى من درهام كتبت مقالا في ٢ أبريل سنة ١٩١٩ في جريدة الديلي نيوز قالت فيه : « بلغ من جهل الجنود الانجليز أن كانوا يظنون أن مصر بلاداً انجليزية وأن المصريين قوماً دخلاء . ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا لهذه الديار وقد سمعت غير واحد من الاستراليين يقول لو كان الأمر بيدي لما أبقيت على واحد من المصريين في هذه البلاد ، وتستطرد الكاتبة بعد أن بينت بعض مخازي الانجليز وفضائحهم في مصر فتقول : « وأقسم لو كنت مصرية لما ترددت في بذل النفس والنفيس لطرده الانجليز من مصر وأنى والحق يقال كنت أخجل أشد الخجل لانتسابي لبلادي ، كما نشرت جريدة رائد العمل البريطانية في ٣ أبريل سنة ١٩١٩ بعض هذه الفظائع فتقول :

« وضع نظام التطوع ظهر عدم كفايته فصدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بإكراه وطريقته أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظرون رجوع الفلاحين إلى منازلهم عند الغروب فيحذقون بهم كالأنعام ويتنقلون خيروم للخدمة فإذا رفض أحدهم هذا التطوع الاجباري جلد حتى يقر بالقبول وعلى هذا النحو ساقوا أطفالا من سن ١٤ سنة وشيوخا في سن السبعين وكانت تساق هذه الجموع المريضة من هؤلاء المساكين لتأدية الأعمال الحربية والكرباج كفيل بتسخيرهم وأصبح الجلد من الأعمال اليومية العادية ثم أن سوء الغذاء ورداءة الكساء وقلة النطاء فضلا عن عدم وجود الخيام حيث يلتحف هؤلاء المساكين السماء ويفترشون

(١) ثورة ١٩١٩ للأستاذ عبدالرحمن الرافعي .

الغبراء جعل هؤلاء الأحميين فريسة الأمراض الوبائية كالتيفوس وغيره عدا
الجوع والبرد فكانوا يموتون كالذباب في الصحراء ، وبجانب مصادرتنا هؤلاء
الناس أعددنا مصادرة حمالمهم وحميرهم ودوابهم فأصبحت الأعمال الزراعية متعذرة ،
وارتفع ثمن الحاصلات والحاجات — فعم الغلاء وأصبح العيش متعسراً وساءت
حالة الفقراء والعمال بدرجة عظيمة . فهل بعد هذا يستغرب إذا بلغ الكره لنا
والحقده علينا مبلغهما في قلوب المصريين ، .. هذه هي بعض الأعمال التي كان يقوم
بها الإنجليز في مصر باعترافهم — ولم يكن أمام الشعب الذي كان يتطلع إلى الحرية
والاستقلال منذ اليوم الأول للاحتلال إلا أن يثور عليه وعلى الظلم والاستبداد
وأن يضع من الوسائل الوحشية التي اتبناها الإنجليز معه وكان آخرها القبض على
مسعد وزملائه .

أوج الثورة :

وبدأت الثورة يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ بإضراب طلبة مدرسة الحقوق ثم
أعقبهم طلبة الأزهر وباقي المدارس — وانتشرت روح التذمر في جميع الجهات .
فتعطلت المواصلات وأضرب الموظفون الأمر الذي دفع السلطة الانجليزية بتهديدهم
بالفصل إن لم يعودوا إلى أعمالهم وفي ١١ مارس أضرب المحامون في جميع أنحاء
البلاد وقرروا نقل أسمائهم من جدول المشتغلين إلى جدول غير المشتغلين —
وأثبتوا ذلك في محاضر الجلسات وأمام القضاء الذين أيدوا المحامين في قرارهم
ووافقوا على إثبات الاضراب في محاضر الجلسات وتنازلهم عن التوكيلات المعطاة
من الموكلين — ولم ينفذ القضاء منشور وزارة الحفانية القاضي بضرورة شطب
القضايا إذا صمم المحامون على الاضراب ، والعجيب أن الموكلين أيدوا محاميهم في
ذلك الاجراء — كما أضرب عمال المناجر وكان يزيد عددهم على أربعة آلاف عامل
فتعطلت القطارات — ووسائل النقل بأكملها — حتى عربات الأجرة والأوتوبيسات
وتفاقت الحالة يوماً بعد يوم فتعطلت جميع المواصلات بلا استثناء . وأفقرت
مكاتب الوزارات من موظفيها وأغلق التجار محالهم وسقط العديد من الشهداء

برصاص الانجليز الفادر، وألشئت المحاكم العسكرية لمحاكمة الوطنيين، وعم الاضراب وشمل كل الطوائف والهيئات وفي جميع أنحاء البلاد حتى النساء فقد مررن في مظاهرات رهيبية وقدمن احتجاجات كثيرة إلى معتمدى الدول الأجنبية جاء في إحداها : يرفع هذا لجنايكم السيدات المصريات أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية يحتججن على الأعمال الوحشية التي قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة ، وهال الانجليز عنف الثورة وكانوا يظنون بادىء ذى بدء أنها مظاهرات بسيطة سوف تخمد بعد حين ولكنهم رأوا أن يقارمونها بالقوة والبطش فأنذروا الشعب بالقتل وحرق القرى التي تخرب بجوارها السكك الحديدية وأصدر القائد العام للقوات البريطانية في ٢٠/٣/١٩١٩ البلاغ التالى : « كل حادث جديد من حوادث تدمير محطات السكك الحديدية أو المهمات الحديدية يعاقب عليه بإحراق القرية التي هي أقرب من غيرها إلى مكان التدمير وهو آخر إنذار ، وفي هذا الإنذار ما يدل على أن الانجليز قد فقدوا رباطة جأشهم وبلغ بهم الهوس درجة أنهم كانوا يقتلون الأبرياء سواء أكانت هناك مظاهرات أم لم تكن . مثال ذلك أنهم تزلوا بقرية ميت القرشى في صبيحة ٢٣/٢ وأطلقوا النار على الأمنيين بها فقتلوا ما يزيد على مائة شخص دون ذنب أو جريرة . وفي هذا الحادث الوحشي وغيره من الحوادث ما يقطع بأن الانجليز دعاة المدينة هم ووحوش الغاب سواء .

ومع ذلك فلم ترهب الثورة همجية الانجليز — فعنت في طريقها تطالب باستقلال البلاد — وزادت اشتعالا . وردت بلدة دير مواس على مجزرة ميت القرشى فهاجمت قطارا محملا بالجنود البريطانيين وقتلت منهم ثمانية ضباط وذلك في ١٨/٣/١٩١٩ . وشكلت محكمة عسكرية سورية وحكمت بالاعدام على ٥١ شخصا دون تحقيق أو مرافعة ، وكانت المحاكم أشبه بالمجزرة بل هي مجزرة كبيرة بالفعل وليست محكمة لانتنا نظم كلة محكمة في هذا المجال . فقد ألفت من ضباط الانجليز قساة القلوب أعدوا حكم الاعدام من قبل ، حتى أن المحاكمة لم تستغرق سوى يومين ، فبدأت يوم : ١٧/٥/١٩١٩ وصبر الحكم الجائر في ١٩/٥/١٩١٩ .

المدنية الغربية تحكم

وحاول الانجليز ارباب المصريين بهذه المحاكات التي قامت في كل مدينة وقرية وسمارت جميعها على نمط محاكاة دير مواس ، قتل مبيت للمدنيين الابرياء ، فكانت هناك قضية مأمور بندر أسيوط وقضية الواسطى وصنبو وملوى والمنيا وفاقوس ورشيد وقلوب واسكندرية — مجازر في كل البلاد على صورة محاكات . ومع ذلك فقد مضت الثورة في طريقها ولم تنجح المشائق التي نصبت في طول البلاد وعرضها في صدر تيارها . مما حدا بالوزارة الانجليزية الى ارسال لجنة لبحث أسباب الثورة سميت فيما بعد بلجنة ملر ولكن الشعب بجميع طوائفه قاطعها وتجاهلها ، لأن سبب الثورة كان — واضحا في غير حاجة الى لجان . وزادت الثورة عنفا — وزاد الانجليز هوسا فافتحموا الجامع الأزهر الشريف بحمافلهم وجنودهم وخيولهم واعتدوا على من كان في داخله من مصلين وظهرت في ذلك الوقت الجمعيات السرية كظهر من مظاهر الكفاح للانتقام من الانجليز ومن يعاونهم من المصريين فألقيت قبلتان على يوسف وهبه باشا رئيس الوزارة في ديسمبر سنة ١٩١٩ ونجا منها ، كما أقيمت قبلة على اسماعيل سرى باشا في يناير سنة ١٩٢٠ . وأخرى على محمد شفيق باشا في فبراير سنة ١٩٢٠ ورابعة على حسين درويش وكانوا جميعهم أعضاء في وزارة يوسف وهبه الذي قبل الوزارة أثر صدور بلاغ انجلترا بالحماية على مصر بما أثار السخط العام عليها . ودفع الوطنيين الى الاعتداء على أعضائها . وظلت حركة المقاومة حتى بعد استقالة وزارة وهبه باشا . فوقع اعتداء على نسيم باشا رئيس الوزارة الجديدة في يونيو سنة ١٩٢٠ لأن الشعب كان يعتبر قبول أي مصري للوزارة في ذلك الوقت تحديا لرغبته فاستقالت كسابقتها مكرومة ملعونة . ولم ير الانجليز بدا ازاء اصرار الشعب من الاستماع اليه والرضوخ الى طلباته وهم الذين كانوا يرفضون حتى المناقشة في موضوع الاستقلال . وكان الكبر والزهو والفروخ يملأ نفوسهم حتى أن قائد

القوات البريطانية الجنرال واطسون عندما دعا أعضاء الوفد المصري في ١٩١٩/٣/٦ وألقى عليهم الانذار بالكف عن الجهاد وأراد بعض الأعضاء الكلام فرفع يده قائلاً : « لا مناقشة » .

ولكنهم ازاء الثورة وما وضعتهم فيه من موقف لا يحمدون عليه طأطؤا من هاماتهم ورأوا أنفسهم مرغمين الى تحقيق بعض مطالب الشعب فتألفت الوزارة التي رضى عنها لا التي كانت تستمد العون من الانجليز أو السراى . وكانت وزارة عدلى باشا . وعاد سعد زغلول من أوروبا بين مظاهر الفرح . وألقى الانجليز الحماية واعترفوا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وذلك عندما أصدروا تصريحهم المشهور في ١٩٢٢/٢/٢٨ ثم أعلن الدستور في ١٩٢٣ وكانت كل هذه الانتصارات من آثار جهاد أبناء مصر وتضحيات شهدائنا الذين كانوا وقودا لثورة ١٩١٩ .

الباب الرابع

الشعب يكافح الانجليز واسرة محمد علي

- ١ - استقلال زائف .
- ٢ - موقف الشعب من معاهدة ١٩٣٦ .
- ٣ - أسود الجيش ونسور الطيران .
- ٤ - الكفاح الشعبي أثناء الحرب العالمية الثانية .

١ - استقلال زائف

عوامل اخفاق ثورة ١٩١٩ كما جاءت في الميثاق :

درس الميثاق أسباب ونتائج ثورة ١٩١٩ دراسة رائدة ، اذ أن العوامل التي أدت الى اخفاق ثورة ١٩١٩ هي نفس عوامل قيام ثورة ١٩٥٢ المباركة . فقال الميثاق : « إن ثورة الشعب المصري سنة ١٩١٩ تستحق الدراسة ، فإن الأسباب التي أدت الى فشلها هي نفس الأسباب التي حركت حوافز الثورة سنة ١٩٥٢ » .

وركز الميثاق عوامل اخفاق ثورة ١٩١٩ في ثلاث عواهل ، أولها اهمال هذه الثورة التغيير الاجتماعي ، وثانيها عجز الثورة عن تحديد الشخصية المصرية ، وثالثها أن القيادات الثورية سنة ١٩١٩ لم تلائم بين أساليب نضالها والأساليب الاستعمارية في مواجهة الثورات الشعبية . فجاء في الميثاق :

« اذن هناك ثلاثة أسباب واضحة أدت الى فشل هذه الثورة . ولا بد من تقسيمها في هذه المرحلة تقييما أميناً ومنهجياً :

أولاً : ان القيادات الثورية أغفلت اغفالاً يكاد يكون تاماً مطالب التغيير الاجتماعي ، على أن تبرير ذلك واضح في طبيعة المرحلة التاريخية التي جعلت من طبقة ملاك الأراضي أساساً الأحزاب السياسية التي تعدت لقيادة الثورة .

ومع أن اندفاع الشعب الى الثورة كان واضحاً في مفهومه الاجتماعي الا أن قيادات الثورة لم تثبه لذلك برعى حق لقد ساد تحايل خاطيء في هذا الطرف رددته بعض المؤرخين ، مؤداه أن الشعب المصري ينفرد عن بقية شعوب العالم بأنه لا يثور الا في حالة الرضاء . ولقد استدلوا على ذلك بأن الثورة وقعت في ظروف الرضاء الذي صاحب لارتفاع أسعار القطن في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وذلك استدلال سطحي فان الرضاء كان محصوراً في طبقة ملاك الأراضي وطبقة للتجار والمصدرين الأجانب الذين استفادوا من ارتفاع الأسعار . وبذلك زاد التناقض

يسهم وبين الكادحين من الفلاحين الذين كانوا يروون حقول القطن بعرقهم ودمائهم دون أن تتغير أحوالهم بارتفاع أسعاره وكان هذا الحرمان في القاعدة بتناقضه مع الرخاء في القمة من أسباب الاحتكاك الذي أشعل شرارة الثورة .

ان المحرومين كانوا هم وقود الثورة وضحاياها ، لكن القيادات التي تعدت في مقدمة الموجة الثورية سنة ١٩١٩ باغفالها للجوانب الاجتماعية من محركات الانفجار الثوري لم تستطع أن تبين بوضوح أن الثورة لا تحقق غاياتها بالنسبة للشعب الا اذا مدت اندفاعها الى ما بعد المواجهة السياسية الظاهرة من طلب الاستقلال . ووصلت الى أعماق المشكلة الاقتصادية والاجتماعية .

ولقد كانت الدعوة الى تمصير بعض أوجه النشاط المالي هي قسارى الجهد في ذلك الوقت . في حين أن الدعوة الى إعادة توزيع الثروة الوطنية أصلا وأساسا كانت هي المطلب الحيوى الذى يتعمد البدء فيه من غير تأخير أو إبطاء .

ثانيا : ان القيادات الثورية في ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء وعجرت عن تحديد الشخصية المصرية . ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية .

لقد فشلت هذه القيادات في أن تعلم من التاريخ ، وفشلت أيضا في أن تعلم من عدوها الذى تحاربه ، والذى كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد .

ومن هنا فان قيادات الثورة لم تنبه الى خطورة وعدد بلفور الذى أنشأ امرائيل لتكون فاصلا يمزق امتداد الأرض العربية وقاعدة لتهديدها .

وبهذا الفشل ، فان النضال العربى في ساعة من أخطر ساعات الازمة حرم من الطاقة الثورية المصرية ، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية محزقة الأوصال مفتة الجهد . واختتمت ادارة الهند البريطانية بالتعامل مع شبه الجزيرة العربية ومع العراق ، وانفردت فرنسا بسوريا ولبنان .

بل وصل الهوان بالامة العربية في ذلك الوقت الى حد أن جواسيس الاستعمار تصدروا قيادة حركات ثورية عربية . وكانت بأمرهم ومشورتهم تقام العروش للذين خانوا النضال العربي وانحرفوا عن أهدافه .

كل هذا ، والثورة الوطنية في مصر تتصور أن هذه الأحداث لا تعنيها ، وأنها لا ترتبط مصيريا بكل هذه التطورات الخطيرة .

ثالثا : ان القيادات الثورية لم تستطع أن تلائم بين أساليب نضالها وبين الأساليب التي واجهه الاستعمار بها ثورات الشعوب في ذلك الوقت ان الاستعمار اكتشف أن القوة العسكرية تزيد ثورات الشعوب اشتعالا ومن ثم انتقل من السيف الى الخديعة ، وقدم تنازلات شكلية لم تلبث القيادات الثورية أن خطت بينها وبين الجورم الحقيقي . وكان منطق الأوضاع الطبقي يزين لها هذا الخلط .

استقلال لا مضمون له :

اقتبسنا هذا العنوان من الميثاق أيضا ، فقد منح الانجليز المصريين استقلالها اسميا ، لا مضمون له ، بل ان الحكم الذاتي الذي منحه الاستعمار أدى الى صراع حزبي أحرق الطاقة الثورية ومزق صفوف الوطنيين المصريين ، فجاء في الميثاق : « ان الاستعمار في هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه وعلب مضمونه ، ومنح ، من الحرية شعارها واغتمسب حقيقتها . وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال . وزادت المضاعفات خطورة بسبب الحكم الذاتي الذي منحه الاستعمار والذي أوقع الوطن باسم الدستور في محنة الخلاف على الغنائم دون نصر . وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبي في مصر ملهاة تشغل الناس وتحرق الطاقة الثورية في هباء لا نتيجة له . »

وكانت بريطانيا قد رأت أن تخمد روح الثورة المصرية ، وظنت أنها تستطيع أن تصل الى تفاهم مع من كانت تسميهم بالمعتدلين لاقرار الحماية بصورة ترضيهم ، فأعلنت بريطانيا في ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٩ بيانها جاء فيه أن بريطانيا تريد المحافظة

على وضع مصر تحت الحماية البريطانية وتأسيس نظام يمكن عظمة السلطان ووزرائه ومندوبي الأمة، في دوائهم الخاصة من الاشتراك في إدارة الأمور المصرية .

وتحقيقاً لهذه السياسة ، أرسلت إنجلترا لجنة برئاسة (اللورد ملر) وزير المستعمرات البريطانية ، وقاطعها جميع المصريين ، وقامت المظاهرات احتجاجاً على قدومها ، فلا يمكن المفاوضة حول الاستقلال وجنود الحماية البريطانية في مصر . وأخفقت لجنة ملر في مهمتها بسبب مقاطعة الشعب المصري لها ، وأصدرت إنجلترا إلى استدعاء وفد مصر في باريس برئاسة سعد زغلول للسفر إلى لندن للمفاوضة . ودارت مفاوضات طويلة انتهت إلى مشروع معاهدة قرر الوفد عرضه على الشعب وقد عارضته جميع فئات الشعب فهو يمنح استقلالاً لامضمون له وهو ستار يخفي الحماية البريطانية .

ورأت إنجلترا أن تفاوض الحكومة المصرية وكان يرأسها عدلي يكن ، فسافر إلى إنجلترا على رأس وفد رسمي ، وأخفقت المفاوضات ، واستقال عدلي يكن في ديسمبر سنة ١٩٢١ . وعادت الثورة من جديد ، ونفت إنجلترا سعد زغلول مع خمسة من أعضاء الوفد إلى جزيرة ميشل ، وامتنع الزعماء عن قبول تأليف الوزارة .

وأخيراً اضطرت الحكومة البريطانية إلى إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد ، أعلنت فيه إنجلترا إلغاء الحماية البريطانية على مصر ، ومنح مصر دستوراً ، مع تحفظات أربعة هي :

- ١ - تأمين المواصلات البريطانية في مصر .
- ٢ - الدفاع عن مصر ضد أي اعتداء أو تدخل أجنبي مباشر أو غير مباشر .
- ٣ - حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات .

ورفض المصريين جميعا هذا التصريح بما حواه من تحفظات، ولكن الحكومة المصرية عملت على تنفيذه ، وشكلت (لجنة الثلاثين) لوضع الدستور ، واحتفلت الوزارة في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ بالاستقلال الاسمي الذي أقره تصريح ٢٨ فبراير ، وتسمى فؤاد بلقب (ملك) بدلا من (سلطان) .

ثم أفرجت انجلترا عن الزعماء المتفنين لتهدئة مشاعر الشعب ، وعمل الانجليز على بث الفرقة والانقسام في صفوف زعماء الشعب المصري ، وتآلف حزب الأحرار الدستوريين ، وبدأت مرحلة من الصراع الحزبي أصاب الكفاح الشعبي بنكسة ، فتنافس زعماء الأحزاب على الحكم ، أو بمعنى آخر على الأسلاب والغنائم ، وعمل الانجليز والقصر على اشغال نيران هذا الخلاف الحزبي .

صدر الدستور في ابريل سنة ١٩٢٣ ، فلم ينجح في تقييد سلطة الملك ، ولا في إبراز سلطة نواب الشعب ، ولذلك طغت السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية ، فكان معظم رؤساء الوزارات يحلون مجلس النواب ، كما كانت هذه الوزارات تحكم على أمانة حراب الانجليز وبأيدي الملك .

وسقطت وزارة سعد زغلول ، وهي أول وزارة دستورية ، بعد تسعة شهور من تأليفها عندما وقع حادث الإعتداء على مرقد الجيش المصري وحاكم السودان العام (السير لي ستاك) ، فقد قامت انجلترا بمظاهرة عسكرية وطلبت من الحكومة سحب الجيش المصري من السودان ، وأن تدفع مصر غرامة مالية كبيرة ، فاستقالت الوزارة وتعطلت الحياة النيابية ، حتى تولى الوزارة اسماعيل صدقي فألغى دستور ١٩٢٣ واستبدله بدستور جعل السلطة التنفيذية تظني على السلطة التشريعية سنة ١٩٣٠ وتوالت الوزارات ، وكثرت المفاوضات ، دون أن تتحقق مطالب الشعب ، وازداد الصراع الحزبي ، ولذا كفر الشعب المصري بالأحزاب وبالزعماء السياسيين ورأى أن يعتمد على كفاحه ونضاله كما سنرى .

الجمعيات السرية :

لم يكن اعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بالناء الحماية والاعتراف باستقلال مصر الا الخطوة الاولى في الاستقلال الحقيقى للبلاد ، مادام هناك جندى انجليزى واحد فى مصر . وكان لابد أن يستمر الجهاد بأى وجه من الوجوه حتى يخلو الانجليز عن البلاد . وقد كانت مصر تحكم فى واقع الامر من قصر الدوبارة . وظل الانجليز على الرغم من تصريح ٢٨ فبراير يسخرون من يتعاون معهم لتحقيق مطالبهم من وراء مستار . يولون الوزارة من يرضون عنه ويقصون عنها من يعارضهم ولاح أن الاستقلال المزعوم ماهو الا كذوبة كبيرة فتكوت الجمعيات الوطنية وتفرعت منها الجمعيات السرية ، التى وقمت للاستعمار وأعوانه بالمرصاد .

وبهذا أن نبين كيف تكونت الجمعيات السرية التى تصدت للانجليز ومن سار فى فلكهم من المصريين مدة طويلة ، وعن كانت تكون . ومن أية هيئة سياسية انبثقت .

رأى شباب الحزب الوطنى سنة ١٩٠٦ أن مصطفى كامل كان يكافح فى الخارج منددا بالأساليب الاستعمارية التى كانت تتبعها انجلترا فى مصر ورأوا أن عليهم واجبا آخر هو الكفاح المسلح فى الداخل ضد الانجليز فتكونت لهذا الغرض فى هذه السنة أول جمعية سرية وكان من أعضائها ابراهيم ناصف الوردانى ومحمود عنايت الأخ الأكبر لعبد الحميد وعبد الفتاح اللذان اتها بمقتل السردار فيما بعد . و خليل مذكور وكان سكرتيرا لمحمد فريد .

وفى هذه الحقبة اغتال الوردانى بطرس باشا كما ذكرنا وأعدم وسجن محمود عنايت ثم نفي الى جزيرة مالطة مع آخرين من الوطنيين . ولم يفت ذلك فى عضد الجمعية ولم يزل من بنيانها وان كانت قد انكسرت بعض الوقت . . ولكنها نشطت مرة أخرى وحاولت اغتيال الخديوى عباس حلى الثانى سنة ١٩١٤ وهو يزور الاستانة لمألتة للانجليز ولكنه نجح من يد محمود مظهر طالب الطب الذى أنيطت به هذه العملية ثم وقع اختيار الجمعية على السلطان حسين فاعتدوا عليه

مرتين في القاهرة بميدان عابدين ومرة أخرى في الاسكندرية ونجما هو الآخر .

وركدت الجمعية بعد ذلك طوال سنوات الحرب وسنة شوب الثورة لتتسط مرة أخرى بعد أن طعمت بدماء جديدة فتكونت من جديد من الأخوين عبد الحميد وعبد الفتاح شفيق محمود عنايت ومن شفيق منصور المحامي والعاملين محمود فهمي وإبراهيم موسى ثم انضم إليهم محمود راشد وراغب حسن . وقامت هذه الجمعية بكثير من الأعمال وعديد من الاغتيالات بشجاعة نادرة وفداية لا مثيل لها حتى أن بعضهم كان يبكي إذا لم يقع الاختيار عليه للقيام بالعملية المدبرة .

وظلت هذه الجماعة تعمل في تكتم وحذر زهاء ثلاث سنوات حتى أفلقت الانجليز وأعوانهم من المصريين وأشاعت الخوف والرعب في قلوبهم وحرمتهم من الخروج ليلا ولكن الأعضاء قرروا القيام بأعمالهم في وضوح النهار واشتد خوف الانجليز وأصبحت حياة الشخص منهم معلقة في يد القدر فكان الانجليز يخرج من بيته الى عمله وهو لا يدري ان كان سيعود اليه أم يختطفه الموت . ونتيجة لذلك استقال بعض كبار الموظفين الانجليز من وظائفهم وعادوا الى بلادهم بعد أن هددتهم الجمعية ، فكانوا أبعد نظرا من غيرهم . أما باقي الموظفين الانجليز الذين آثروا البقاء في مصر فقد دعوا أنفسهم الى اجتماع في فندق الكونتنتال حضره جميع كبير منهم حتى أن الجاليات الانجليزية القاطنة بالسويس والاسماعيلية وبور سعيد والاسكندرية لم تتخلف عنه ، ودار في هذا الاجتماع بحث الوسائل التي يحمون بها أنفسهم أمام موجة الاغتيالات التي يواجهونها . ومطالبة الحكومة بضرورة اتخاذ الاجراءات الحاسمة لوقف هذه الاعتداءات والقبض على مرتكبيها .

أما الحوادث التي قامت بها هذه الجمعية الوطنية فهي باختصار مقتل المستر براون المراقب العام لوزارة المعارف ، وكان الحاكم بأمره في هذه الوزارة فضلا عما كان يتصف به من صلف وكبرياء وتعسده احتقار مرءوسيه ورؤساؤه على السواء من المصريين ، ومقتل المستر كيف وكيل حاكمدار القاهرة وقتئذ ، وكان شديد القسوة يعامل المصريين بغلظة وغلظة ، وقد سمعنا الكثير من جرائمه أثناء

ثورة ١٩١٩ وماتلها حتى أنه كان يجبر المعتقلين على أكل روث الخيول . ثم يربطهم بعد ذلك من شعوم في ذيولها التي تنطلق بهم بسرعة فائقة بين صفوف المتظاهرين المصريين لأرهابهم . واغتالت الجماعة كذلك المستر ييجوت مدير مالية الجيش الانجليزى ، واغتالوا بعد ذلك المستر براون مدير قسم البساتين الطاغية ، والمستر بسون الانجليزى المتعصب وكان يلقي دروسه بمدرسة الحقوق فاستاء الطلبة لفطرسته وكراهيته الشديدة للمصريين وقرروا اغتياله ، هذا عدا اغتيال العديد من الجنود الانجليز والضباط وكان من أهم هذه الحوادث حادثة القاء القنابل على خيام الانجليز بروض الفرج عندما ضربوا حصاراً عليه عقب حوادث الاغتيالات التي وقعت به .

وقد ظلت هذه الحوادث يكتنفها الغموض وأصبحت لغزا حير رجال الأمن ، وروع الانجليز فترة طويلة وأما المصريون فكانوا يتلقون أخبار الاغتيالات بارتياح وسرور ويتناقلون حوادثها ويروون أخبارها فيما بينهم كمثل من أمثلة القصص البطولية النادرة ، وظلت أعمال هذا الجمعية سرا من الأسرار طوال ثلاث سنوات حتى وقعت حادثة الردار وكان من الجائز أن لا يقبض على مديري هذا الحادث حتى أن الانجليز تحببوا كثيرا واتجهوا في تحقيقاتهم الى نواح مختلفة .

وكاد يفلت أعضاء الجهاز السرى لولا أحد الخونة ويدعى نجيب الهلباوى وكان صديقا لأولاد عنايت وطمع في المكافأة المالية الكبيرة التي رصدها الانجليز لمن يرشد عن مرتكبى الحادث وفيحتها عشرة آلاف من الجنيهات ، وقد أرشد عليهم بالفعل حتى قبض عليهم ، وكانوا هم أنفسهم الأشخاص الذين ارتكبوا جميع الحوادث السابقة والتي حيرت الانجليز فترة طويلة وأشاعت الخوف والفرق في قلوبهم .

ولكن كيف وقع حادث اغتيال الردار . وكيف توصل الخائن الهلباوى الى معرفة مرتكبى الحادث .

حادثة السردار :

حدث أن وقع في ذلك الوقت حوادث بالغة الخطورة في السودان فكان من أثر اشتداد الوطنية بمصر أن تأثر السودانيون بها وبدءوا يتفانون بها ، فمقدروا الاجتماعات ، وتسكونت الجمعيات والهيئات الوطنية ، وبدأوا في التعبير عن شعورهم بالمظاهرات . حتى أن ضباط المدرسة الحربية بالخرطوم أضرَبوا تأييدا منهم لوحدة مصر والسودان ، وقد استعمل الانجليز من وسائل العنف والاضطهاد ضد السودانيين والمصريين الموجودين في السودان لوقف المظاهرات ما تقشعر له الأبدان ، فزج بالمشات منهم في السجون دون تحقيق .

وعوملوا أسوأ معاملة وبلغ بهم الأمر أن ضربوا الكلية الحربية بالمدافع وهدموها على من فيها وقبضوا على الضابط على عبد اللطيف وحكموا عليه بالسجن عشر سنوات ، كما قبضوا على كثير من ضباط الجيش المصري وبعض الموظفين المصريين .

وكان لهذه الاعتداءات أسوأ الأثر في الدوائر الوطنية بالقاهرة مما دفع الوطنيين الى أن يردوا على هذه الاعتداءات . ورأوا أن ينتقموا من الانجليز في شخص كبير منهم ووقع اختيارهم على السكرتير الانجليزي وكان يقيم بميدان توفيق في القاهرة التي أقيم مكانها عمارة مثل حاليا ، ووضعت الترتيبات الأولى بأحكام وحرمان وقت التنفيذ ، وفي تلك الآونة جاء السردار الانجليزي السير لي استاك سردار الجيش المصري وحاكم السودان الى القاهرة ، وكان مقدمه مديا في تخير خطة الوطنيين من أساسها ، اذ أنهم رأوا في السردار صيدا أثمن من السكرتير الإداري وفي الاعتداء عليه رد اعتبار لاعتداء الانجليز على الجيش المصري والموظفين بالسودان ، وبدأ الوطنيون في مراقبته ودراسة الطريق التي كان يسلكها يومها من منزله بالزمالك الى مكتبه بوزارة الحربية ، وعندما اطمأنوا الى نجاح خطتهم حددوا لتنفيذها يوم الأربعاء الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وكانوا ستة أشخاص ثلاثة لإطلاق النار واثنين للمراقبة وواحد لقيادة سيارة تكون مهمته التفاوض

زملائه والهروب بهم . وكان من عادة السير لى ستاك أن يبرح الوزارة في الساعة الثانية من كل يوم ويتجه بسيارته الى الزمالك مارا بشارع اسماعيل باشا أباطة ، وكان اسمه وقتئذ شارع الطرقة الغربى ، وقد رأت الجماعة أن هذا الشارع هو السبب مكان للتنفيذ ، وفي تمام الساعة الثانية مساء شاهد الرقيب الاول سيارة السير لى ستاك مقبلة وأعطى الإشارة المتفق عليها لزملائه ، وكانت مهمة الرقيب الآخر هو التأكد من خلو الطريق الذى ستتجه فيه السيارة . وما كادت سيارة السردار تمر من أمامهم حتى انهم الرصاص عليها من كل جانب . وقتل السردار وأصيب ياوره كامبل والسائق ، ثم هرع الوطنيون الى سياراتهم وهربوا بها .

وكانت الجماعة تتكون من عبد الفتاح عنايت الذى كان طالبا بمدرسة الحقوق وأخيه عبد الحميد عنايت الطالب بمدرسة المعلمين العليا وإبراهيم موسى وراغب حسين الموظف بوزارة الأوقاف وعلمود راشد مهندس التنظيم وعقب حادث قتل السردار تفرق الوطنيون كل الى عمله وتجنب كل شخص منهم مقابلة زميله . وقد اتجهت أنظار الانجليز والبوليس السياسى أول الامر الى جماعة تدعى جماعة اللواء الأبيض بالسودان ، كان لها فرع بالقاهرة ، كما كان لها نشاط كبير بالسودان وقتئذ . فقبض الانجليز على كثير من أعضائها وظلوا يستجوبونهم فترة طويلة دون جدوى ولكن الانجليز عادوا فاتجهوا الى الوطنيين المصريين ورصدوا مكافأة مالية كبيرة قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى لمن يدل بمعلومات تفنى الى القبض على المتهمين ، وقد أغرت المكافأة شخصا غير ذى ضمير هو الحلماوى وكان صديقا حميدا لعبد الفتاح عنايت وشقيقه عبد الحميد فأوهمهما بأنه موفد من قبل (الأمير السابق) عمر طوسون ليزجى لهما النصيح بالحرب وأنه أعطاه من المال مايعينهم على ذلك ، ومن الملابس العربية ما يستطيعون به التخفى عن العيون فانطلت الحيلة عليهما خصوصا بعد أن ارتدى معهما ثياب الأعراب ثم استقلوا القطار الى الحدود الغربية ، وفي أثناء الطريق وقتب القطار فجأة وأحاط البوليس به من كل ناحية ثم قبضوا على الوطنيين عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت بعد أن وضعت نجاة

الطباوى لما ولكن بعد فوات الأوان . وصرعان ما قبضوا على باقى الأبطال الذين سبق ذكرهم .

وعذب الوطنيون تعذيبا شديدا — ولاقر بين جدران السجن أشد أنواع التكيل ثم قدموا للمحاكمة — بعد أخذ الانجليز الاعترافات منهم قسرا .

وقد قضت المحكمة فى ١٩٢٥/٦/٧ — وكانت مؤلفة من أحمد عرفان باشا والمستر كروسو ومحمد مظهر — على عبد الحميد عنايت وإبراهيم موسى ومحمود راشد وعلى إبراهيم وراغب حسين وشفيق منصور بالاعدام شنقا ، وأما عبد الفتاح عنايت (١) فقد استبدل حكم الاعدام بالنسبة له الى الأشغال الشاقة المؤبدية .

وقد ثارت انجلترا لمقتل الردار وانتهزت وقوع الحادث لى تطالب ببعض المغانم ، ولدى تسترد بعض ما خسرت من مواقع ، فتوجه اللورد اللبى المندوب السامى ، فى صبيحة يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ فى مظاهرة عسكرية ضخمة الى رئاسة مجلس الوزارة ووجه الى رئيس الوزارة سعد باشا زغلول انذارين باللغة الانجليزية تلاهما المندوب السامى وهو واقف ثم عاد الى مكتبه دون أن ينتظر أى رد وطالب فى هذين الانذارين :

أولا : اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية . ثانيا : أن تبحث عن الجناة وتنزل بهم أشد العقاب . ثالثا : أن تمنع من الآن وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية . رابعا : أن تدفع للحكومة البريطانية غرامة قدرها نصف مليون جنيه . خامسا : سحب الجيش المصرى من السودان . مادسا : اطلاق يد حكومة السودان فى زيادة مساحة أطيان الجزيرة من ٣٠٠ ألف فدان الى مقدار غير محدود . سابعا : أن تعمل الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات انجلترا فيما يتعلق بحماية مصالح

(١) وقد شاهده فى سنة ١٩٤٢ عندما حضره من اللجن لىؤدى الامتحان منها بكتابة المحقق وكان مكبلا بالمديد وتحت حراسة البوايس وقد أجاز امتحان اليساى وأفرج عنه سنة ١٩٤٣ بعد أن مضى ثلاثة أرباع المدة وعامس مهنة المحاماة .

الأجانب في مصر . وانتهى الانذاران بتهديد الحكومة بأنها اذا لم تلب هذه المطالب في الحال فان انجلترا ستتخذ على الفور التدابير اللازمة المناسبة لصيانة مصالحها في مصر والسودان . وقد رفضت الحكومة هذين الانذارين الا فيما يختص بالتعويض والقبض على الجناة . وقد ترتب على هذا الرفض احتلال الانجليز لمركز الاسكندرية في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ مما أدى الى استقالة الوزارة في نفس اليوم .

وقد حاربت الوزارة التي تلت وزارة سعد - وهي وزارة زيور - أن تنسب الاغتيالات التي وقعت في مصر الى الوفد ، فقبضت على أحمد ماهر والنقراشي وعبد الحليم البيلي وحسن الشيشيني وغيرهم ، واسكنهم برنوا جميعا بما نسب اليهم وسميت هذه القضية بقضية الاغتيالات السياسية .

الاستقلال للزائف :

لم يحقق تهريب ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وما تلاه من صدور الدستور في ١٩ أبريل ١٩٢٢ أمل مصر في الاستقلال والحرية ، وظل الانجليز في مصر يحتلونهم ويدبرون شئونها كسابق عهدهم دون أدنى تغير أو تبديل ووضع الغرض الحقيقي من وراء صدورهما وهو اخضاع ثورة ١٩١٩ ووضع حد للاغتيالات التي قامت بها الجمعيات الوطنية ضد جنود وضباط بريطانيا في مصر . ثم سعت انجلترا بعد ذلك سعيا حثيثا لتربط مصر بدمجها السياسة البريطانية الى الأبد ، وفي سبيل ذلك تقدمت بمشروعات عديدة لاحتصر لها لكي تصل الى ما تستهدف اليه . ومن ذلك مشروع « تشرمبولن » في سنة ١٩٢٧ الذي رفضته وزارة الوفد وأدى الى اقالمتها في يونيو سنة ١٩١٨ ، وتعطيل الدستور ، ثم جاء الانجليز بمحمد محمود ليحكم البلاد حكما جائرا فكبكت الحريات وكمم الأفواه ، ولما لم تفد هذه السياسة لجأ الانجليز الى حكومة الوفد في سنة ١٩٣٠ وتقدموا لها مرة أخرى بمشروع معاهدة ظاهرها براق خداع وباطنها سم زعاف وفشلت المفاوضات التي دارت بين النحاس ومهندس تمهيدا لعقد هذه المعاهدة ، فسقطت وزارة الوفد وجاء اسماعيل صدقي الى الحكم ففعل الحياة النيابية ، وألغى الدستور ، وأصدر دستوراً آخر سمي

بمستور سنة ١٩٣٠ ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يكبت الحريات ، وعطل الصحف وصايرها بما أثار حفيظة الشعب فتأثرت طوائفه ، وعمت الاضطرابات جميع البلاد ، ونشطت الجمعيات السرية ودبرت المؤامرات والخطط لاغتيال رجال الحكم ، وعلى رأسهم الملك فؤاد ، وإسماعيل صدقي رئيس الوزراء ومحمد توفيق رفعت رئيس مجلس النواب . وألقى الوطنيون القنابل على القيادة العامة للجيش البريطاني بميدان الخازندار ووزارة الحفانية والمحكمة المختلطة (دار القضاء العالي حالياً) وكثرت حوادث الاغتيالات السياسية وعمت البلاد موجة من الفوضى وعدم الاستقرار ، ورأى الإنجليز أن الحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم فنقلت سير برسي لورين مندوبها السامي من مصر ثم أشارت بتغيير الوزارة فاستقال صدقي في سنة ١٩٣٣ بعد أن فشل في المحادثات التي دارت بينه وبين جون سيمون بشأن عقد معاهدة اشترط الإنجليز لقيامها ما سبق أن أبدوه من ضرورة بقاء قوات الاحتلال في مصر والسودان . وذهب حكم إسماعيل صدقي بصفحته السوداء وتنفس الشعب الصعداء بعد أن أزاح عن كاهله هذا الكابوس الذي ظل رابضاً على صدره ثلاث سنوات ، واستبشر خيراً عند ما صدر أمر الملك فؤاد بإبطال العمل بمستور سنة ١٩٣٠ وذلك في نوفمبر سنة ١٩٣٤ ، ولكنه لم يعن بإعادة الحياة النيابية إلى البلاد أو يأمر بإرجاع دستور سنة ١٩٢٣ وظلت مصر أكثر من عام تحيا بلا دستور ، وعند ما رأى الإنجليز أن الوطنيين في مصر يطالبون بإسقاط دستور سنة ١٩٢٣ وأن مبدأ الجلاء أصبح على كل لسان قام وزير خارجية بريطانيا سمويل هور وأعلن في ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ بأن الحكومة البريطانية لا توافق على إعادة دستور ١٩٢٣ . وكان لهذا التصريح أسوأ الأثر على الشعب الذي هب معلناً غضبه وثار الوطنيون والطلبة وقامت المظاهرات الصاخبة في كل مكان .

شهداء تصريح هور :

لم يكذب سمويل هور يعلن تصريحه الجائر في ٩ نوفمبر حتى ثارت جموع الشباب وغلى مرجل جامعة (فؤاد) (القاهرة حالياً) وقرر الطلبة الخروج يوم

١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ في مظاهرة صامته يعلنون فيها غضبهم واستياءهم من هذا التصريح ويطالبون المسئولين بالعمل على إعادة دستور سنة ١٩٢٣ والسعى لإخراج الإنجليز من البلاد . واختار الطلبة يوم ١٣ نوفمبر لأنه يوافق يوم الجهاد . وكان الطلبة يحتفلون به كل عام وبدأت جموعهم تتوافد على ساحة الجامعة حتى بلغ عددهم عشرة آلاف طالبوا أقاموا متبراً للخطابة عند مدخل كلية الحقوق وتناوب الطلبة الكلام وتماهدوا على أن يكون الشباب أول من يضحى بنفسه في سبيل مصر ، وفي حوالي الساعة العاشرة بدأ زحفهم نحو القاهرة وعبروا كوبرى الجلاء واتجهوا نحو كوبرى الخديوى إسماعيل ، وعند ميدان الإسماعيلية تعرضت لهم قوة من البوليس برياسة بعض الضباط الإنجليز وعندما عجزوا عن تفريق المظاهرة أطلقوا عليها الرصاص كما أمر ضابط إنجليزى سائق السيارة ، البوكسفورد ، التى كان يستقلها مع بعض الجنود بأن تدفع بأقصى سرعتها وسط المتظاهرين فأصاب كثير من الذين سقطوا تحت عجلاتها وقد بلغ عدد الجرحى تسعين جريحاً من بينهم الضابط الإنجليزى ستيرارت الذى كان من بين حملة تفريق المتظاهرين .

واشترك في مظاهرات يوم ١٣ نوفمبر جميع طلبة الجامعات والمدارس وطلبة الأزهر ، كما قامت المظاهرات في باقي مدن القطر وكان أشدها مظاهرات مدينة طنطا وتسبب عنها استشهاد طالين هما : محمد عبد المقصود وشيكة ، ومحمد محمود النقيب وإصابة ٧٨ جريحاً وفي اليوم التالى أى يوم ١٤ نوفمبر بكر الطلبة بالحضور إلى ساحة الجامعة وقد عقدوا العزم على الخروج في مظاهرة جديدة ليحبروا فيها عن منخطهم من تهريب صمويل هور ولما لاقوه على يد رجال البوليس وخاصة الإنجليز من عسف وتكيل وعند مرورهم أمام مدرسة السعيدية انضم إليهم طلبتها كما خرج معهم جميع طلبة الكليات والمدارس الأخرى بمنطقة الجزيرة ، وكان البوليس يسير بجوارهم ليحافظ على النظام ولينع تسرب الفوضى إليهم وظلت المظاهرة السلمية ماضية في طريقها حتى وصلت إلى متحف كوبرى عباس وهى آخر حدود منطقة بوليس الجزيرة وما كاد الطلبة يعبرون الكوبرى حتى شاهدوا قوة من

الكولستبلات الإنجليز تواجهم وبأيديهم المدافع الرشاشة ، وفوجى الطلبة بالرصاص ينطلق عليهم دون سبب فيصيب منهم قتلى وجرحى ، وكان فى مقدمة الشهداء الشهيد عبد المجيد مرمى الطالب بكلية الزراعة الذى أطلق عليه الضابط الإنجليزى ليز أربع رصاصات خر بعدها والدم ينثنى من صدره وعنقه وما كاد يسقط على الأرض حتى أخرج منديلا من جيبه وبالله يده ثم ساهمه إلى أحد زملائه وهو يقول تذكروا هذه الدماء وأسلم روحه فحمله زملاؤه على عربة كارو وانجسوا به إلى مستشفى القصر العينى .

وعند ذلك تقدم زميله محمد عبد الحكيم الجراحى الطالب بكلية الآداب وواجه الضابط الإنجليزى ليز وخاطبه بشجاعة وثبات قائلا له : « أمن الشجاعة أن تضرب بالرصاص شاباً أعزل فتقاتله .. وهو فى الوقت نفسه أقوى منك وأنت معك سلاحك ، فتعجب ليز وقال له مهردأ : أنود أن تلتحق به . فما كان من عبد الحكيم إلا أن تقدم منه قائلا : أريد أن أعزبى أنا أيضاً . هل هذه هى شجاعتكم التى تشدقون بها ، هاك صدرى إننا لسنا جناء مثاكم . فما كان من الوغد الإنجليزى إلا أن أطلق عليه الرصاص ، فسقط عبد الحكيم على بعد خطوات من المكان الذى سقط فيه زميله عبد المجيد منذ دقائق خلت . وفى مستشفى القصر العينى عجز الطب عن إنقاذ حياة عبد الحكيم فمات شهيداً يوم ١٩/١١/١٩٣٥ وهو يهتف بحياة مصر .

وقبل أن يلفظ عبد الحكيم آخر أنفاسه أرسل لرئيس وزراء بريطانيا الخطاب التالى :

« إلى رئيس وزراء انجلترا روح الشر .

سيدى .. أحد رجالكم الأغبياء أصابنى برصاصته وأنا أموت الآن شيناً فشيناً ، ولكنى سعيد للغاية أن ضحيت بنفسى ، إن الموت أمر صغير وآلام الموت عذبة المذاق من أجل مصيرنا ، فلتحيا مصر .. ليسقط الاستعمار وتسقط انجلترا ،

وسيتولى الله عقابكم قريباً أنتم وانجليترا روح الشر فلتحيا التضحية .

أحد الشهداء المصريين

(محمد عبد الحكم)

حق في أخرج الأوقات لم ينس الوطنيون حق بلادهم عليهم فاستهانوا بالموت
وازدروه ليهبوا الحياة والخلود لوطنهم .

ومن المشاهد المؤسفة التي حدثت وقت ذاك أنه عند ما نقل محمد عبد المجيد مرسى
إلى مستشفى القصر العيني التف حول جثته الأطباء والمرضات لفحصها ،
وعند ما كشفوا عنها الغطاء صرخت إحدى المرضات وسقطت منثياً عليها ،
واتضح أنها شقيقة الشهيد عبد المجيد مرسى وهي الآنسة إحسان عبد المجيد مرسى .

وكان من شهداء الجامعة كذلك على طه عفيفي الطالب بدار العلوم الذي توفي
يوم ١٧/١١/١٩٣٥ وعند ما علم الطلبة بامتنشاده توجهوا إلى المشرحة وفتحوها
عنوة ونقلوا جثمانه إلى مكان بجوار أنقاض عمارة متهدمة ليخضعوها عن أعين
البوليس ، حتى يتمكنوا من تشييع جنازته بعد أن فشلوا في تشييع جثمان الفقيد
الأول عبد المجيد وعبد الحكم ، وقد عجز رجال البوليس عن العثور على جثة
على طه عفيفي رغم المساعي التي بذلها ، ونجح الطلبة في تشييع الجنازة رغم أنف
البوليس والحكومة وتقول الأهرام تصف الجنازة : (واشترك في تشييع الجنازة
جميع الطلبة والمصابون الذين كانوا يرقدون في المستشفى وظهر بعضهم وقد عصبت
رؤوسهم والبعض الآخر وقد علقت أيديهم فوق رقابهم كما اشتركت المرضات
والمرضى والأهالي في المظاهرة بين العويل والبكاء وكان النبا قد ذاع في الأوساط
والنواثر السياسية فحضر إلى المستشفى جمهور كبير من الناس وكبار الساسة .
وفي الساعة السادسة مساء حمل الطلبة النعش ورفعوا علمهم وسارت الجنازة يتقدمها
الطلاب الذين يحملون العلم فنعش الفقيد يتبعه عميد كلية الطب والأطباء وأساتذة
الجامعة ومكرم عبيد وأحمد ماهر والنقراشي وغيرهم .

وسارت الجنازة صامتة في شارع القصر العيني ، وكانت الجماهير تحيها من نوافذ البيوت ووقف الناس على جانبي الطريق خاضعين وبلغت جماهير المشيعين عدداً لا يحده بصر . وعند ما بلغ المشيعون دار العلوم ... وهي مدرسة الفقيد وقف النعش قليلاً وحيث المدرسة فقيدها فأضأت الأنوار له) .

هؤلاء كانوا بعض ضحايا الجامعة الذين استشهدوا سنة ١٩٣٥ وبذلوا أرواحهم رخيصة من أجل الحرية والاستقلال وسطروا بدمايتهم صفحة أخرى من صفحات الكفاح والنضال والمجد .

وكما اعتدى رجال البوليس والإنجليز على طلبة الجامعة هاجموا كذلك الاجتماعات التي عقدها رؤساء الأحزاب يوم ١٣ نوفمبر وأصابوا كثيراً من الوطنيين . وألمح هنا لواقعة حدثت في اجتماع الوفد لما لها من دلالة كبيرة ، فنقب انتهاء الحفل هاجم البوليس السرايق الذي أقامه الوفد وأعمل عميه وهراواته في المجتمعين ثم أطلق النار عليهم بما تسبب عنه إصابة الكثيرين ، وكان من بينهم جمال عبد الناصر الطالب بمدرسة النهضة المصرية . وتسجل جريدة الجهاد المصادرة في ١٤/١١/١٩٣٥ ذلك فتقول : « ورأى الذين لم يكونوا قد انصرفوا من السرايق بعد أن يقوا في أماكنهم حتى تبدأ الحالة ، وكان قد لجأ إلى السرايق بعض الذين كانوا في الشارع ، فدخل الجنود إلى السرايق وعملوا على تفريق الموجودين ، فكان أن امتد حادث التصادم إلى السرايق . ولجأ بعض الجرحى إلى دار الجهاد ووقدروا في غرفة مكتب صاحب الجهاد ، وكانت دمايتهم تسيل فتلوث أثاث الغرفة وحضر رجال الإسعاف إلى الدار وأمسفوا هؤلاء المصابين وبينهم جمال عبد الناصر الطالب بمدرسة النهضة المصرية . وقد أصيب في مقدمة رأسه ، وعبد الحميد عزت الطالب بمدرسة الإسماعيلية الثانوية ، وقد أصيب في جبهته والشيخ خير الطالب بكلية الشريعة ، وقد أصيب في رأسه بإصابتين خطيرتين ، ومحمد علي خليل السفرجاني وقد أصيب في يده وقد اخترقت ثيابه نار الطلقات (١) ،

(١) الصور عدد ١٢ مارس سنة ١٩٦٥ .

هذا هو وصف جريدة الجهاد ليوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ويلفت نظرنا فيه فضلاً عن كفاح الشعب . تصميم جهل عبد الناصر على النضال عند ما كان طالباً صغيراً في مدرسة النهضة المصرية ، وما انطوت عليه نفسه من حب للوطن وتصميم على التضحية والفداء منذ أن كان شاباً يافعاً واختار لنفسه سبيل النضال والجهاد بينما سلك غيره من الشباب طريق الراحة واللهو .

جهود الشباب :

وأثمرت جهود الشباب — ولم تذهب دماؤهم هباءً ونجحت الدعوة التي وجهوها لأزعماء الائتلاف — فأتحدوا بعد فرقة ، وانفقوا بعد خصام وجمعت قلوبهم الأسيفة محنة الوطن في هذا الطرف الحرج وكانت فكرة الائتلاف بعيدة عن أذهانهم بعد السياء عن الأرض لأن كل زعيم كان يعتقد أنه يسير في الطريق السليمة وأما غيره فإما خائن وأما صاحب مصلحة فضلاً عن أنه كان يتطلع إلى الحكم تطلعه إلى الأمل المرجو فيشبع غروره من جهة . وإرضى من هم حوله من أعضاء حزبه وأقاربه على السواء من جهة أخرى وهذه هي الورقة التي استغلها الإنجليز والقصر لتحقيق مطالبهما المشتركة واستغلوها إلى أبعد الحدود فأقادوا منها كثيراً ومن هنا كانت فكرة الائتلاف التي سعى إليها الشباب ، ودعوا إليها ، هي الضربة التي وجهوها إلى الاستعمار والملك — ونجح الشباب — فائتلفت الأحزاب وتكوّنت الجبهة الوطنية في ديسمبر سنة ١٩٣٥ — واضطر الملك فؤاد تحت هذا الضغط الوطني والإجماع الرائع أن يعيد دستور سنة ١٩٢٣ في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٢ — ثم بدأت المفاوضات مع إنجلترا بعد ذلك في ٢ مارس سنة ١٩٣٦ — وكان حزب الوفد قد فاز بالأغلبية في الانتخابات التي أجريت في عهد وزارة علي ماهر الذي استقال ثم عهد مجلس الوصاية إلى مصطفى النحاس بتأليف الوزارة الوفدية في ١٠ مايو سنة ١٩٣٦ وبعد ذلك سافر وفد المفاوضات إلى لندن للاتفاق على المعاهدة وفي ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ تم التوقيع عليها . وقد وافق على هذه المعاهدة ووقعها من الجانب المصري ممثلو الأحزاب المصرية فيما عدا رجال الحزب الوطني الذين لم يؤمنوا في أي وقت بالمفاوضات كوسيلة لإجلاء الإنجليز من البلاد .

٢ - موقف الشعب من معاهدة ١٩٣٦

صك الاستسلام للخديعة الكبرى :

اقتبسنا عنوان هذه الفقرات كمادتنا من الميثاق الخالد ، فقد تحدث الميثاق عن معاهدة ١٩٣٦ : «وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ التي عقدت بين مصر وبريطانيا ، والتي اشتركت في توقيعها جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية العاملة في ذلك الوقت بمثابة صك الاستسلام للخديعة الكبرى التي وقعت فيها ثورة ١٩١٩ . فقد كانت مقدماتها تنص على استقلال مصر ، بينما صلبها في كل عبارة من عباراته يسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى .»

في أواخر عهد فؤاد ، دارت مفاوضات بين المندوب السامي البريطاني السير مايلز لامبسون ورجاله ، وبين مفاوضين مصريين من ممثلي جميع الأحزاب المصرية عدا الحزب الوطني الذي جعل شعاره كما ذكرنا (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء) أسفرت على توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

ولم تكن هذه المعاهدة إلا قيداً جديداً تضمه انجلترا في معاصم المصريين إذ على الرغم من نص المعاهدة على انتهاء الاحتلال ، بقيت الجنود البريطانية في منطقة القناة ، وسمح بزيادة عددها في حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة مفاجئة إلى الحد الذي تريده انجلترا ، إذ أنها لم تكن تهدف إلى تحالف بالمعنى المعروف تقف فيه كل من الدولتين موقف الند الآخر على كل منها واجبات ولها حقوق مساوية للآخرى تماماً .

وهذه المعاهدة لم تحقق إلا مصالح انجلترا وحدها . فهي تجعل مصر قاعدة الجيوش البرية والبحرية البريطانية ، وتحتل موانئ مصر ومطاراتها وطرق المواصلات فيها تخضع للقوات البريطانية في حالة خطر الحرب أو في حالة الطوارئ . السولية ، وهي عبارات غامضة يمكن تأويلها على الشكل الذي تحدده وترسمه انجلترا .

أباحّت المعاهدة للقوات البريطانية احتلال موانئ مصر ومطاراتها ، وهذا يعنى فى الحقيقة والواقع تدعيم الاحتلال البريطانى الذى بدأ سنة ١٨٨٢ ويعطيه صورة مشروعة ، تعترف بها الحكومة المصرية ، كما أن التزام مصر فى المعاهدة بإنشاء طرق حربية وصياتتها باستمرار ، وتقديم المساعدات والتسهيلات لقوات بريطانيا ، يكلف الميزانية المصرية نفقات باهظة وأعباء كبيرة ، كما فرضت انجلترا فى المعاهدة أن تستجيب مصر إلى طلب انجلترا بإعلان الأحكام العرفية وفرض الرقابة على الأنباء والحريات لحماية المصالح البريطانية ، وهذا فى الحقيقة صورة من صور الحماية البريطانية التى ثار المصريون ضدها بالأمس .

وكان لبقاء القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس أثره فى الضغط السياسى على الحكومات المصرية ، ويجعل السفير البريطانى هو الحاكم الحقيقى الفعلى لمصر .

وجعلت المعاهدة من السودان مستعمرة بريطانية يحميها جنود مصريون برئاسة حاكم بريطانى . أما ما ورد فى المعاهدة بشأن إلغاء الامتيازات الأجنبية فلم يكن كسباً كاملاً لمصر ، إذ اعترفت المعاهدة بأن إلغاء الامتيازات والمحاکم المختلطة أمر مرهون بالاتفاق مع الدول صاحبة هذه الامتيازات ، كما أن جعل أحد معاهدة ١٩٣٦ عشرين عاماً يعنى وضع القيود فى أيدي المصريين خلال هذه الأعوام الطويلة .

لقد معاهدة ١٩٣٦ :

ولقد كانت هذه المعاهدة من جهة نظر الوفدين وبسبيلة لاستقرار الحكم فى أيديهم واستتباب الأمر لهم - مع أنها كانت معاهدة تتنافى بنودها مع جوهر الاستقلال ، والمجيب أن هذه المعاهدة لو قبلناها على جميع أوجهها أو نقبنا بين نصوصها ما وجدنا بينها نصاً يفيد البلاد أو يضى عليها نوعاً من الاستقلال .

ويكفى أن أسوق هنا بعض نصوص المعاهدة ليستبين القارىء إلى أى مدى أهدر ثلاثة عشر سياسياً مصرياً كرامة مصر وعزتها بعد كفاحها المجيد المرير طيلة السنوات الخمسين الماضية .

البند الأول :

يقضى بأن يترك الإنجليز ثكناتهم بالقاهرة والإسكندرية ومن جميع المناطق التي تعسكر فيها عند توقيع المعاهدة وتنتقل إلى منطقة قناة السويس بأكملها ومديرية الشرقية حتى حدود القاهرة ومديرية الجيزة وشبه جزيرة سيناء .

وقد كان هذا النص هو العظمة التي ألغتها الإنجليز للساسة المصريين كي يوافقوا على هذه المعاهدة . وحاول الثلاثة عشر سياسياً الذين وقعوا المعاهدة أن يقتنعوا أنفسهم بأن انتقال الإنجليز من مكان إلى مكان آخر يحمل معنى الاستقلال . كان قناة السويس ومديرية الشرقية وشبه جزيرة سيناء ليست ضمن الوطن الكبير وإنما هي مناطق تتبع بلداً آخر وكان انتقال الجنود من القاهرة والإسكندرية إلى السويس والإسماعيلية وبور سعيد والتل الكبير وغيرها فيه الكسب لمصر . وفيه الغرم على انجلترا .

البند الثاني :

حددت المعاهدة عدد القوات البريطانية بعشرة آلاف جندي ، وأربعمائة طيار مع الموظفين اللازمين لأعمالهم الإدارية والفنية — ويقتصر هذا التحديد على وقت السلم على أن يكون لا يتخطى الحق في زيادة هذه القوات كيفما تشاء . وإلى أي عدد ترضيه في ثلاث حالات .

أولاً : حالة الحرب .

ثانياً : حالة خطر الحرب .

ثالثاً : وأمام حالة دولية مفاجئة .

وظاهر من هذا البند إلى أي مدى كان الإنجليز يضعفون على عقول الساسة المصريين ويعطون باليمين لياخذوا بالشمال . فانظر مدى أولاً عند ما حدد الإنجليز قواتهم بعشرة آلاف جندي وأربعمائة طيار ولم يجدوا عدد الموظفين اللازمين —

لأعمالهم الإدارية والفنية ، أى أن للانجليز أن يستحضروا أى عدد يشاءون .
باعتبارهم موظفين إداريين أو فنيين وهم فى حقيقة الأمر جنود عاملون . هذا من
جهة ومن جهة أخرى فإن رغبة منهم فى عدم التقيد بعدد الجنود اشترطت بريطانيا
أن تزيد قواتها إلى ما تشاء فى الأحوال الثلاثة التى ذكرناها وهى حالة الحرب
وقيام حالة دولية مفاجئة وحالة خطر الحرب . أى أن انجلترا ستزيد عدد قواتها
على الرقم الذى التزمت به فى أى وقت ، سواء أكان فى الحرب أو السلم ما دامت
لها حرية تقدير الموقف الدولى . فلها أن تقول أن خطر الحرب قائم أو هناك حالة
دولية مفاجئة ، فيكون لها الحق فى أن تزيد عدد قواتها إلى العدد الذى تريده دون
رقيب ، ففى زال خطر الحرب من العالم ؟ ومتى خلت أخبار العالم من قيام حالة
دولية مفاجئة ، وما يفعله هتلر وألمانيا النازية كل يوم فى التوسع على حساب
جيرانها — وما تأتى به الأنباء من أخبار التسلح والاستعداد للحرب فى تلك الأيام
الآ بعد كل هذا وخطر حرب ، ؟ أو حتى حالة دولية مفاجئة . خلاصة الأمر
أن انجلترا لن تقيد إطلاقاً بالعدد الذى التزمت به فى هذا البند سواء أكان فى وقت
الحرب أو فى السلم على السواء .

البند الثالث :

اشترطت انجلترا فى هذا البند أن تلتزم مصر ببناء الشكات الجديدة والمنازل
اللائقة وإنشاء الحدائق والملاعب والمصايف للجنود والضباط والموظفين فى المناطق
الجديدة التى حددتها المعاهدة .

كما التزمت مصر كذلك بإنشاء أربع طرق حديثة بالأسفلت لتسهيل نقل الجنود
الإنجليز ، وهذه الطرق هى :

١ — طريق من الإسماعيلية إلى الإسكندرية ويبلغ طوله تقريباً ٣٠٠
كيلو متر .

٢ — طريق من الإسماعيلية إلى القاهرة وطوله ١٦٠ كيلو متر تقريباً .

٢ — طريق من بور سعيد إلى الإسماعيلية وطوله ١٠٠ كيلومتر تقريباً .

٤ — وطريق من البحيرات المرة إلى طريق السويس . وهذه الطرق وتلك الإنشاءات تكلفت ملايين الجنيهات دفعتها مصر لراحة جنود بريطانيا دون أى مصلحة تعود على مصر .

البند الرابع :

اشترط في هذا البند بقاء القوات الإنجليزية في الإسكندرية لمدة ثمانى سنوات حتى تنشىء مصر طرقاً أخرى خلاف ما ذكره البند السابق ويتم بناء الشكات في القناة . والطرق الجديدة التى اشترطت انجلترا على مصر لإنشاءها هى :

١ — طريق من القاهرة إلى قنا بمحاذاة النيل .

٢ — طريق من قوص إلى القصير .

٣ — طريق من قنا إلى الفردقة هذا بخلاف إصلاح طريق السويس وطريق القاهرة الاسكندرية وطريق الإسكندرية قوسى مطروح .

وبدئى أن مصر تكبدت ملايين الجنيهات وأرهقت الميزانية هذه المشروعات التى أقيمت لرعاية جنود العدو ، وتيسير وسائل النقل لهم عند ما تدق الساعة وتعلن الحرب .

البند الخامس :

حدد هذا البند مكان إقامة الجنود حول قناة السويس من بور سعيد شمالاً حتى السويس جنوباً على ألا تبعد هذه القوات عن السكة الحديد لآى مدينة مقامة على القناة بخمس كيلومترات على أن يوضع تحت تصرف القوات البريطانية كل المطارات والميادين والأراضى الواقعة في هذه المنطقة والتي ترى انجلترا أنها لازمة وقد تضمن هذا البند نصاً غاية في الغرابة فنص بأن يكون لقوات الطيران البريطانية

من الطيران حيثما تريد في الأراضي المصرية مع منح مثل هذه المعاملة للقوات
الهوائية المصرية في الأراضي البريطانية .

وكاننا على قدم المساواة في القوة بما في ذلك عدد الطائرات مع بريطانيا .

البند السادس :

ويقضى البند السادس بأنه في حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية
مفاجئة تلزم الحكومة المصرية أن تقدم داخل حدود الأراضي المصرية جميع
التسهيلات والمساعدات التي في وسعها إلى القوات البريطانية ويكون للقوات البريطانية
حق استخدام موانئ مصر ومطاراتها وطرق مواصلاتها وعلى مصر اتخاذ
الإجراءات الإدارية والتشريعية اللازمة لذلك بما في ذلك إعلان الأحكام العرفية
 وإقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدات فعلية ويدخل في
طرق المواصلات الاخبارية اللاسلكية والتليفونية .

ومعنى ذلك أن تدرع انجلترا في احتلال ما ترى احتلاله من البلاد التي ليست
تحت سيطرتها . وتضع مصر جميع مقدراتها تحت تصرف انجلترا .

البند السابع :

ينص على أنه بعد انقضاء عشرين سنة على تنفيذ المعاهدة يبعث الطرفان فيما
إذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضرورياً لأن الجيش المصري أصبح في
حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة في القناة وسلامتها التامة .

فإذا قام خلاف بينهما في هذا الصدد فإن الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة
الأمم أو على هيئة محكمة تفصل فيه .

أي أن انجلترا إذا لم توافق على الخروج من مصر بعد ٢٠ سنة يكون لنا
أن نلجأ إلى عصبة الأمم . وكاننا نعلم ما هي عصبة الأمم . تلك الشطاء المجوز
التي يسيرها الاستعمار حسب هواه .

البند الثامن :

ويقول هذا البند الأخير أن بعد انقضاء العشرين السنة المذكورة وفي أى وقت بعد انقضاء عشر سنوات يمكن إعادة النظر بين الطرفين في نصوص المعاهدة وفي حالة عدم الاتفاق يعرض الخلاف على عصبة الأمم . ولكن من المتفق عليه أن إعادة النظر في المعاهدة يجب أن يقرر فيها وجوب استمرار المحالفة بين الطرفين واستمرار التزام مصر في حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة — يخشى خطرهما أن تقدم للقوات البريطانية داخل حدود الأراضي المصرية كل التسهيلات والمساعدات اللازمة وتخولها حق استخدام موانئها ومطاراتها وطرق المواصلات فيها . وهذا البند يكشف لنا نيات بريطانيا وينضح ألاعيبها ويرينا مدى مذاجعة سياسة مصر . هؤلاء الساسة الذين باعوا بلدهم بأرخص ثمن أعطوا للإنجليز كل شيء وخسروا هم كل شيء . وهم بمقتضى هذا النص يوافقون على أن تظل مصر مرتبطة إلى أبد الآبدين بمجلة السياسة البريطانية وأن يصبح لـإنجلترا الحق في أى وقت تشاء بأن تحتل البلاد من جديد بحجة وجود خطر حرب أو حالة دولية مفاجئة يخشى خطرهما . أى إذلال وأى مهانة .

• وما يؤسف له أن مصطفى النحاس رئيس المفاوضين في ذلك الوقت سمى هذه المعاهدة بمعاهدة الشرف والاستقلال . وما درى أنها وثيقة الذل والاحتلال .

• وقد قوبلت هذه المعاهدة من رجال الحزب الوطنى وحدهم بالسخط وبالنقد الشديد . وقد علق عليها الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى في كتابه : « في أعقاب الثورة المصرية » . فقال : « من يقل أن معاهدة واحدة من هذا النوع وتاريخها ولأمم الدولتين اللتين أبرمتاها فتكون له من الشاكرين .. » .

وأما المراد الأخرى للمعاهدة فقد سرت على هذا العهد القرم لمصر ، والغنم لـإنجلترا فسلخت عنا السودان وفضمت عربى اتحادنا معه وجعلته مستعمرة إنجليزية . تصول فيه وتجهول بما شاء الله لها أن تصول وتجهول .

معاهدة مشنومة.

من بنود المعاهدة بين إلى أي حد باع المفاوضون وطنهم إلى الإنجليز وربطوا مصر بالبحر إلى الأبد . كالسيد الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً إلا إذا شاء وليه وسيده . وهؤلاء الساسة هم : مصطفى النحاس ومحمد محمود وإسماعيل صدق وعبد الفتاح يحيى وويضا واصف — بطرس غالى — الدكتور أحمد ماهر — على الشمس — عثمان محرم — محمد حلى عيسى — مكرم عبيد — حافظ عفيفى — محمود فهمى النقراشى — أحمد حمدى سيف النصر . وحقيقة الأمر أن الإنجليز — وهم الذين يشهد لهم — التاريخ بفسوخ أقسامهم فى السياسة وبعد النظر — كانوا فى أمس الحاجة إلى هذه المعاهدة ذلك أنهم كانوا يشاهدون طغيان هتلر وتغوله ويعلمون أن الحرب واقعة لا محالة — وأن المسألة كانت مسألة وقت بالنسبة لهم لتنظيم صفوفهم واستعادة قوتهم وليعملوا على استقرار الأمور فى البلاد التى يحتلونها . ومن ثم كانت المعاهدة بالنسبة للإنجليز كصمام الأمان لما فى منطقة الشرق الأوسط وخاصة وأنهم كانوا من الخدق والذكاء بحيث أنهم رجحوا من المعاهدة بقدر ما خسرت مصر .

وقد تحقق ما تنبأ به الإنجليز من وقوع الحرب فلم تمض ثلاث سنوات على صد هذه المعاهدة البغيضة حتى أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا وما لبث أن خاض — غمارها إيطاليا واليابان وأمريكا وروسيا وأصبح العالم كله ينزى كالبركان وشرعت المدافع والقنابل تمهد الملايين من البشر وبمجرد إعلان الحرب وضعت إنجلترا يدها على مصر وعلى جميع موانئها وسواحلها ومواصلاتها وطرقها واستولت على جميع المؤن والذخائر وأصبحت مصر تحكم من مقر السفارة البريطانية .. كل ذلك استناداً إلى المعاهدة المشنومة ..

أجمعات بين الشعب :

منذ قامت الحرب بين ألمانيا من جهة وإنجلترا وفرنسا من جهة أخرى وإنجلترا تستعجى بما خولته لها معاهدة سنة ١٩٣٦ من مزاي ، تلك المعاهدة التى

أصاب الوطن والوطنيين بلعنة شديدة وخيبة أمل ، وكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ من ناحية أخرى وسيلة لإطلاق يد الوفد ورئيسه في حكم البلاد . ومنذ ذلك التاريخ وحزب الوفد في تدهور مستمر فظهرت المحسورية صافرة وتكونت فرق القمصان الزرق التي ضمت السوق والمرزقة الذين كان يسخرهم الوفد في الاعتداء على معارضيه وحكم الوفد مصر حكماً ظالماً بغيضاً ونسى كل ما كان يتشدد به من مبادئ ومثل .

وفي هذه الفترة التي تازمت فيها الأمور حاول بعض الوطنيين التجمع بعد أن رأى زعماءه : يتهاوون الواحد إثر الآخر سعياً وراء القليل من الفئات الذي سمح لهم الإنجليز بأن يلتقطوه .

ووجد الشباب نفسه وحيداً بعد أن كفر بساسته وزعمائه وتنازحته عوامل متضاربة من الحيرة والقلق والغضب وخشى على مصر من الانحدار الذي بدأ يلوح في الأفق فأخذ يتجمع محاولاً فرض سلطانه من جديد لهه يجد مخرجاً من الحلقة التي بدأت تضيق من حوله وكانت هناك تجمعات كثيرة منها جماعة الحزب الوطني التي اختير أعضاؤها من شباب الحزب المؤمنين وبدأت هذه الجماعة عملها بجمع الأسلحة الصغيرة (المسدسات) من الريف ومن الصعيد ومن التل الكبير وتلى ذلك تدريبهم على إطلاق الرصاص وإلقاء القنابل ، وكانوا يمارسونه بمنطقة نائية هي وادي خوف بجوار حوان وما لبثت الجماعة أن اشترت ماكينه لطبع المنشورات لبث الروح الوطنية في نفوس الشباب وحضهم على مقاومة الإنجليز وأعوانهم من المصريين وتبصيرهم بالأوضاع الحقيقية التي كانت تجري ونشذ في مصر والدعوة إلى حمل السلاح والجهاد في سبيل الله والوطن ، وبدأت الجمعية بتوزيع المنشورات في جميع الجهات بكل حرص لأن الحرب العالمية الثانية كانت قد قامت في سبتمبر سنة ١٩٣٩ والأحكام العرفية مسلطة على الرقاب .. والبوليس السياسي يترصد بالوطنيين في كل مكان لذلك لم يكن توزيع هذه المنشورات بالامر اليسير ولكنها كانت تصل إلى من أرادت الجماعة أن تصل إليهم سواء أكانوا

من السياسيين أو من الشباب وكانت القاهرة تسليقظ لتتخذ المنشورات في كل مكان ملصقة على أعمدة النور ، أو على الجدران أو تحت أعقاب الأبواب أو في الشوارع . ومهما يكن الأمر فقد كان لها أثر كبير على نفوس الشباب والوطنيين خاصة في ذلك الوقت .

ثم اتجه الأمر بعد ذلك إلى محاربة الجنود الإنجليز واقتناصهم أثناء خروجهم من المواخير ودور اللهو ، وقد رقت عدة اغتيلات في ذلك الوقت كان أشدها حادثة السينما وهي سينما خاصة كان يؤمها الإنجليز وخدم في أيام معينة ، وكانت تقع مكان لوكاندة فيكتوريا بشارع الجمهورية حالياً (إبراهيم باشا سابقاً) على وجه التقريب وقد وقع الحادث بعد أن تسلل إليها وطنيان من ناحية شارع عماد الدين وألقيا بها قنبلتين انفجرتا دفعة واحدة وقتلت بعض الجنود الإنجليز الأمر الذي جعل الحكومة تشدد وطأتها على الوطنيين من الشباب وتعقبهم وتزوج بهم في السجون وهاجت الحكومة وهاجت بأقلام أمنها ومخابراتها عما حدا بهذه الجماعة إلى التوازي عن الانظار بعض الوقت حتى تخف هذه الحملة وإلى أن يجدوا مكاناً أميناً يجتمعون فيه بعد أن وضعت يوتهم تحت المراقبة .

٣ - أسود الجيش ونسور الطيران

بيت المغرب

الشعب يتجه الى قوائمه المسلحة :

وكان للمنارية ناد يؤمونه وقت فراغهم كائن بميدان الأوبرا بالعامة التي بها مقهى نوبار حاليا ، وكان شباب الحزب الوطني يتخذون منه مكانا مختارا لهم يباشرون عملهم فيه بحرية وأمان حتى أن المنشورات كانت تكتب فيه وتصدر منه وفي هذا البيت ولدت فكرة جديدة طرحت لأول مرة وخرج منه الأعضاء لتنفيذها .

فقد أثار أحد الأعضاء فكرة جديدة : ذلك أنه يكفي ما قاموا به من أعمال حتى الآن هيأت الجو وافتتحت الأنظار بأن هناك قوة مستعدة للعمل في سبيل الوطن وبين الزميل لباقي الأعضاء بأن قضية مصر لاتحمل بالمنشورات والانتجيزات يخرجوا منها لأن عددا من جنودهم لقوا مصرعهم ثم وضع لهم العضو مدى النكسة التي تعرض لها الحكومة لو أن البرلير السياسي وضع يده عليها — وانتهى من ذلك الى أن خلاص البلد لا يمكن أن يتم الا على يد جيشه وبسواعد المخلصين من أبنائه ولا سبيل الى ذلك الا بأن نبعث عنهم بصبر وأناة حتى نعثر عليهم ونُدفع بهم الى المعركة وما هي الا خلية سرية واحدة تنبثق منها الخلايا فتقوم الحركة وتشتد ولا يبقى الا أن تعلن عن نفسها بانقلاب عسكري ينقذ البلد من الطغيان ويبحث الفساد من أساسه . . ثم بين العضو صاحب الفكرة أن الجيش وحده هو الذي يملك مقومات هذه الحركة بما لديه من أسلحة وامكانيات .

ولم تكن هذه الفكرة على بساطتها يسيرة التنفيذ ، بل دورها عقبات من بعدها عقبات . . فالمعروف أن ضباط الجيش في مثل هذه الظروف لا يطمئن واحد منهم لمواجه فضلا عن الثقة فيه ليفضي اليه بمثل هذه الأفكار . . ومع ذلك فكيف

السبيل الى نقلها من الداعين لها خارج الجيش الى المدعوين الى تبنيها من داخله ؟
وبالبحث لحل هذه المشكلة وجد المخرج . . . وطلب الى كل عضو من الجمعية أن
يزكي ضابطا من أصدقائه يرشحه بعد أن يطمئن اليه ويثق بوطنيته . وتم ذلك
بالفعل . وبدأ أحد الأعضاء فرشح ضابطا طيارا تربطه به صلة القرابة فضلا عما
بينهما من صداقة، وبين لهم مدى استعداده للإيمان بما دعا اليه . . . ومدى استعداده
لبثه سرا بين الموثوق بهم من زملائه . . . وأخذت الجماعة العهد على الزميل ألا
يفضي بأى اسم من أسماء زملائه أعضاء الجمعية لقريبة ليكونا هما وحدهما المسئولان
فيما تعرضا له دون غيرهما .

وقام مندوب الجماعة الضابط الطيار الذي وافق على الفور وأردف بأنه
يقطن مع ضابطين من زملائه في الطيران وأنها على جانب كبير من الوطنية ومثانة
الحلق ويعتقد أنها سرحبان بالفكرة أيضا .

وحسبما قدر وافق بالفعل زميله على الفكرة ومن الثلاثة تكونت نواة
الطيران في سنة ١٩٤٠ .

نمو الشعب :

كان الضابط الطيار الذي فاتحه مندوب الجماعة هو الطيار أول محمود جيه أباظه،
وكان أحد الثلاثة المرحوم البطل أحمد سمودي وكان قد سبق للملازم / جمال عبد
الناصر أن كون النواة الأولى للجيش سنة ١٩٣٨ في منقباد ، والنواة الثانية في
الخرطوم بالسودان سنة ١٩٣٩ ، وظلت خطيتا جمال عبد الناصر تعملان معا بحذر
وفي سرية بعيدا عن خلية الطيران حتى توصل لها جمال وضمها الى الخلايا الأخرى
بالجيش ضمن عمليات التجميع التي كان يقوم بها لتوحيد العناصر الوطنية الموجودة
بوحدات الجيش المختلفة كما سنبينه فيما بعد .

أما نواة الطيران فقد انضم لها كثيرون وظلت متصلة بالخلية السرية للحزب

الوطني فترة من الزمن ، وكان أعضاء الخليتين يتعارفون في كل الأهرور التي تمهم من طبع للمنشورات أو شراء الأسلحة أو تنظيم بعض العمليات ضد الجنود الانجليز . وكان الضباط كثيرا ما كانوا يذهبون الى بيت المغرب لملاقة بعض أعضاء الجهاز السري المدني — للبحث والتشاور في الكثير من الأمور الهامة والمسائل الخطيرة التي تعرضت لها هذه الخلية كما سيجيء بعد الى أنا كتملت أسباب نجاحها فعملت وحدها . ثم انضمت لجماعة جمال عبد الناصر بعد ذلك .

أما جماعة الحزب الوطني فاعتبروا أنهم نجحوا عندما نجحت الفكرة التي آمنوا بها ، وهي أن الجيش وحده هو الذي يجب أن تعتمد عليه الآمال لكي تحصل البلاد على استقلالها . وفي يده دون غيره الطريق الى الحرية والوسيلة الى الخلاص من الاستعمار الخارجي والاستعباد الداخلي .

ولم يلجأ أعضاء الحزب الوطني الى نواة الطيران الا مرات قليلة لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة منها محاولة تهريب عزيز المصري عقب سقوط طائرته بقلوب سنة ١٩٤١ عندما أراد السفر الى العراق لمساعدة ثورة رشيد الكيلاني وللاتصال بالالمان واختفائه مع زميله بمنزل صديق لهم بامبابية . وقد وضعت خطة التهريب على أن يتجه عزيز وزميلاه الى رأس البر حيث تكون في انتظارهم طائرة يقودها أحد أعضاء خلية الطيران وكان قد أنشئ برأس البر مطار حديث ومن هناك يستقلون الطائرة ويهربون بها من جديد ، ولكن حال دون اتمام هذه الخطة قبض البوليس عليهم وتقديعهم للمحاكمة وكان الوطنيون يعتبرون عزيز المصري المثل الأعلى لهم لأنه كان يمثل قوة الوطنية والفداء في مصر وقتئذ فاقبحوا اليه ، وكان أعضاء التشكيل المدني من شباب الحزب الوطني أول من سعى لمقابله وكثيرا ما كانوا يتوجهون فرادى الى منزله بعين شمس ويستمعون معه حتى ساعات طويلة من الليل يستمعون فيها الى نصائحه وآرائه ولعلنا استحسنهم على ضرورة القيام بثورة تشمل طوائف الشعب ويستندوا للجيش كما كان يؤمن بأن ذلك لن يتم الا

إذا تجمع الشباب المؤمن واتحد ، وكان يطلب رحمه الله أمرين فيمن يتصدى للكفاح الوطنى : أولهما السعى الدائم لانارة العقل بالعلم حتى يعف عما يصرفه عن الهدف من الدواعى المشيطة والتفاهات . والآخر أن يتدرب على اطلاق النار ، ولا يتخلى عن حمل السلاح ليكون متأهبا فى كل وقت عندما تدق الساعة . .

وقد لجأ كذلك أعضاء التشكيل العسكرى لعزير المصرى وكثيرا ما كانوا يجتمعون معه سرا وبعبدا عن أعين الرقباء لأن الحكومة كانت تتصيد أى شخص يقابله أو يزوره وتزج به فى السجن وتشدد العقوبة على العسكريين منهم بصفة خاصة .

فمن هو عزير المصرى الذى لجأ التشكيلان العسكرى والمدنى اليه طلبا للرعاية والتوجيه ، وما هو العمل القيادى الذى قام به فى العالم العربى وفى مصر على وجه الخصوص حتى أصبح بهذه المنزلة ؟ ؟

صورة الكفاح أسد من الجيش (عزير المصرى)

ولد عزير المصرى بالقاهرة سنة ١٨٨٠ حيث أتم دراسته الابتدائية والثانوية ثم سافر الى تركيا ١٨٩٨ والتحق بالكلية الحربية بالقسطنطينية ، وبعد ست سنوات تخرج فيها ضابطا وكان من المتفوقين وعين على الفور فى هيئة أركان حرب الجيش الثالث بمقدونيا ، وكانت الدولة العثمانية من أضخم دول العالم ، فقد كانت تشمل جميع البلاد الحربية بلا استثناء . واليونان وبلغاريا وبلاد البلقان وكرجستان ، وأرميل الى البلقان لانحداد الثورة التى كانت مشتعلة فيها وقتئذ — ورأى فيه الثوار عدوهم الذى ميعضى عليهم بشجاعته وبسالته فوطدوا العزم على القضاء عليه ، وأسروه تميدا لاعدائه ، ولكنه استطاع أن يقتل حارمه وأن يعود الى فرقته . وتمكن من انحداد الثورة بعد جهد كبير . وبعد أن قضى على ثورة البلقان أرسلته تركيا الى اليونان وكانت تحت حمايتها فى مهمة عسكرية أداها على أكمل وجه . ولما عاد الى القسطنطينية وجد أن الدولة العثمانية تحتضر ، وكان يتربع على عرشها السلطان

المستبد عبد الحميد نتيجة ضعف الجيش من جهة وللنوضى والفساد والظلم المنتشر في جميع الأرجاء من جهة أخرى، وأثبت نفسه المناضلة أن يكون ضابطا في دولة يسودها كل الفساد، فعقد الرأي على مقاومة الظلم والفساد وكون مع بعض زملائه من الضباط جمعية (تركيا الفتاة) التي سميت بعد ذلك باسم جمعية : (الاتحاد التركي) واتخذت القاهرة مركزا لنشاطها ، وكان من أهم أهدافها منح الحكم الذاتي لجميع الدول العربية الخاضعة للدولة العثمانية والحد من استبداد السلطان عبد الحميد ووقف تيار الفساد ونجحت جمعية الاتحاد والترقي نجاحا كبيرا وانضم لوائها المناضلون من العرب من جميع البلاد العربية — وأجبرت السلطان عبد الحميد على منح الشعب الدستور والافراج على المعتقلين والقضاء الرقابة وطرد بطانة السوء ورجال الحاشية الذين كانوا يديرون دفة الحكم ولقد بيت السلطان النية على التكنيل بزعماء هذه الجمعية بعد هذا النجاح . وتم له ما أراد فقبض على زعمائها وعلى رأسهم عزيز المصري . ولكن قائد الجيش التركي بسالونيك وكان يدعى محمود شوكت زحف بجيشه الى القسطنطينية وأفرج عن عزيز المصري ورفاقه وتوجهوا الى بلدة يلدز حيث كان يقيم السلطان وأعلنوا خلعهم وتنصيب أخيه الأمير رشاد أو السلطان محمد الخامس سلطانا على الدولة العثمانية . وعندما شعر عزيز المصري بتطريق الفساد الى جمعية الاتحاد والترقي انفصل عنها وكون جمعية جديدة من العسكريين العرب سماها بجمعية العهد ، هدفها تحرير الدول العربية من يد الحكم التركي .

ولما تنازلت تركيا لايطاليا عز، سيادتها على طرابلس وبنى غازي ١٩١١ بمقتضى معاهدة (اوشو) ثار العرب على الحكم التركي ورأت تركيا أن توفد عزيز المصري على رأس قوة من الجيش لتهدة الحالة . ولكن عزيز المصري رأى أن الفرصة مواتية لتحقيق أهدافه ومبادئه فساعد الثوار والسنوسيين على محاربة الأتراك والايطاليين واشتدت الحركة وانضم اليها الكثير من المصريين . تذكر منهم عبد الرحمن عزام الذي كان أمينا للجامعة العربية في وقت من الأوقات . ومالح حرب رئيس شرف جمعية الشبان المسلمين .

وعندما عاد عزيز المصري الى استنبول سنة ١٩١٣ اتهمه الأتراك بالخيانة ومساعدة السنوسيين وقبضوا عليه وأودع السجن وشكلت محكمة مخصوصة لمحاكمته برئاسة عودة أنور باشا وقضت في ١٥ أبريل سنة ١٩١٣ بإعدامه رميا بالرصاص.

وثار جميع البلدان العربية لهذا الحكم الجائر وقامت المظاهرات في أكثر من عاصمة وتدخلت بعض الدول بمساع جديدة لدى السلطان لتخفيف الحكم ونجحت هذه المساعي برفع عقوبة الإعدام الى السجن ١٥ سنة . ثم رأت تركيا بأن تغفر عن عزيز المصري ترضيه للشعور العام في داخل تركيا وخارجها . وأمرته بمغادرة البلاد فورا فتركها غير آسف الى مسقط رأسه مصر . ليبدأ فيها كفاحه ضد الاستعمار وليطبق بها مبادئه التي آمن بها من أجل العرب والعروبة .

رجع البطل كما كانوا يلقبونه في مصر اليها وكانت الحرب العظمى الأولى قد بدأت سنة ١٩١٤ وأعلنت إنجلترا زوال سيادة تركيا على مصر ووضعها تحت الحماية بسد انضمام تركيا لمسكر ألمانيا ضد الحلفاء . وكانت إنجلترا في حاجة لارضاء العرب مدة الحرب على الأقل وبدأت في الاتصال بهم وكان عزيز المصري أول من اتصلوا به وذكروه بفضلهم عليه عندما ساءموا لدى تركيا في الغزو عنه . وحاولوا استمالته لجانبهم ولكنه وهو الوطني الثائر رفض التعاون مع المستعمرين ورفض قداما في تنفيذ مبادئه — وعاد فاتصل بأعضاء جمعية العهد وقابل زعماء الدول العربية كالملك فيصل ملك العراق فيما بعد والشيخ حسين شريف مكة وغيرهم واضطرت إنجلترا تحت ضغط العرب وعدم دخولهم الحرب بجانب تركيا وحلفائها أن تصدر قرار مكماهون في أكتوبر ١٩١٥ وفيه تعترف رسميا باستقلال الدول العربية وقد أفر نشاط عزيز المصري صدور الانجليز فأبعدوه عن مسرح السياسة في مصر حتى عين مديرا لمدرسة البوليس فأحدث بها انقلابا كبيرا .

ثم عين بعد ذلك مفتشا عاما للجيش المصري وحاول أن ينفذ فيه من روحه ما يريد له من نهضة وتحرر ، ولكنه اصطدم بالمبعثة العسكرية الانجليزية مرارا وحطم أوامرها واقتراعاتها وأوقف رئيسها الجنرال مكريدي عند حده ومنعه من

التدخل في شئون الجيش . فطالبوا بإخراجه وعزله وتم لهم ذلك، وكانت الحرب قد أعلنت بين الحلفاء وألمانيا في سبتمبر ١٩٣٩ ، ولم يكتفوا بذلك بل ظلوا ومن ورائهم البوليس السيامي المصري يضيقون الخناق عليه حتى في حياته الخاصة ولم يستكن البطل للاضطهاد أو الظلم بل وقف كالطود أمام الأحداث التي هزت به يساعد الوطنيين ويثبت تعاليه فيهم ثم خاض معهم بعد ذلك معارك كثيرة ضد المستعمر في محاولات بطولية لنيل الحرية والاستقلال .

المحاولة الاولى :

كان أعضاء التشكيل يراقبون الحرب الدائرة في الصحراء الغربية بين الانجليز من ناحية وبين الألمان والايطاليين من ناحية أخرى بعين القلق والترقب يترقبون الوقت المناسب ليسهموا في المعركة بما يتفق مع صالح الوطن ورأوا أنه لو تيسر لهم الاتصال في هذه الظروف لأمكنهم الحصول على اتفاق يحقق للبلاد استقلالها من جهة وليشبعوا رغبتهم في الانتقام من الانجليز الأعداء الحقيقيين للمصريين من جهة أخرى ، واختمرت فكرة الاتصال بالألمان وأصبحت الشغل الشاغل للأعضاء . لأنهم وجدوا أن الاغتيالات والمنشورات لن تحقق أغراضهم . وعرضوا الأمر على عزيز المصري فوافق على الفكرة على أن يكون هو أول من يسافر في هذه المهمة . ولكنه عدل الخطة . ورأى أن يتجه أولاً الى العراق حيث كانت ثورة الجيش بقيادة رشيد على السكيلاقي رئيس الوزارة وقتئذ محتدمة ضد الانجليز وقال أنه سيتصل بالألمان من هناك حيث وعدوا بمساعدة العراقيين في ثورتهم ضد الانجليز وبهذا يضرب عصافورين بحجر واحد — فيساهم في الحرب بجانب زملائه وأصدقائه من رجال جمعية العهد من العراقيين ضد الانجليز — كما يسمى الى الاتفاق مع الألمان لتنسيق المقاومة بالزحف نحو الشام ومصر من الشرق وبذلك تصبح قوى الجيش الانجليزى بين شقي الرمح .

ورأى الخطة الحربية التي عرضها الرجل الخبير للأعضاء ووافقوا عليها وانفضوا على أن يبدأوا في تجهيز الطائرة التي ستقل القائد الكبير ومراقبيه .

الطائرة رقم ١٠٥ :

ظل الأعضاء يدرسون طريقة السفر والاستيلاء على الطائرة التي تقل عزيز المصري ومرافقيه أياما طويلة . حتى استقر الرأي على أن يرافق عزيز المصري في رحلته كل من الضباط الطيار حسين ذو الفقار صبرى (نائب وزير الخارجية) الآن ، والطيار الأول — عبد المنعم عبد الرؤوف وكانت الطائرة انسون رقم ٢٠٥ من طائرات سلاح الطيران الملكي المصري هي التي اختارها القدر لنقل الضباط الثلاثة في سفرهم الى العراق — وفحصت الطائرة . وجربت آلاتها وقام بالتحليق بها أحد الضباط في جولة فوق القاهرة وقدم تقريره بصلاحيته للطيران ، وقبل الغروب ملئت خزانات الطائرة بالبنزين وكانت تسع لمائة وأربعون جالونا وأخطر الضباط بالتأهب بالسفر في هذا اليوم .

ثلاثة أشباح :

بعد منتصف ليلة ١٥ مايو سنة ١٩٤١ كانت هناك ثلاثة أشباح تتجه الى الطائرة رقم ٢٠٥ الواقفة بأرض مطار الماظه العسكرى — بينما كان يحمل آخرون إحدى عشرة حقيبة تحوى ملابسهم ومعداتهم .

وركب الضباط الثلاثة الطائرة ودارت محركاتها وحلقت في الجو وكانت قلوب كثيرة على الأرض تخفق وتدعو لهم بالتوفيق — حتى اختفت الطائرة وراء الأفق . وتفرق باقى الرفاق الى منازلهم يتعجلون طلوع النهار ليطمئنوا الى وصول الطائرة بسلام . وما دروا أن القدر كان يخبىء للحركة أمرا هو آخر ما كان يدور في أذهانهم . فما كادت الطائرة تقطع بضعة كيلو مترات حتى أصاب محركاتها عطب لم يعرف سببه وبدأ أن الطائرة تسكد تسقط نتيجة لهذا الخلل . ولم يكن أمامهم لتجنب الكارثة سوى الهبوط بها في أى مكان بأقل ضرر يمكن وتمكن حسين ذو الفقار من الهبوط بها في حديقة فاكهة بجوار بلدة قليوب دون أن يصاب أحد منهم وتنبهوا الى الموقف الجرج الذى وقعوا فيه ولسكن عزيز المصري الذى تعود على مثل هذه المواقف رأى أن يتصرف وبسرعة .

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة من صباح يوم ١٦/٥/١٩٤١ والظلام يخيم على المنطقة المحيطة ببلدة قليوب عندما ترك الضباط الطائرة المنكوبة محطة بين أشجار حديقة الفاكمة واتجهوا الى بلدة قليوب وسأل عزير عن منزل مأمور المركز أو من ينوب عنه واعتقد زميلاه أن رئيسهم يتولى تسليم نفسه الى البوليس ، وطرق عزير المصري منزل مأمور مركز قليوب ومعه زميلاه ، وخرج اليهم أحد الضباط وكان النوم لا يزال يغالبه ولكنه عندما شاهد عزير المصري لم يصدق عينيه — وبدأ يفتق وسأله « أوامرك يا باشا » وبكل هدوء أجاب الباشا « أنه كان مدعو وزميليه في حفلة زفاف باحدى العزب القريبة من قليوب وتعطلت السيارة التي كانت تقلهم ويطلب منه أن يحضر أن عربة ليعودوا بها الى القاهرة وعلى الفور أمر الضابط باحضار سيارة المركز الخاص « البوكسفورد » واستقلها الضباط الطابون وسط ترحيب ضابط البوليس وسروره لأدائه هذه الخدمة للرئيس السابق لمدرسة البوليس . ووصلوا القاهرة وصرفوا عربة البوليس وكانت تبشير الصباح قد بدأت تلوح — وكان عليهم أن يخففوا بسرعة لأن البوليس سوف يبحث عنهم ان لم يكن قد بدأ بالفعل . واستقر الرأي على أن يختبئوا في منزل أحد الوطنيين ، وكان يقيم بمفرده في امبابة . وفي هذا المنزل أقام الضباط الثلاثة متوارين عن الاعين عشرين يوما .

الصدمة :

خرجت صحف الصباح تحمل في صفحاتها الأولى نبأ سقوط الطائرة وهروب الضباط الثلاثة . وهاج الانجليز وطالبوا باجراء التحقيق وتجنيد البوليس لضبط الضباط الهاربين ورصد البوليس السياسى الكثير من رجاله لهذه المهمة كما وعدوا بتقديم مكافأة كبيرة لمن يدلى بمعلومات هامة تؤدي الى القبض على الضباط الثلاثة . وكان أعضاء التشكيل يسمعون ويقرأون هذه الاخبار وهم في ذهول من هول الصدمة التي فاجأهم بها القدر — وكأنه يدخر تنفيذ خطة الخلاص ليوم آخر لم يحن بعد . ومع ذلك فان هذه الصدمة لم تقل من عزيمتهم ولم توهم من ارادتهم —

واجتمعوا لكي يواجهوا الموقف الذي جد بسقوط الطائرة وفشل محاولة الاتصال بالآلمان .

المطار الجديد :

كان لابد من اعاده تهريب الضباط الثلاثة من جديد والحيلولة دون القبض عليهم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك والبوليس السياسى منتشر فى جميع الأرجاء . — ورجال المخابرات الانجليزية يتقبون فى كل ناحيه والسفير البريطانى يستحث حكومة حسين — لى يسرع فى القبض على المارين . وعلى ضوء هذه الاعتبارات تدرك أن يبعث عن منطقة بعيدة نوعا من أعين الانجليز وأعوانهم من رجال البوليس . وكان هناك مطار جديد قد أنشئ فى رأس البر ولم يكن من المطارات العسكرية الهامة التى يهتم بها الانجليز . ومن ثم اتجه التفكير فى البحث عن أى طائرة حتى لو كانت تستعمل فى الأغراض المدنية — لاستعمالها لهذا الغرض ووجدت الطائرة ووضع الوطنيون خطة جديدة لتهريب الضباط الثلاثة .

وكلف التشكيل أحمد سعودى بهذه المهمة وشوهد برأس البر فى ذلك الوقت بعض الشبان الذين جاءوا لوضع الترتيبات النهائية للمغامرة الجديدة ، ولكن القدر كان لهم بالمرصاد فقد نعى الى رجال البوليس السياسى أن الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة — وكان معتقلا وهرب — يختبئ فى منزل الأستاذ عبد القادر رزق بامبابه ، وفى يوم ١٩٤١/٦/٤ توجه أمام ابراهيم الذى أصبح رئيسا للبوليس السياسى بعد ذلك ومعه قوة من رجال البوليس ودام المنزل الذى اعتقد أن رئيس حزب مصر الفتاة يحتمى به . ولشد ما دهش اذ رأى أمامه وجها لوجه عزيز المصرى ورفيقه ١١ وقد أطلقوا الحام توطئة للهرب الذى كانوا ينتظرونه ، وقبض عليهم وأدعوا السجن ووجهت اليهم تهمة الخيانة العظمى وعقوبتها الاعدام . وضربت الحركة الوطنية فى الصميم لهذا الفشل . وران السكون على رجال التشكيل بدمى الوقت حتى تهدأ العاصفة وينقشع الضباب .

المحاكمة :

اضطرت الحكومة تحت ضغط الرأي العام الذى كان يطالب بالافراج عن عزيز المصرى الى تشكيل محكمة عسكرية عليا وعما كته مع زميليه بعد أن قضوا أكثر من خمسة أشهر فى السجن ، وفى صباح يوم ٩/١٠/١٩٤١ عقد المجلس العسكرى جلسته الأولى بالكلية الحربية بمنشية البكرى واستمع المتهمون الى قرار الاتهام ، وأهم هذه الادعاءات هو الادعاء الأول وكان كما يلى :

. المتهم الفريق عزيز المصرى باشا من المعاش والمخاضح الأحكام العسكرية مدعى عليه بما يأتى :

الادعاء الأول :

اغراؤه شخصا خاصا الأحكام العسكرية بالمهرب من خدمة جلالة الملك ، وذلك أنه بجبهة القاهرة بتاريخ المدة الواقعة من ٩ مايو ١٩٤١ و ٦ يونيو ١٩٤١ أغرى كلا من الطيار حسين ذو الفقار صبرى والطيار الأول عبد المنعم عبدالرؤوف من سلاح الطيران الملكى المصرى على الهروب من خدمة صاحب الجلالة الملك ومبارحة القطر المصرى . فاستغل ثلاثتهم طائرة حربية فى ليلة ١٥/١٦ مايو من المطار العسكرى خلسة حتى هبطت بهم اضطراريا بجوار قليوب فى الليلة نفسها — ثم فروا واستمروا هاربين حتى قبض عليهم بمعرفة السلطة المدنية وهم مرتدون ملابس مدنية ومختفين بمنزل المدعو عبد القادر رزق بجبهة امبابه .

أما باقى الادعاءات فكانت خاصة بسرقة الطائرة الحكومية والاهمال فى اطاعة الأوامر ، وقد أثبت عبد الرحمن الطويل النائب العام فى التحقيق الذى أجراه عند تفتيش حقائب الضباط الثلاثة وجود خرائط للوجه البحرى ومديرية الفيوم — وطرق المواصلات من القاهرة والاسكندرية الى مرسى مطروح وكذلك خريطة لواجهة سيوة والطرق المؤدية لها حتى العلين ومرسى مطروح . وتطوع الدفاع عن المتهمين كثير من المحامين نذكر منهم حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ومصطفى الشوربجى وزير العدل الأسبق ، وقد دفع المحامون بعدم قانونية تشكيل المجلس

العسكري لتكوينه من أعضاء أقل رتبة من رتبة الفريق عزيز المصري كما دفعوا ببطلان قانون الأحكام العسكرية لعدم صدور مرسوم ملكي به وعرضه على مجلس الوزراء كما أنه لم ينشر في الجريدة الرسمية للبلاد . وكانت جميع الدفوع التي أثارها الدفاع هي دفوع في حقيقتها سليمة وقانونية — أدت الى احراج المحكمة التي رأت أن توجه المحاكمة الى أجل غير مسمى ومعنى هذا أن يظل الضباط الثلاثة في السجن دون أن يصدر ضدهم حكم .

ولكن حكومة النحاس التي فرضها الانجليز بقوة السلاح في ١٩٤٢/٢/٤ رأت أن ترضى الوطنيين فقررت الافراج عن عزيز المصري ورفيقه، وشم ذلك بعد شهر من تأليف وزارة النحاس أي في مارس ١٩٤٢ ، اعتقادا منها أن هذا الافراج قد يخفف بعض الشيء من واقع حادث ٤ فبراير على المصريين وليكسب النحاس بعض المواقع التي فقدتها بسبب اشتراكه في هذا الحادث المشؤم. فما هي ملايسات حادث ٤ فبراير وظروف حدوثه ؟؟

يقتضى الأمر أن نعود الى الوراء قليلا لتعرف حالة مصر وقتئذ ولن نذهب بعيداً ، بل سنرجع الى شهر واحد سابق على الحادث ، أي الى شهر يناير من سنة ١٩٤٢ .

هروب الانجليز :

كان لحوادث الاغتيالات التي قام بها الوطنيون ضد الجنود والضباط الانجليز وقع سيء عليهم ، كما أشاعت الذعر في نفوسهم فقتلوا من الظهور في الشوارع ودور اللهب وكانت غارات الالمان تشتت طائراتها في ذلك الوقت على مواقع القوات البريطانية في الاسكندرية ، والعباسية والقنال تقصفها من الجو باحكام يدعو الى العجب متجنبة قدر الامكان المنشآت المدنية والمدن المفتوحة . ولم يسمع وقتئذ ان قنبلة قد ألقيت على غير الهدف العسكري الا فيما ندر . واذا ما أخطأ الالمان في بعض الأحيان وبطاشت منهم قنبلة فان معلقهم العسكري سرعان ما يعتذر عن هذا الخطأ غير المقصود ويعد بمحاكمة المتسبب .

وحدث في شهر يناير ١٩٤٢ أن قام الألمان بقيادة الجنرال روميل — الداهية العسكرية الذى دوخ الحلفاء — بهجوم على القوات البريطانية فاكسحهم وفروا أمامه بطول الساحل الأفريقى على البحر الأبيض المتوسط ، أكثر من ألفى كيلو متر وجنود بريطانيا تلهث أمام روميل حتى وصل حدود مصر ودخلها وتحصن فى مرسى مطروح ليعيد تنظيم صفوفه — ولينتظر البترول والمؤن من ألمانيا ليضرب ضربته الأخيرة وعاد الجنود الانجليز الهاربون الى مصر يحملون معهم الهزيمة والاجهاد والذعر . وكانت قطارات الهلال الأحمر تفد بالليل والنهار تحمل جثث القتلى والجرحى حتى غصت بهم المستشفيات وعند ذلك لاحت بوادر الهزيمة وعزم الانجليز على الحرب الى جنوب أفريقيا أو الى غيرها من المستعمرات ، وبدأت العربات والطائرات والسفن تحمل الجنود والضباط وبعض أمتعتهم ومؤنهم الى خارج البلاد . وكان المصريون يسمعون ويشاهدون هذا الهروب بنبهة وسرور بالغين . وفى هذا الجو المكفهر كان الوطنيون يجتمعون باستمرار لمتابعة سير الأمور . وأخيرا رأوا أن يتصلوا بالألمان . وأعدوا بيانا الى روميل أظهروا فيه رغبتهم فى التعاون معه ضد الانجليز للتخلص منهم ومن الاستعمار على أن يكون مفهوما أن المصريين لا يقبلون استبدال استعمار بآخر وعلى أن تنال مصر حريتها كاملة ثم يحمله أحد الضباط الطيارين ويسافر بطائرته الى مرسى مطروح ليقابل روميل ويتفاهم معه على كافة الموضوعات التى تهم الجانبين ويحيط بكل التفاصيل حول استقلال مصر بعد خروج الانجليز ، ومن تجنب ضرب القوات الألمانية للمدن والمنشآت المصرية — مقابل أن يساعدهم الوطنيون ، وقد تأخرت فكرة الاتصال بالألمان بعض الوقت وان كانت قد تمت بعد سبعة أشهر أى فى شهر أغسطس من نفس العام .

ولما لم يعد هناك من شك فى خروج الانجليز من مصر فرحت طوائف الشعب واستبشروا وتطلعوا الى الحرية التى انتظروها ما يقرب من ستين عاما قضوها فى احتلال بغيض — فخرجوا من ديارهم وتجمعوا فى كل مكان ، فى الأزهر ، والجامعة حتى فى الأحياء الشعبية وساروا فى مظاهرات يعبرون فيها عن شعورهم

بالنبله والفرح — والتشفي في نفس الوقت لقرب خروج الانجليز من جهة
ولهميتمهم أمام الألمان من جهة أخرى — ورأوا الانجليز يرتشفون من نفس
الكأس التي شرب منها المصريون — وقد بلغ من كراهيتهم للانجليز أن الهتافات
لم تقتصر على المناداة بسقوطهم ، وإنما كانت تدعو لروميل بالنصر — وكنت
تسمع إلى الأمام ياروميلا وانتصار الألمان وانتصار لمصر ، وغير ذلك من الهتافات التي
كانت تعبر عما كان يعتل في نفوس المصريين من كراهية وحقد على الاحتلال . ولم
تسكن هذه المظاهرات مدبرة أو من تدبير حزب بعينه كما أن أحدا من المسؤولين
المصريين لم يستكرها أو يتقدمها اللهم الا أعوان الاستعمار ، حتى أن حسين سرى
رئيس الوزراء في ذلك الوقت لم يحاول إخمادها — مما أوغر صدور الانجليز عليه
وطالبوا بوقف هذه المظاهرات بالقوة فرفض حسين سرى — فما كان من السفير
البريطاني سير مايلز لامبسون وكان يمثل ذروة الاستعمار (مصر وقتئذ) الا أن
توجه إلى منزل حسين سرى بالزمالك وطلب منه الاستقالة فورا فرفض لأمره
واستقال في ٢/٢/١٩٤٢ وما كان له أن يستمع إلى ممثل بريطانيا حتى ولو أدى
الأمر إلى اعتقاله ولم يكتف الانجليز بذلك بل أقدموا على أمر أن دل على شيء
فإنما يدل على مقدار ما وصلوا إليه من نزق وطيش وانهايار في الأعصاب ويفتضي
الأمر قبل أن أمرد واقعة ٤ فبراير أن ألمح إلى الحالة في مصر في هذه الفترة .

٤ - الكفاح الشعبى أثناء الحرب العالمية الثانية :

صورة لمصر خلال الحرب :

رسم الميثاق صورة واضحة مفصلة لأحوال مصر الداخلية خلال الحرب العالمية الأولى وهذه الفترة من الفترات الخطيرة فى تاريخ مصر لأنها أدت الى بدء التأهب النفسى لثورة يوليو ١٩٥٢ ، كما جاء فى الميثاق . وهذه الفترة يمكن أن نسميها بفترة «الآزمة الكبرى» ، وحفلت بصورة مؤلمة كان من الممكن أن تدعوا الى اليأس والقنوط والخنوع ، لولا «صلابة الشعب ومعدنه الأصيل» .

تحدث الميثاق عن هذه الفترة فقال : «ان هذه الفترة كانت قادرة ، لولا صلابه الشعب ومعدنه الأصيل أن تحمل البلاد الى حالة من اليأس تخنق كل حوافز الرغبة فى التغيير أو تلحق بها الشلل الذى يمنعها من الحركة . ان هذه الفترة التى يمكن أن ننظر اليها الآن باعتبارها فترة الآزمة الكبرى كانت حافلة بالواجبات المضلة التى تخنى وراءها الأطلال المتهاوية من بقايا ثورة سنة ١٩١٩ » .

تميزت هذه الفترة بحرمان مصر من القيادات الشعبية ، وحلت مكانها أحزاب سياسية تتألف من رجال من طبقة الاقطاعيين والرأسماليين والانتهازيين ، وشغلوا جميعا بالصراع والتكاليف على مكاسب الحكم ، ونسوا جميعا القضية الوطنية وواجههم نحو الكفاح الشعبى . ووصف الميثاق هؤلاء بقوله : « لقد كانت القيادات الباقية من ذكريات الثورة مازالت واقفة فى المقدمة ، ولكن هذه القيادات فقدت كل طاقاتها الثورية ، وأسست كل الشعارات التى رفها الشعب سنة ١٩١٩ الى كبار ملاك الأرض الذين كانوا دعامة التنظيمات الحزبية القائمة ، وأشركوا فيها بعض الانتهازيين الذين اجتذبتهم عملية تقسيم الغنائم بعد انتكاسة الثورة .

وتسربت الى الحركات القومية (فئات طفيلية) عملت على توجيه هذه الحركات لصالحها ، وبدأ ذلك واضحا كليا هب الشعب يطالب بالجللاء وخروج المفتعسب من البلاد ، اذا كان دعاة سوء والانتهازيون يعملون على استغلال هذه الحركة

لصالحهم مما يؤدي الى فسادها . قال الميثاق : « ولقد ظهرت في هذا الجوف ثبات طفيلية ، ولقد استطاع هذا الانحراف أن يمدد لفئة من الرأسماليين ، وبحثوا في حقيقة الأمر نفس دور المغامرين الأجانب في القرن التاسع عشر ، بكل سطحيته التي لا تهتم بتطوير الوطن ذاته قدر اهتمامها باستغلال أكبر جزء من ثروته ونزحها في أقل وقت ممكن » .

ارتفعت هذه الأحزاب السياسية في أحضان الانجليز والقصر ، وحرمت مصر من الزعامة الصالحة والقيادة الشعبية ، ولم يقدر لمصر في هذه الفترة ظهور زعيم شعبي يكرس حياته وجهوده لصالح الشعب ، ويقود الأمة المصرية على طريق الكفاح والنضال . وأصبحت الأحزاب والانجليز والقصر يهدمون مصالح الشعب ، وهم كلهم في الحقيقة يخافون من سيادة الشعب المصري . فقال الميثاق : « ثم انتهى المطاف بهذه الأحزاب جميعا الى الحد الذي دفعها للارتقاء في أحضان القصر تارة ، وفي أحضان الاستعمار تارة أخرى . وفي الواقع كان القصر والاستعمار يحكم مصالحها في صف واحد ، وان بدت الخلافات السطحية بينهما في بعض الظروف ، لكن الحقيقة الكبرى أن كليهما كان يقف في الصف المعادي لمصالح الشعب ، والمضاد لاتجاه التقدم ، ان سلطة الشعب كانت خطرا على أوضاعها الدخيلة ، واتجاه التقدم كان محققا أن يحرفها مما الى نفس المصير » .

اعتمد الانجليز على قرائهم الحرية الموجودة في القنارة ومدن مصر كلها للضغط السياسي على مصر ، والتدخل في جميع الشؤون الداخلية ، وتحويل رغبات الأمة المصرية وآمالها ، واستجابات الحكومات والقصر لهذا الضغط دائما ، وأصبح الانجليز أصحاب السلطة الحقيقية ، وبات الشعب المصري يتربع الفرص ليكون هو مصدر السلطات ، وأن يتمتع بالديموقراطية الحقيقية ، وليس بالديموقراطية المزيفة ، ولكن هذه المظالم كلها أثارت مشاعر الشعب المصري وهياته لمرحلة جديدة من الكفاح .

صور الميثاق هذه الحقائق كلها تصويرا كاملا فقال: «ان الديمقراطية بالطريقة التي جرت بها ممارستها في مصر في تلك الفترة كانت ملهة مهينة . ان الشعب لم يعد صاحب السلطة ، وانما أصبح الشعب أداة في يد السلطة أو بمعنى أصح «منجية لها . ولم تعد أصوات الجماهير هي التي تقرر خط السير الوطني . وانما أصبحت أصوات الجماهير تساق وفقا لارادة السلطات الحاكمة وأصدقائها . ولقد كان ذلك نتيجة طبيعية لاغفال الجانب الاجتماعي من أسباب ثورة الشعب سنة ١٩١٩ ، ان الذي يحتكر رزق الفلاحين والعمال ويسيطر عليه ، يقدر بالتبعية أن يحتكر أصواتهم وأن يسيطر عليهم ويملي ارادته ، ان حرية وغيف الحيز ضمان لا بد منه لحرية تذكرة الانتخابات . ان هذه الازمة العنيفة فتحت أمام سلطات الأسرة المالكة أبوابا جامد النضال الشعبي طويلا لكي يسدما .»

القصر يناهض الكفاح الشعبي :

ان أسرة محمد علي هي ربيبة الاستعمار ، وأداته الأولى ، وطريقه الى احتلال مصر . وقد عمل القصر على مناهضة الروح الوطنية والكفاح الشعبي ، وتدخل في شئون الحكم ، وولى الوزارات الضعيفة الموالية له ، وأصبحت هذه الوزارات ألعوبة في يده ، تعمل لصالحه ولصالح الانجليز ، وكثر تغير هذه الوزارات بما لم يوفر أسباب استقرار الاداة الحكومية وجعلها غير صالحة لتحقيق رغاء ومطالب وآمال الشعب .

صور الميثاق موقف القصر من كل من الانجليز ومن الشعب تصويرا دقيقا فقال : « لكن انتكاسة الثورة شجعت الأسرة المالكة على تجاوز كل الحدود . وفي جو الازمة لم يعد الدستور الذي رضيت به القيادات الثورية منحة من التدخل الا مجرد قصاصة ورق ، بهت عليها الحقوق الشكلية التي كانت قد أقيت للشعب لينشغل بها ويتلهى .

ولقد استسلمت القيادات التي تصدت للنضال الشعبي أمام سلطة القصر المتزايدة

بسبب ضعفها المتزايد . وركعت جميعها تلتزم الرضى الذى يصل الى مقاعد الحكم .
وتخلت بذلك عن الشعب وأهدرت كل قيمة له ، ناسية بذلك أنها تتغلى طواعية
عن مصدر قوتها الوحيد ومنبعها الاصلى .

وانتهى الامر الى حد أنهم هانوا على الشيطان الذين باعوه ارواحهم ، فوصل
بهم الهوان الى حد أن تغيير الوزارات أصبح له ثمن معلوم يدفع للقصر ولوسطائه .
ان القيادات الوطنية حين تتخلع جذورها من التربة الشعبية ، تحكم على نفسها
بالذبول ، وبالموت . ولسوف يبقى الوطن زمانا طويلا يشرف على حلقه بمرارة الذل الذى
أحسه فى هذه الفترة المتأزمة من جراء استهانة الاستعمار بنضاله استهانة فاقت كل
حدود للاحتيال البشرى .

موقف الانجليز من امال الشعب خلال الحرب :

لم يكذب على عقد معاهدة ١٩٣٦ ثلاث سنوات حتى قامت الحرب العالمية
الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ ، وأصبحت هذه المعاهدة الزائفة سندا يستند عليه الانجليز
فى السيطرة التامة على مصر . فقد طلبت السفارة البريطانية من الحكومة البريطانية
تنفيذا لمواد المعاهدة اعلان الاحكام العرفية ووضع الرقابة على المطبوعات ، فكان
لها ما أرادت . كما أرغمت انجلترا الحكومة المصرية على قطع علاقات مصر
السياسية مع ألمانيا وحلفائها .

واستغلت انجلترا شروط معاهدة ١٩٣٦ أسوأ استغلال ، فاحتلت القوات
البريطانية معظم المدن المصرية ، وسيطروا على محصولاتها الزراعية وحرموا الشعب
من اقواته الضرورية ، فارتفعت الاسعار ، وقلت المواد الغذائية .

تهدمت الهيئة الوفدية ، وكانت حينئذ بسطة عن الحكم ، الى السفارة البريطانية
بمذكرة فى أبريل سنة ١٩٤٠ ، تطلب فيها من الحكومة البريطانية أن تتمهد بسحب
قواتها من الاراضى المصرية عند انتهاء الحرب ، وكان رد البريطانيين على ذلك
أن قرارات الوفد انما هى محاولة مقصودة لعب دور فى السياسة الداخلية .

وخلال الحرب العالمية الثانية أعلنت عهود ومواثيق دولية كان لها أثر في نشاط الحركة الوطنية وازدياد الوعي القومي في مصر ، اذ رأت الأمة في هذه العهود والمواثيق حججا جديدة لمطالبها وسندا دوليا لقضيتها . وأهم هذه العهود تصريح الرئيس روزفلت الأمريكي في يولية سنة ١٩٤٠ عن الحريات الأربع ، وهي حرية القول ، والرأى ، وحرية العقيدة ، وحرية التحرر من التوس والحرية التي تنتج عن التحرر من الخوف . ثم صدر ميثاق الأطلسي الذي وقعه روزفلت وتشرشل في ١٤ أغسطس سنة ١٩٤١ وأعلنا فيه أنها يريدان ألا يقع أى تبدل اقليمي يخالف رغبة الشعوب صاحبة الشأن ، وأنها يحترمان حق جميع الشعوب في اختيار شكل الحكومات التي تدبر شئونها وأنها يرغبان في أن تسترد الأمم المغاوبة على أمرها حقوقها وحكوماتها الحرة ، فكان ذلك حجة للقضية الوطنية .

وانتهز زعماء الأحزاب المعارضة في مصر فرصة اجتماع روزفلت وتشرشل وشيانيج كاي شيك زعيم جمهورية الصين الوطنية في مؤتمر بالقاهرة للتباحث في شئونهم وقدموا مذكرة لهم طالبوا فيها برفع القيود التي أوجدتها معاهدة سنة ١٩٣٦ والتي جاءت نتيجة الظروف الدولية ، وطالبوا بانسحاب القوات الأجنبية عن مصر بعد انتهاء الحرب العالمية ، والاعتراف بالاستقلال التام لمصر ، وبالروابط التي تربط مصر بالسودان بما يحملها وحدة غير منقطعة ، وقد منعت وزارة الوفد التي كانت في الحكم آنذاك نشر هذه المذكرة أو الإشارة إليها في الصحف .

وقد جاءت هذه الوزارة الوفدية على أسنة حراب الانجليز في ٤ فبراير ١٩٤٢ ، فقد استخدم الانجليز قوتهم العسكرية من أجل تعيين وزارة وفدية تخدم مصالحهم السياسية والعسكرية .

حادث ٤ فبراير :

لم يجد الانجليز أمامهم بعد هزيمتهم أمام روميل وتأكدهم من كراهية المصريين لهم إلا أن يقدموا على عمل يخبثون به اقامتهم الطويلة بمصر قبل هربهم الى جنوب

أفريقيا كما كانوا يدبرون ، ففي صباح يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ توجه اللورد كيلرن السفير البريطاني الى مكتب أحمد حسنين رئيس الديوان وسلمه انذارا هذا نصه :

« إذا لم أسمع قبل السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » .

والنص الانجليزي كان كما يلي :

Unless I hear by 6 p.m. that M. Nahas pasha has been asked to form a Cabinet, his Majesty King Faruk must accept the consequences.

وكان فاروق قد سبق له في يوم ٢/٣ أن اجتمع مع الزعماء للتشاور معهم بشأن تأليف وزارة قومية تضم جميع الأحزاب لتواجه الموقف الشائك المتخلف من استقالة وزارة حسين سرى وقيام المظاهرات المناوئة للانجليز وليحقق رغبة اللورد كيلرن التي أبداهما قبل الانذار بتأليف وزارة برئاسة النحاس باشا أو أي وزارة أخرى يوافق عليها .

ثم عاد واجتمع بهم مرة أخرى يوم ٢/٤ وأثناء اجتماعهم أخبرهم أحمد حسنين بما دار بينه وبين السفير البريطاني وتلا عليهم الانذار وناشدهم بوطنيتهم أن يتداولوا الامر وقرر الجميع تأليف وزارة قومية فيما عدا النحاس باشا الذي أصر على أن تكون الوزارة من حزب الوفد وازاء ذلك الرفض رأوا أن يردوا على الأقل على الانذار فكتبوا احتجاجا وسلموه الى أحمد حسنين لتوصيله الى السفير (١)

(١) وعدد الزعماء الذين كتبوا الاحتجاج سبعة عشر ، وهم :

شريف صبرى ، مصطفي النحاس ، دلي ماهر ، حسين سرى ، محمد محمود خليل ، أحمد ماهر ، أحمد زبور ، اسماعيل صدقي ، عبد الفتاح يحيى ، محمد حسين هبكل . محمد توفيق رفعت ، علي الشمسي ، حافظ طفيق ، حافظ رومان ، بهي الدين بركات ، أحمد محمد حسنين ، محمود حسن .

وكانت صيغته كما يلي :

« ان توجيه التبليغ البريطانى اعتداء على استقلال البلاد ومساس بمعاهدة الصداقة ولا يسع الملك أن يقبل ما يمس استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة » .
وما من شك في أن الانذار البريطانى بصيغته ولهجته كان عملا عدوانيا ضد استقلال البلاد—ذلك الاستقلال الذى كانت تؤكد معاهدة ١٩٣٦ ، وما من شك كذلك في أنه وقد صدر بلهجة بعيدة كل البعد عن آداب الساسة كان مقصودا منه كل حرف فيه ، فالسفير الذى يوجه الى الملك أى ملك بأنه اذا لم يسمع قبل الساعة السادسة بأن النحاس قد دعى لتأليف الوزارة فإن الملك يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج هذا الامر المسحوب بالتهديد يعنى أن مصر مازالت محتلة ولم تكن المعاهدة التى طبل لها النحاس وهلل سوى حبرا على ورق .

وصدور الانذار ورفض النحاس تأليف وزارة قومية يحملان معنى خطيرا يفيد بأن الأخير كان على علم بمطلب الانجليز —والا فما الحكمة في فرض شخص معين رئيسا للوزارة ، وما هو الشأن إذا ما رفض هذا الشخص قبولها . بل ان فرض الانجليز لشخص النحاس فيه مساس بسمعته واساءة لمركزه وكان الأولى بالنحاس أن يرفض هذا الامر وأن يبادر هو وحده قبل غيره من الزعماء بالاحتجاج على تكليف الانجليز له بتأليف الوزارة ولكنه صمم بأن تكون الوزارة وفدية وظل على موقفه حتى بعد الانذار البريطانى وتخرج الموقف وآثر مساندة الانجليز ورضى بأن يتولى الحكم عن طريقهم لا بالطريق الذى رسمه الدستور . ولو أن النحاس رفض الانذار وقبل الوزارة القومية لمزت العاصفة ولا ارتدت الضربة التى وجهوها الى نحورهم . ولكنه كان قد اتفق معهم على تنفيذ ما يريدون فكيف يتراجع . وعندما تسلم السفير البريطانى الاحتجاج الموجه عليه من الزعماء المصريين ألقى به جانبا ثم التفت لأحمد حسين بعد أن رأى توقيع النحاس على الاحتجاج وسأله عما اذ كان متا كذا من أن هذا التوقيع هو توقيع النحاس حقيقة

فلما رد أحمد حسنين بالايحباب ، قال السفير ما معناه أنه أصدر أمرا والأمر لا يكون الرد عليه بالاحتجاج وأنه سيقابل الملك الساعة التاسعة من مساء اليوم ليوضح الأمور كما بينها في انذاره ، ومعنى ذلك أن وغبة الانجليز يجب أن تنفذ كاهلة والا تحمل الملك نتيجة ما يحدث .

وبعد أن تجاوزت الساعة الثامنة بعشرين دقيقة حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين من جميع جهاته ووجهت مدافعها الى البهو الذى يقيم فيه الملك السابق وكان وقتئذ مجتمعاً مع الزعماء . ومنع الجنود البريطانيون دخول أو خروج أحد من القصر بعد أن جردوا الحرس من أسلحتهم . وفي تمام الساعة التاسعة حضر السفير ومعه الجنرال استون القائد العام للقوات البريطانية ومعه بعض الضباط الانجليز وكانوا يشيرون مسدساتهم في وجوه من يقابلهم من رجال القصر .

ولما أراد أحد رجال القصر التوجه بهم الى احدى القاعات دفعه السفير قائلاً : أنا أعرف طريقى I know my way. واتجه رأساً الى الغرفة التى كان فيها الملك وسلمه ورقة ليوقعها ، وكانت وثيقة بتنازله عن العرش ١١ فتصفحها الملك جزعاً فزطاً وبسرعة التفت الى السفير وأجابه بأنه سيفذ أوامره — ودخل على الزعماء وكان قد اكتمل جمعهم وقال لهم « اعتبروا كل ما وقع اليوم وما سبق أن قررتموه كان لم يكن ، والتفت الى النحاس قائلاً : وأكلفك يا نحاس باشا بتشكيل الوزارة ، أى أن تكون وزارة وفدية كما صمم عليها وكما أرادها الانجليز . »

كان النيظ يلا نفوس الزعماء والاسى باد على وجوههم والحزن يرين عليهم لذا لم يتمالك أحد ما هو أكثر الزعماء حماسة وجاهر النحاس بخطته قائلاً : « كنت أظن أن النحاس باشا وهو يدعى بأنه زعيم البلاد والرئيس الجليل وصاحب معاهدة الشرف والاستقلال أن يرفض تشكيل الوزارة . أما وقد قبلها فاني أعلن في حضرة ملك البلاد بأن النحاس باشا يتولى الحكم الليلة مستنداً الى أسنة الرماح الانجليزية . »

وهنا استشاط النحاس غضباً أرافقتل الغضب ، ورد قائلاً بأنه ليس هو الذى

يستند الى أسنة الرماح — وانما غيره الذى يحتاج الى هذه الأسنة . . فتدخل
صدق باشا ووجه الكلام الى النحاس ساخرا — « أظن رقتكم وصلتم الى هنا بعد
انصراف الدبابات ، — ويقصد أنه يرى من مسألة التدخل بالسلاح ، أو لعله
كان يعنى عليه بتهديد الانجليز ، وأنه حضر لتلقى الأمر بتشكيل الوزارة حسب
اتفاقه مع السفير وترك للنحاس تفسير أى هذين السؤالين حسب هواه وكلاهما
مر . وعلى أى حال كان صدق باشا يقول الجملة التى تحمل أكثر من معنى . وقد هم
غيره من الزعماء بالحديث لينفس عما فى صدره ولكن الملك أوقف المناقشة وقال
لنحاس عليك أن تتوجه للسفير وتخبره بأنك قبلت تأليف الوزارة — فأجاب
بالإيجاب . وواقع الأمر أن موقف النحاس من الأزيمة كان موقفا غير سديد بل
غير وطنى على الإطلاق لأنه موقف لا يثير الشكوك فحسب وانما يدين النحاس
بوصفه بما لا ترضاه فقد باع بلده باتفاقه مع الانجليز أو على الأقل بموافقتهم على
تحقيق رغبتهم ضد ارادة البلاد وبقوة السلاح . ولم يكن فى المقصود أن يشكل
النحاس الوزارة قبل أن يلغى الانذار والا وصمت وزارته رسميا بمطالباتها
للانجليز وبأنه قبل الوزارة فى ظل التهديد وعلى أسنة الرماح كما قال أحمد ماهر وكان
يتعين القيام بإجراء يحمى أثر الانذار فاتفق مع السفير على أن يتبادلوا
خطابين — يحتج النحاس فى أولهما على الانذار البريطانى وبأنه لا يمكن أن يقبل
الوزارة الا بالطريق الدستورى لا عن طريق الانجليز أو السفير البريطانى .
وعلى السفير أن يرد بما يؤيد هذا المعنى وفيما يلى صيغة الخطابين اللذين حرروا فى
يوم واحد وهو يوم ٢٥/٢/١٩٤٢ :

خطاب النحاس

يا صاحب السعادة :

لقد كلفت بمهمة تأليف الوزارة وقبلت هذا التكليف الذى صدر من جلالته الملك
بما له من الحقوق الدستورية ، وليكن مقبوما أن الأساس الذى قبلت عليه هذه

المهمة فهو أن لا المعاهدة البريطانية المصرية ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة بالتدخل في شئون مصر الداخلية ، وبخاصة في تأليف الوزارات أو تغييرها .

واني آمل يا صاحب السعادة أن تفضلوا بتأييد ما في خطابي هذا من المعاني وبذلك تتوطد صلاته المودة والاحترام المتبادلين وفقا لنصوص المعاهدة .

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام .

خطاب السفير

وأجاب السفير :

يا صاحب المقام الرفيع :

لي الشرف أن أزيد وجهة النظر التي عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم واني أؤكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون باخلاص مع حكومة مصر كدولة مستقلة وحليفة في تنفيذ المعاهدة البريطانية المصرية من غير أي تدخل منها في شئون مصر الداخلية ولا في تأليف الحكومات أو تغييرها .

واني لآتهز هذه الفرصة لأؤكد لرفعتكم فائق احترامى .

هذه هي المهزلة التي أراد النحاس أن يختم بها مأساة الانذار البريطانى — وكان هذين الكتابين قد محوا كل أثر من آثار اعتداء الانجليز — أو صححا الوضع المستورى لحكومة النحاس من أنه يتولى الوزارة طبقا للأوضاع الدستورية لا امتنادا الى أمانة الرماح الانجليزية .

وقد صدر هذان الخطابان وتبدلا في يوم واحد هو يوم ٥ فبراير سنة ١٩٤٢ وعلى أثرهما ألف النحاس الوزارة وذهب السفير الى النحاس في نفس اليوم لينتهه

فُتِف أعضاء الوفد الذين كانوا مجتمعين وقتئذ بحياة اللورد كيلرن وبحياة بريطانيا العظمى وحملوه على الأعناق وخرجوا به الى شرفة مجلس الوزراء وأطلوا على الشعب المنتظر — الذى رأى عجباً — قائد الشعب وعدوه فى تآلف وعناق . فكان ذلك مثار منخطه .

موقف الشعب المصرى من الانجليز اثناء الحرب :

أعلنت الحكومة المصرية بأمر من الانجليز الاحكام العرفية ، وكمت أفواه الوطنيين ، وقيدت الحريات ، واعتقلت الآلاف ، ولكن هذا الارهاب لم يقض على روح الكفاح الشعبى ، ولم يخمد الروح الوطنية المشتعلة فى قلب كل مصرى وطنى نخلص . وظهر هذا الكفاح فى صور عديدة ، علنية أحيانا ومربية أحيانا أخرى ، وقد أدرك الجميع فساد الحكومات المصرية ، والقصر الملكى ، وتحالفهم مع الانجليز . ضد مصالح الشعب وآماله .

لم ترهب القوات البريطانية الكثيرة العدد الشعب المصرى ، بل مضى على طريق الكفاح ، وبدأ الشعب ينظر الى عملاء الاستعمار فى مصر نظرة ازدراء واحتقار ، وأصبح شباب الجيل الجديد هو أمل الشعب المرتقب .

صور الميثاق هذه الظروف ، وهذه الآمال ، فقال : « إن الشعب المصرى بدأ يتأهب لاستئناف دوره التاريخى حتى قبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية ، وقبل أن تنزاح الأشباح السكينة لدابابات الاحتلال عن مدنه الكبرى . ولقد عبر الشعب المصرى عن نفسه برفضه العنيد أن يشترك فى الحرب التى لم تكن فى نظره الا صراعا على المستعمرات والأسواق ، بين العنصرية النازية ، وبين الاستعمار البريطانى الفرنسى الذى سيجر على البشرية كلها ويلات لاحود لها من القتل بالجملة والدمار الشامل . »

لقد رفض الشعب المصرى كل الشعارات التى رفعها المتحاربون أعلاما فوق رؤسهم ليخدعوا بها الشعب . وسحب الشعب المصرى كله البقايا الباقية من تأييده

الذين تعاونوا مع سلطة الاحتلال طمعا في مكاسب السوق السوداء التي فرضتها الحرب وظلالها القاتمة .

وعمت الشباب المصري موجة من السخط والغضب على كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال ، وقبلوا وجوده ، ولقد ترددت في مصر في ذلك الوقت أصداء طلقات الرصاص ، وتجاوبت أصداء انفجارات القنابل ، وكثرت التنظيمات السرية بمختلف اتجاهاتها وأساليبها .

لم تكن تلك هي الثورة وإنما كان ذلك هو التميد لها . كانت تلك هي مرحلة الشعب التي تمهد لاحتلالات الثورة ان الغضب مرحلة سلبية . ان الثورة عمل إيجابي يستهدف إقامة أوضاع جديدة . ان غضب الشعب المصري المهدد للتغير بدأ يجاوز النطاق الفردي الى النطاق الجماهيري ، .

الأسود يواصلون كفاحهم :

رأى الوطنيون أن يسرعوا في الاتصال بالألمان بعد أن تأخروا مدة طويلة كانوا خلالها يتحينون الفرصة المناسبة وكلفت شعبة الطيران أحمد سعودي برسم تخطيط دقيق لجميع معسكرات الانجليز ومطاراتهم في القاهرة والقنال والاسكندرية — وبعد مجهود كبير صورت جميع المرافق الهامة ، ثم وضعت خطة السفر واتفقوا على من يسافر ليتصل بالألمان فكان ذلك من حظ أحد الضباط فبكى أحمد سعودي لضياح ذلك منه ثم تكررت القرعة ثلاث مرات ارضاء له بعد طلبه ذلك فوقعت عليه أخيرا للقيام بهذه المهمة الخطيرة بعد أن تأخرت عن ميعادها سبعة شهور ، وكان أهم ما يترتب على التشكيل هو اختيار الطائرة ولم يكن ذلك بالأمر اليسير . لأن مصر كانت في حالة حرب والانجليز يهيمنون على مرافق البلاد ولم يكن يسمح لآلة طائرة بالتحليق في الجو الا بعد بحث وتدقيق وكان كل طيار مسئول عن طائرته وقائد السرب مسئول عنهم تحت امرته .

وأخيرا وقع الاختيار على طائرة أحدهم ، وكانت تحمل رقم ٩٠٣٦ ماركه

جلاديتير وهي من السرب الخامس وملئت الطائرة بالليل بالنزين ، واتفق الأعضاء مع صاحب الطائرة على أن يتأخر ١٥ دقيقة عن ميعاد العمل الرسمي في الصباح وهو يبدأ الساعة السادسة صباحا ليتيح الفرصة للطيار أحمد سعودي للخروج بها واستلم الأخير الحقيبة السوداء التي تحمل مواقع المعسكرات والمطارات الانجليزية والبيان الذي سبق أن كتبوه الى روميل خاصا باتفاقنا معهم ومساعدتنا لهم مقابل الحصول على الاستقلال وزوده بالتعليمات الخاصة عن كيفية الاتصال بهم عن طريق الراديو وأعطوه كذلك بعض الأسلحة الخفيفة وآلة ارسال واستقبال .

وفي الساعة السادسة من صباح يوم ١٩٤٢/٨/٧ اتجه سعودي الى الطائرة رقم ٩٠٣٦ ومعه الحقيبة السوداء التي تحمل السر الرهيب . وكان مجرد الاشتباه فيه كفيلا بأن يـلم رقبته الى جبل المشنقة فضلا عن تشريد باقي الجماعة وسجنهم ووأد الحركة

وكانت التعليمات تقضى بأن يتجه سعودي بطائرته الى السلوم ، ولكن الألمان كانوا يسكرون في العلين في ذلك الوقت فرأى أن ينزل في الضبعة ودار المحرك وارتفعت الطائرة وعيون الجماعة تتطلع اليها وكلها أمل ورجاء وهي تحلق في اجو متجهة الى الصحراء .

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٩٤٢/٨/٧ أذيع بأن هناك طائرة مفقودة ، وانقلبت الدنيا رأسا على عقب وخرج مرب من الطائرات للبحث عن الطائرة ومسح منطقة القاهرة والصحراء المحيطة بها حتى الفيوم ولكن دون جدوى وهاج الانجليز وهددوا وطالبوا باجراء تحقيق لمحاكمة المسؤولين ، وأمر أحمد حمدي سيف النصر وزير الحرية في حكومة النحاس الجديدة بتشكيل مجلس عسكري لمحاكمة المسؤولين من الضباط .

الشهيد الاول

بعد سفر أحمد سعودي تنفس الوطنيون الصعداء وهدأت خواطرهم ولم تكن محاكمة الضباط الثلاثة أعضاء التشكيل وتشريد باقي الضباط ووضع الرقابة الشديدة

عليهم يساوى شيئا بجانب مجاحهم في تهريب سعودى لأن هذه الخطوة كانت فى نظرم قاصلة وعلى جانب من الأهمية ونقطة تحول كبير فى مستقبل الحركة والبلاد. فالتحالف بين الألمان والوطنيين لازم لسكليهما ضد العدو المشترك تجمعهما مصالح مشتركة فالألمان ينفون هزيمة الانجليز ويحتاجون لمن يحمى ظهورهم والوطنيون يتطلعون الى الاستقلال والحرية .

ولم يكدهم يضى يومان على سفر سعودى حتى قامت القوات الألمانية بضرب شديد ومركز على موقع المعسكرات والمطارات الانجليزية وكانت كايبتها الوثائق والخرائط التى حملها سعودى فى حقيبته فتأكد الوطنيون بأن سعودى قد وصل ، ودليل هذا الضرب المنتظم الذى قام به الألمان . ولكن الشك ساورهم عندما تأخر سعودى من الاتصال بهم كما اتفقوا معه . فاجتمع الضباط وقرروا ارسال صول وطنى آخر هو الصول محمد رضوان ليستطلع أخبار سعودى وليؤكد للألمان ما سبق واتفقوا عليه معهم . فسافر محمد رضوان بطائرة زودوها به الى الصحراء الغربية عن طريق واحة سيوه واتصل بالألمان وعرف منهم أن سعودى هبط بطائرته بجهة الضبعة التى كان الألمان قد لغوها ، فنسفت الطائرة وأصبح سعودى أول شهيد للتشكيل العسكرى . والعجيب أن سعودى كان له اثنا عشر أعمامات بعضهم فى حوادث متفرقة ، كما غرق اثنان فى مياه البحر بالاسكندرية حيث نشأت أسرته، وكان هو آخرهم ، وكان الموت كان لهم جميعا بالمرصاد :

أما الصول محمد رضوان فظل مع الألمان يحارب بجانبهم حتى سافر معهم عندما انسحبت قوات المحور الى أوروبا وقبض عليه بعد هزيمة ألمانيا وحوكم أمام مجلس عسكرى .

وقد كانت الضربة شديدة على الوطنيين فقد خسروا وشرحوا وفرضت الرقابة على جميع الضباط وكانت ترصد عليهم كل حركة، أما عزيز المصرى القائد الروحى للثورة فلم يكن حظه بأبعد من حظ الضباط .

فقد كان الانجليز يتوجسون منه خوفا ولا يطمئنون اليه لمبادئه الوطنية ولآرائه

التحررية التي كان يجاهر بها أمامهم ، وعندما شدد الألمان الضغط على الانجليز ولاحت بوادر هزيمتهم دعا الانجليز الى عقد اجتماع مشترك فحضره من الجانب المصري صالح حرب وزير الحربية وقتئذ وعزيز المصري بصفته رئيس هيئة أركان الجيش ومن الجانب البريطاني الجنرال ولسون والسير مايلز لامبسون سفير بريطانيا وأقترح الجانب البريطاني انسحاب الجيش المصري وكان عبارة عن فرقتين الى سيوة لمواجهة قوات المحور اذا لزم الأمر ويترك الساحل بأكمله للقوات البريطانية مع ترك جميع الأسلحة والعتاد التي كانت بالجيش المصري للقوات البريطانية ، فرفض عزيز المصري الموافقة على نقل الجيش المصري الى سيوة وبدون سلاح لأن ذلك على ما فيه من امتحان ، فانه يعرضه للإبادة في حالة هجوم الألمان، لأن القوات المصرية ستكون معزولة تماما، وعندما وجد أن الانجليز معممون على رأيهم تقدم باستقالته للوزارة ، ولكن على ماهر أعطاه أجازة طويلة والى أجل غير مسمى ، وعندما سمع الضباط ذلك اتفقوا على عدم تسليم أسلحتهم وثاروا وعقدوا العزم على احتلال بعض المواقع الاستراتيجية الهامة ومقاومة الانجليز وكان من بين هذه القوات بعض أعضاء التشكيل في ذلك الوقت ولكن الانجليز عادوا وتساهلوا وسمحوا للجيش المصري بالعودة الى القاهرة ومعه أسلحته وعتاده ، واعتبر الوطنيون أن رضوخ الانجليز انتصار لهم .

وظل عزيز المصري بعيدا عن الجيش حتى قرر الهرب وما استتبع ذلك من فشل وسقوط الطائرة ، واعتقاله وعماكنه مع زميله حتى أفرجت عنهم حكومة النحاس في مارس سنة ١٩٤٢ كما ذكرنا من قبل .

ولم يستمر هذا الإفراج طويلا اذ أعيد اعتقال عزيز المصري في ١٣/٨/١٩٤٨ بعد أن قبض على أنور السادات وحسن عزت لأن الانجليز عرفوا أن لعزيز المصري منلعا في الحوادث التي كانت تحدث في تلك الأيام كما كانت الأصابع تشير اليه بسبب الظاهرة الجديدة التي ظهرت بين ضباط الجيش .

ولم تكن هذه الضربات التي توالى على الوطنيين في هذه الفترة الوجيزة

بالشيء اليسير فقد كانت كنفيلة بأن تؤدي بأى حركة وتحمدها الى الأبد ولكن الوطنيين لم ينفقدوا الأمل ولم يزيدهم الفشل الا اصرارا ، حتى فى أوقاتهم لم ينسوا مصر ولا الفكرة التى آمنوا بها .

الشعب يرفض الاشتراك فى الحرب :

عندما تولى أحمد ماهر الوزارة فى ٨/١٠/١٩٤٤ كانت فكرة اعلان الحرب على ألمانيا وإيطاليا واليابان لاتزال تراوده وهى الفكرة التى نادى بها سنة ١٩٤٠ ورفضها البرلمان وكان المصريون لا يريدون اعلان الحرب لا عن خوف أو رهبة وإنما لسكراهميتهم للانجليز ولكن أحمد ماهر أعد فعلا بيانا بهذا المعنى ليلقيه فى البرلمان .

وفى مساء السبت ٢٤/٢/١٩٤٥ ألقى أحمد ماهر بيان اعلان الحرب على ألمانيا واليابان بجانب انجلترا ، وفى أثناء اجتيازه للبهر الفرعونى الذى ينصل مجلس النواب عن مجلس الشيوخ تقدم اليه محمود العيسوى وأطلق عليه الرصاص فسقط قتيلًا .

ومحمود العيسوى كان ضمن الشعبة المدنية التى ألفت لمقاومة الانجليز وأذئابهم وقد ولد فى قرية « بنى غربانة » التابعة لمركز قويسنا بمديرية المنوفية ونال اجازة الحقوق سنة ١٩٣٩ ، وحصل على دبلوم القانون الخاص سنة ١٩٤٠ ، ودبلوم القانون العام سنة ١٩٤١ بتفوق ، وأعد رسالته لنيل الدكتوراه فى الحقوق موضوعها مركز مصر الدولى بعد ابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكان من أشد المعارضين لها الناقين على موقعها ، وعمل بعد تخرجه بمكتب الأستاذ الكبير عبد الرحمن الراهقى — ولم يكن يباشر القضايا أو الدعاوى التى تتداول بالمكتب وإنما تفرغ تفرغا تاما الى كل ما يخص مصر من مشا كل سواء أكانت داخلية أم خارجية . وكان رحمه الله مثال الخلق الكريم المتواضع المتخلص — يفيض علما ويتوقد ذكاء — جرى فى الحث ، حدث عندما قبل محافظ رمضان رئيس الحزب

الوطني الاشتراك في الوزارة في ٢٨/٦/١٩٤٠ وكانت وزارة ائتلافية برئاسة حسن صبري أن ثار شباب الحزب لأن مبادئه كانت تحرم على أعضائه الاشتراك في الحكم مادام الاستعمار جاثما على أرض الوطن ، فذهب اليه محمود العيسوي مع بعض الشباب ليسألوه : كيف خرج على مبادئ الحزب وقبل الوزارة ، فلم يجب بما يقنعهم واعتذر لهم بمرضه . وكان يلزم فراشه فعلا ، فما كان من محمود العيسوي إلا أن قال له : « جئنا إليك لنقول لك انك خرجت على مبادئ الحزب ، وان جهادك القديم قد دنسته بدخولك الوزارة فعليك أن تستقيل — وكان أولى بك أن تعتذر لهم بمرضك خير من اعتذارك لنا الذي نراه تهربا من الاجابة » ثم السحب وزملاءه . .

ومن دلائل جرأته أنه كان أكثر أعضاء الجماعة السرية نشاطا في توزيع المنشورات التي كانت تطبع في منزل واحد منهم بالدقي . وحدث في أواخر سنة ١٩٣٩ أن تسلم دفعة لتوزيعها بأنحاء متفرقة بالقاهرة فظل يقوم بالتوزيع الى ما قبل الفجر بقليل ، وكانت الاماكن التي اختارها أخطر الاماكن ، ومنها رئاسة مجلس الوزراء والسفارة البريطانية ووزارة الحرية وغيرها وعندما أوصلك على الانتهاء من توزيع هذه المنشورات قبض عليه وسجن ، وعلى الرغم مما لاقاه من عنت وتعذيب فإنه ظلم صامتا ولم يفتح فيه .

وعندما قبض على محمود العيسوي بعد مقتل أحمد ماهر كان كماداته رابطة الجاش صامتا ولم تنجح وسائل التعذيب القاسية التي قام بها البوليس السياسي ومنها اقتلاع أظافره ، ولم يستمع الى الوعد الذي منوه به بأن يعطوا أهله ١٠ آلاف جنيه إذا اعترف على شركائه . ولكنه تحصن بالايمن والعقيدة وأسلم أمره الى الله الذي اليه مرد كل الأمور . ولما أعيت الحيل البوليس السياسي قدموه الى المحاكمة ، وكان في محاكمته مثلا آخر في الشجاعة وهدوء الأعصاب والإيمان العميق .

وبعد أن قتل أحمد ماهر أسندت الوزارة الى محمود فهمي النقراشي يوم ٢٤/٢/١٩٤٥ — وكان النقراشي باشا يحضر التحقيق كما كان يستدعى محمود العيسوي الى مكتبه أحيانا أخرى لعله يحصل منه على اعتراف يطمئن فزاده .

ولهذا طلب المتهم من المحكمة في إحدى الجلسات استدعاء رئيس الحكومة لسماع أقواله كشاهد نقي . وذلك لثلاثة أسباب : أولها أن دولته يعلم أن الحرب كانت متعلن هجومية وترسل قوات مصرية الى الشرق الأقصى وأوروبا وأن هذا الوضع قد تغير بعد ارتكاب الحادث .

وثانيهما أن اعلان الحرب كان بناء على تدخل الانجليز وكان أحمد ماهر والنقراشي عند السفير البريطاني يوم الحادث مما يدل على أن هناك تدخلا من الانجليز في شئون مصر الداخلية .

والسبب الثالث — أن النقراشي باشا قال لي شخصيا أن الحكم في هذه القضية سيكون رادعا . وقال المتهم ولهذا أصمم على استدعاء رئيس الحكومة لسماع شهادته كما أطلب للشهادة كذلك مصطفى النحاس وحافظ رمضان .

وعارضت المحكمة هذا الطلب وكانت مشكلة برئاسة محمود منصور بما حدا بالاستاذ علي بدوي عميد كلية الحقوق والاستاذ السابق للمتهم ومحامية الى طلب التنحي عن الدفاع وقال للمحكمة :

« اني رجل لم احترف السياسة ولم أخض غمارها ، ولكنتي أنظر الى الأمانة التي في عنقي وأخشى أن يطاردني ضميري إذا لم يسطل للدفاع حرية مطلقة ومهماتكن النتائج فاني لن أسمح لنفسي بتسليم عنق المتهم الى حبل المشنقة قبل أن تستوفي جميع وسائل الدفاع . »

ثم احتج على ما جاء في مرافعة الاتهام وكان يمثل عبد الرحمن الطوير ، عندما قال : « وقضية اليوم هي قضية الشهيد والبنيعض — أما الشهيد فهو أحمد ماهر ، وأما البنيعض فهو هذا الشقي المائل أمامكم . »

« وأستغفر الله أن أذكر اسميها معا . غير أن التاريخ سيفرق بين الاعمين فيرفع اسم أحمد ماهر الى السماء وسيضع التاريخ هذا المعتدى القاتل يوم ولد ويوم يموت بين المجرمين الآثمين . »

فرد عليه الأستاذ على بدوى منفلا (لسا هنا فى مقام تقدير الفضائل الشخصية لكل واحد من الناس ولا لبيان العيوب الشخصية ولسنا أمام قضية تيس وشهد أو شقى وسعيد ، إنما نحن أمام قضية تتعلق بأمر خطير — قضية أمن بها المتهم وإذا كان أحمد ماهر صاحب رساله فان المنهم اعتقد وآمن بفكرة تسلطت عليه واعتقد المتهم وأعتقد أنا أيضا منه أن مبعثه وحى الانجليز) .

وقد استجابت المحكمة لطلب الدفاع بشأن سماع الشهود .

وشهد التقرائى ببعض ما أثاره المتهم فاعترف بأنه استدعاه الى مكتبه أكثر من مرة وان أنكر ذهابه مع أحمد ماهر الى السفارة البريطانية كما سمعت المحكمة شهادة كل من على ماهر ومكرم عبيد اللذان قررا بأن أحمد ماهر قابل السفير فى بيته كما قرر المتهم — كما شهد حافظ رمضان بأنه استقال من الوزارة عندما علم بمسألة اعلان الحرب .

وأثناء شهادة الشهود شعرا منهم بأن المحكمة تواجهه فثار وطلب الطعن بالتزوير فى محضر الجلسة كما طلب رد المحكمة لأنه لا يستطيع أن يطمئن الى الحكم الذى ستصدره دون ميل منها ، وأنه لن يبدى أى دفاع أمامها . وإزاء ذلك أثبت الرئيس طلب الرد وأمر المتهم بكتابة أسباب الرد ، فلما طلب أجلا لكتابته رفضت المحكمة هذا الطلب وكلفته بكتابة الأسباب فوراً وفى قصص الاتهام ، فطلب قلما وورقة وكتب أسباب الرد وهو فى القفص وبعد المداولة رفضت المحكمة الطلب .

وهنا وقف المتهم وقال : وأنا أعنى أستاذى على بك من المرافعة ، ولكن الأستاذ على بدوى وقف بجانب تليذه ولم يخذله وظل يدافع عنه طوال المحاكمة ،

وبجلسة ١٩٤٥/٧/٢٨ قضت المحكمة باعدام محمود العيسوى شنقا وفى الصباح الباكر من يوم ١٩٤٥/٩/١٨ اقتيد محمود العيسوى الى المشنقة فطلب أن يسمح له بالصلاة ، فترونا وصلى صلاة الصبح ، وكما تقدم ابراهيم الوردانى الى المشنقة بشجاعة فقد توجه محمود العيسوى بقلب ثابت وبإيمان عميق الى حيث كان يتلقى

حبل المشتقة وقبل أن توضع الطاقية السوداء على رأسه قال كلمته المشهورة :
« أنا لا يهمني إلا حكم التاريخ . وأرجو الصحفيين ألا يشوهوا سمعتي كما
شوهوا القضية ، وكلتي لهم ألا تفترخوا على ميت . » وذهبت روح الشهيد الوطني
محمود العيسوي الى بارئها .

الشعب يوالي كفاحه :

مها قيل في مقتن أحمد ماهر — فان قاتله رأى أن انزعما يلعبون بالشعب
ويلهون به وكل همهم بريق الحكم ومتممة السلطان وحييمهم دون استثناء أذئاب
الاستعمار ومطايها ومنفدى أغراضه وكان يتردد بعد مقتل أحمد ماهر سؤال وجيه
لماذا لم توجه هذه الضربة لصانعي يوم ٤ فبراير وهم الذين طعنوا الوطن في الصميم
وأذلوا مصر في شخص الملك وكان الملك في ذلك الوقت لم ينحدر الى ما انحدر
اليه بعد ذلك من خيانة وفساد واستهتار .

والحقيقة أنه لم يفت على التشكيلات الثورية في مصر ضرورة الانتقام لهذا
اليوم الأسود ولكن الظروف لم تكن تسمح وخاصة بعد القبض على بعض أعضاء
التشكيل وفشل البعض الآخر من تنفيذ الخطط التي وضعوها .

وعندما هدأت الحالة بعد الشيء وضعت الخطة لاغتيال النحاس باشا بطل
يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ . وفي مساء يوم ١٢/٦/١٩٤٥ وقف ثلاثين الوطنيين
بشارع رستم باشا ينتظرون قدوم النحاس أثناء توجهه الى النادي السعدي للاحتفال
بعيد الهجرة وكان يستقل سيارة فؤاد سراج الدين ولما شوهدت السيارة هم أحد
الثلاثة بالقاء قبلة يدريه على العربة ولكن السائق شاهد الوطنيين الثلاثة يتحركون
ورابه الأمر فها كان منه الا أن انحرف بسيارته وأسرع بها وكانت القبلة قد أقيت
خلفها وسمع لها دوى هائل ولكن أحدا لم يصب بسوء لسرعة بديهة السائق وفطنته
التي أنقذت النحاس من موت محقق .

وأما الوطنيون الثلاثة فقد تفرقوا كل في ناحية الى حيث يقيمون وظل مرتكبو
هذه الحادثة مجهولين ولم يستدل البوليس عليهم حتى وقع حادث الاغتيال الثاني

من سلسلة الاغتيالات التي وقعت في هذه الايام .

العميل الاول للانجليز

وكان وراء حادثة ٤ فبراير صديق للانجليز ظل وراء الكواليس ولم يظهر على المسرح لاقبال ولا بعد الحادثة بل انه لم يشترك في الوزارة التي ألغها النحاس في ١٩٤٢/٢/٦ ولكن الشعب كان يعرفه ويعرف الدور الذي قام به ذلك العميل هو أمين عثمان الصديق الخيم للانجليز وسفير الوفد لديهم وكيف لا يكون كذلك وهو الذي شرب التعاليم الانجليزية في مدارسهم وحامعاتهم واحتل بهم واتخذ من قاداتهم وزعمائهم اصدقاء له وهو صاحب المجلة المشهورة بأن مصر وانجلترا متزوجان زواحا كاثوليكييا ، ثم تزوج منهم وأنشأ ناديا أسماه « رابطة النهضة » في شارع عدلى باشا يرى الى دعم الصداقة بين المصريين والانجليز وتوطيد الصلات بين انجلترا ومصر وضم هذا النادي كثيرا من المصريين من ذوى الزلفى وأصحاب المصالح والمتعلقين كما كان يذهب اليه السفير البريطانى ورجال السفارة وبعض الضباط الانجليز ولقد كان فى انشيا هذه الرابطة وخاصة فى ذلك الوقت تمجد لشعور المصريين واستهتار لعقائدهم ومحاولة لقتل الروح الوطنية وافساد ذمم ونفوس الساسة والجهكام من طالبى الحكم فلم يكن من بد أن يتجه اليه أنظار الوطنيين من الشباب وهكذا عزموا على ازاحته من طريقهم على أن يكون ذلك فى النادي الذى أنشاه وفى مساء يوم ٥ يناير سنة ١٩٤٦ كن ثلاثة من الوطنيين أمام النادي وفى تمام الساعة السادسة والنصف مساء أقبل أمين عثمان فى عربة أجرة الى مقر النادي الذى كان يحج اليه كل يوم تقريبا وعندما بدأ يصعد درجات العمارة التى بها مقر الرابطة ركض أحدهم خلفه وفاداه باسمه .

فلما توقف والتفت اليه أطلق عليه رصاص مسدسه اذ كان يحمل مسدسين ويخفى معه قبيلتين فأرداه قتيلا .

ثم هرب الثلاثة كل الى داره .

يصف أحدهم (١) شعوره في هذا الوقت فيقول : لم يكن معظمنا ليكثر بما
مصيب أنفسنا في عملية التدمير أو الخلاص التي نقوم بها ولكننا كنا نجد في نوع
من التفكير الصياني وكان المشتقة السجن أهون من مقابلة أو مواجهة آياتنا الذين
لم يكونوا يعرفون عنا شيئا — ولم تكن أشجع من غيرنا ولم تكن نقبل فكرة
الموت بأسهل علينا من غيرنا ولم يكن الخروج الى العمليات يخلو من الخوف
الطاغي . الذي يتحتم علينا أن نروضه ونحكم فيه ولكن ربما كان معظمنا أكثر
احساسا بالآلام الغير واستجابة لها واستيعابا لبؤس شعبنا كله .

ولم يقتصر تكوين الجمعيات السرية على القاهرة وإنما كانت هناك جمعيات أخرى
تكونت في الاسكندرية ففي أثناء نظر قضية مقتل أمين عثمان انتفضت الاسكندرية
وتكونت بها جماعة من الطلبة تعاهدوا فيما بينهم على مقاومة الانجليز وبموارد
الغشيلة اشترى بعض القنابل الإيطالية وبعض المسدسات من مخلفات الجيش التي
كانت ترد مع التجار من الصحراء الغربية وعندما توفر لديهم السلاح هاجموا مواقع
الانجليز وتجمعاتهم وارتكبوا أربع حوادث هامة كبت الانجليز خسائر جسيمة
في الأرواح حتى بلغ عدد القتلى والمصابين منهم ١٣٨ شخصا وهذه الحوادث الهامة حسب
ترتيب وقوعها هي حادثة الانفوشي ، وحادثة الشلالات وحادثة اسحاق تديم وأخيرا
حادثة النادي البريطاني وظلت جميع هذه الحوادث لا يعرف مرتكبوها وكان لها دوى
كبير في مدينة الاسكندرية وسائر البلاد حتى أصبحت حديث الناس في كل مكان
الى أن وقع أسوأ حادث خيانة في تاريخ التشكيلات الوطنية ، ذلك أن أخ أحد
الوطنيين من أعضاء الجمعية وابن عم آخر تطوع باقتناء سرهم طمعا في الحصول
على مكافأة مالية كان البوليس قد وعد بها لمن يدلي بمعلومات تؤدي الى القبض على
الجناة . وتفاصيل المأساة أن شقيق فاروق كامل وكان يدعى محسن كامل وهو في
الوقت نفسه ابن عم عبد الرحمن موسى وصديق باقي أعضاء الجمعية اتصل برجال
البوليس وأخبرهم أنه يعلم سر الحوادث ومرتكبها فرسموا له طريقة القبض عليهم
وتلخص في أن يرسلوا لهم أحد التجار ليتفاوض معهم لشراء بعض الأسلحة حتى

(١) من كتاب الكفاح السري لوسيم خالد .

يتمكنوا من معرفة المكان الذى يخبثونه فيه ، واستحضر البوليس من كان يدعى اسماعيل أحمد حسين باعتباره المشتري المزعوم وتوجه محسن كامل ورجال البوليس الى منزل عبد القادر محمود عامر الذى أحضر له ثلاث مسدسات من حجرة نومه ، وعندئذ هاجم البوليس المنزل وضبط به بعض الأسلحة والقنابل ثم قبض على باقى المتهمين ، واستعمل البوليس معهم القسوة والتعذيب وقد بين هذه الأساليب أحد المحامين فى مرافقته فقال فيها (اتى أدافع بطلان الاعترافات التى أدلى بها المتهمون لأنها أخذت بطريق الاكراه وأنها جاءت نتيجة التعذيب بعد إرهاق أعصاب المتهمين وأنها كانت تؤخذ منهم فى منتصف الليل وكانوا يشربون الماء بمزجج يول الخيول ويحرمون من الطعام أياما) .

وفى أثناء نظر القضية نجح ثلاثة من المتهمين فى خلع نافذة غرفة السجن بالحديد وهربوا وهم : عبد القادر عامر ، وعبد الرحمن قرشى ، ومصطفى الدفراوى ، وجميعهم من الطلبة وقد صدر عليهم الحكم غاييا بحبس الأولين عشر سنوات والآخر خمس سنوات فى ١٠/٦/١٩٤٧ ، وهكذا كانت المادة ومائل الاغراء التى اتبعها البوليس وضعف أخلاق الخائن محسن كامل مبيها فى القضاء على الحركة التى قامت بالاسكندرية . وجعلت الأذى يناسب أخاه العدا . بل دفعته الى أن يسلمه ومن معه الى السجن لقمة سائغة دون وازع أو ضمير وكان المحامون وهيئة المحكمة على السوء يستتكرون موقف محسن كامل . وقال أحدهم فى مرافقته : « تصوروا معى كيف فنى محسن كامل مع أخيه ليلة الجمعة يباحثه ويلطفه وهو ينوى فى الصباح أن يسلم عنقه للجلاد ، فما كان من رئيس المحكمة إلا أن أجابه ساخرا وكله أسى ، هناك مثل آخروهى مأساة قابيل وهايل .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ صدر القانون رقم ٢٤١ لسنة ١٩٥٢ بالعفو الشامل عن الجرائم التى ارتكبت بسبب أو بفرض سياسى وبذلك كشف الوطنيون الهاربون عن أنفسهم وخرجوا من أماكنهم التى كانوا يختفون بها وجدير بالذكر أنهم كانوا قد توجهوا الى القتال بعد الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واشتركوا فى عمليات المقاومة.

الباب الخامس

الكفاح الشعبى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

- ١ - الحركة الوطنية بعد نهاية الحرب العالمية .
- ٢ - كفاح الشعب المصرى من أجل فلسطين العربية .
- ٣ - مأساة شعب وخيانة ملك .

١ - الحركة الوطنية بعد نهاية الحرب العالمية

مودة الكفاح الشعبى :

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أعلنت الحكومة المصرية سنة ١٩٤٥ انتهاء الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وإلغاء الأحكام العرفية . وظهرت بين أبناء الشعب المصرى رغبة تحقيق الآمال الوطنية ، وألف رئيس وزارة مصر هيئة أطلق عليها اسم (الهيئة السياسية) تتألف من بعض زعماء الأحزاب والمستقلين ، لتكون هيئة استشارية للحكومة . وأصدرت هذه الهيئة بياناً عبرت فيه عن مطالب الشعب فى جلاء القوات البريطانية ووحدة مصر والسودان ، وطالبت باتخاذ الوسائل لمفاوضة انجلترا على أساس هذه المبادئ والمطالب . وأقر مجلس وزراء مصر هذا البيان وطلبت الوزارة من الحكومة البريطانية التفاوض لاعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ .

ولم تستجب الحكومة البريطانية لطلب حكومة مصر ، وأصررت على تنفيذ شروط معاهدة سنة ١٩٣٦ ، مما أثار مشاعر الشعب المصرى ، فعمت المظاهرات القاهرة وبعض المدن ، ولكن الحكومة المصرية للأسف فضت هذه المظاهرات بالعنف ، وسقط عدد من الشهداء ، مما جر السخط على وزارة القراشى فاضطر الى الاستقالة ، وخلفه اسماعيل صدق .

وتوالى قيام المظاهرات فى الأيام الأولى من حكم وزارة اسماعيل صدق ، وتصدى الجنود البريطانيون لهذه المظاهرات الوطنية ، وسقط عدد من المصريين قتلى ، وكان من المنتظر أن تودى هذه الحوادث النامية الى توحيد الصفوف ، كما حدث سنة ١٩٣٥ ، وسمى الشباب سنة ١٩٤٦ كما سعى أسلافهم سنة ١٩٣٥ فى التقريب بين الأحزاب وتوحيد جبهة المقاومة الوطنية لكنهم أخفقوا بسبب أنانية الأحزاب .

كفر شباب مصر بهؤلاء الزعماء الحزبيين ورأوا أن يعتمدوا على أنفسهم في تحقيق المطالب الوطنية ، واجلاء القوات البريطانية عن الأراضي المصرية ، وأدركوا أن أقوال وأفعال هؤلاء الزعماء ما هي الا تسكيناً لخواطر الشعب ، وتحذيراً لثورته الجامعة ، بينما هم في الحقيقة يماثلون القصر ويخشون الانجليز ، ليحتفظوا بكرامى الحكم ، وهم في كل ذلك يقسمون الاسلاب ومناهم الحكم بينهم بالمدل والقسطاس .

كفاح شباب الجامعة :

كانت مظاهرات الطلبة قد قامت تأييدا للوزارة في طلبها بشأن اعادة النظر في معاهدة سنة ١٩٣٦ عقب الحرب العالمية الثانية ، وجاء الرد بأن أسس المعاهدة لا يجوز تغييرها في الوقت الحالى . ويرى الانجليز عوضا عن ذلك البحث في وسائل دعم التعاون الوثيق بين الدولتين .

وقد أرسلت الحكومة البريطانية ردها السابق بمذكرة الى الحكومة المصرية في ١٩٤٦/١/٢٦ وعندما علم طلبة الجامعة بذلك ورأوا عزم الانجليز في عدم تحقيق مطالب البلاد غضبوا وثاروا وحدثوا يوم ٩ من فبراير سنة ١٩٤٦ ميمادا للاجتماع لبحث الموقف واتخاذ ما يرونه من قرارات ، وفي صباح هذا اليوم اجتمع أكثر من خمسة آلاف طالب وتداولوا الرأى وأصدروا البيان التالى : « وهو موجه الى الملك » .

مولانا صاحب الجلالة :

يود الآلاف من طلبة الجامعة المؤتمرين في الحرم الجامعى صباح يوم ١٩٤٦/٢/٩ لبحث الموقف الحاضر أن يرفعوا الى مقام جلالتم السامى ما استقر عليه رأيهم الثابت وما انتهى اليه عزمهم الا كيد . فقد أعلن طلبة الجامعة عند ابتداء هذا العام أنهم لن يرضوا بالنماء والأرواح في سبيل تحقيق الجلاء التام ووحدة وادى النيل وقد ترك الجامعيون الفرصة الكافية للحكومة لمطالبة بريطانيا

بهذه الحقوق المقتضية وأنهى الطلبة البيان بمطلبهم . بأنهم يرون أنه يجب على الحكومة المصرية أن تبلغ الحكومة البريطانية تبليغا رسميا أن الجانب المصرى لن يقدم على المناوضة الا على أساس الجلاء ووحدة وادى النيل .

ثم خرج الطلبة من حرم الجامعة قاصدين ميدان عابدين لا بلاغ رغباتهم وقراراتهم وعندما أرادوا عبور كوبرى عباس وجدوه مفتوحا فزل بعض الطلبة تحت الكوبرى ونجحوا فى قفله وأثناء عبورهم فاجأهم البوليس واعتدى عليهم اعتداء وحشيا وحاصر الكثير منهم ممن لم يتمكنوا من الوصول الى حرم الروضة حتى أن الطلبة كانوا يلقون بأنفسهم فى النيل مربا من هذا الاعتداء المفاجىء ويروى شاهد عيان بأن النوتية كانوا يتلقون من يسقط من الطلبة فى النيل ويلتقطونهم فى قواربهم أما الذين نجحوا فى عبور الكوبرى فقد ظل البوليس يتعقبهم واعتدى عليهم اعتداء وحشيا مما حدا بالطلبة الى اللجوء للمنازل القريبة يحتمون بها من هذا العنف وكان أصحاب الدور يفتحون لهم منازلهم ويأوونهم ويضمضون جراحهم وقد أصيب أثناء ذلك ٨٤ طالبا باصابات بالغة ونقلوا الى القصر العينى للعلاج .

وفى اليوم التالى تجددت المظاهرات وخرج الطلبة يغنون الوصول الى رياسة مجلس الوزراء وقصر عابدين لينهوا الى المسئولين برغباتهم وما اتخذوه من قرارات ولم يفل من عزيمتهم ما لاقوه بالأمس ولكن قوات البوليس حاصرتهم أمام حديقة الحيوان من كل ناحية واعتدوا عليهم بقسوة وتعقبهم فى كل مكان حتى أن بعض الطلبة استقلوا المراكب الشراعية فما كان من رجال البوليس الا أن تعقبهم وقبضوا على بعضهم وكانت مطاردة من نوع فريد ولم تكن مظاهرات القاهرة وحدها التى قامت يومى ٩ و ١٠ بل حدثت مظاهرات أخرى فى الاسكندرية والمنصورة والزقازيق وأسيوط وأسوان ، واستشهد بها سبعة من الشهداء عدا الكثير من الجرحى .

وظلت البلاد من أقصاها الى أقصاها تتأجج بفورات السخط والغضب ولم يهدأ الطلبة فى الأيام التى تلت يومى ٩ و ١٠ من فبراير بل ظلوا يوالون الاجتماعات

ويصدروا القرارات وتمكنوا من الوصول أكثر من مرة الى قصر عابدين وقدموا للملك مذكرتهم الثانية وقالوا فيها (اليوم يخرج الطلبة متحدين مالا فوه بالامس من القوة الناشئة والمسف والارهاب في سبيل الوصول اليك يرفقون ما اجتمعت اليه كلتهم ودفعهم اليه اخلاصهم من عزمهم على الجهاد والسكناح حتى ينال النيل حريته واستقلاله وحتى يجلوا الجنود الاجنبية عن وادى النيل) وأعادوا في هذه المذكرة ماسبق أن أبدوه من ضرورة الحصول على تصريح بريطاني يعترف بالجلاء ووحدة وادى النيل كأساس للمفاوضة والتمسك بدولية القضية المصرية .

ومطالبة الحكومة بعدم الخروج على هذا الأساس وأخيرا التحقيق مع المسئولين عن حوادث يوى ١٠ و٩ فبراير .

ولم يجد النقراشي ازاء الخطأ الجسيم الذى اقترفته وزارته في حق طائفة من الشعب تعبيرا بحق أخلص طائفة فيه — الا أن يستقل فاستقالت الوزارة في يوم ١٥/٢/١٩٤٦ كما نقلت انجلترا سفيرها اللورد كيلرن من مصر بطل مسرحية ٤ فبراير وبذلك هدأت النفوس بعض الشيء .

مزيد من الضحايا :

كانت فكرة الجلاء ووحدة وادى النيل التي نادى بها الحزب الوطنى منذ بدء نشأته هي التي سادت بين طلبة الجامعة وقتئذ ، وذاع هذا المبدأ وانتشر بينهم حتى آمنوا به ودعوا له وكفروا بفكرة المفاوضة بعد أن لمسوا فشلها ، وقد اتخذ الطلبة هذا المبدأ شعارا لهم ورمزوا له بشارة برنزية نقشوا عليها كلمة الجلاء وعلقوها على صدورهم — وانتشرت هذه الشارة بين المواطنين جميعا وأصبح مبدأ الجلاء على كل لسان . واتفقوا على أن ينخصروا يوما كل عام يسمونه يوم الجلاء يحتفلون فيه بهذه الذكرى .

وانعقد رأيهم على أن يكون يوم ٢١ فبراير هو هذا اليوم ، وفي يوم الخميس الموافق ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ خرج طلبة الجامعة والعامل للاحتفال بهذا اليوم وأضربت

جميع الطوائف الأخرى كما اشترك الموظفون في المظاهرة وطاقفوا بشوارع القاهرة ينادون بالجللاء وبالوحدة وبأن (لاهزبية بعد اليوم) وكان اسماعيل صدق باشا رئيس الوزراء قد رأى ألا يتعرض لهذه المظاهرات الوطنية فأمر رجال البوليس بعدم مناوأتها طالما كان النظام رائدها والسماح لها بالسير كيفما شاءت .

وكانت المظاهرات التي مرت في شوارع القاهرة في ذلك اليوم غاية في النظام واتسمت بطابع وطني قوى لا أثر للجزبية فيه وأثبت اسماعيل صدق بعد نظره في عدم مقاومتها أو التعرض لها كما فعل ملقه النقراشي ويقول الأستاذ عبد الرحمن الراقص (وبدأ الطابع القوي على هذه الحركة الشعبية إذ كان مما تتادى به ألوف المتظاهرين (لاهزبية بعد اليوم) . وأعادت الى الأذهان ذكرى مظاهرات سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٣٥ ولم يكن يشوبها أى شئ من الهتافات والتدابير الجزبية) بل كانت تعم الجميع روح وطنية عالية لا أثر فيها للجزبية الممقوتة ، وكان الطلبة والوطنيون من طوائف الشعب قدوجهوا نداء الى المواطنين يستحثونهم على الجهاد ويطالبونهم بالتمسك بالمبادئ الوطنية السليمة وأن لا يعتمدوا الا على أنفسهم وقالوا في نداءهم (ان مستقبل الوطن وكرامته وحرية في الميزان وليس من قوة تحررنا الا قوتنا الشعبية وايماننا بحقوقنا وكرامتنا .) وكاد هذا اليوم الرائع يمر بسلام لولا أن الاستعمار عز عليه ذلك وساءه أن يرى نجاح يوم الجللاء دون أن تراق الدماء أو يمضى هذا اليوم من غير أن يستدى رجال البوليس المصرى على اخوانهم من المواطنين كما تعود ذلك من قبل .

فا كانت المظاهرات السلمية تصل الى شارع سليمان باشا حتى واجهتها أربع سيارات بريطانية كبيرة محملة بالجنود (لورى) قادمة من قصر النيل وتسير بسرعة فائقة فأفسح الوطنيون لها الطريق ، ولكن احداها اشتربت صفوفهم متعمدة فقتلت وأصابت الكثيرين . .

وبدأ الانجليز الذين يستقلون هذه العربات يطلقون النار على المتظاهرين بماحدا بالمصريين بأن يدافعوا عن أنفسهم فأحرقوا السيارتين اللتين كانتا تقلان الانجليز،

ومن فندق سميراميس أطلق بعض الضباط الانجليز عدة طلقات أصابت بعض الوطنيين ، فما كان من الطلبة الا أن أشعلوا النار في الدور الأرضي من الفندق كما أحرقوا سيارة بريطانية ، كانت تقف خارجة وظل الرصاص يتجاوب في أنحاء شوارع القاهرة وعند غروب الشمس كان رقم الشهداء قد ارتفع الى ٢٤ شهيدا وأكثر من ١٣٠ جريحاً عدا الضحايا الذين سقطوا في باقي مدن القطر .

واتفق الوطنيون بعد ذلك على تحديد يوم ٤ مارس لإعلان الحداد العام على أرواح شهداء يوم ٢١ فبراير وفي هذا اليوم أضربت جميع المدن فأغلقت المتاجر والمدارس والمقاهي والمحال العامة واحتجبت الصحف وبدأت القاهرة وقدران عليها حزن رهيب بعد أن أقفرت الشوارع من الأهالي ونزحوا منازلهم وهذا ضجيج العربات والسيارات وغدت القاهرة وكأن سكانها قد نزحوا منها ومر يوم الحداد في جميع المدن كما مر بالماصمة في حزن وصمت وهدوء فيها عدا الاسكندرية فقد تصدى الانجليز للمتظاهرين المسالين وبدءوا يطلقون النار عليهم من الآماكن التي كانوا يقيمون بها أو يسكرون فيها ، فعندما مر الوطنيون بشارع سعيد الأول أطلق الانجليز القاطنين بالمارة رقم ١٤ منه النار عليهم وفي ميدان سعد زغلول خرج البوليس الحربي البريطاني الذي كان يسكن هناك وأطلق النيران على جموع الشباب فقتل منهم ٢٧ شهيدا بينما وصل عدد الجرحى الى ٣٤٢ جريحاً وقتل من الانجليز جنديان وجرح أربعة فقط .

هذه هي الحوادث المؤسفة التي وقعت في تلك الأيام وذهب ضحيتها بعض الأهالي والطلبة الذين أرادوا أن يظهروا شعورهم الوطني وقاموا يطالبون بالاستقلال والجلاء فكان جزاؤهم الضرب والتكيل والقتل وان كانت جهود الشباب لم تفلح في سنة ١٩٤٦ في توحيد الصفوف كما أفلح زملاؤهم سنة ١٩٣٥ بسبب قنعت الوفد الا أن كفاحهم المنزه عن الغرض ونضالهم الخالص لوجه الله والوطن وتضحياتهم المستمرة في سبيل الجلاء والوحدة جعلت الشعب يؤمن بتداعياتهم ويتخذ منها بهراما اضاءه الطريق .

على أن الانجليز ظلوا يلحون بين الحين والحين بالمفاوضة تمهيدا للجلاء . حتى إذا ما اجتمع الساسة المصريون معهم تتكروا لكل حق لمصر وحضروا عليها بالحرية .

مشروع معاهدة صدقي - بيغن :

تفاوض اسماعيل صدقي رئيس وزارة مصر مع المستر بيغن ، وزير خارجية بريطانيا ، وعقد الطرفان مشروع معاهدة في أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، اشتهر باسم (معاهدة صدقي - بيغن) وجاء فيها :

١ - انتهاء العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ .

٢ - جلاء القوات البريطانية التام عن الاراضي المصرية في موعد أقصاه أول سبتمبر ١٩٤٩ .

٣ - اتفق الطرفان على أنه في حالة الاعتداء المسلح على مصر أو اشتباك المملكة المتحدة (إنجلترا) في حرب نتيجة وقوع اعتداء مسلح على البلاد المتاخمة لمصر فإنها يتخذان بالتعاون الوثيق وبعد المشاورة أي إجراء يتبين ضرورته .

٤ - تحقيقا للتعاون بين الطرفين ، تنسق تلمييز الدفاع المشترك ، فتكون لجنة دفاع مشتركة من السلطات الحرة المختصة لدى الحكومتين لدراسة المسائل الخاصة بالدفاع المشترك عن الطرفين المتعاقدين في البحر والبر والجو .

٥ - الاحتفاظ بمعاهدة سنة ١٨٩٩ المتعلقة بالسودان انتظارا لأن يستطيع الطرفان المتعاقدان بالاتفاق بينهما وبعد استشارة السودانين تحقيق رغبة السودانين وتقديم مصالحهم وتثبيتهم تهيئة بحدة للحكم الذاتي ومزاولة ما يترتب عليه من حق اختيار نظام الحكم في السودان مستقبلا .

عرض اسماعيل صدقي مشروع المعاهدة مع هيئة الوفد الرسمي للمفاوضات ، فقبل بالرفض من معظمهم ، وقاموا بإصدار بيان إلى الشعب في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٦ شرحوا فيه أسباب رفضهم لهذا المشروع وجاء فيه :

١ - يمكن جلاء القوات البريطانية في فترة قصيرة ، والفترة التي حددتها للمشروع وهي ثلاث سنوات مبالغ فيها .

٢ - ان قبول مصر مبدأ الدفاع المشترك ينتج عنه اتخاذ مصر قاعدة لأعمال
حرية ، وتزايد عدد القوات البريطانية في مصر وعودة الاحتلال ، وجر مصر
الى خلافات مع دول أخرى .

٣ - يحتفظ المشروع بالأحوال الراهنة في السودان ، بل ان هذا المشروع
يهد لفصل السودان عن مصر .

استقال اسماعيل صدق بعد اخفاق مشروع المعاهدة ، وخلفه محمود فهمي النقراشي ،
واستأنف المفاوضات مع السفير البريطاني في مصر ، ولم تجد هذه المفاوضات شيئاً ،
وقررت الحكومة المصرية عرض القضية على مجلس الأمن ، والمطالبة بإجلاء القوات
البريطانية عن مصر والسودان وانهاء النظام الإداري القائم بالسودان ، لأن هذا
كله يتعارض مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة . ولكن المؤامرات الاستعمارية جعلت
مجلس الأمن يمتنع عن الاستجابة لمطالب مصر العادلة ، وترك القضية المصرية
معلقة دون حل حاسم .

وبدأت انجلترا تتخذ خطوات سريعة نحو فصل السودان عن مصر ، وخذعت
السودانيين بإيجاد حكم ذاتي مزيف قوامه انشاء جامعة تشريعية ومجلس تنفيذي
بالسودان .

٢ - كفاح الشعب المصرى من أجل فلسطين العربية :

المغتصب فلسطين العربية :

كان يطلق على الجزء الممتد من حدود تركيا شمالا الى حدود مصر جنوبا بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط بلاد الشام حتى سنة ١٩١٦ الى أن جاء الاستعمار الغربى قسمها الى ثلاثة أقسام ، هى : سوريا ، ولبنان ، اللتان كانتا من نصيب فرنسا ، وفلسطين — وقد اعتبرت منطقة (١) دولية وسمى اليهود بما لهم من نفوذ لدى المحافل الدولية — لكي يحموا منها وطنا قوميا لهم . وتذرع اليهود فى سبيل الوصول الى هدفهم بكافة الوسائل والطرق — وجندوا رجالاتهم ورصدوا أموالهم ليحققوا هذه الأمنية وعلى رأسهم المليونير اليهودى روتشيلد صديق الوزراء الانجليز — وقد تمكن من الحصول على وعد منهم بتأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين — وجاء الوعد فى صوره خطاب من مستر بلفور وزير خارجية انجلترا الى روتشيلد فى ٢/١١/١٩١٧ يوفى اليه هذه البشرى ويقول فيه (يبنى جديدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك التصريح التالى الذى ينطوى على المظف على أماني اليهود الصهيونية وقد عرض على الوزارة وأقرته — بأن حكومة جلالة الملك تنظر بعين المظف الى تأسيس وطن للشعب اليهودى فى فلسطين — وستعمل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضر الحقوق المدنية أو الدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى) .

ولم يخرج وعد بلفور المشثوم الى الوجود بناء على سعى اليهود ونفوذهم فحسب وانما جاء بعد موافقة الانجليز ورضائهم عنه وعملوا على تنفيذ وتمكين اليهود من فلسطين . وقد تجلّى ذلك فى جميع خطواتهم ويقول حايم وايزمان أول رئيس لاسرائيل عن مساعدة الانجليز وشعورهم نحو الصهيونية (بينما كنت أنتظر خارج مكتب الوزارة البريطانية أثناء انعقادها لكي تصدق على النص النهائى لوعد بلفور

(٢) اغتاب ما يكرس بكو .

واذا بمستر سايكس يسعى إلى هاتفا : (انه غلام (١) يادكتور وايزمان) يقصد وعد بلفور — وبذلك (أعطى من لا يملك فلسطين لمن لا يستحق) وبعد هذا الوعد بما لا يزيد على ثمانية أشهر وبالتحديد في ٤ يوليو سنة ١٩٤٨ أصدر الرئيس الأمريكي ويلسون تصريحه المعروف ويشمل أربعة مبادئ ، وقرر أن الحلفاء يحاربون لتحقيقها ومن بين هذه المبادئ مبدأ حق تقرير المصير الذي يتضمن (بأن حل المسائل الاقتصادية والسياسية يجب أن يبنى على قبول الناس الذين يتعلق بهم قبولاً حراً لا على المصالح المادية أو لفائدة أى دولة أو أمة أخرى ترغب في حل آخر لنفوذها الخارجى أو لسيادتها) واعتقد العرب أن باباً من الأمل قد فتح عقب صدور هذا التصريح وأنه لن يتاح لليهود لكي يفتصبوا فلسطين طالما أن الحلفاء وضعوا نصب أعينهم تحقيق رغبة الشعوب في تقدير مصيرها ومن أن حل كل مسألة يجب أن يبنى على قبول الناس الذين يتعلق بهم قبولاً حراً ورأى العرب أنه يستحيل استناداً لذلك المبدأ فرض أقلية يهودية تمثل عشرة في المائة من سكان فلسطين وإقامة وطن لهم دون إرادة التسعين في المائة الباقين من المسلمين والمسيحيين أيحوز أن تصور تشريد ما لا يقل عن مليون ونصف مليون عربى من بلادهم وديارهم لكي يتربع عليها ما لا يزيد على مائة وخمسين ألف يهودى . ومع ذلك فقد ضرب الغرب بتصريح ولسون عرض الحائط وما حوى من أهداف ادعوا أنهم حاربوا من أجل تحقيقها — فنقب انتصار الحلفاء في الحرب العظمى الأولى على ألمانيا أصدروا قراراً في ٢٠/٤/١٩٢٠ بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى بعد أن ظلت أربعة أعوام منطقة دولية . وعينت بريطانيا هربت صمويل اليهودى مندوباً سامياً لها في فلسطين . ليحقق أمل الصهيونية العالمية ليضع وعد بلفور موضع التنفيذ . وقام يعلن هذا الأخير سياسته في البلاد في صراحة ودون خجل وقال : (ان سياسة حكومة جلالة الملك التى جاء لتطبيقها هى تشجيع اليهود الى أن تصبح السيطرة لهم على البلاد — ويمكن انشاء حكومة يهودية) وعلى أثر ذلك تدفقت

(١) من كتاب التجربة والخطأ لحايم وايزمان .

افراج اليهود من كافة أنحاء العالم على فلسطين حتى وصل عددهم في سنة ١٩٤٥ الى نصف مليون مهاجر .

وفي أوائل سنة ١٩٤٧ أصدرت هيئة الأمم المتحدة قراراً بتقسيم فلسطين وإقامة دولتين فيها أحدهما عربية والأخرى يهودية ورفض الجابان اليهودي والعربي هذا القرار وعندئذ وطبقا للخطة التي وضعها الغرب قررت انجلترا أنها لن تنفذ قرار التقسيم بالقوة وإنما ستسحب قواتها من فلسطين في يوم ١٤/٥/١٩٤٨ وقد أصدرت هذا القرار بعد أن اطمانت على قوة اليهود وبعد أن أصبح عددهم يزيد على المليون شخص كلهم مقاتلون مارسوا الحرب في ألمانيا وفرنسا وبولندا وغيرها .

وهكذا شاء الاستعمار الغربي أن يعطي فلسطين لقمة سائغة لليهود مهددا كل القيم الانسانية والسيادية بها .

التفصال الشعبي في فلسطين .

عقب صدور قرار التقسيم في سنة ١٩٤٧ تكومت في جبل الجليل بفلسطين نواة من الفدائيين بقيادة الشهيد البطل عبد القادر الحسيني سميت بقوات الجهاد المقدس وكان لها شعب في القدس وحيفا والناصره وحنين وغيرها من البلاد ، وعلى أثر تكوينها التحمت في معارك كثيرة مع اليهود وكادت الغلبة في كثير منها للفدائيين العرب وحتى الممارك القليلة التي رجعت فيها كفة اليهود كانت بسبب تدخل الانجليز ومساعدتهم لليهود وكانوا يتدخلون كلما لاحتملهم بؤادر المزعجة كما حدث في واقعة بيت صفافا وهي قرية هامة تقع جنوب القدس مباشرة وتكاد تعتبر من ضمن أحيائها وهي قائمة على تل مطل على سكة حديد تربط بين القدس ويافا وتل أبيب ، ومن يمين عليها يؤمن الطريق بين هذه المدن الثلاث فضلا عن أنها موقع استراتيجي غاية في الأهمية فقد حدث أنه عندما اشتبك اليهود والفدائيون العرب في هذه القرية أن تدخلت القوات الانجليزية وأرقت القتال وتمهت للعرب على لسان قائدهم

الكولونيل هاربر بأنها لن تسمح لليهود بدخولها أو تسليمها لهم واطمان العرب للوعد البريطاني ولكن ما حدث كان يناقض هذا الوعد فقد غدر الانجليز كمادتهم وخانوا العهد الذي قطعوه للعرب وأخذوا المدينة بعد سبعة أيام فقط من الوعد وسلبوا القرية لليهود الذين استولوا عليها بعد أن نسفوا الكثير من المنازل بمن فيها من الأهالي العزل وقد تمكن اليهود بعد استيلائهم على هذه القرية من السيطرة على القطاع الجنوبي بأكمله ، هذا مثل من الأمثلة العديدة على خيانة الانجليز ومآلاتهم لليهود .

ومن العراق دخل فلسطين بعض الفدائيين بقيادة فوزى القاوقجي وعسكر في بلدة جبع بناحية حنين وشاركوا في كثير من المعارك الناجحة منها معركة بيت شوريك التي قتل فيها أكثر من أربعين يهوديا ومعركة كفار عصيون التي غنم فيها العرب كثيرا من الأسلحة والمؤن .

وكانت النفوس ثائرة في مصر تطالب بالتطوع لمحاربة اليهود في فلسطين فأسرع القائممقام الشهيد البطل أحمد عبد العزيز بتكوين كتيبة من الفدائيين سافر بها ليشارك اخوانه العرب في الكفاح ودخلت كتيبة أحمد عبد العزيز فلسطين وبها بعض التشكيل العسكري ، ولقد أبلت هذه الكتيبة بلاء منقطع النظير وشاركت في الكثير من المعارك المجيدة وشعر اليهود بوطأة الفدائيين المصريين فبدأوا يستجدون بالانجليز ، وقد ساهمت كتيبة أحمد عبد العزيز بالجانب الأكبر في معركة صور باهر وهي قرية جنوب القدس عندما هاجم اليهود ساحة الحرم وأطلقوا النار على المصلين ونسفوا المنازل القائمة بأطراف القرية كما هاجمت الكتيبة المصرية اليهود المعسكرين في تبة الين وأخرجوهم منها بعد أن كبدوهم خسائر كبيرة .

كما أبل الفدائيون المصريون في بيت لحم ورأس جالا والصليب وعند العنطور بلاء رائعا .

وقد استشهد البطل أحمد عبد العزيز بعد جهاد طويل مرير في موقعة عراق

المنشية في يوم ٢٢/٨/١٩٤٨ وتولى القيادة بعده محمد علي فكرى وعبد الجواد طباله وسيف اليزل وكان المصريون في كفاحهم مثالا للفداء والتضحية .

كما أسهم الفدائيون السوريون بنصيب كبير في مقاومة المصائب الصهيونية ودحروهم في مواقع عديدة بالحى القديم وفي القسطل والقطمون .

وكانت هناك في فلسطين جماعات أخرى من شباب الأردن ولبنان والسعودية تحاول انقاذ فلسطين بحوار الوطنيين من شباب مصر وسوريا والعراق وفلسطين ، ولكنها فشلت لأسباب خارجة عن ارادتها كما فشلت جيوش الدول العربية مجتمعة عندما دخلت فلسطين بعد ذلك أما اليهود فانهم عندما رأوا تكتل شباب الدول العربية — سارعوا الى تنظيم صفوفهم وجلبوا أحدث الأسلحة من إنجلترا وفرنسا وسلموا قيادتهم الى قواد مهرة ذو خبرة ودراية مارسوا فن الحرب عمليا في الحرب العظمى وكون اليهود جمعياتهم الارهابية والحربية على أحدث الطرق وأدقها وفي سرية تامة ولطالما سمعنا عن حميات شتيران والمهاجاناه والبالماخ والارغون تسأى لثوى ورأينا كيف انضوى تحت لوائها شباب اليهود من جميع أرجاء العالم ووطنوا العزم على الرغم من قتلهم على احرازالنصر ، كل ذلك بمعاونة الانجليز لهم فاحتلوا القسطل ذات الموقع الهام في طريق القدس بعد معارك دامية قتل فيها كثير من الطرفين ، كما استشهد في هذه المعركة البطل عبد القادر الحسينى الذى كان في الشام يستحث رجالات العرب كي يمدوا يد المساعدة لفلسطين والفدائيين الذى يدافعون عنها وكان مجتمعها ببلدة القادسية في ذلك الوقت الحاج أمين الحسينى وعبد الرحمن عزام ورياض الصلح واللواء اسماعيل صفوت وغيرهم . ولما جاءت الانباء بمحاصرة اليهود لبلدة القسطل ورأى عدم جدوى ضياخ الوقت مع قادة العرب الذين كانوا يبحثون طريقة انقاذ فلسطين على الورق عاد على الفور ليقود كتيبته . وقد تمكن ومن معه من طرد اليهود من القسطل وعند مشارف البلدة استشهد برصاص اليهود وكان لموته وقع أليم في نفس المحاربين . والشهيد عبد القادر الحسينى ولد في استانبول وتخرج في الكلية الأمريكية بالقاهرة وشاهد اضطهاد الانجليز واليهود للعرب عندما

كان أبوه رئيسا لبلدية القدس ورأى بعيني رأسه ما كانوا يقتربونه من جرائم في حق مواطنيه فكرم فكرها شديدا وعزم على أن يسهم في المعارك التي كانت تدور وقتئذ وخاض ، بجوار والده الكثير منها حتى لمع اسمه ومضى الانجليز جاهدين للقبض عليه ولكنه تمكن من السفر الى العراق والتحق بالكلية الحربية ببغداد وتخرج منها برتبة ضابط واشترك في ثورة علي الكيلاني ضد الانجليز سنة ١٩٤١ وعندما فشلت الثورة اعتقله الانجليز وظل مسجوناً في سجون بغداد والعمارة ما يقرب من أربع سنوات ، سافر بعدها الى وطنه فلسطين ليواجه شراذم اليهود ومؤامرات الانجليز حتى استشهد في معركة القسطل بعد أن انفق كل ثروته التي تركها له والده وكانت كبيرة على حركة التضال . وكان رحمه الله يفيض غيرة وحماسة ويتعجب من مواقف رجال العرب من فلسطين — حدث عندما طالبهم بمد الجاهدين بالسلاح عقب سقوط القسطل أن وجد منهم تواكلا يشير الدهشة — ويقول عارف العارف في كتاب النكبة . وبدلاً من أن تعطيه اللجنة ما يريد من سلاح قال له اسماعيل صفوت باشا رئيس اللجنة العسكرية . (ما قد سقطت القسطل وعليك أن تسترجعها يا عبد القادر ، وإذا كنت عاجز عن استرجاعها فقل لنا لتعدي هذه المهمة الى القاوقجي) فتعجب عبد القادر وأجابته (القسطل يا باشا مأخوذة من كلة Castle ومعناها الحصن وليس من السهل فتح الحصن بالبنادق الايطالية والتخار القليلة ، التي بين أيدينا ، واليهود أصبحوا يملكون المدافع والطائرات) .

فقال له الباشا (شونو عبد القادر ؟ ما أكو مدافع ، أي ليس معكم . مدافع . وعندئذ استشاط عبد القادر غيظاً وألقى بالمخارطة التي كانت معه في وجه الباشا وزملائه ، وقال لهم بصوت مسموع أتم غائتون ، سيسجل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين — ساحتل القسطل وأموت أنا وجميع اخواني المجاهدين) . وعاد عبد القادر ليحتل القسطل كما قال ، واستشهد كما أراد وكما أرادت له القيادة العربية . وعندما مرى خبر استشهاد عبد القادر بين زملائه تركوا موافقهم بالقسطل ليشاركوا في تشييع جنازته — واستغل اليهود الموقف وكروا على من بقى فيه وأجلوهم عنه —

ثم احتلوا بعد ذلك قرية دير ياسين واقترفوا فيها من الجرائم ما تقشعر له الأبدان، فبعد أن دخلوها واستتب مقامهم بها ذبحوا ثلث أهلها أى حوالى ٢٥٠ شخصا من بينهم ٢٥ امرأة حبلى و ٥٢ طفلا قطعت أيديهم وأرجلهم أمام ذويهم الذين اجتزت رؤوسهم هم أيضا ومثل بها ، ويروى مناحم ييجين رئيس الأرجون عن معركة دير ياسين فيقول (لقد سيطر العرب على عرب امرائيل نتيجة لمذبحة دير ياسين - وفي أنحاء القطر ابتداء العرب يفرون هلعاً قبل الاصطدام بالقوات اليهودية - ليس بسبب ما حدث لدير ياسين بل لما حيك حول دير ياسين من دعاية ساعدتنا على ان نشق طريقنا الى المعارك الفاصلة في الميدان) ، وتوالى سقوط القرى والمدن العربية في يد اليهود الواحدة بعد الأخرى فسقطت طبريا التي فتحتها سلاح الدين والقطمون وصفدو يسان وكفار عصيون ويافا وغيرها - حدث كل ذلك والنزول العربية تشاهد هذه المأساة - مكتوفة اليدين - تهز كتيفها وكان شيئا بما يجرى لا يعنيتها .

الدول العربية تتحرك

ولم يكن أمام الدول العربية الا أن تدخل فلسطين لتحارب بجانب المتطوعين العرب الذين كانوا يحاربون وحدهم شرادى اليهود وقوات بريطانيا ، فدخلتها في ١٥/٥/١٩٤٨ دون سلاح وبذخيرة فاسدة وبلا تدريب أو تنسيق أو مقاومة أو خطة حتى ان بعض رؤساء الوزارات لم يكونوا على علم بقرار الحرب - وكان النجاشي رئيس حكومة مصر أحد الرؤساء الذين عرفوا ذلك من الصحف التي خرجت تحمل أنباء الحرب ولم يكن على علم بها وقد صرح بذلك لبعض أعضاء وزارته حتى أنه فكر في الاستقالة - الا أنه رأى أن الاستقالة في هذا الوقت تعتبر طعنة للجيش وهو في الميدان وقال لزميل له انه لا يريد أن يقف موقف النحاس عندما هاجمه وهو يدافع عن قضية البلاد أمام مجلس الأمن عندما أرسل برقيته المعروفة للانجليز يقول لهم فيها : ولا تصدقوا النجاشي..

انه لا يمثل الشعب ، ثم يعان التفرأش على ذلك بقوله : « ومع ذلك فهناك فارق كبير بين الموقفين » .

الخطأ وخيانات

ودخلت الجيوش العربية فلسطين فاستولى الجيش اللبناني على النافورة والزبت ونهاريا — كما استولى الجيش السوري على مدينتي سمح وصفد والجيش العراقي على حنين وطولكرم وقلقيلة .

أما الجيش المصري فقد تفرع الى فرعين : الأول سار بمحاذاة الساحل فاحتل غزة والمجدل وأسدود على بعد ٢٩ كيلومترا من تل أبيب . وأما الجزء الثاني من الجيش المصري فقد توغل داخل فلسطين نحو بيرسبع والخليل وبيت لحم حتى وصل القدس . وكان سلاح الطيران المصري يضرب المدن اليهودية وتل أبيب ضربا محكما ويملك حصونها ، وحارب جنودنا وضباطنا ببسالة في ظروف غاية في القوة وبدأ أن ساعة الصفر قد اقتربت — وأن يوم تحرير فلسطين قد جاء — فضلا عن نقص السلاح وفساده ووقوف الدول الاستعمارية في جانب اسرائيل ، وتلاقى الجيش المصري مع الجيش الاردني بعد ان استولى الأخير على القدس ورام الله والد والرملة واقترب الجيشان من تل أبيب حتى لم يعد يبعدان عنها سوى ثمان كيلوا مترات ، وهنا ظهرت الخيانة ماهرة في موقف الجيش الأردني ، ذلك أنه عندما أعلنت الحرب تولى الملك عبد الله ملك الأردن القيادة العليا للجيوش العربية وترك زمام الأمر كله في يد قائد الجيوش الأردني جون جلوب باشا الانجليزي الذي كان يتلقى أوامره من لندن وأساسا وبذلك أصبحت الجيوش العربية في يد الانجليز واليهود ، ولذلك — تلكا جلوب في احتلال القدس ليتمكن اليهود من احتلالها فهو يتلقى الأوامر من انجلترا لامن الدول العربية . وانجلترا بطبيعة الحال لم تكن تسمح للجيوش العربية بالانتصار على اليهود ، ثم انسحب جلوب من اللد والرملة حتى يتيح الفرصة لليهود لاحتلالها ، كما وضع جلوب هذا الجيش العراقي في مركز دقيق عندما أمره بالتوجه الى منطقة محصنة تحصينا قويا . فتكبد بذلك خسائر كبيرة كل هذا كان متوقفا ما دامت القيادة في أيدي الانجليز .

مأساة شعب وخيانة ملك

ساعد الانجليز اليهود بكل الطرق — حتى طريق الخيانة لجأوا اليه وسخروا له
جلوب الانجليز القائد العام للقوات العربية في فلسطين لتحقيق أغراضهم .

ولم تكن خيانة جلوب في فلسطين وحدها السبب في النكبة وإنما هناك خيانة
أخرى كانت تدبر في مصر ضد جيش مصر . وكان بطلها الملك السابق فاروق .
فقد وضع بعد أن سافر الجيش المصري الى فلسطين أنه لم يكن يملك السلاح
ولا الذخيرة اللازمة لحرب طويلة . وهنا وجد الملك وحاشيته الفرصة سانحة
للاتجار في السلاح والذخيرة وبدأت الحاشية تجمع القنابل والذخيرة من الصحراء
العربية وتصنع الخوذات الحربية وتوردها لجنودنا وضباطنا في الميدان وتدقت
الملايين الى جيوب صاحب الجلالة ومن معه في الوقت الذي سقط الشهداء بالمتات .
لأن هذه الأسلحة وتلك الذخيرة التي وردها الملك لجنوده كانت أسلحة فاسدة .

الأسلحة الفاسدة :

عندما وصل الأمر الى هذا الموقف — لم يكن هناك يد من وضع حد لهذه
الحرب الفاشلة التي أحاطتها الخيانة من كل جانب — وخاصة وبعد أن اعترفت
أمريكا بإسرائيل في ٢٤/٥/١٩٤٨ وبعد أن اجتمع مجلس الأمن وأمر بوقف
القتال وعقد الهدنة .

ففي يوم الجمعة الموافق ٢٩/٥/١٩٤٨ (١) عقدت الهدنة بعد ١٤ يوما فقط من
دخول الجيوش العربية فلسطين لتحريرها وعاد جنودها وضباطنا من فلسطين
متهنين بالجراح ، وكانت قد سبقتهم بمدة طويلة — اشاعة فساد الأسلحة —
والقنابل التي تنفجر قبل القائها فتصيب الصديق قبل العدو والأسلحة التي لا تصلح
للحرب ولا ينطلق منها الرصاص وإنما ترتد اتردى مصوبها ، وكأنه هو الهدف
المقصود وكثر الخط وتزايد الحس حول الملك وحاشيته من أنهم يتاجرون في

(١) توقت القتال رسميا ل ٧ يناير سنة ١٩٤٩ .

السلاح ويرسلونه فاسداً الى رجالنا في خطوط القتال فيصابون بها لا برصاص العدو . ويسقطون صرعى الحياة والغدر والجشع . وخرج الحديث من رجل الشارع الى الصحف والى البرلمان ، وبذلك أصبحت المسألة اتهاماً صريحاً موجهاً مباشراً الى الملك ، ومطالب الرأي العام بالتحقيق عن المشول أو المشولين عن هذه الجريمة . فكيف تكشف حقيقة الأسلحة الفاسدة ؟ وكيف سار التحقيق فيها وما هو دور الملك في هذه القضية وما المصير الذى آلت اليه ؟ هذا ما سوف تكشف عنه الصفحات التالية . وان كانت بحكمة الثورة قد أوضحت بما لا مزيد عليه ولكنى أجداً استكمالاً لهذا البحث أن أتناوله بإيجاز لا أوضح أثر الأسلحة الفاسدة على رجال التشكيل وما نتج عنها من آثار هامة غيرت تاريخ مصر وأطاحت بالنظام القائم بها بأكمله .

استجواب ومقال :

بدأت فضيحة الأسلحة الفاسدة في الظهور الى المحافل السياسية على أثر استجواب في مجلس الشيوخ ومقال في مجلة روز اليوسف .

أما الاستجواب فقد تقدم به الأستاذ مصطفى مرعى الحامى وكان عضواً في مجلس الشيوخ الى رئيس المجلس في ٢٩/٥/١٩٥٠ وهذا نصه :

« أتشرف بأن أنهى اليكم أنى أريد أن استجوب حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة في تصرفات بدت من الحكومة كان لها أثرها في استقالة الرئيس (السابق لديوان المحاسبة) ، »

والاستجواب وان كان ظاهراً البراءة إلا أنه كان يعنى أموراً غاية في الخطورة، فالمعروف أن رئيس ديوان المحاسبة كان قد استقال استقالة غير مسببة لمخالفات مالية ارتكبها رجال الحاشية وكانت هذه الأمور قد بدأت تنتشر في جميع أرجاء البلاد ، ولكن أحداً لم يكن يجرؤ على التحدث عنها خوفاً من بطش الملك وغضب وزارة التعاضد التي كانت تغترف من خزائن الدولة لتتلق على الحامى والافارب.

وأفاقت حكومة النحاس على صوت مصطفى مرعى يدوى فى أرجاء المجلس أثناء مناقشة استجوابه . قائلاً : « ان هذه أمور يشيب من هولها الوليد — نحن الآن فى حالة حرب قانوناً — فكيف نسكت على أن نقدم لرجال الجيش الذين يقاتلون ذخيرة عفنة — ويعلم ذلك المسئولون هنا — حتى يبدو أن هناك مؤامرة مدبرة لتعطيل جهودنا الحربية » ثم لمح فى كلامه عن الملك السابق عندما ذكر « ان واجب الولاء للجالس على العرش نفسه وواجب الولاء للبلد التى تطمع فى أن ترى قوايينها تسود الكافة لا تسود فرداً دون فرد أن تبين الأمر ويلزمنا أن نصارحهم بأن التصفيق للجريمة لا يبنى كونها جريمة وأن الاعجاب بالمجرم يؤثم المعجب ولا يبرىء المجرم . »

وامتز مجلس الشيوخ اهتزازاً عنيفاً كما قال فؤاد مراح الدين على أثر القاء هذا الاستجواب ، كما ارتفعت فرائص الملك وحاشيته — خوفاً من ظهور الحقيقة ، وتلفت عن مخرج ينتقم فيه من مقدم الاستجواب وعبذيه ، ولما لم يجد أقدم على انتهاك الدستور — وما أكثر ما كان ينتهك — فاستصدر فى ١٧/٦/١٩٥٠ ثلاثة مراسيم بزوال عضويتهم وطردهم من المجلس وكان من بينهم الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ .

هذا ما كان من أمر الاستجواب . .

وأما المقال — فقد كتبه الأستاذ احسان عبد القدوس فى مجلة روز اليوسف فى صدها الصادر بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٩٥٠ وتعرض فيه الى أن الأسلحة التى ترسل الى فلسطين فاسدة وقد علم ذلك من بعض الضباط العائدين فى أجازات وأن بعضهم قد أصيب نتيجة استعمالها وثمة شخصيات هامة وخطيرة فى الجيش والقصر تاجر فى أرواح الجنود ابتغاء الكسب غير المشروع والثراء العاجل .

ولم يكن من الممكن أن تسكت حكومة النحاس على هذه الجرائم التى ترتكب أمام بصرها وعلى أرواح رجال الجيش وهى تحتفلت هتافاً وهم يخاربون العدو فى الميدان .

فأبلغ وزير الحرية مصطفى نصرت النائب العام محمود عزى بأجراء التحقيق في موضوع الأسلحة ، وبأثر رجال النيابة التحقيق في ٢٠/٦/١٩٥٠ ، وتكشف التحقيق عن أمور مشينة وجرائم دنيئة دمغت الملك ورجال القصر وألصقت بهم التهم التي كان الشعب يهمس بها في الشوارع والمنازل والمنتديات .

واتضح أن الجيش ما كاد يدخل فلسطين حتى بث الملك رجاله وسماسته في كل ناحية يجمعون السلاح ويتجرون فيه . ابتغاء السكسب الحرام الخضب بالدماء وعلى أشلاء جثث الضحايا . ووضعت النيابة يدها على الأدلة التي تدين الملك وحاشيته وهم : أحمد بدرالياور الخاص له ، وعبد الغفار عثمان مدير متحف السراي وأدمون جهلان مدير حسابات السراي وحسن عاكف قائد طائرته الخاصة وحلي حسين مدير الركائب الملكية وبوللى السكرتير الخاص وعباس حلیم وهو من الأسيرة المالكة السابقة.

أما عبد الغفار عثمان فقد أرسله الملك الى ايطاليا وتعاقد مع شركة تدعى شركة كونستر كزيوني ميكانيكا على صنع مائتين وخمسين ألف قنبلة بسعر ٧٥ قرشا للقنبلة وتسليمها المتهم دون فحص وبسعر يزيد عن مثيلاتها بأكثر من النصف إذ أنها لا تساوى أكثر من ٣٠ قرشا وبديهي أن الفرق في السعر دخل جيب صاحب الجلالة مع باقي أفراد الحاشية .

ولم تكن هذه القنابل مرتفعة السعر فحسب وإنما كان أكثرها غير صالح وبه عيوب يجعل من الخطورة استعمالها .

وكان اليهود يعلمون سر هذه القنبلة ويسرون عندما كان الضباط المصريون يطلقونها — وحدث في موقعة رفح في يوم ٤ يناير ١٩٤٩ ولم يكن لدى الجيش المصرى من الأسلحة سوى هذه القنابل المشنومة فاضطر لاستعمالها وألقى منها الكثير على اليهود ولكن للأسف لم ينفجر منها سوى القليل — وحتى تلك التي انفجرت لم يكن لها أى أثر يذكر حتى أن اليهود كانوا يتصايحون متكلمين . وادم يامصرى من ده كان اء ، وكانتا كنا نلقى عليهم لفاقات الحلى أو باقات الزهور ، وهزم

المصريون في رفح وقبض وأسر بعضهم وامتشهد بعض آخر ، لا برصاص العدو وإنما بالقنابل والأسلحة التي كان يوردها الخائن عبد الغفار عثمان وأدمون جهلان وغيرهما من سماسة الملك .

وكا حدث في موقعة رفح حدث في غيرها من المواقع — وتسببت هذه القنابل في أسر وقتل الكثير من المصريين في موقعة العوجة التي وقعت في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٨ وكانت بعض القنابل تنفجر في أيدي الضباط المصريين وقبل القائها وإنما كانت تنطلق إلى الخلف لا إلى الأمام، وقد كان أثر هذه الأسلحة الفاسدة على رجال الجيش وهم يحاربون في فلسطين سيئا إلى أبعد الحدود . وقد شعر الجنود والضباط — بعد أن تكشفت لهم الأمور ببعض الشيء ولاحت بوادر الخيانة — أنهم قد وقعوا في السمين الذي أعد لهم وأنهم وقعوا في هوة سحيقة لا فرار لها ، وكانوا يتصورون أي شيء إلا أن يدمم المسئولون بأسلحة فاسدة ، بندقية لا تنطلق أو قنبلة لا تنفجر أو تنفجر بلا سبب أو رابط أو ميماد ، لتصيب حاملها قبل أن تصيب الهدف، ولا أجد أصدق من شعور جمال عبد الباصر في هذا المقام عندما حوصر بالفالوجة وهو وباقي فرقتهم قوله «هاتن هنا في هذه الجحور محاصرين — لقد غرر بنا دفننا إلى معركة لم تعد لها — لقد لعبت بأقدارنا مطاعم ومؤامرات وشهوات وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح ، .

ضع نفسك مكان الصاغ أحمد مختار السوق الذي كان يحارب في رفح في يوم ٤ يناير سنة ١٩٤٩ واستمع إليه وهو يقول يصف هذه المعركة : « حدث هجوم نهاري يوم ٤ يناير سنة ١٩٤٩ وكان هذا الهجوم بمصفحات ودبابات تلقاها اليهود من المساعدات الخارجية واستطعنا بما لدينا وكان عندنا مدفع واحد ان نصد الهجوم النهاري وفي الليل هجم علينا اليهود كما توقعنا وكان ساعتها ليلة عاصفة وظلام حالك والأسلحة الصغيرة كانت تتعطل من الرمال ولم يكن أمامنا غير القنابل اليدوية وكانت جديدة وكنا عاملين اعتادنا عليها — ولما شغنا اليهود جاين فاليزباشي فراج وأنا والعساكر كلنا معنا القنابل فقللناها فدمشنا لأن

بعضها لم انفجر وبعدين سمعنا لنظم من اليهود يقولون : « احذف كان يامصرى ا ،
« سلم يامصرى ا ، واحنا استمرينا فى قلف القنابل وكانت عديعة الفائدة وقبلة
انفجرت فى يدى ، واليهود لما شعروا بفساد اسلحتنا اقتحموا الموقع وأنا نقلت
الى المستشفى .

واستمع معى الى قائد معركة العوجة الصاغ فتحى رمضان عندما استعمل هذه
القنابل اذ يقول : « استخدمنا القنابل فى معركة العوجة فى يومى ٢٦ و ٢٧ ديسمبر
بعد انتهاء الجبخانه واليهود اثناء تقدمهم رمينا عليهم القنابل ولسكنها لم تنفجر
واستمروا فى التقدم ، .

ما هو موقف ضابط الجيش وما هو شعوره وهو يشاهد جنوده وزملاءه
يستشهدون ويؤسرون بسبب أسلحة زودوهم بها رؤسائهم فى مصر — ما هو شعور
الضابط الذى يصاب بالقنبلة التى كان يحملها معتقدا أنها الدرع الذى يحميه فيجدها
تنفجر فيه ثم ينقل الى المستشفى من أثر الانفجار لا بسبب رصاص العدو ؟؟ .

ويروى احسان عبد القدوس فى مقاله المؤرخ فى ٦ يونيو سنة ١٩٥٠
عن الأسلحة الفاسدة فيقول : « وأذكر أننى سألت المرحوم القاضى مقام أحمد عبد
العزيز قائد الكوماندوز فى حرب فلسطين عن اليوم الذى لا ينساها من أيام القتال ،
فأجابنى ، والدموع تملأ عينيه — أنى لا أستطيع أن أنسى يوم كان الباشجاويش
يطلق مدفعه على مواقع العدو وقد وقف من حوله طاقم المدفع من الجنود ، فاذا
باحدى القنابل تنفجر الى الوراء لتحطم المدفع وتقتل الباشجاويش . وجميع رجاله
فيخرون صرعى فوق حطام المدفع وابتسامه الاشتهاد تنوء وجوههم ، .

ومع ذلك فقد ظل ضباطنا وجنودنا يحاربون العدو بشجاعة منقطعة النظير .
وفى هذه الظروف المعصيبة ، وعلى الرغم من تآزر قوى الشر والخيانة من الداخل
والخارج ، بعد قرار مجلس الأمن بوقف القتال وعقد الهدنة بأكثر من أربعة
شهور .

هذه هي القنابل التي تناقد عليها عبد الغفار عثمان بدون وازع من ضمير — ولا عجب فقد كانت حياته كذلك ضرباً من الخيانة والفساد . وفيما يلي نبذة عن حياته كما جاءت بمحاكمات الثورة .. ، عندما أراد ازواج بحث بادیء الأمر عن احصى الانجليزيات ليتخذ منها زوجة وبعد طول تنقيب راقى له احدى الموظفات اللاتي ترسلن انجلترا الى البلاد المحتلة كي يعملن بها كموظفات وكجاسوسات في نفس الوقت وتزوج عبد الغفار عثمان الضابط بالجيش المصرى بالانجليزية فيوليت الموظفة في قسم الامدادات والتعويضات بالجيش الانجليزى — ولم يكن يملك سوى مرتبه لانه لم يرث عن والده شيئاً — ورشعته هذه الزيجه لان يعمل في السراى كدير للتحف ولما قامت حرب فلسطين تهايت له والسراى الفرصة الذهبية للاثراء فتاجر في ارواح الضحايا — وتدفقت الاموال من كل جانب حتى بلغ رصيده وحده في البنوك في مدة تقل عن سنة مبلغ ٣٦ ألف جنيه واقتنى الاراضى والعقارات وركبت فيوليت الانجليزية السيارات الفاخرة — وسكنت بحى الزمالك بعد أن كانت تقيم في حى السيدة زينب وأصبحت من سيدات المجتمع اللاتي يشار اليهن بالبنان بصفتها احدى نجومه وزوجه الضابط المسيطر على امدادات الجيش المصرى وحياة ضباطه وجنوده .

هذه عينة من ضباط الملك وسمايرته الذين أطلقهم ليعيشوا في الارض فساداً وليجمعوا له المال من كل جهة وبأى وسيلة . فهل كان عبد الغفار عثمان وحده في هذا المضمار ؟؟ أيتحمل بمفرده وزر الجرائم الشنيعة التي ارتكبت في حق البلاد والجيش ؟؟ كلا كان معه باقى أفراد الحاشية وعلى رأسهم المدير والمستشر الاكبر الملك فاروق .. فبينما كان عبد الغفار عثمان يقوم بعقد صفقات القنابل التالفة من شركة سكوزيونى ميكانيكا من ايطاليا والمدافع الاسبانية عن طريق شركة أورليكون السويسرية بزيورخ . كان هناك عملاء آخرون للملك يوردون الدمار والهلاك للجيش المصرى الذى يحارب عصابات اليهود في فلسطين ، فأرسل فاروق من يدعى آدمون جهلان وهو يهودى الجنسية وكان يعمل كرئيس حسابات للصروفات والايرادات الخاصة للملك — الى الصحراء الشرقية حيث تراكمت ملايين القنابل الايطالية.

المختلفة من الحرب وبدأ في جمعها لبيعها الى الجيش المصرى الذى أرسلها بدوره الى الجبهة — ٢ مليون قنبلة فاسدة لاتساوى ثمن حملها تباع بمئات الألوف من الجنيهات. ولتساعد العدو فى الحاق الهزيمة بالجيش المصرى . أهو طمع أم خيانة أم كل هذه الموبقات مجتمعة ثبت بعد ذلك أثناء التفتيش أن وجدت عقود محررة بين أدمون جهلان وشخص يدعى كوهين وهو يهودى كذلك . على توريد مهمات باسم الملك ، وداثما الملك قاسم مشترك أعظم فى جميع الصفقات .

تصور راعى الى أى مدى بلغت الخيانة — يهودى يورد الذخيرة الى الجيش المصرى الذى يحارب أهله اليهود فى فلسطين .

وكانت أسماء أدمون جهلان وكوهين وبوللى ومحمد حسن الخادم وحليم حسين السائق والنزيل عباس حليم الى آخر قائمة حاشية الملك هى التى كانت تنشر الفساد والانحلال وتعاون مع العدو لتضرب الجيش فى الظهر وهو فى الميدان ، هذه الحاشية وتلك القائمة هى التى كانت تحكم مصر فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها .

دوفيل واكس لبيان:

الموائد معقودة والكؤوس مرصوفة - والغايات من كل لون يجلسن في شبه حلقة - وأوراق اللعب تختلط مع أوراق البنكوت والضحكات المخمورة تردد عداها القاعة الفاخرة التي يجتمع فيها الملك مع أمواته ومبازله . لقد كان الملك وهو قائد الجيش الأعلى يلهو في دوفيل (١) . كما كان رئيس وزراء ثم مصطفى النحاس يصطاف في اكس لبيان - في الوقت الذي كان فيه الجنود والضباط يستشهدون في فلسطين ، الألوف تجمع هنا من حملة الأسلحة والقنابل الفاسدة ترسل هناك الى الملك في دوفيل وتبعثر ذات اليمين وذات اليسار على موائد القمار وتحت أقدام الغواني .

أيحوز أن نسمع الى براءة الملك من هذه الصفقات المأبونة ؟ كما كان يذيع رجال حاشيته ؟ وهل يصح أن نوجه الاتهام الى رجال الحاشية دون الملك ؟ .

كثيرا ما حاول رجال المراسي دفع الاتهام عنه دون جدوى ، فقد كانت جميع الأنظار تتجه اليه - واليه وحده . حتى أصبح الشك حقيقة - وظهرت الجريمة سافرة تعلن عن نفسها . فقد ثبت من التحقيقات التي أجراها محمود عزمي النائب العام عندما أراد أن يتحقق من الأموال التي أودعت البنوك في فترة حرب فلسطين بأسماء رجال الحاشية من شركات أجنبية وخاصة التي تتجر في السلاح واتضح أن هناك مبالغ كبيرة أودعتها شركات الأسلحة البلجيكية باسم الملك في البنك الأهلي ، كما أن مبالغ أخرى تزيد على ١٥٠ ألف جنيه أودعت البنك البلجيكي في ١٥/٩/١٩٤٨ باسم الملك نتيجة عمليات بيع الأسلحة الفاسدة ، وعندما تعاقد عباس سليم على توريد المدافع الألمانية في ٦/٤/١٩٤٩ أودع النيل السابق باسم الملك مبلغ ١٠٠ ألف جنيه لموافقة على تمام هذه الصفقة . هكذا أدين الملك السابق في صفقات

(١) توفي فاروق الملك السابق في ملهى ليلي بإيطاليا أثناء إحدى جولاته المأبونة في ليله

١٨ مارس سنة ١٩٦٥ .

الأسلحة وانكشف ما حاولوا إخفائه . ومع هذا فلم تزل هناك خبايا في كثير من الزوايا .

قرارات هامة .

ذلك أنه عندما وضع أن أدمون جهلان مدير حسابات الملك هو الوسيط في شراء الأسلحة البلجيكية، وأن الشركة أودعت قيمة العمولة بالبنك لحساب الملك، أمرت النيابة بالقبض على أدمون جهلان ، وبفتيش منزله ومكتبه . وعلى الرغم من أن أمر التفتيش كان سرىا إلا أن وزير الداخلية (١) استدعى النائب العام ثاني يوم صدور هذا الأمر أى في يوم ١٠/٩/١٩٥٠ وأبلغه أن الملك يطلب عدم اجراء التفتيش . لأن بخزائن أدمون جهلان أوراقا للملك وعلى النيابة أن تنتظر حتى يحضر أدمون من دوفيل وتفتح الخزائن بوجوده وبحضور نقيب سالم مدير الخامة بالنيابة . وبعد أسبوعين حضر جهلان وكان أمر القبض قد أخطر لجميع الجهات المسؤولة بما فيها المطارات ، وكان المفروض أن يقبض عليه بمجرد نزوله من الطائرة ويسلم للنيابة لاجراء التحقيق ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل فإذا تم في أمر القبض ؟ وما هو دور وزارة الداخلية المكلفة بذلك ؟ .

وصل أدمون جهلان في مساء يوم ٢٦/٩/١٩٥٠ ، وكانت تنتظره عربة من عربات السرايا الحمراء الفاخرة وبها بعض رجال الحاشية وتحت أنظار رجال البوليس خرجت السيارة من مطار فاروق الدولى . واتجهت الى مكتب أدمون جهلان وفتحت الخزائن ومرتق المستندات الباقية التي تدين الملك وحاشيته ثم توجه أدمون الى باقى الأماكن والمخابىء التي يخفون فيها جرائمهم وأحرق جميع الأوراق الهامة التي تفيد التحقيق .

والى هنا كانت مهمة أدمون جهلان قد انتهت فعاد الى دوفيل يزف البشرى الى سيده — وكان شيئا لم يحدث .

كيف وقع كل هذا أمام بصر الحكومة ورجال البوليس . ولماذا لم تنفذ أوامر النيابة ويحترم القانون ١٤ .

(١) فؤاد سراج الدين :

هنا يبرز لنا دليل آخر على اذانة الملك ، ان كانت المسألة تحتاج الى دليل آخر ذلك أنه لما كان الثابت أن بخراثن جهلان الوثائق الدامغة على جريمته فقد كان لابد من أن يتصرف الملك بسرعة لاختفائها ، ومن القاعة الحمراء وبين الغواني التقط الملك التليفون ليتصل بوزير الداخلية يمثل الحكومة لينظره بأن جهلان سيحضر الى القاهرة وعلى الوزير أن يسهل له جميع طلباته ويمكنه من الحرب ثانية الى دوفيل بعد أن يفتح الخزائن ويأخذ منها ما يشاء . هكذا سارت الامور — وهرب جهلان وانتصرت الجريمة ولكن الى حين .

تاجر الدواجن :

لم يكتف الملك بكل هذه الاحتياطات وانما سعى جامدا الى ضياع معالم الحقيقة وتشويهها وتبرئة رجال الدراى بما نسب اليهم — واظهارهم بمظهر من اعتدى عليهم بدون وجه حق ، وبعد تفكير رأى أن أقرب طريق الى ذلك هو شراء ذمم رجال النيابة بأن يمنهم بالمناصب الرفيعة والترقيات العاجلة السريعة . لقاء أن يطمسوا معالم القضية ويحفظوا التحقيق .

وفي أمسية من ليالى يناير سنة ١٩٥١ الباردة ، كان يجلس فى محل تاجر الدواجن بميدان العتبة يدعى الشيمى شخصان هاهنا وان كانت طبيعة عملها تجعل من وجودهما معاشيا غير طيبى ، أولهما محمد حسن خادم الملك ، وأمينه الخاص ، وثانيهما محمد كال قاویش رئيس نيابة الصحافة فى ذلك الوقت ، وطلب الأول من الثانى أن يتصل بالنائب العام ليحفظ التحقيق ، وأنه يتحدث باسم الملك وأضاف بأنه يعد بأن يعين القاویش نائبا عاما ومحمود عزمى وزيرا للعدل ، اذا حفظ التحقيق . وتم الاتصال بين القاویش ومحمود عزمى وعرض عليه طلبات الملك .

وتشكك النائب العمومى فى كلام القاویش واستبعد أن يكون موفدا من قبل الملك ، ولكن القاویش جاءه بدليل قاطع يؤكد هذا الاتصال فقد أخبره بأن — راج الدين سيتصل به الساعة السابعة من مساء يوم معين لينبزه برغبة الملك فى حفظ التحقيق وسيردد على منامه نفس الكلام الذى رواه له القاویش — واتصل — راج

الدين بالنائب العام في اليوم الذي عينه القاويش وأبلغه رغبة الملك وبذلك تحقق
النائب العام من صدق رسالة القاويش .

وعلى أثر ذلك تم لقاء آخر يحمل تاجر الدواجن بين النائب العام والقاويش
وكان ينتظرهما فيه خادم الملك محمد حسن .

وبعد ذلك بقليل حفظ التحقيق في قضية الأسلحة الفاسدة بالنسبة لجميع المتهمين
وبذلك اكتملت الحلقة وأقام الملك بنفسه الدليل على ادانته هو ومن معه ، فلم يكن
حفظ التحقيق سوى الدليل الأخير من الأدلة العديدة التي أوردناها على ادانة
الملك وحاشيته .

ولقد كشف ثورة ٢٣ يوليو الكثير عن هذه الأسرار أثناء مجازاتهم أمام
محكم الثورة التي شكلت سنة ١٩٥٢ وأمسكت برقاب المتهمين فقدموا للمحاكمة من
جديد وحاسبتهم على الجرائم التي اقترفوها في حق البلاد وكانوا يستفدون أنهم
أفتلوا من العقاب وأصبحوا بمنجاة من يد العدالة . وما دروا بأن عين الله ساهرة
لا تغفل وإن أمهلتهم إلى حين . وقد شكلت المحكمة التي سميت محكمة الثورة برئاسة
عبد العلي البغدادي وعضوية حسن إبراهيم وأنور السادات وقضت في ١١/٥/٥٣
على عبد الغفار عثمان بتجريمه من رتبة العسكرية والنياشين والميداليات الحاصل
عليها وسجنه ١٥ عاما ومصادرة كل ما زاد من أمواله وأملاكه هو وزوجته شفيقة
(الأولى) وفيوليت (الثانية وهي انجليزية) عما كان لسيهم قبل أول يناير سنة
١٩٤٦ لصالح الشعب أي قبل حرب فلسطين أما حلي حسين السائق الخاص بالملك
والذي رقي حتى وصل إلى رتبة الأميرالاي فقد جردته المحكمة من رتبة العسكرية
وصادرت ما قيمته ٧٠٦٧٢ جنيه من أمواله وأموال زوجته وأعفته من عقوبة
السجن لمرضه . كما قضت على كريم ثابت مستشار الملك الصحنى وصادرت كل
ما زاد من أمواله هو وزوجته عما كان يمتلكه قبل ٢٧/٥/١٩٤٦ وقضت على
أحمد النقيب وهو طبيب الملك الخاص وأحد أعوانه المقربين بسجنه ١٥ عاما
ومصادرة ما زاد من أملاكه بعد سنة ١٩٣٩ .

أما محمد كامل القاويش فقد قضت بسجنه ١٥ عاما مع وقف التنفيذ ومجريمه من شرف المواطن ، كما سجلت المحكمة في حكمها وهي في شدة الأسف المسلك المعيب الذي سلكه النائب العام الأسبق محمود عزمي وموقفه من تحقيقات الأسلحة والذخيرة الفاسدة واذعانه لأمر فؤاد سراج الدين بحفظ التحقيق ، وكان الملك وبطاته يعتقدون أن النيابة بحفظها التحقيق سيبدل الستار على جريمتهم الى الأبد وأن خيانتهم مستظل طي الكتان ، ولكن عين الله التي لا تنام لم تغفل عنهم فلم يكدهم سوى ثلاث سنوات من قرار النيابة بحفظ التحقيق حتى بعث من جديد بعد قيام الثورة وجيء بالمجرمين في الأصفاد واقتصر منهم الشعب في محكمة الثورة .

وكان حفظ النيابة للتحقيق وهي السلطة القضائية المستقلة التي لاسلطان لأحد عليها . وبأمر الملك يعد غاية الفساد . ويعني ذلك أن الدولة قد تنازلت للملك وحاشيته عن آخر ما كان لها من سلطات . فلم يعد الملك يفعل ما يشاء فحسب بل صار يرتكب الجرائم ويستتر على مقترفيها من عملائه ، وإذا وجد الرجل الحر الزية الذي يحاول أن يقر العدل ويطبق القانون لم يزل يغويه أو يقربه إذا لم ينفع التهديد والوعيد ، وبذلك كان الملك يزداد قوة في نظر نفسه وهو في الواقع يزداد قربا من الهاوية حتى أصبح على شفا جرف هاو منها وعميت بصيرته ، عن إدراك ما هو مقبل عليه بسبب ما كان غارقا فيه من مبادئ وشهوات حتى أفاق على دقات الثورة التي أطاحت بعرشه في قرار مسحيق من الهاوية .

الباب السادس

كفاح الشعب المصرى فى القتال

بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦

١ - الشعب يجبر الحكومة على إلغاء المعاهدة

٢ - كفاح الفدائيين الوطنيين فى القتال

٣ - موقعة كفر أحمد عبده

٤ - معركة التل الكبير

٥ - كفاح الشباب والشرطة

١ - الشعب يجبر الحكومة على إلغاء المعاهدة

مجلس الأمن يغفل القضية المصرية .

تحدثنا آنفا عن مشروع معاهدة صدق - ييفن ، ولمسنا مدى تثبيت الانجليز يقاتلهم في مصر وعدم اعترافهم بحقها في الجلاء ، بل انها نقضت من جانبها معاهدة سنة ١٩٣٦ بنفسها وجلبت آلافا من الجنود لسبب الحرب وأبقتهم في مصر ، حتى بعد أن توقف إطلاق النار باستسلام ألمانيا ولم تحترم المعاهدة التي لم تجز لهم الإبقاء في منطقة القنال وبقوات محدودة لا تزيد على عشرة آلاف جندي ، ولذلك لم يجد النقراشي باشا أمامه عندما ألف الوزارة في ١٩٤٦/١٢/٩ إلا أن يتقدم بمطالب مصر الى مجلس الأمن بعد أن وضعت له نوايا انجلترا الخبيثة وعدم جدوى المناوضة كطريق للجلاء . وسمعت الدول صوت النقراشي ينوى في أرجاء المجلس يوم ١٩٤٧/٨/٥ قائلا : « نطلب اليكم أن تقررُوا اجلاء القوات البريطانية جميعها عن وادي النيل ، وأن يكون هذا الجلاء كاملا غير مشروط .

« ونقرر نحن المصريين بأن معاهدة سنة ١٩٣٦ لا تعتبر من رضائنا ، وأنها جاءت منافضة لأحكام اتفاقات دولية فضلا عن كونها لا تتلاءم مع أحكام الميثاق . وأرد أن أكرر أنه ما دام الاحتلال باقيا فلن يكون في الطوق الحد من منخط الشعب ، ولا هناك سبيل الى انخامه اذا اشتعل ، وأن زمام الأمر ليفلت بسهولة في مثل هذه الأحوال . وحيث قلن تغني النيات السليمة للحكومة شيئا . »

ولكن مجلس الأمن تردد في اصدار قرار الجلاء ارضاء للدول الاستعمارية ، ورفضت انجلترا أن تتقدم خطوة واحدة للوزارات التي جاءت بعد وزارة النقراشي وظلت على موقفها العدواني من مصر حتى جاءت حكومة النحاس في يناير سنة ١٩٥٠ بعد استقالة وزارة حسين سرى في ١٢ - ١ - ١٩٥٠ ورأت أن تحقق ما هجرت عنه الوزارات السابقة من مطلب الجلاء والوحدة بصفتها حكومة الاغلبية ولنكشافشلت تماما عن الوصول الى أي اتفاق . بل ان الانجليز رفضوا صراحة الجلاء على لسان

المارشال سليم رئيس أركان حرب الجيش البريطاني ، ولم يكتفوا بهذا بل ضاعفوا من عدد جنود الاحتلال وكانت تصرفاتهم تتطوى على اعتداء مستمر على مصر وعلى وحدة وادى النيل . وقد حاول النحاس أن يصل الى اتفاقية قريبة من اتفاقية صدق — بين التي عارضها وبيننا شطرا منها فيما سبق ، ولكن الانجليز ضنوا عليه بها . وهو صديقهم القديم والآثير لسيهم ، والمنفذ لطلباتهم والمحقق لرغباتهم ، لأن الانجليز لا يعرفون سوى مصالحهم أولا وقبل كل شيء ، وما كان الوزراء الذين يعضدونهم ويأتون بهم غير أدوات لتحقيق مطالبهم وللوصول بها الى أهدافهم . ولهذا تنكروا حتى للنحاس ا ورفضوا أن يعقدوا معه أى اتفاق يرقى لمشروع معاهدة صدق — بين ا ورفضوا الجلاء . وكان النحاس يستعطفهم قائلا لهم :

« لقد اتفقتم مع صدق باشا على أن يتم الجلاء التام فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ فكيف يمكن أن أقول للشعب غير ذلك ؟ اوقد كنا عند صدق فى ارجاء الجلاء الى ذلك التاريخ ، وطلبنا الجلاء الناجز ، ولو أن اتفاق صدق — بين قد أبرم فى ذلك الحين لما بقيت الآن فى مصر قوات بريطانية . »

وكان رد الانجليز بجىء دائما بالرفض وأنه لا جلاء . ثمانية عشر شهرا والنحاس يتسبح بأعتاب الانجليز يستجدى حقوق مصر وهو يعلم بأن المفاوضات ما أجدت فى أى فترة من فترات الاحتلال الطويلة . وانما ثبت فشلها . وما كانت المفاوضات سوى وسيلة الى الحكم ومخرج للمساومة على حقوق البلاد يكسب فيها دائما الطرف الأقوى . فلما فشل النحاس فى التفاوض مع الانجليز . وكانت الحالة السياسية والداخلية غاية فى السوء لا تقشار الفساد والمحسوبية والاستغلال ، وكانت فضيحة الاسلحة الفاسدة تزكم الأنوف ، شر أن الأرض تميد من تحت قدميه ، وأن كرسى الوزارة يهتز وهو فوقه ، ورأى أن يهدى النفوس الثائرة ويظهر للرأى العام القلق ويثبت وزارته قبل أن تطيح بها كل المساوىء والمباذل والقضايح التي ارتكبتها فأقدم على اجراء حق له المهدف الذى سعى اليه .

من أجل مصر :

وفي يوم ٨/١٠/١٩٥١ وقف النحاس في البرلمان ليعلن قطع المفاوضات والغاء المعاهدة . وقال كلمته المشهورة أثناء القاء البيان : (انه من أجل مصر عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أعلن اليوم الغاؤها) . وبهذا أصبحت القوات الانجليزية في مصر بدون سند قانوني يعضدها أو يبرر وجودها ، ولم تعد تتمتع بالامتيازات والحقوق المستمدة من معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وأصبح بقاءها بعد الغاء بمثابة اعتداء مستمر على الاراضى المصرية . يتحتم على الحكومة والشعب مقاومته وعدم مهادنته . وكان المقروض أن الحكومة التي قررت الغاء المعاهدة قد اتخذت كل الاجراءات والتدابير لمواجهة الحالة التي تنشأ بعد هذا الاجراء — وأنها استعنت لحماية الشعب من اعتداء القوات البريطانية ، ورتبت احتياجات الشعب في نضاله ضد هذه القوات وقد صرح النحاس باشا عقب الغاء المعاهدة بأن الحكومة أعدت لكل شيء عدته منذ وقت طويل قبل أن تقدم على خطوة الغاء ، واستقبل الشعب بجميع طوائفه وهبتا ، خبر الغاء المعاهدة بمزيد من الحماسة والسرور واستعدوا منذ الساعة الأولى للكفاح وانتظروا إشارة الحكومة ببدء النضال ضد القوات البريطانية الغاصبة ، ولكن الانتظار امتدت ساعات طويلة أيامه والحكومة لا تزال تصطاف في الاسكندرية ولم تقم بأى اجراء لتهيئة الجو للكفاح أو لدفع حركة المقاومة الى الامام أو حتى لاتخاذ أى اجراء لوقف اعتداء القوات البريطانية . على أفراد الشعب في منطقة القتال .

دور الشعب .

ولم ينتظر الشعب خطوة الحكومة التالية بعد الغاء المعاهدة ، وإنما هب من تلقاء نفسه وبوحى من شعوره ووجدانه لاداء الواجب الذى يتطلبه الموقف الوطنى في تلك الآونة فانسحب العمال الذين كانوا يعملون بالمعسكرات البريطانية منها وكانوا يقدرون بحوالى ٦٠ ألف عامل وموظف ، وامتنع سائقوا وعمال القطارات من نقل الجنود والمعدات البريطانية ، كما رفض عمال الشحن والتفريغ عن تفريغ

حمولة البواخر البريطانية بمنطقة القناة ولم يكتف المصريون بذلك بل امتنع المتعهدون والموردون الذين كانوا يمولون القوات البريطانية بمواد التموين — رغم ما كانوا يربحونه نتيجة لذلك ، وكانت هذه المقاطعة الاجماعية الرائعة دليلا على وعى الشعب وتصميمه الراسخ على مقاومة الاستعمار وعدم معاوخته والصمود في وجهه ومحاربة بكل الطرق والوسائل مها تكبد من خسائر .

وقد سببت مقاطعة المصريين للقوات الانجليزية في منطقة القناة عرقلة مواصلاتهم واشاعة الفوضى في حياتهم اليومية وكبتهم ملايين الجنشيات عما اضطرهم الى جلب موظفين وعمال آخرين من انجلترا والبلاد الموالية لهم ، كما استعانوا للتغلب على مشكلة التموين التي وضمهم فيها الموردون المصريون الى استيراد بعضها من الخارج بمبالغ كبيرة وأسعار مرتفعة من ناحية ، عدا ما كانت القوات الانجليزية تسلبه وتستول عليه كرها من المحال التجارية والمناطق الزراعية المتاخمة للمسكرات من ناحية أخرى .

ولم يكن الشعب ليرضى أو يقتنع بمقاطعة القوات البريطانية وعدم التعاون معها ، بل كان يتطلع الى مقاومتها ايمانيا ومواجهتها في حرب ماهرة ، وعدم السماح للجنود البريطانيين بالتمتع بالراحة والطمأنينة التي كانوا يتمتعون بها في ظل معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وتحويل منطقة القناة الى حجم مستمر لا يهدأ أواره ، وبذلك تنعدم القيمة العسكرية لهذه المنطقة التي يعتمد عليها الانجليز كل الاعتماد ، ويصبح بقاؤهم فيها مهددا من الداخل والخارج بخاطر بالغ .

اعتداءات وحشية :

أدى العمال والموظفون والموردون بالمسكرات البريطانية دورهم الوطني كاملا ، وانظر الشلب دعوة الحكومة لتدريبهم وتسليحهم استعدادا للمقاومة دون جدوى وحال الشباب بين موقف الحكومة المتواكل وبين واجبه الوطني ولم يجد أمامه سبيلا لاطهار شعوره سوى التفتيس عنه بالمظاهرات .

قامت في يوم ١٦/١٠/١٩٥١ جماعات من الأهالي والطلبة والعامل في مدن القتال بمظاهرات تؤيد إلغاء المعاهدة وتطالب بالسلاح وتنادى بتشكيل كتائب التحرير التي وعدت بها الحكومة .

ولم ترق هذه المظاهرات للانجليز ، فأمر الجنرال أرسكين قائد القوات البريطانية بإخمادها بقوة السلاح . وعلى الفور نزلت السيارات المصحفة المزودة بالمدافع الرشاشة ، واعترض الجنود طريق المتظاهرين ، وأطلقوا عليهم الرصاص لالارهاب بل بقصد القتل .. وساد الذعر والفوضى مدن القتال ، وسقط ثمانية من القتلى في مدينة الاسماعيلية ، وخمسة في مدينة بورسعيد ، عدا الجرحى الذين بلغوا أكثر من تسعين جريحاً تخضبت بدعائهم شوارع المدينتين ، واحتلت القوات الانجليزية جميع المكاتب والمصالح الحكومية بمنطقة القتال ، وطردت الموظفين المصريين ، كما قامت القوات البريطانية في يوم ١٧/١٠/١٩٥١ بهجوم على القوات المصرية التي كانت تعسكر بجوار د كوبرى الفردان ، واعتدت عليها واستولت على هذا الكوبرى ، بعد أن قتلت بعض الجنود وأسرت باقى القوة ، ولم تقف الأعمال الوحشية للقوات البريطانية عند هذا الحد ، بل احتلت منطقة القتال بأكملها وفرضت ستاراً حديدياً عليها ، وعزلت المدن والقرى بمنطقة القتال عن باقى مدن القطر ، وبدأت الدوريات تقبض على الموظفين والجنود وتستبعد من تخضب عليه وتسبى من ترضى عنه . وتضطهد الأهالي وتمتدى على الآمنين من السكان — وتتهب البضائع من المحال والمناجر — وتستول على الأراضى المنزرعة خضر وفاكهة — وتسلب ما يقع تحت يدها من مواد التموين الخاصة بالأهالي وتمحرمهم قوتهم ، وبذلك ساد منطقة القتال حالة من الفوضى والذعر والارهاب لم يسبق لها مثيل من قبل .

قبيل المعارك :

كان ضباط الجيش المصرى يراقبون الحالة بقلق زائد ، وكانت قد تكونت

منهم منذ سنة ١٩٣٨ جماعات سرية صغيرة — كما بينا فيما سبق — وكانت تسمى بالتشكيل العسكري. كما كانت هناك أيضا جماعات من شباب الشعب المثقف كرونت فيما بينها خلايا سرية تهدف لنفس الغرض الذي يسعى اليه جماعة الضباط وكانت هذه الجماعات من الشباب تسمى بالتشكيل الشعبي. ويذكر السيد « أنور السادات » ذلك في كتابه « منحنى مجهولة » اذ يقول :

« وكنا قد رسمنا على أن ننشئ تشكيلا شعبيا وتشكيلا عسكريا يعملان جنبا الى جنب كل بوسائله وكل بخططه ولا يرتبط أحدهما بالآخر بأي ارتباط ظاهر حتى تأتي اللحظة المناسبة » . وقد سمي التشكيل العسكري بعد ذلك باسم الضباط الأحرار ، وسنين النور الهام الذي قاموا به طوال هذه السنين حتى قيامهم بالثورة عند الكلام عن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

والواقع أن التشكيل العسكري بمجرد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ بدأ في العمل واتصل بأفراد التشكيل الشعبي رغبة منه في تنسيق الكفاح وتوحيد حركة المقاومة وبدأ الجميع في دراسة الموقف واستعرض المشاكل والصعاب التي سيقابلونها ليجدوا لها الحلول — ويتفهموا طبيعة المعركة الجديدة — والظروف المحيطة بها من مالية وسياسية وعسكرية واجتمع الرأي على أن يتوجأ الى منطقة القتال وقد يمثل التشكيلين لوضع الأسس الأولى لحركة المقاومة دون انتظار لمعاونة الحكومة أو توجيهاتها ..

ورأت الجماعة أن توجه منشورين الى القوات البريطانية : أحدهما الى الجنود والضباط ، والثاني الى أسرهم المقيمة خارج المعسكرات . يعلنون فيها بداية الكفاح ، ويدينون لهم دقة مركزهم وخطأ موقفتهم تجاه شعب يريد الحرية والاستقلال وقد تم طبع هذين المنشورين ووزع المنشور الأول الموجه الى الجنود في ١٩/١٠/١٩٥١ وهو باللغة الانجليزية .

وهذا نص المنشور الأول :

What a terrific show you are putting up. Shooting down defenceless civilians, you are to be applauded for your gallantry. How would you like a taste of your own medicine ? for that is exactly what you are going to get according to an old law which says an eye for an eye, and a tooth for a tooth.

This is not your fight keep out. This is not your country get out.

You have been warned.

وترجمة المنشور :

(أيها الجنود الانجليز . أية مهزلة تمثلونها في مصر وأنتم ترمون بالرصاص العزل من أهل البلاد ؟ انه لعمل مشين يحط من كرامة بلادكم — هل تريدون أن تذوقوا من نفس الكأس ؟ ان هذا سيكون لكم قريبا . بناء على القانون الطبيعي : العين بالعين والسن بالسن . ليس هذا رسالة جهادكم فابتعدوا . هذه ليست بلادكم فاخرجوا ، ولقد حذرناكم . وان المسؤولية في رقاب قوادكم عن كل ما سوف تذوقونه منا) .

ولم يكن توزيع هذه المنشورات داخل المعسكرات بالامر اليسير ، لأن الانجليز كانوا قد قطعوا الاتصال بين منطقة القنال وبقاى مدن القطر وفرضوا رقابة دقيقة على المسافرين . ولكن الفدائيين عرفوا أنه لا يزال يعمل بالمعسكرات بعض العمال الذين يقومون بجمع القمامات . وعن طريق هؤلاء العمال الذين كان الانجليز يعتقدون أنهم مسالمون الى حد ما وليسوا بذوى خطر عليهم ، تم توزيع المنشورات التي رأت الجماعة أن تبدأ بها الكفاح .

وشرعت الجماعة بعد ذلك في اعداد الشباب الكفاح المسلح واختيار المديرين منهم للتفرغ الكامل لتحمل عبء المسؤولية الجسدية ، فاسافر بعضهم الى الاسماعيلية والتل الكبير ، وسافر آخرون الى السويس ، وقد روعى أن يكون بجانب الشباب المثقف بعض الاهالى من تكون لهم دراية تامة بالمنطقة . وعلى الرغم من صعوبة الاختيار وما واجهته من ملاحظات ، فانه تم تكوين فرق المقاومة في مدن القنال في مدى أيام قليلة .

ففي الاسماعيلية كانت هناك كتيبة التدمير التي قامت بالكثير من الاعمال الجليلة — وبالتل الكبير كتيبة تكومت أطلق عليها خالد بن الوليد — وأما في السويس فقد كانت هناك كتيبة باسم الشهيد أحمد عبد العزيز ، وكان يتقنها المال والسلاح ، فأعيد تنظيمها ووحشت مع غيرها من الكتائب التي كانت تعمل منفردة . وقد حملت هذه الكتيبة وحدها العبء كله في مقاومة الانجليز بالسويس .

ثم تكومت بعد ذلك كتيبتا مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكانتا تعملان بمنطقة التل الكبير وأبي حماد^(١) . وأمرت هذه الكتائب بالعمل فورا على أن تركز عملها في أمرين : أولهما الاستيلاء على الأسلحة من الجنود أثناء تنقلاتهم وابتعادهم عن معسكراتهم . وثانيهما القاء القنابل على المواقع الهامة والحوية كمحطات البترول ومخازن الذخيرة وعلى ما يصادفهم من عربات ولوريات أو مصفحات .

ويهمني أن أبين هنا مصادر المال والذخيرة التي أمد بها التشكيل هذه الكتائب في نضالها ، فقد جمع أعضاء التشكيل المال من بعضهم ، كل بحسب قدرته . وتجهلت روح البذل والكرم بدرجة كبيرة حتى أنهم جمعوا في يومين ٣٢٠ جنيها . أما السلاح فكانوا يحصلون على بعضه بالشراء من تجار الأسلحة وبعضه الآخر من الجنود الانجليز ومن الأهالي في الريف ، وبما كان يحمله الضباط المصريون من الجيش ، وبخاصة القنابل اليدوية ومواد التدمير كلجلجنيت ومادة T.N.T. — وقد صنع الاخصابيون منهم قنابل محلية وزجاجات حارقة شديدة الانفجار سميت بقنابل مولوتوف . وكان لها أثر كبير في المعارك التي دارت بعد ذلك .

(١) من هؤلاء الوطنيين نذكر الدكتور عصمت سيف الدولة وحسن البسيوني الحاميان بالتل الكبير ، ومصطفى الجيار ومحب السباعي وعبد الهادي نجم الدين بالسويس ، والطارق حسن هزرتي وسعد زغلول فؤاد ، ودمت فخري ، وعز الدين كامل ، وعبد رزقي بالتل الكبير . وذكرها صلاح الدين ، وعبد الرؤوف بدير ، وعمود همدان بالاسماعيلية .

ماهية الحركة :

سنذكر في هذه الصفحة والصفحات التالية — شطرا من كفاح الشباب في القتال كما وقع وبكل صدق وأمانة . ويهنا أن نبرز الدور الذي قام به الفدائيون في نضالهم المجيد ضد القوات البريطانية ، وأن نبين ماهية الممارك التي قامت في تلك الفترة الدقيقة من فترات مصر . لأنه على الرغم من أن الصحف كانت تذكر بعض تلك المواقف في حينها إلا أنها لم تكن تشير إلى أعمال الفدائيين دون تحيز أو محاباة ، ولم تحاول كذلك أن توضح هذه الممارك وتحقق من وقوعها في تواريخها ، وإنما كانت تنشر ما يميل عليها من مندوبها الخاص في تلك المدن أو القرى ، وبذلك خرجت صور أعمال الفدائيين مشوشة ومهزوزة وغير واضحة .

كما أن الكتاب الذين أرخوا لهذه الفترة لم يذكروا لنا شيئا عن سير هذه الممارك وتطورها الحقيقي .

ويهني وأنا أكتب عن هذه الفترة أن أبرز كفاح الشعب في القتال ونضاله ذلك النضال المتأصل جذوره في تربة مصر والذي لم يخذ أبدا على مدى السنين الطويلة .

٢ - كفاح الفدائيين الوطنيين في القتال

العمليات الأولى :

بدأت المعارك في أول الأمر بالاستيلاء على الأسلحة من العربات أثناء وقوفها أو سيرها من الجنود الذين كانوا ينتقلون بين أرجاء المدينة ، وكان الوطنيون يسلكون في سبيل ذلك طرقاً شتى ، منها أن يستقل وطنيان دراجتيهما ويتجولان بالمدينة حتى إذا لاح لهما جندي انجليزي ومعه بندقية أو مسدس يتقدم الأول ليصدمه بالدراجة ، بينما يخطف الثاني السلاح منه وقت الارتباك ثم يوليان الحرب. ومن ذلك أيضاً خطف السلاح من سائق سيارات الجيش البريطاني أثناء وقوفها ، بأن يتقدم أحد الوطنيين من سائق السيارة محاولاً أن يمرض عليه أي شيء ، بينما يكون الآخر قد فتح باب العربة وخطف البندقية التي تكون بهوارة . وفي بعض الأحيان عندما يتحرج الموقف كان الوطنيان يقتلان الجندي ويسرقان بندقيته .

بم تطورت المعارك بعد ذلك لأن القيادة البريطانية أمرت بأن يستصحب السائق جندياً آخر كحارس له ، وقد قابل الوطنيون هذا الاجراء بشراء عربة يكمن في مقدمتها أحدهم ، وتسير خلف سيارة الانجليز حتى إذا ما اقتربت منها قفز الفدائي الذي في مقدمة السيارة إلى سيارة العدو ويوقف العربة بقوة التهديد ويأخذ الوطنيون ما بها ويلقون العربة في ترعة الاسماعيلية إن كانت قريبة أو في أي جهة أخرى بعد قتل السائق والحارس .

وعادت القيادة فأصدرت أمراً بأن يكون في كل عربة أربعة جنود أو ثلاثة على الأقل : جندي بهوار السائق ، وجندي أو جنديان في العربة نفسها ، ويكون اتجاهاهما عكس سير السيارة لمراقبة الفدائيين .

كانت هذه أولى العمليات ، ثم تحول العمل إلى شيء آخر ، ففي الليل كان الفدائيون يرابطون حول المعسكرات يطلقون النار عليها ويتدربون على إصابة الكشاف الذي كان يضيء المنطقة المحيطة ، وقد أشعرت هذه العمليات الأولى للفدائيين

الانجليز بأن المقاومة الايجابية قد بدأت بالفعل والمهمة التي كان يؤديها جندي واحد جندت لها القيادة أربعة من جنود . وكان إطلاق النار على أي معسكري يهبط بقاء جميع جنوده على أهبة الاستعداد لتلا يؤخذوا على غرة وبهذا يظل الجنود محرومين من النوم أو الراحة طول الليل ، وهذا وحده إقلاق ما بعده إقلاق .

ونجحت الخطوة الأولى للفدائيين وبلغ جملة ما استولوا عليه من الأسلحة ١٨ قطعة مختلفة الأحجام ، وشعروا بأنهم يزدادون قوة ، ورأوا أن يقوموا بهجوم ليلي مدروس على أحد معسكرات الانجليز لينقلوا المعركة من خارج المعسكرات إلى داخل خططهم .

المعركة الأولى :

وقع اختيار الفدائيين على محطة بترول نفيسة ، وهي تقع بجوار مدينة الاسماعيلية ، وهذه المحطة تمتد جميع المعسكرات المحيطة بمدينة الاسماعيلية بالمون كمعسكر الطيران والجيش — وتعتبر من أكبر المحطات لدى الجيش البريطاني . ففيها مخازن ضخمة تحت الأرض تحوى الآلاف من صفايح البنزين المعبأة والمعدة لسد حاجة الطائرات والدبابات والسيارات .

ووضعت الخطة بعد دراسة هذا المعسكر دراسة وافية على أن يكون الهجوم من ناحية ترعة الاسماعيلية وطريق الانسحاب عبر عزبة أحمد عطا الله التي كانت تتجاوز المعسكر من الناحية الشرقية . والتي كان صاحبها على صلة وثيقة بالانجليز ، لأنه كان يمدد بالمون من خضروات وفاكهة ولحوم ويقبض منهم آلاف الجنيهات ، حتى أنه أنشأ لهم حظيرة كبيرة لتربية الخنازير لسد حاجياتهم منها . واتفق الفدائيون على تنفيذ هجومهم بعد منتصف الليل . وقسموا أنفسهم قسمين وكانوا تسعة . يكمن ستة منهم في مكانين متباعدين على جسر الترعة المرتفع ، الذي كان بمثابة ساتر لهم من رصاص الانجليز ، والثلاثة الباقون مهمتهم وضع المتفجرات في مخازن البنزين وصفايح البترول وعبر الفدائيون الثلاثة الترعة ومعهم المتفجرات وزجاجات مولوتوف ورشاش واحد من طراز ستن ، ثم تسللوا عبر الأشجار

المحيطة بالمعسكر ، وعندئذ بدأ الفريق المربط على جسر التربة في إطلاق النار في اتجاه الأنوار التي كانت تضيء المعسكر . ورد الجنود الانجليز على الفدائيين بسيل من الرصاص ، ثم سلطوا الكشاف الضخم الذي يتوسط المعسكر للكشف عنهم وركز الفدائيون تمويهم نحو الكشاف حتى أصابوه ، وأفسدوا مفعوله . وفي أثناء إطلاق النيران نجح الفريق المهاجم في عبور الأسلاك الشائكة واتجه كل فرد منهم إلى ناحية معينة ووضعوا المتفجرات في عيون الخازن الأرضية وبين بعض الصفائح ، وكانت هذه المتفجرات تعمل بعد ٢٠ دقيقة من وضعها .

وعند انسحابهم تنبه لهم بعض الانجليز فأطلقوا عليهم نيران مدافعهم الرشاشة وعندئذ ألقى الفدائيون الثلاثة ما كان معهم من زجاجات مولوتوف على صفائح البزين وخيام الجنود ، وكانت هذه الزجاجات تنفجر وتشتعل بمجرد ملامستها لجسم صلب ، فلم تلبث النار أن اشتعلت فيه وأخذت صفائح البزين تنفجر وتطير في الجو فأحدثت دخاناً كبيراً ، وهب الانجليز من كل مكان لوقف النيران ومكافحتها ومحاولة الحد من انتشارها ، وعمت الفوضى المعسكر وفي خلال ذلك المرح تمكن الفدائيون من الانسحاب عن طريق عزبة عطا الله وتلاقوا مع زملائهم الذين كانوا يربطون على جسر تربة الاسماعيلية واتجهوا جميعاً إلى الاسماعيلية عن طريق عزبة على عيد وقد أصيب في هذه المعركة أحد المواطنين ، وهو من أهالي المنطقة ، برصاصة في قدمه . وعندما عادوا إلى منازلهم كانت تبشير الصباح قد بدأت تلوح ، ولكن النجاح الكبير الذي حققوه واعتراف راديو فايد بهذه المعركة ووصفه لها بأنها أو معركة جديّة منظمة للفدائيين خفف من إصابة الزميل المصاب وشجهم على المزيد من العمل .

منشور الاسر الانجليزية :

رأت الجماعة بعد معركة نفيسة أن ترسل منشوراً إلى أمر الضباط والجنود على غرار المنشور الذي وجه إلى الجنود ، وكان بعنوان « إلى العائلات البريطانية » .

وترجمته العربية كما يلي :

(سبق أن حذرنا الجنود والضباط الانجليز من بقائهم في مصر لأن مصر ليست بلادهم والقضية التي يحاربون من أجلها هي قضية خاسرة لأنهم قائمة على الظلم والعدوان .

« ولقد وطلدنا العزم على القتال والمهلة التي منحناها لكم قد انتهت سنحارب . وسنقاتل . وسندبح ما يقابلنا من الضباط والجنود بالبنادق والقنابل والخناجير . سيدق مستفتحين عينيك ذات صباح وإذا برأس زوجك أو أخيك أو ابنك أو أهلك في تابوت والدماء الساخنة تسيل منه . »

« حذرنا الجنود والضباط — ونمود الآن فنحذرك باعتبارك أنت وحدهم التي ستواجهين الفجعة أمام الجثث التي سنوافيك بها تباعا ومن الآن . »

ووزع الفدائيون هذا المنشور على جميع الأمر الانجليزية في صبيحة يوم ١١/١١/١٩٥١ في السويس والاسماعيلية ولم يلق الفدائيون جهداً كبيراً في توزيعه كما سبق أن لاقوا في توزيع المنشور الذي وجه إلى الجنود ، واتبعوا في ذلك وسائل عديدة ، فكانوا يضعونه في صناديق البريد المثبتة على واجهات منازل الأسر أو بوضعه تحت الأبواب ، أو بالقائه من النوافذ أو بتسليمه لصغار الأطفال ، أو بتركه في عربات الاتوبيس الخاصة بهم حتى أن بعض الفدائيين كان يسلم هذه المنشورات للسيدات الانجليزيات يدأ يسد أو بوضعها في سلال الخضر التي كن يحملنها . وعلى كل فقد وزع المنشور في المدينتين على كثير من الأسر بكل سهولة ويسر ، وكان له أثر كبير في نفوس السيدات الانجليزيات فأشاع النمر في قلوبهن وبث في نفوسهن الرعب ، وقد انعكس ذلك على أعمالهن وفي طرق تصرفهن في حياتهن بعد ذلك ووقع كثير من الحوادث الطريفة أثر توزيع هذا المنشور ، منها أن إحدى السيدات استصعبت طفلها وتوجهت به إلى الحى الذى يقطن فيه الأهالى وأبليت رغبتها في أن تعيش بينهم لأن في هذا ما يضمن حياتها وحياة وحيدها ، ولم تعد إلى منزلها إلا بعد حضور البوليس الحربى البريطانى على

رأس قوة من الجيش وانتزعا قسراً ! وكان خوفهم دائماً على أساس من الواقع ، ذلك لأن الانجليز يخافون على الأخص من طريقة القتل باختناجر والمدى التي كانوا يعتقدون أن العرب يجيدونها ، كما أن المنشور جاء بعد الحوادث والمعارك التي قام بها الفدائيون في ذلك الوقت فوضح لهم أن الفكرة خرجت إلى حيز التنفيذ ، وأن المسألة لم تعد هزلاً كما كانوا يتوقعون ، وأنه من غير المستبعد أن ترى المرأة الانجليزية ابنها أو أخاها أو زوجها مذبوحاً وقد أرسلت إليها جثته في تابوت كما حذر المنشور ، وبذلك كثر الجدل في المنزل الواحد وتعدى إلى مناقشات مستمرة كان يثيرها النساء عن طبيعة وجود الانجليز في مصر وهل هم على حق أو على باطل ، وما جدوى مقاومة الانجليز للمصريين بلا طائل ودون هدف .

ولم يكن أمام الانجليز إزاء ذلك الموقف سوى أن يقرروا ترحيل العائلات البريطانية من مصر ، واجتمعت القيادة وأمرت عائلات الضباط بالتوجه فوراً وسيداتهن وزوجاتهن إلى بور سعيد حيث كانت في انتظارهن السفيتان البريطانيتان أتلانتس ولاند فوري كاسل اللتان نقلتن إلى بلادهم .

ومما قيل في هذا الاجراء الاجباري فان الوطنيين اعتبروه انتمساراً لهم واعتراقاً من القيادة البريطانية بحدية النضال الشعبي وازدياد وطأته كما أنه نوع من الحرب فقد طار صواب الضباط نتيجة لابعاد أسرهم عنهم ، وطاش رشدهم لهذا الفراق وتبدل الحال من استقرار عائلي شامل إلى قلق وحيرة .

وقد كتب مراسل أخبار اليوم من إنجلترا الرسالة التالية تعليقاً على ترحيل العائلات البريطانية :

(وصل إلى بلاك بول عدد من عائلات الضباط والجنود الانجليز في قيادة السويس وقالت بعض الزوجات الانجليزيات أنهن تلقين منشورات مكتوبة بلغة انجليزية صحيحة جاء فيها : احرقى حثائبك وعودى إلى وطنك وحاول أن تقنعى زوجك بأن يخذو حذوك واصحيه معك ، أما إذا رفض زوجك النصيحة

فمنشحنه لك في ثابوت . وقالت زوجات الجنود أن هذه المنشورات وزعت بنظام دقيق . وأنها أثار الرعب في قلوبهن ..) .

منشورات بريطانية :

وقد رأى الانجليز أن يقاوموا المنشورات — أى منشورات الفدائيين بمنشورات مضادة تهدف إلى زعزعة الثقة في نفوس المصريين وبث روح التشكك والتخاذل في نفوسهم وإشاعة بغض المحكوم للحاكم، حتى أنهم نادوا بضرورة ثورة الطبقات المدممة التي لا تملك شيئاً على تلك التي تملك كل شيء. وما كانوا يعرفون أن هذه الثورة في طريقها إلى الوجود ، كما كانت هذه المنشورات تهدف إلى طمأنة جنود الامبراطورية الذين بدءوا يتشككون في عدالة ما يحاربون من أجله بعد أن أصبحت حياتهم وحياة أولادهم وزوجاتهم في كفة القدر ينامون ولا يعرفون هل سيطلع عليهم النهار أو ستوارثهم أرض الفراغة .

ومن هذه المنشورات ، نشرة أنباء القتال ، بالعربية Canal zone. Anew وبالانجليزية .

ولقد جاء في إحدى هذه النشرات ما يلي :

« لقد انخفض دخل الحكومة المصرية من الجمارك بحوالى ٥٠٪ فإذا هي فاعلة؟ هل تتخذ خطوة سريعة لفرض ضرائب باهظة على الأغنياء ، ويقول المسئولون في مصر أن فرض ضرائب جديدة يكاد يكون مستحيلاً لأن ذلك سيسبب غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار يوماً بعد يوم ، وقد تسلك الحكومة طريق الاستسلام وبجابهة الفاقة والقنوط وذلك بطبع أوراق نقدية إضافية وطرحها للتداول .

كما نشرت القوات البريطانية في إحدى نشراتها في سبيل إثارة طبقات الشعب ضد الحكومة والأغنياء فقالت : « ذكرت الصحف المصرية أن قسم الميزانية التجارية لوزارة التجارة والصناعة وضع كسفا بما استوردته مصر من الخارج خلال العام المنتهى أمس الأول وقد جاء في هذا الكشف ما يلي :

عشرة ملايين من الجنيهات ثمن مجوهرات وأحجار كريمة :

تسعة ملايين جنيه ثمن سيارات ملاكى .
ستائة ألف جنيه ثمن روائح عطرية .
... ألف جنيه ثمن أسلحة وذخائر .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على هذا التبا فارقاه تتكلم عن نفسها وتعطينا صورة واضحة عن حياة الرفاهية التى يزعم بها ثروة مصر وتمكس لنا صورة قاتمة عن حياة الفاقة التى يحياها الفقراء . وم السواد الأعظم من الشعب .

وقال الانجليز فى نشرة أخرى : « لقد ارتفع كل شيء ، وحسب تقرير الحكومة بلا استثناء فى جميع مواد الغذاء كاللحوم والحب والمسل والزيت والبيض والزبدة والسكر والفلفل والبن والشوم والبصل والدردين والبطاطس واللوبياس والليمون والبلح الابريعى فإذا يفعل الموظف الذى لا يكاد مرتبه يكفى لطعام شخص فما بالك به وهو يقتات به هو وأولاده ، — بهذه النشرات كانت تحاول بريطانيا الرد على منشورات الفدائيين فى محاولة لاثارة الفتن والقلاقل بين الطوائف ضد الحكومة من جهة ، وهى من جهة أخرى محاولة لتثيت الثقة فى قلوب جنودها الذين ملاهم الخوف والقلق .

وقد قام الوطنيون بتوجيه منشور آخر ضد من ظن يعمل مع الانجليز من المصريين حتى ذلك الوقت وكان يتزعم هذه القلة من يدعى محمود صبرى الذى كان يتجسس على المصريين ويقبض من الانجليز الثمن وقد لاقى جزاءه على يد الفدائيين . كما كتب أحدهم نشيداً للثورة لحنه الموسيقار مدحت عاصم ، وكان يعمل فى حركة المقاومة ونشر وحفظه الكثيرون وقد أدخله مدحت بعد ذلك فى فيلم مصطنع كامل وسطوره هى :

الثورة يا مصر الثورة	ع السند والاستعمار
بالدم لآخر قطره	بالروح بالمال بالنار
يا نميش فى مصر الحرة	يا نموت مسوت الاحرار
الثورة يا مصر الثورة	

قوبنا في ايدينا	وردهوسنا أهيه في كفوفنا
ولمصر تكون النصره	وبلادنا تصبح حرة
الثورة	يا مصر الثورة
حصون العفصاة	ختصبيح قبسور
ودم الفساة	حيجسرى بحسور
وراية النيل الحضرة	بتناى بلادنا الحرة
الثورة	يا مصر الثورة

حوادث ثلاث

في أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ قام الفدائيون بهجمات ثلاث في يومين متتابعين أولهما تسلل بعض الوطنيين من بلدة القرين ليلاً — وهي قرية من قرى مديرية الشرقية وتجاور معسكرات القوات البريطانية — وقتلوا ثلاثة من الجنود الانجليز الذين كانوا يتناوبون الحراسة في ذلك المعسكر ، وقد أصيب في هذه المعركة الزميل د علي رمزي ، بالرصاص في ساقه اصابة بالغة ألفتها ، وقد كرمته الثورة بعد ذلك فعولج على نفقة الدولة .

وثاني أعمال الفدائيين هو قيامهم بالقاء بعض زجاجات مولوتوف على الطائرات التي كانت بمطار كسفريت الكبير المجاور للاسماعيلية فاشتعلت فيه النيران وأحرقت طائرتين حريتين . ولولا أن أسرع الانجليز إلى إطفاء النار لآتت على ما كان بالمطار من طائرات .

أما ثالث هذه الأعمال فهو عمل جرى قام به اثنان من الفدائيين ، على الرغم من أنه كان محفوفاً بالمخاطر والصعوبات ، وهذا العمل هو نسف مخازن ومستودعات البترول في منطقة العجروود ، وهي تقع في مكان ناء عن عمل الفدائيين بالقرب من السويس . ولم يكن الانجليز يستقدون أنها ستكون هدفاً لأعمال الوطنيين التي تركزت في ذلك الوقت في مدينة الاسماعيلية وما جاورها . وقد حمل الفدائيان معها مادة T. N. T. وزجاجات مولوتوف وقنابل الميز لاستعمالها وقت الهروب ، وكذلك أصابع الجلجنايت وأصابع انفجار خاصة أمد رجال الجيش بها الفدائيين .

وهي عبارة عن زجاجة داخل أخرى تحمل مواد مشتملة وتنفجر بعد عشرين دقيقة من خلط المواد التي في داخل الأنبوبة بالمواد الموجودة في الغلاف الجلائيات ومادة. وقد نجح الفدائيان في التسلسل الى معسكر المجرود بعد أن قطعا الأسلاك الشائكة المحيطة به بمقص خاص ، ووضعوا الأنابيب المتفجرة ومواد الجلائيات ومادة T.N.T. في أسفل الخزانات الضخمة وأشعلا القليل وانسحبوا ، وكانت تنتظرهما عربة نجيب في الصحراء وبجوار تبة من الرمل يخفيها عن الأنظار وعلى بعد غير قليل من المعسكر . ولم تكذ العربة تسير حتى سمعوا انفجارا مدويا ولم تلبث النيران أن شبت فكانت تشاهد من على بعد سحيق وعلى طول الطريق الوعر الذي سلكه الفدائيان عند رجوعهما الى القاهرة .

موقف الحكومة من الفدائيين

اضطرت الحكومة ازاء الحاسة الوطنية الجارفة أن تشكل لجانا لمقاومة الانجليز ، وانهاالت التبرعات لهذه الجماعات ، ولكن هذه الأموال لم تصل أبدا الى الوطنيين والفدائيين الحقيقيين الذين كانوا يكافحون فعلا في القتال معتمدين على أنفسهم وبما كانوا يجمعونه فيما بينهم . وقد كان من نتيجة العمليات التي قام بها الفدائيون في القتال أن وضعت جميع هذه الجماعات في حرج كبير وتخططوا كثيرا وظلوا مدة طويلة يبحثون عن يقوم بهذه العمليات ، حتى أن بعض هذه التكرينات نسبت لنفسها قيامها ببعض هذه الأعمال ، وكان أكثر الجهات بحثا عن الفدائيين الحقيقيين الحكومة وعلى الأخص وزير الداخلية (١) ، ولم يكن من العسير عليه معرفة أولئك الوطنيين فأرسل الوزير اليهم يطلب مقابلة مندوبين عنهم ليتعاون معهم ، وكان يرى من وراء ذلك الضغط على الانجليز لكي يتفاوضوا مع الوفد ولكن الفدائيين اشترطوا شروطا ثلاثة (٢) :

(١) عدم ذكر أسماء الفدائيين .

(٢) مساعدة الحكومة لهم بالأسلحة .

(١) نؤاد شراج الدين .

(٢) وقد اجتمع وزير الخارجية المصرية مع سترايدن في ١٨/١٢/١٩٥١ فبيدها للمداوئة .

(٣) بقاؤهم كوحدة منفصلة وعدم اندماجهم في أى هيئة أو جماعة أخرى .

ورافق وزير الداخلية على هذه الشروط الا أنه اشترط من جانبه شرطا واحدا هو أن يقوم الفدائيون بعملية واحدة ليتأكد بعدها من أنهم فعلا هم الذين يقومون بالمعارك في القتال ثم يحقق لهم بعد ذلك مطالبهم، واجتمع الوطنيون ووافقوا على هذه الشروط ولم يكن الوزير قد باح حق ذلك الوقت بالعملية التي جعل تحقيقها رهنا بموافقة لشروط الجماعة . .

وتعجب الوطنيون عندما علموا بشرط الوزير ، فقد قال لمتدوب الفدائيين: ، أريد أن تسمروا محطة بجارى نيشة بالاسماعيلية ا ووجه المعجب أن محطة المجارى لم تكن هدفا عسكريا هاما . وكان التشكيل يعتقد أن الوزير سيطلب منهم طلبا عسيرا . . لهذا فقد سر الفدائيون لقيامهم بهذه العملية وشعروا أن مطالبهم ستتحقق وأن الصواب التي طالما قابلتهم ستذل ، ولذلك فقد صمموا على القيام بتدمير هذه المحطة في أسرع وقت ممكن وشدوا الرجال الى الاسماعيلية ودرسوا الموقع وحددوا يوم ١٦/١١/١٩٥١ موعدا للتنفيذ .

وفي الساعة الثانية عشرة تسلسل ثلاثة من الذين تخصصوا في التدمير الى المعسكر بعد أن عبروا ترعة الاسماعيلية من ناحية مزارع عزبة على عيد ، بينما رابطت باقي الفرقة في مواجهة المعسكر لمناوشة نقط الحراسة البريطانية ولحماية الثلاثة المهاجمين الذين تسالوا داخل المعسكر بعد أن قصوا الأسلاك الشائكة وأوجدوا ثغرة تكفى لمروهم زحفا ، وتمكنوا من وضع الديناميت بين الآلتين الضخمتين الخاصتين بالمجارى ثم أشعلوا الفتيل واسحبوا دون أن يقابلهم أو يراهم الجنود الانجليز . وفي أثناء عبورهم ترعة الاسماعيلية انفجر النجم الكبير وحدث دويّا هائلا ، وكان يدخل المعسكر أثناء ذلك رتل من السيارات فاصلتهم باقى الفرقة المرابطة في اتجاه المعسكر بوابل من نيران بنادقها فقتل سائق السيارة الأولى والحارس الذى بهواره وساد المعسكر هرج ومرج وانبعث الرصاص من جميع الجهات من داخل المعسكر ومن خارجة — وهب الجنود من النوم على صوت

الرصاصة ليواجهوا مشكلة فادحة لم تطرأ لهم على بال ، وهي انفجار محطة المجارى وتنفق المياه والقاذورات منها الى المعسكر . . ويهدوء رجوع الفدائيون كل الى داره ولم يصب منهم سوى أحدهم برصاصة (١) في عينه بعد أن حققوا الهدف الذى سعوا اليه . وفي الصباح أذاع راديو فايد :

« ان جماعة من الوطنيين هاجموا محطة المجارى بمعسكر الاسماعيلية وألقوا بداخله لغماً أحدث انفجاراً مدرياً وقد تسبب عن ذلك قتل سائق سيارة وجندى واحد . .

وبمناسبة اصابة زميل الفدائي في عينه تحضرني هذه الواقعة . فقد كانت اصابة الفدائي في عينه على شيء من الخطورة ، فسافر به اثنان من الفدائيين أحدهما ضابط طيار ، والثاني محام شاب الى الزقازيق لمعالجته عند دكتور عيون ونائب وفدى مشهور طالما تشدق بمساعدته للفدائيين ، وكان على شيء كبير من اليسار ، وأجريت للمريض عملية جراحية بسيطة أكد الطبيب بعدها أن الوطنى ميثقى في مدى يومين أو ثلاثة ، وفرح صاحبه لنجاح العملية واعتقد أن الدكتور الوطنى الكبير لن يتقاضى منها اجراء مساهمة منه في الكفاح . وعندما هموا بالانصراف طالبهما الدكتور بمبلغ جنيتين أجر العملية قائلاً لهما بأنه راعى الظروف وخفض الاتعاب من خمسة جنيهات الى جنيتين فقط الاول تسكن قيمة الاتعاب هى التى كانت تشغل بال الوطنيين وانما لأنه لم يكن معها وكذلك المريض سوى مائة وأربعين قرشاً دفعوها له وخرجوا خالي الوفاض ١١ وإذا كان هذا هو موقف الدكتور مدعى الوطنية ، فقد كانت هناك مواقف أخرى كريمة من أناس أقل يساراً بكثير من هذا الدكتور .

وأذكر على سبيل المثال أنه في أوائل ديسمبر سنة ١٩٥١ كان الشاب المحامى يقود سيارة جيب بها بعض الفدائيين متجها بهم الى بلدة التل ، وعند أول ضاحية المطرية وقف لتموين العربى بالبترين والزيت ، ولما هم يدفع الحساب أخبره العامل أن هناك من قام بسداد المطلوب ، ولما سأله عن يكون هذا الشخص ، أشار

(١) عبده نفس من أمالى الاسماعيلية .

بهذه الحقوق المنتهبة وأنهى الطلبة البيان بمطلبهم . بأنهم يرون أنه يجب على الحكومة المصرية أن تبلغ الحكومة البريطانية تليفا رسميا أن الجانب المصرى لن يقدم على المناوضة الا على أساس الجلاء ووحدة وادى النيل .

ثم خرج الطلبة من حرم الجامعة قاصدين ميدان عابدين لابلأغ رغباتهم وقراراتهم وعندما أرادوا عبور كوبرى عباس وجدوه مفتوحا قتل بعض الطلبة تحت الكوبرى ونجحوا فى قفله وأثناء عبورهم فاجأهم البوليس واعتدى عليهم اعتداء وحشيا وحاصر الكثير منهم ممن لم يتمكنوا من الوصول الى حرم الروضة حتى أن الطلبة كانوا يلقون بأنفسهم فى النيل هربا من هذا الاعتداء المفاجئ. ويروى شاهد عيان بأن التوتية كانوا يلقون من يسقط من الطلبة فى النيل ويلتقطونهم فى قواربهم أما الذين نجحوا فى عبور الكوبرى فقد ظل البوليس يتعقبهم واعتدى عليهم اعتداء وحشيا مما حدا بالطلبة الى اللجوء للمنازل القريبة يحتمون بها من هذا العنف وكان أصحاب الدور يفتحون لهم منازلهم ويأوونهم ويضمضون جراحهم وقد أصيب أثناء ذلك ٨٤ طالبا بإصابات بالغة ونقلوا الى القصر العيني للعلاج .

وفى اليوم التالى تجددت المظاهرات وخرج الطلبة ييغون الوصول الى رياسة مجلس الوزراء وقصر عابدين لينهوا الى المسئولين برغباتهم وما اتخذوه من قرارات ولم يقل من عزمهم ما لا قوه بالأمس ولكن قوات البوليس حاصرتهم أمام حديقة الحيوان من كل ناحية واعتدوا عليهم بقسوة وتعقوبهم فى كل مكان حتى أن بعض الطلبة استقلوا المراكب الشراعية فما كان من رجال البوليس الا أن تعقبهم وقبضوا على بعضهم وكانت مطاردة من نوع فريد ولم تكن مظاهرات القاهرة وحدها التى قامت يومى ٩ و ١٠ بل حدثت مظاهرات أخرى فى الاسكندرية والمنصورة والزقازيق وأسيوط وأسيوط ، واستشهد بها سبعة من الشهداء عدا الكثير من الجرحى .

وخلت البلاد من أقصاها الى أقصاها تتأجج بفورات السخط والغضب ولم يبدأ الطلبة فى الايام التى تلت يومى ٩ و ١٠ من فبراير بل ظلوا يوالون الاجتماعات

الانجليز يفقدون اعصابهم :

كانت أعصاب الانجليز مشدودة بعد رحيل أسرم ، ونتيجة لأعمال الفدائيين المتزايدة ، وبخاصة بعد عملية نسف بجارى نفيسة ، فهاوردوا الاعتداء على الأهالى والمواطنين ، وكانوا يطلقون النار لأبسط الأسباب محاولين بذلك استفزاز شعور الأهالى واثارتهم ، ففى بلدة القرين سلب الانجليز مدافعهم عليها وأمطروها بوابل من قنابل الهاون والفيكرز فأصابوا المستشفى الوحيد بالبلدة المقام فى مواجهة المعسكر كما هدموا بعض بيوت الفلاحين بما حدا بقيادة الفدائيين الى نقل المرضى منه الى مستشفى أبو حماد ، ثم اتخذ الفدائيين مركزا لهم بعد ذلك يوجهون منه الضربات للانجليز الذين كانوا يشاهدون بسهولة من هذا المكان أثناء غنوم ورواحهم وقد ساء أهالى القرين فى الكفاح الوطنى واشترك الكثيرون منهم فى محاربة الانجليز كما تحملوا الخسائر التى أصابتهم من هدم منازلهم واتلاف مزارعهم بنفس واضية . وكانوا يقفون جنبا الى جنب مع الفدائيين كلما حاول الانجليز تطويق البلدة أو حصارها وما أكثر ما حاولوا . وعندما كان يشتد اطلاق النار كانوا يتركون أعمالهم ويهجرون مزارعهم ويخرجون بنادقهم العتيقة من أماكنها ويظلون الساعات الطويلة يطلقون الرصاص على الانجليز المحتمين وراء دباباتهم جنبا الى جنب مع الفدائيين . وحدث عندما علم أهل القرين بوجود « عزيز المصرى » القائد العام للوطنيين بها أن ترك الجميع بيوتهم ، وهجروا فراشهم ، وقد كانت الساعة تزحف نحو الثانية عشرة مساء وذهبوا ليلتقوا بالقائد العظيم فى المستشفى عارضين عليه أنفسهم وأصروا على أن يتبرعوا بما لديهم من أموال — كل على قدر حاله — مساهمة منهم فى معركة النضال الشعبى .

هذا ما كان من أمر بلدة القرين ، أما ما فعله الانجليز فى الاسماعيلية فهو بصور بجلاء مدى توتر أعصابهم وفقدانهم لرشدهم ، فقد ضربوا جام غضبهم على المدينة وقاموا بالاعتداء على المواطنين ورجال البوليس اعتداء وحشيا يرم عن الضئيلة والحقد ويتفق تماما مع ما جبلوا عليه من خدر وخيانة .

فقد أصدرت القيادة البريطانية الأمر لجنودها بأن يتحشروا برجال بلوكات الحفر الذين كانوا يقيمون بمبنى المحافظة بالاسماعيلية بعد أن جلبتهم الحكومة لحفظ النظام والأمن بالمدينة .

وفي صباح يوم السبت الموافق ١٧/١١/١٩٥١ أطلق بعض الجنود النار على رجال البوليس دون سبب ، فأصابوا اثنين منهم ، ولكن جنود البوليس جمعوا شملهم وحصنوا أنفسهم ورددوا على هذا العدوان المفاجيء الذي لا مبرر له بالمثل . ولكن الانجليز طلبوا النجدة وسرعان ما جاءت قوات كبيرة من الجنود تريد مهاجمة الدبابات وحاصروا مبنى المحافظة وظلوا يطلقون النار من كل جهة على جنود بلوكات النظام الذين كانوا يدافعون ببنادق قديمة ، وبذخيرة ضئيلة ومضى يوم ١٧/١١ ، وفي اليوم التالي عادوا الى ضرب المبنى بقوة أشد . وحلقت الطائرات الانجليزية فوق أرض المركة لالقاء الرعب في قلوب المحاصرين ، وتقدمت الدبابات بمدافعها تحاول اقتحام الموقع ولكن رصاص جنود بلوكات النظام كان يرددهم على أعقابهم خاسرين فينسحبوا ليقابلوا رصاص الفدائيين الذي كان ينال عليهم من كل صوب وحذب ، من المنازل ، ومن الشوارع ، ومن الحارات الضيقة المحيطة بالمنطقة ، فيصيبهم الحوس لهذه المقاومة الجريئة وتتهار أعصابهم لعدم تمكنهم من الاستيلاء على مبنى بسيط مكشوف يدافع عنه أشخاص غير حربيين ولا مدربين ، ويحاربون بأسلحة بدائية وبذخيرة محدودة ، وهم الذين يملكون المعدات الحربية الحديثة بشق أنوعها وعلى الرغم من ذلك فقد صبروا عن اقتحامه يومين كاملين واضطروا الى احتلال مبنى الاسعاف المواجهة لمبنى ثكنات بلوكات النظام بعد أن طردوا من فيه من جرحى ومرضى ، وألقوا بهم الى عرض الطريق بما استتبع ذلك من عنت وتتكيل وفاق ذلك العمل من أمداد لأبسط مبادئ المدلول والقانون الدولي . وبعد نجهاد مرير يزيد على أربعين ساعة نفذت ذخيرة المدافعين واقتحم الأوغاد أبطال ذلك مبنى بلوكات النظام ، ومع ذلك فقد كانت الخسارة متعادلة . فبينما كان عدد القتلى من المصريين ثمانية جنود وخمسة من المدنيين نجد أن القتلى من الانجليز : ثمانية منهم خمسة ضباط ، أما الجرحى فتعادل ٢٠ من الطرفين .

وبعد هذه المعركة اتصلت القيادة البريطانية بالحكومة المصرية تطلب الاذن لها بنقل باقى افراد الامر البريطانى من داخل المدينة الى المعسكرات البريطانىة توطئة لترحيلهم الى انجلترا ..

وقد وافقت الحكومة على ذلك بشرط انسحاب الجنود الانجليز من المدينة وعدم ظهورهم بها ، وأن يوكل الى المصريين أمر المحافظة على الأمن وتم الاتفاق على ذلك فى يوم ١٩/١١ . ونفذه كل من الطرفين ، وسمى هذا الاتفاق باتفاق أرسكين غزالى لانه تم بين القائد البريطانى أرسكين ومحافظة القنال عبد الهادى غزالى . وتمكن الانجليز بواسطة الاتفاق من ترحيل باقى أسرهم ، وبذلك وصل عدد الافراد الذين رحلوا من مصر الى انجلترا حوالى ٤٥٠٠ سيدة وطفل .

معارك السويس :

لم تكن بالسويس حتى ذلك الوقت معارك تذكر بين الوطنيين والانجليز لان القوات البريطانىة كانت قد فصلت منطقة القنال عند الكيلو ٩٩ من طريق القاهرة السويس فصلا تاما وضربت عليه ستارا من حديد .

وهنا قد يتساءل البعض : كيف لم يواصل الفدائيون أعمالهم فى منطقة السويس بعد فصلها باغلاق الطريق عن الكيلو ٩٩ من طريق : القاهرة — السويس مع أنهم واصلوا العمل بعد اغلاق الطريق عند الكيلو ٩٠ من طريق القاهرة — الاسماعيليه — وللإجابة على ذلك نقول : انه كانت هناك عدة طريق يسلكها من يريد الذهاب الى الاسماعيليه ، بينما لم يكن هناك الا طريق واحد يصل بين القاهرة والسويس ، ولذلك فقد تأخرت العمليات بعض الوقت بالسويس ، ومع ذلك فقد قام الوطنيون بتنظيم فرقة بها بعد أن وحدوا جميع الكتائب وضموها اليها وأمدوها بالسلاح والمال ، وكان من أعضائها كثير من حاربوا فى فلسطين تحت قيادة المرحوم البطل أحمد عبد العزيز ولذلك سميت بكتيبة أحمد عبد العزيز ، وكان أول ظهورها واشتراكها الفعلى يوم ١٩٥١/١٢/٣ وتفصيل ذلك أنه بينما كان عدد من بلوكات

النظام لا يمتد إلى العشرين جنديا وعلى رأسهم ضابط صغير برتبة ملازم أول (ألني ثمان) يستقلون سيارة من سيارات نقل الجنود في طريق السويس أن تعطلت فترجلوا وحاولوا دفعها ليصلوا بها إلى أقرب مكان يصلحونها فيه ، وإذا بهم يفاجأون بالجنود البريطانيين يطلقون عليهم النار دون سبب ، ونشبت معركة غير متكافئة ، وهب أهالي مدينة السويس وعلى رأسهم كتيبة أحمد عبد العزيز ، واشتركوا في القتال الذي انقلب في لحظات إلى معركة كبيرة سميت بمعركة السويس الأولى .

والواقع أن الانجليز لم يطلقوا النار على جنود بلوكات النظام بلا سبب بل انهم كانوا قد يئسوا النية للاستيلاء على المدينة ورصدوا لذلك سبعين سيارة من سيارات نقل الجنود تتقدمهم الدبابات والمدافع وما كان إطلاقهم النار على رجال البوليس الا تمهيدا لهذا الاستيلاء .

وأعود لأبين كيف سارت المركة الغادرة التي رسم خطوطها الانجليز الغادرون ، فقد بدءوا يطلقون النار على جنود بلوكات النظام حوالي الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ١٩٥١/١٢/٣ وانضم الأهالي إلى رجال البوليس ، وخرجت كتيبة أحمد عبد العزيز تنظم القتال وتوزع السلاح . ولما شعر الانجليز بشدة كفاح شعب السويس توجهت خمس عربات محملة بالجنود البريطانيين إلى طريق الزيتية لتطويق الأهالي ، ولكن أفراد كتيبة أحمد عبد العزيز تنهبوا لذلك وقطعوا عليهم الطريق المؤدى إلى الزيتية ، ونشبت معركة أخرى رجحت فيها كفة الوطنيين ، وأحرقوا أربع عربات من الخمس التي كان بها الانجليز ، وقتلوا ما يزيد على عشرين جنديا منهم ضابط برتبة ميजर وجرح حوالي سبعين جنديا آخرين ، وولى باقي الجنود الانجليز الفرار ، وكانما خرجوا من هذا العشل .. فأصدرت القيادة البريطانية لقواتها التي أعيدتها من قبل ، والتي كانت تستعد لاحتلال المدينة ، أوامرها بتأديب أهالي السويس ، فتوجهت السيارات السبعون بمن فيها من جنود مسلحين بالمداافع الرشاشة والبنادق إلى المدينة وصبت عليها وابلا من الرصاص ، وقد قابلهم

الاهالى بالمثل ، وانضم رجال البوليس الى الشعب ، واستمر اطلاق النار حتى غربت الشمس فانسحب الانجليز حاملين معهم قتلام وجرحاهم وقد قتل منهم زيادة على العدد السابق حوالى اثني عشر قتيلًا ، وجرح مايربو على أربعين جريحًا، وبذلك بلغ عدد قتلام يوم ١٩٥١/١٢/٣ بين جندى وضابط سبعة وثلاثون وجرح منهم مالا يقل عن مائة وعشرة جرحى ، وقد استشهد من الوطنيين ٣٤ شهيدا كما جرح ستون وعندما خيم الفلام كانت المدينة الحزينة يحلها السواد حزنا على شهدائها وجرحاها ، ولستها لم تتم هذه الليلة فقد ظل أبناؤها طوال الليل يقيمون الاستحكامات وينظمون وسائل المقاومة ويوزعون السلاح على الاهالى . وفى الصباح — وهو يوافق يوم الثلاثاء ٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ عاود الانجليز هجومهم على السويس بقصد الانتقام لما أصابهم فى اليوم السابق وكانوا قد أعدوا لهذا الهجوم فرقة لواء المظلات السادسة عشرة ، وهى من خيرة جنودهم ، وكان هذا اللواء مزودا بمدافع الهاون والفيكرز السريعة وظلوا يطلقون النار على المدينة نهارا ساعة ما يقرب من ذلك ثم بدأوا فى الزحف ولستهم ماكادوا يقربون المدينة حتى تصدى لهم الاهالى وأطلقوا عليهم نيران بنادقهم من نوع (لى انفيلد) وكانت كمية أحمد عبد العزيز قد زودت بالكثير من قنابل الميز وزجاجات كوكتيل مولوتوف فاستعملها أفرادها وألقوا بالكثير منها على السيارات البريطانية فاشتعلت النيران فى عدد منها ، وقد ألقت هذه القنابل الرعب فى قلوب الانجليز الذين لم يكونوا ليتصوروا أن شعب السويس قد استعد كل هذا الاستعداد حتى انه بدأ فى صنع القنابل ، ولذلك انسحب لواء المظلات عندما رأى شدة مقاومة أهالى السويس ، وكان الفيظ يملا نفوس أفرادها وأثناء عودتهم شاهدوا بعض الاهالى يشيرون جنازة أحد الشهداء وهو المرحوم حننى زهران ، وقد شيعه شعب السويس دون باقى الشهداء تميدا لنقله إلى بلده بالقازيق وعندما وصلت الجنازة إلى كوبرى المويس رأى لواء المظلات أن فرصة الانتقام من الوطنيين قد حانت فهاجروا المشيعين العزل الآمنين وأطلقوا عليهم النار ، وانضم اللواء المظلات القائد العام لمنطقة القتال الجنوبية البريجادير جون كولفيلد بقواته وبدأوا فى تنفيذ عملية لآبادة

المشيعة ، وهي إحدى العمليات التي يهيدها الانجليز تماما كلما رأوا أمامهم رجلا عزلا .

وبذلك ازداد عدد الشهداء . وارتفع رقم الجرحى .. ولكن الانجليز خسروا كذلك خسارة فادحة على الرغم من استعدادهم الفائق ، وذلك أنه عندما حاول لواء المظلات اقتحام المدينة بعد انتصاره على قوّل المشيعة . قابلهم رصاص الأهالي فسقط منهم ٣١ قتيلًا ، وبلغ عدد جرحاهم ثمانين أى أنهم فى نصف يوم خسروا ٦٨٠ قتيلًا و ١٩٠ جريحًا . وهذه الأرقام قد راعت فيها الدقة التامة ، وهى بطبيعة الحال خسائر جسمية بالنسبة للانجليز لم تكن فى حسابهم لأنهم لم يترقبوها . ولكن هل يكت الانجليز على هذه الهزيمة التى حافت بهم على يد شعب أعزل ؟ وهل يقنع أرسكين واكسهايم وكولفيلد بهذا الوضع المثير الذليل ؟ الواقع أنهم لم يرضوا ولم يسكتوا وانما سبروا أربع ليالى لا يغمض لهم جفن ، والحقه الأسود يفرى قلوبهم ، وخرجت القيادة البريطانية بعد هذا السهر الطويل لتعلن على الملأ أنها ستزيل حيا بأكله من السويس ، وجندت اثني عشر ألف جندي بدباباتهم ومصفحاتهم ومدافعهم وطائراتهم لتنفيذ هذا القرار الهمجى البعيد كل البعد عن أبسط مبادئ الانسانية ، ولم يكن له من دلالة سوى الانتقام واستعراض عضلات الأسد البريطانى الجريح ، لأن هذه المنطقة لم يكن لها أية قيمة عسكرية والحى الذى أرادت بريطانيا أن تجعله مسرحا لها هو كثر أحمد عبده .

٣ - موقعة كفر أحمد عبده

الانذار البريطاني

اجتمعت القيادة البريطانية ووجهت انذارا للسيد ابراهيم زكي الحسولي محافظ السويس تذكر فيه أنها قد عازمت على هدم كفر أحمد عبده في صباح يوم ١٢/٧/ ١٩٥١ ، وازالته من الوجود بمقولة أنه بين وابور المياه المملوك للقوات البريطانية وبين باقى المعسكرات ، والقيادة البريطانية لا يعجبها أن ترى منازل الأهالى وعددها ١٥٦ منزلا تقع فاصلا بين منشأتها . واجتمع المحافظ بكنية أحمد عبد العزيز ونائب الدائرة وبعض الوطنيين وتباحثوا فى أمر هذا الطلب الغريب ، ورأوا أن يتصلوا بوزير الداخلية الذى رفض الانذار ومقاومة القوات البريطانية بكل وسيلة ، ولكن الانجليز عززوا انذارهم الاول بانذار آخر قالوا فيه أنهم أجروا عملية الهدم ٢٤ ساعة ، وانهم مصممون على احتلال هذا الحى وهدمه وازالته من الوجود وضمه لأملاك الامبراطورية فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٢/٨ ، ومنذ الساعة الرابعة من مساء يوم الجمعة ١٢/٧ بدأت القوات البريطانية تتدفق حول مدينة السويس حتى أحاطت بها من جميع الجهات ، وتقدمت البوارج البريطانية من الميناء حتى أصبحت على مقربة منه ، وظلت الطائرات تحلق طوال الليل فى سماء المدينة المنكوبة ، ولم تهدأ الدبابات ولا السيارات المصنعة طوال يوم الجمعة ٨ ديسمبر ، وقد رأى المحافظ ومن معه من الوطنيين أذا المقاومة لن تجدى ، بل هى ضرب من الانتحار ، فاتصلوا بوزير الداخلية مرة أخرى ليطلعوه على الموقف فأجابهم بأن مجلس الوزراء اجتمع بمنزل رئيس الوزراء مصطفى النحاس وقرر رفض الانذار ومقاومة الانجليز وشعر المجتتمعون أن مجلس الوزراء يهزل ، وأن أهالى مدينة السويس هم الذين يقدرون الموقف حق قدره فالمقاومة معناها إبادة سكان كفر أحمد عبده على بكرة أبيهم ، فضلا عن الخسائر الأخرى التى تصيب أهالى المدينة فأخذوا على عاتقهم عدم تنفيذ قرار مجلس الوزراء وأمروا سكان الكفر بمغادرته . وحسنا فعلوا .

تنفيذ الانذار :

وفي الصباح الباكر من يوم ٨ ديسمبر زحف ١٢ ألف جندي بريطاني تتقدمهم الدبابات والسيارات المصفحة والمدافع وترفرف فوقهم على ارتفاع بسيط مستون طائرة حق وصلوا الى كفر أحمد عبده وبدأت الموقعة التاريخية التي هياها لهم وهم قادة بريطانيا الاذاذ فوضعوا المواد المتفجرة والديناميت في البيوت فنسفها ، في حين كانت الدبابات تتم باقي العملية بتدوية الانقاض المتخلفة من النسف والحريق حتى أتوا على الحى بأكله ، وبهذا انتصرت بريطانيا العظمى على عدد من المنازل . انتصرت حسب خططها الموضوعة باتقان ، وضعا قواد الحرب الانجليز الجزالات أرسكين واكسهايم وكولفيلد .

ومهما قيل في أمر هذا العمل الممجى الوحشى فان له دلالة واحدة هي أن الامبراطورية أرادت أن تنتقم لضحاياها الذين سقطوا في كل مكان وانها لم تكن تتصور أن المقاومة الشعبية متصل إلى درجة أن يخسر الانجليز هذا العدد الضخم من الضحايا .

ولقد انعكس ذلك على أقوال المسترلين منهم فيما بعد فقد قال السير أنطوني آيدن صراحة بعد ذلك عندما اجتمع بوزير الخارجية المصرية محمد صلاح الدين يوم ١٢/١٨ أن بريطانيا لا يمكنها مفارضة مصر في الوقت الذى تتوالى فيه الهجمات على القوات البريطانية .

وقد أذاعت السفارة البريطانية بيانا رسمياً يرددها المعنى في ١٢/٢٠ اذ قالت : (وينبغي ألا يغيب عن البال أن الشرط لتحقيق أى تقدم في هذه المباحثات) (يقصد مباحثات صلاح الدين - آيدن) ، هو أن توقف الحكومة المصرية اتخاذ التدابير ضد المصالح البريطانية في مصر ، وأن توقف عن أعمال الارهاب والتهديد في منطقة القتال .

ولا يهمننا بعد ذلك ما تكبدت مصر من خسائر في الأرواح والمال قدر اهتمامنا بأن المقاومة الشعبية كانت تزداد وطأتها شدة يوماً بعد يوم باعتراف الانجليز أنفسهم حتى أنهم جعوا وقف نشاطها أول شرط من شروط الاتفاق

على الجلاء . بل تعدى أثر ذلك خارج نطاق مصر وانجلترا فقد كانت أمريكيات تابع
بقلق واضح سير الأمور في مصر .

اذ ألقى مسئول أمريكي بيانا قال فيه : (بلغت الدوائر العسكرية الأمريكية
بنيويورك تقارير سرية تدل على أن عدم التعاون الذي أظهره الشعب المصري ضد
القوات البريطانية في قناة السويس أصبح يكلف انجلترا عشرات الملايين من
الجنيهات عدا النفقات العادية للقاعدة البريطانية والحسائر المادية الأخرى . وقد
بحث القواد في عدة اجتماعات عن قواعد في الشرق الأوسط يمكن أن تحل محل
قناة السويس) . ولعل هذا ما حدا بالقوات البريطانية بأن تطلب من المسئولين في
مصر طلبا ساذجا وغريبا ، فقد طلب أحد القواد الانجليز من وزير الخارجية
المصري بأن تبيع مصر لبريطانيا منطقة القناة .. ويذكرنا هذا القائد المخمور
بذلك الساذج الذي أتى مصر لأول مرة ، وعندما رأى الترام وركبه وأعجب به
أراد أن يشتريه .. وقد تجلى حنق البريطانيين على حركة الفدائيين عندما حضر الجنرال
بريان روبرتسون قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط إلى مصر ٣١/١٢/١٩٥١
وأدلى ببيانه المعروف إلى الحكومة المصرية ، اذ قال : . ان التعرّيج الذي
أدلى به الآن هو متفق عليه من رئيس الوزراء ونستون تشرشل ، وأقول أنه خطأ
كبير أن يذهيل أي انسان أن أعمال الضغط والارهاب وما يتلوها من نتائج لا مفر
منها تؤثر بأي شكل من الأشكال في عزمنا ، وإذا اقتضت الضرورة ذلك فاننا
سنستمر في أعمال المقاومة شهرا في أثر شهر بل وشهورا عديدة اذا احتاج الأمر
ومستقابل القوة بالقوة مستخدمين من جانبنا ما لا يزيد على الحاجة ، ولدينا القوة
الكافية تحت تصرفنا كما لدينا التأييد من عدة بلاد أخرى فلا يخدعنا امرؤ نفسه
بالنفكير في أننا سنغير سياستنا على مر الوقت أو نتيجة للارهاب . .

ومن يسمع أو يتصفح هذا البيان دون أن يعرف من أصدره ، فانه سيقدر
على الفور أنه صدر من الجانب المصري ، فلقد صورت القوات البريطانية
موقفها كمن يعتدى عليها ووضعت نفسها موضع المظلوم المضطهد الذي
يدافع عن نفسه ويرد العدوان ويقاوم الغاصب ولا تصدر جملة وأنتا سنبستمر

في أعمال المقاومة شهراً في أثر شهر ومستقابل القوة بالقوة ، الا من شعب مضهد
يرنو إلى الحرية ويحاول مقاومة غزاة طغاة معتدين ، ومهما يكن من أمر فان
الانجليز قد شعروا بوطاة الكفاح الشعبي وبدأوا يشكون ويتنون منه وهذا أقصى
ما كان يرنو اليه ويتمناه الوطنيون في مصر .

معارك في كل مكان :

لم يتمكن الوطنيون من الوصول إلى بورسعيد لبعدها ولأنك بدأت وكأنها
بمنزل عن باقي مدن القنال حتى أخبارها كانت متقطعة عنا ولا يعنى ذلك أن شعب
بورسعيد لم يحاول مقاومة الانجليز بل على العكس فانه منذ الاعتداء الوحشي
الأول على الاسماعيلية والوطنيون ببورسعيد يتوجسون خيفة فكسروا فرق
المقاومة التي قامت ببعض العمليات المتفرقة على الرغم من قلة السلاح والذخيرة
وبعد الشقة بينها وبين القاهرة مصدر التنظيم والوحى ، وقد حدث أن أذاعت
وزارة الداخلية البيان الرسمي التالى من بورسعيد في ١١/١١/١٩٥١ أى في أوائل
أيام الكفاح .

وحضر لقسم القنطرة أمس ضابط انجليزى برتبة بكباشى ومعه بعض الضباط
البريطانيين وابلغوا أنهم في الساعة الثامنة والنصف صباحاً بينما كانوا يستقلون
سياراتهم في طريق بورسعيد القنطرة اعترضتهم عربة جيب وأطلق عليه أحد
الأشخاص الذين يستقلونها ٢٥ عياراً نارياً من مدفع اشتى وأصاب الجندى
البريطانى الذى يقود سيارتهم وقد طلب الضابط القبض على السيارة والفدائيين
الذين كانوا بها وهددت القوات الانجليزية بالقبض على الضابط رئيس نقطة القنطرة .

وقد كان من أثر مقاطعة المصريين للانجليز وعدم التعاون معهم وما كان
يعتمل في قلوبهم من كراهية كانت تزايد يوماً بعد يوم أن وقع احتكاك بين
الوطنيين والقوات البريطانية في حى العرب ما لبث أن اتسع نطاقه واتعم الطرفان
ونشب معركة استعمل فيها الوطنيون بجانب البنادق المدى والسكاكين
والحجارة ، وظلت المعركة دائرة الى ما قبل غروب الشمس عندما انسحبت
القوات البريطانية الى ثكناتها وقد رأى الوطنيون في بورسعيد بمسند

هذه المعركة أن من واجبهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد . والتأهب لمقاومة الانجليز في أى وقت وقد قاموا بعدة عمليات متفرقة منها مهاجمة مخازن « النيق » واحراقها كما قاموا باشتعال النار في مخيمات الانجليز على حدود المدينة وقد استشهد في احدى هذه الغارات الطالب الصغير نبيل منصور وكان قد استنزته الأعمال الارهابية التي قام بها الانجليز فصمم على الاشتراك في النضال حتى استشهد وذهبت روحه إلى بارئها .

أما باقى مدن القتال فقد كانت تقاوم كذلك ، ففي يوم ١٢/١٩٥١ حدث أن تسفالفدائيون محطة مياه معسكر التل الكبير بعد أن اشتبكوا مع نقطة الحراسة . وفي يوم ١٤/١٢/١٩٥١ هاجموا ميناء قنارة وأشعلوا به النار .

وفي يوم ١٦/١٢/١٩٥١ هاجموا محطة لاسلكي الفردان وتمكنوا من وضع ألغام الديناميت تحت الصواري العالية ونسفوها واشتملت الزيران في المحطة وقد نتج عن هذا الهجوم خسائر مادية كبيرة اعترفت بها اذاعة فايد اذ ذاك .

وفي يوم ٢٨/١٢/١٩٥١ هاجم الوطنيون نقطة الحجر التي تقع بعد أبي حماد في طريق التل الكبير واشتبكوا مع القوات البريطانية التي كانت تعسكر بها .

وفي ليلة عيد الميلاد أي في يوم ٣١/١٢/١٩٥١ مساءً شن الوطنيون بالاسماعيلية هجوماً عاماً على القوات البريطانية أثناء احتفالها برأس السنة الميلادية فاتخذ بعض الوطنيون مواقعهم في منزله بشارع محمد علي أمام محطة ترشيح المياه المجاورة لنادي الضباط وكن البعض الآخر في النضام المجاور للترعة المؤدية إلى بورسعيد في مواجهة معسكر الطيران وأما باقى الوطنيين فكانوا في أماكن متفرقة في شارع الثلاثين أمام هيرت هاوس وبجوار كوبري سالا في مواجهة القوات البريطانية ، وفي تمام الساعة الثانية عشر مساءً هاجم الوطنيون الانجليز في جميع هذه الأماكن في وقت واحد ، وقد روع الانجليز من هول المفاجأة وتحولت الحفلات الساخنة إلى فرع ورعب وحاولو الهرب فتمسكهم الفدائيون برصاص بنادقهم ، وجاءت امدادات

الانجليز ترى والتحت مع الوطنيين وأطلقت قنابل مدافعها على المدينة واستمر الرصاص يدوى فى كل مكان حتى انفجروقتل من الانجليز فى هذه المعارك ١٢ قتيلًا وجرح ١٨ وقد علق راديو فايد . على هذه المعركة فقال : (أن بعض الارهابيين حاولوا بقوة منظمة ، وبخطة مدروسة الهجوم على معسكرات طيران الاسماعيلية ونادى الضباط و ترانسيت كامب ولكن قواتنا ردتهم على أعقابهم وكبدتهم خسائر).

وفى يوم ٣ يناير نسف الوطنيون مخزن الذخيرة الواقع على بحيرة التمساح الواقع بالقرب من الاسماعيلية بعد أن تمكنوا من الدخول إلى مرذايين من مراديب الذخيرة عن طريق الأبواب البحرية . وقد اعترف راديو فايد بهذا الانفجار ، وهددت القيادة القرى المجاورة التى يأوى اليها الوطنيون بهجوم شامل ، وقد أرسل أرسكين بعد ذلك إلى وزير الحرية البريطانية باقتراحين للانتقام من الوطنيين : أولهما القبض على الوطنيين وارسالهم إلى انجلترا أو استراليا لمحاكمتهم أمام محاكم عسكرية ، وثانيهما فرض غرامات فادحة على المدن والقرى التى تقع فيها أو بجوارها الحوادث ولكن كلا الاقتراحين رفضا .

وفى ١٢ يناير هاجم الوطنيون معسكر أبو صوير وقتلوا اثنين من الانجليز وقامت قوات كبيرة من البريطانيين لتتقب الفدائيين لتقبض عليهم ، وتبسمتهم حتى عزبة عبد الحميد صادق المحامى ، أحد المحامين الذى كانوا يساهون فى الكفاح ، والواقعة فى الضفة اليمنى لقرعة الاسماعيلية وانتحمت الدبابات العزبة من ثلاث جهات وحاصرتها ودخلت منزل المحامى وأطلقت أثاثه وقبض الانجليز على بعض الوطنيين كما عثروا على بعض الاسلحة وتمكن المحامى ومن معه من الوطنيين من الهرب عن طريق الصحراء إلى القاهرة وباختصار كانت المعارك تدور فى كل مكان وقد أحال الوطنيون حياة القوات البريطانية إلى ما يشبه الجحيم فلا عجب اذا عبر قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط عن شعوره ازاء هذه العمليات وبدأ يصرخ ويبيكى من ظلم المصريين له ولقواته عندما أدلى بتصريحه الذى سبق الإشارة اليه مهددا . بأننا سنستمر فى أعمال المقاومة شهرا فى أثر شهر وسنقابل القوة بالقوة.

(بيان الجنرال روبرتسون في ١٢/٣١/١٩٥١) ..

اللقم :

كان الوطنيون يحاربون الانجليز في كل مكان ، وكانوا يبحثون عن كل ما من شأنه اقلافهم وتكبيدهم أفدح الخسائر . وقد رأوا أثناء نضالهم اغراق أية باخرة انجليزية أثناء عبورها لقناة السويس ، ففضلا عما يصيب الانجليز من وراء ذلك من خسائر في الأرواح والأموال فإن هذا العمل سيكون له أثر بالغ في المجال الدولي ، لأنه يعني قتل القناة أمام جميع السفن على اختلاف جنسياتها ، ومن ثم يأخذ الكفاح مظهرا دوليا ويخرج من الحيز الضيق إلى المحافل الأجنبية .

وقد فكر الوطنيون بآدى الأمر في التربع بالسنن الانجليزية على الشاطئ . ثم ضربها بمدفع من نوع بازوكا . وقد خشي من فشل هذه العملية ، ولذلك رتب اغراق السفينة بواسطة لغم بحرى زيادة في الحيلة ، وأعد التشكيل العسكرى اللغم ، ولكن بعد جهد ، وكان من الصخامة بحيث أن الوطنيين عجزوا عن نقله إلى منطقة القتال ففسروه إلى أربعة أجزاء وضموها في عربة جيش لتوصيلها إلى أعضاء التشكيل المقيمين برفح ، على أن يعاد تركيبه في رفق ثم يرسل إلى القنطرة لاتمام العملية هناك ، وتم نقل اللغم دون تركيب ومار بالصيد الثمين إلى القنطرة حيث تسلبه الضباط الأحرار أعضاء التشكيل العسكرى وأعادوا تركيبه هناك ثم أخذوه إلى حين تنفيذ العملية وكان ذلك في آخر ديسمبر سنة ١٩٥١ . وقد حال دون تنفيذ هذه العملية المعارك العنيفة التي خاضها الوطنيون ضد الانجليز وخاصة معركة التل الكبير وسلسلة الجازر التي أقدمت عليها بريطانيا بعد ذلك والتحام الوطنيون في هذه العمليات بما اضطرهم إلى تأجيل عملية اللغم أو التيتل كما كانوا يسمونه وقتذاك زيادة في الحيلة والحرص .

الملك والمقاومة :

منذ إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وقيام الوطنيين بالكفاح في القتال والملك السابق

فاروق ينظر بعين المتوجس المتربص الخائف ، فهو بين أمرين إما أن يساعد الحركة ويباركها وفي ذلك ما يغضب أسياده الانجليز . وإما أن يناهض الحركة ويمادى الشعب والدولة التي يتربع ملكا عليها . وهما أمران أحلاهما مر ١١ وإن كان يفضل عدم إثارة الحاكم ، الأمر الحالس بقصر الدوبارة لأنه لم يكن قد نسي درس ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ والطمة التي وجهها السفير البريطاني ميرمايلز لامبسون لاثزال واضحة المعالم على وجهه .

ولم يكن تحالفه مع الانجليز هو وحده الذي أبعدته عن الشعب ، وإنما كانت هناك مبادئ ، ومساخر . وآخر ، ونساء — وقد بينا ذلك فيما سبق ورأينا كيف ابتعد فاروق عن الشعب بعد حادثة ٤ فبراير كلية ، بعد أن كان ابتعاده جزئيا خاصة بعد المظاهرات التي قام بها طلبة الجامعة خلال شهر ديسمبر وهتفوا فيها بسقوطه ، وأنزلوا صورته وداسوها تحت أقدامهم ، وسمع فاروق هذه الهتافات لأول مرة فارتعدت فرائصه — ومن أجل ذلك كان يخشى من حركة الوطنيين بالقتال فظل يتابع الحركة ، ويرصد حركاتها ، ويبحث عن الأسماء التي وراءها حتى اهتدى إلى مركز المقاومة في مصر ، وكان بمكتب أحد المحامين . وفي أواخر شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ اتصل مصطفى صادق عم الملاك السابقة ناريمان زرج الملك الجديد بالحامى وطلب منه الحضور لمقابله في مقر عمله بشركة سعيدة للطيران ، ولما استوضحه الحامى عن سبب المقابلة قال له انها هامة وخطيرة للغاية .. فرفض الحامى الذهاب اليه لعدم معرفة سبب المقابلة .. ولما رأى مصطفى صادق تشبث الحامى برأيه طلب منه أن يخطر القائد العسكري للحركة — وكان ضابطا في القوات الجوية (١) — بأنه سيتنظره في مكتبه ، وألح في عدم التخلف ، وبدأت لهجة التهديد التي استهل عم الملك الحديث بها تخف حدتها وأنهى الحديث بأنه والضابط الطيار زملاء وأصدقاء . واجتمع بعض المسؤولين عن الحركة في القنال وفردوا أن يقابل الضابط الطيار مصطفى صادق لمعرفة ما يريد ، وتمت المقابلة ودارت

(١) وجيه اباطه .

المنافسة حول موقف الوطنيين من الملك ، وهل حركة الفدائيين في القتال تشمل برنامجا عدائيا للملك أم لا ؟ وانتهى مصطقي صادق إلى طلب اصدار بيان من الفدائيين في الصحف يوضحون فيه موقفهم من الملك ويؤكدون أنهم لا ينتمون إلى الشيوعية ، وقد أخرج الضابط الطيار لأنه مهايكن الامر فانه يعمل في قوات صاحب الجلالة ، واجتمع الوطنيون ووافقوا على اصدار البيان بتوقيع مستعار لانهم رأوا أن هذا البيان لا يضرهم بقدر ما يحميهم من محاربة الملك وهذا نص البيان :

« عندما ألغيت معاهدة سنة ١٩٣٦ هب الشعب بجميع طوائفه للكفاح والنضال ضد الناصب بالقتال بقصد اجلائه عن أرض الكنانة ، غير آبه بما يعترضه من صواب أو ما يقابله من عقبات ، ولم ترهبه قوة المدرو وجبروته وما يملك من حديد ونار ، وإنما زحف إلى القتال في تصميم ، وهو الأعزل الا من الايمان لمحاربة الانجليز وطردهم من البلاد بوحى من ضميره ووجدانه ، ونشوه هنا أن حركة المقاومة في القتال لا تنتمي إلى أى حزب أو أية هيئة سياسية كانت أو دينية أو اجتماعية — كما أنها بعيدة كل البعد عن أية مبادئ يسارية أو شيوعية ، وقصدها الأول والآخر هو محاربة الانجليز ، وأنها تكن كل تبجيل واحترام للسراى والملك الذى يقدر الشعور الوطنى حق قدره ويضعه فى المقام الأول من اعتباره . . . ولقد عدل المنشور بعد ذلك بما لا يخرج عن هذا المعنى ونشر فى أخبار اليوم فى ١٩٥١/١٢/٢٩ . وقد أغضب هذا المنشور جميع الأحزاب والهيئات التى كانت تدعى أنها تمارس أعمال المكافحة فى القتال ، فالأخوان المسلون الذين كانوا على شئ من التنظيم ، وكانت لديهم جميع وسائل الكفاح من مال وسلاح ، لم يظهر لهم أثر يذكر فى معارك القتال ، ولعلمهم كانوا يتحينون الفرصة الملائمة للانقضاض على الحكم ، الأمر الذى كانوا يهدفون إليه أولا وأخيرا . . . وكذلك كانت حال الشيوعيين وأنصار اليسار الذين وضعوا ضمن برنامجهم انتهاز فرص الازمات لاثارة القلاقل وتوسيع هوة الفوضى ليحققوا من ذلك أى كسب ولو ظهروا بمظهر الفيورين على الوطنية المناضلين من أجل مقاصد سامية .

وأما الشباب الوفدى فكانوا يعتبرون أنفسهم ممثلين للحكومة التي ألغت المعاهدة، وعلى هذا الاعتبار رأوا أن من واجبهم أن يكافحوا الانجليز ، وقد كافحوا فعلا ولكن على صفحات جريدة المصرى بما كانت تدبجه من قمعصر خيالية وهمية ، وكانت هناك أيضا بعض هيئات ادعت أنها تحارب فى القنال كجماعة عباس حلمي والهيئة التي نظمتها الحكومة للكفاح وأرادت أن تهيمن بها على فرق المقاومة ولكن هذه الهيئة لم يظهر لها أى نشاط أكثر من تصريحات طنانة كانت تلقى أثناء ولائم الطعام أو خلال حفلات السمر .

وبمناسبة قرار الحكومة بتنظيم الكفاح ووضع فرق المقاومة تحت إشرافها فقد أبدت لندن ارتياحها لهذا القرار وخرجت الصحف البريطانية تشيد بموقف الحكومة لعلمها بأن ذلك سيؤدى حتما إلى انعكاس الحركة التي نهت من قلب الشعب وينافع من وجدانه .

٤ — معركة التل الكبير

احقاد الانجليز :

كان الغيظ والحقدي يملآن قلوب الانجليز ، والخيبة والفشل يغمران نفوسهم لما لاقوه على أيدي الوطنيين فيبتوا النية على خوض معركة أخرى كذلك التي تقع بين الجيوش في ميادين القتال .

فما كاد فجر يوم السبت ١٢ يناير سنة ١٩٥٢ يبرغ حتى كانت المدافع الثقيلة تلك بلدة التل الكبير وما يحاورها من قرى تتقدمها ادبابات الثقيلة والسيارات المصنعة يتبعها الجنود شاكين السلاح وظلت النيران تصب حممها على البلدة الراحعة وعلى أهلها الآمنين فتمسب الأطفال والنساء والفلاحين الوطنيون في مصر . بلاذنب أو جريرة بحجة أن البلدة تآري بعض الوطنيين وقد فوجئ . الأهالي بهذا الجحيم الذي أحال البلدة إلى لخب مستتر فيها مذعورين وهرولوا ينددون النجاة بعيدا عن البلدة المشنومة والموت يترصدم في كل خطوة لأن الرصاص كان ينهمر من كل جانب وفي كل اتجاه .

ومن شاهد هذا اليوم اعتقد أنه يشاهد يوم الخشرف كانت طوائف الأهالي تتسابق في غير وعى النساء يولولن والأطفال يصرخن والفلاحون يهرولون مذعورون على وجوههم دلائل الأسى وآيات الحزن ، جلايب زرقاء وسوداء بطول الطريق المؤدى إلى أبي حماد وما بعدها من قرى . والصرخات مع أزيز القنابل ودوى الرصاص .

وبينما كانت هذه الطوائف تهرب من الجحيم الذي فتحت أبوابه دون ائذار وبلا مقدمات كانت هناك طائفة أخرى تواجه الحديد والنار بقوة إيمانها . ظلت تحارب وحدها الانجليز وتخوض المعركة التي أرادوها بعزم وثبات وقد قسموا أنفسهم إلى فئتين الأولى لمرقة تقدم القوات الانجليزية والآخرى للأعمال التي

تحتاج إلى تضحية وفداية وقد قامت هذه بعملها تحت وابل النيران فنسفت قطار الذخيرة القادم من الاسماعيلية فلم يتمكن الانجليز من استعمال ما به في المعركة في الوقت الذي حددوه كما قامت بفتح الكوبرى القائم على ترعة الاسماعيلية وأفسدوه وبذلك تعذر على الانجليز عبوره والوصول إلى الضفة الأخرى من التربة حيث كان يقيم العدائيون .

الشرطة الى جانب الشعب :

ولما رأى رجال البوليس استبسال الفدائيين انغمسوا اليهم وكونوا معا قوة كبيرة بها ظلت تقاوم الانجليز الذين شددوا الضرب من الجو والبحر وعبروا التربة بقوارب من المطاط أتوا بها على وجه الدرع وأزلقوا جنودا آخرين من الجو (بالباراشوت) وبذلك حاصروا الفدائيين ورجال البوليس من كل جهة فأسيروا سبعة من الفدائيين منهم أحمد فهمى المنسى الطالب بكلية الطب وعمر شاهين الطالب بكلية الآداب وعبد الحميد عبد الله كما أسروا ٣٠ جندي وضابط من رجال البوليس .

وقد استشهد كثير من الأهالي والندائيين في هذه المعركة وجرح كثير منهم وقتل من الانجليز ثمانية عشر جنديا وضابطا وجرح ضعف هذا العدد .

اعتراف الصحف البريطانية ببسالة المصريين

وامتدحت معركة التل الكبير يومى ١٢ و ١٣ من يناير سنة ١٩٥٢ وكادت أولى الممارك المفتوحة التي واجه فيها الفدائيون قوات ضخمة كاملة من البريطانيين ، واستبسلوا فيها استبسالاً ذكرته جميع الصحف البريطانية واذاعاتهم .

فقال جريدة التيس : « أن من المدهش والغريب أن القيادة البريطانية في مصر تعترف بصراحة بأن جميع الفدائيين المصريين تصدوا لها أثناء معركة التل الكبير وواجهوا القوات البريطانية بجميع أسلحتها وحاربوا ببسالة متقطعة النظير . » وأيدت ذلك جريدتا الديلى ميرور والنيوز كرونيكل فقالتا : « أن معركة التل الكبير تعتبر من أعنف الممارك التي واجهتهم في مصر إذا أنها تفوق في عنفها

جميع المارك التي خاضوها في فلسطين وتستطرد الجريدة الأولى بأنها تعجب كيف صمد الفدائيون للقوات البريطانية يوم السبت الموافق ١٢/١/١٩٥٢ يحاربون ببسالة وشجاعة الفرق الميكانيكية والأسلحة الثقيلة وجنود المظلات وفرق الكاميرون والهايلاندرز ، وهم خيرة جنودهم ويحتفظون برجالها ولا يعرضونهم للحرب إلا في المارك الهامة .

أن هذه الاعترافات لتدل دلالة واضحة على ما أبداه الوطنيون من شجاعة نادرة وبسالة منقطعة النظير أثناء معركة التل الكبير .

وحشية الانجليز :

بعد أن ضرب الانجليز التل الكبير بقنابلهم وصبوا جام غضبهم على أهلها أسروا من أسروا من الجنود المصريين والفدائيين ، بات الشعب بأسره ينتظر الخطوة التالية ، والواقع أن الانجليز أعلنوا أنهم أسروا جنود البوليس وضباطهم ، ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن أسرهم للفدائيين السبعة مما جعل الوطنيين يتوجسون خيفة ويترقمون شراً فاتصلوا بالانجليز عن طريق الهلال الأحمر لمعرفة مصير الفدائيين المفقودين وبعد أخذ ورد اعترف الانجليز بأنهم أسروا سبعة من الفدائيين المفقودين وأن أخبارهم مترد إلى مركز أبي حماد في ساعة ما من نهار يوم ١٤/١/١٩٥٢ وعلى الفدائيين أو كل من يهمة الأمر أن يترقب هذه الأخبار التي متوافيق بها القيادة البريطانية من وقت لآخر .

كانت هذه الأنباء التي حملها الهلال الأحمر من داخل الستار الحديدي لا توحى بالاطمئنان وأن حلت بين طياتها الكثير من الغموض المشؤم بشيء من التهديد مما زاد في حدة القلق ، وفي نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً دق التليفون في المركز ، وكانت القيادة البريطانية في الجانب الآخر تطلب إرسال عربية اسعاف ، ثم انقطعت المكالمات وكان مكنون رهيب على من كان في حجرة المأمور ، وكان بها — عدا بعض الفدائيين — مدير الشرقية محمد صادق الملا وبعض كبار الضباط أتوا لمراقبة ما

يحدث بالمنطقة وليطمثنوا على من أسر من الضباط والجنود والوطنيين وليكونوا على اتصال دائم بالوزارة . ومضت الدقائق متافلة والجميع ينتظرون بصبر نافذ ما ستجمله عربية الاسعاف من أخبار .

وبعد ساعتين ظهرت العربية وهي تسرع نحو أبي حماد وكأنها كلب يلتهق فئول الجميع ليستطلعوا الخبر وإن كانت بوادره قد ظهرت على سائق السيارة الذي هبط منها، ثم أجش بالبكا. وفتح الوطنيون صندوق العربية ويا هول ما رأوا . الفدائيون السبعة قتلى بطريقة لم يعرف لها التاريخ مثيلا الجثث بعضها فوق بعض وعارية تماما وأطرافها منهوثة مشوشة يختلط فيها الدم مع قطع من أجسام الضحايا في وضع بشع شنيع يقشعر له البدن ويقف له شعر الرأس هولا وجزعا .. فما هي أحداث الليلة الماضية ، وما هي الجريمة الجديدة التي اقترفها الانجليز في حق الوطنيين.

بدأ الانجليز يحققون مع الفدائيين السبعة فور القبض عليهم، فظلوا يستجوبونهم وقفا طوال ليلة ١٣ يناير بلا راحة ولا نوم حق انصرم جانب كبير من الليل ولاحت خيوط الصباح والفدائيون السبعة صامتون لا يوحون للتحقيقين الانجليز بسر ولا يطلعونهم عن أماكن اخوانهم الفدائيين، وأثار ذلك حفيظة الانجليز وحقدهم.

وعندما بدأ التحقيق معهم للمرة الرابعة تحقق كان من أفسى المحققين وأفهمهم بأنه سيسلك معهم وسائل لم يسمعوا عنها من قبل أن لم يذعنوا ويعترفوا بما يطلب منهم ، ولكنهم كانوا قد عاهدوا الله وأنفسهم بأنهم لن يخونوا الرسالة التي حملوها أو يفرطوا في الأمانة التي وكلت اليهم .

وانتظر المحقق ذو الوجه الأحمر اجابة من الفدائيين ، ولكنه لم يتلق سوى الصمت الذي يشبه صمت القبور . عندئذ سيق الشهداء إلى قاعة التعذيب وجردهم الانجليز من ملابسهم ثم أوتقروم وقوفا على أن يرى كل منهم الآخر . وبعد برهة أطلقوا عليهم الكلاب المتوحشة ، وهي كلاب أعنت ودربت خصيصا لاستعمالها في الحروب وفي مثل هذه العمليات الوحشية التي لا تمت للانسانية بصلة ، وما جت

الكلاب الجائعة أجسام الوطنيين وكأنها أسود ضارية وصارت تنهش قطعة من هنا وقطعة من هناك والدم يراق ليتجمع في وسط القاعة حارا دافقا ثم لا يلبث أن يتجمد من شدة البرودة ، والمحقق واقف أمامهم جامد الوجه صارم الأسارير ينتظر الأذعان لينزع عنهم هذا الهول ، ولكنهم كانوا قد صدموا وعقدوا العزم . ولا عجب فانهم لم يخرجوا من ديارهم الا وهم يعلمون أنهم سيلاقون الموت ، وأنهم وهبوا حياتهم للفداء فسواء عليهم لاقوه في الميدان أم شاهدوه يقاتلهم قطعة قطعة وقطرة قطرة بين الجدران فليضحوا اذن بأنفسهم في سبيل الآخرين . ولتذهب أرواحهم إلى السماء مثلا يخرب في التضحية والفداء لتتلاقى مع القديسين والملائكة والشهداء .

ظلت الكلاب المسعورة تنهش أجسادهم والموت يقترب منهم شيئا فشيئا ، وعندئذ أمر القائد البريطاني المنتصر بضربهم بالنار ثم القائم على تل بجوار المعسكر حتى أرسلوا في طلب عربة الاسعاف فشحنوم بها شحنة إلى أبي حماد .

فهل هذه هي مدينة الغرب التي طالما تشدقوا بها .. وهل يجوز لنا أن نتصور أنه يوجد في العالم أمة — أية أمة تقترف مثل هذا العمل الاجرامى . لا أعلن حتى بين القبائل الضالة التي تعيش في الكهوف فان لها تقاليدما التي تمنعها من ممارسة الجريمة في أبشع صورها كما مارسته انجلترا الدولة العريقة كما يدعون مع الفدائيين السبعة .

هناك صورتان من صور الاضطهاد البريطاني لن تساهم مصر على مدى العصور . صورة مشانق دنشواى وهذه الصورة التي تجاوزت كل الحدود ، وعلى كل فان بشاعة الجريمة التي أقدمت عليها بريطانيا العظمى لى البرهان الواضح على أنها فقدت صوابها وطاها رشدها نتيجة الخسائر التي تكبدتها من مقاومة الوطنيين .

الفدائي

سارب في غيابه الظلماء
 يتحث الخطا لقرب القضاء (١)
 ليس الليل وامتنى صهوة العـ
 سزم وول كجذبة النصحراء
 وعوى الليل حوله وهو يعضى
 بمناحين قوة ومضاء
 ورأى المنوت جهرة فتعدى
 في تحفه وقال في استنلاء
 أيها المنوت امض عني اني
 صانع المجد خالق الكبرياء
 الجبان الرعديد دارس عريني
 وسيدري الجبان كيف جزائي
 من أت
 قلت من أت أيها الباعث الصـ
 وت رهيب الصدى كهوت القضاء
 أيها الدافع الخطأ وظلام الليل
 قال : اني أنا ابن مصر ومقديها
 والملي نبلها يوم نادت
 كل حر فكنت وجع النداء
 والمذيق المذو علقم حمدي
 والشراب المرير من بنضائي

(١) من قصيدة للاستاذ احمد خير من الفدائيين التي يوم ١٢/١٠/١٩٥١ في المحل
 الذي اقامه المؤلف بحث الفهم المتأزمه الانجليز وكان يلخص الاجتماع القائم عزيز القصرى
 ونصر رضوان الحامى .

الانتقام :

صمم الوطنيون على الانتقام للشهداء ، فبينما كانت عربية الاسعاف تتجه إلى الزقازيق لتشييع الضحايا كانت هناك ثلاث فرق من الفدائيين تتجه إلى معسكرات التل والقرين وكفر حمادة .

وقد وضعت الخطة على أثر ما أذاعته القيادة البريطانية بأنها ستحتل بلدة التل الكبير وجميع القرى المحيطة بها ، وذلك فجر يوم ١٥ يناير ، وكان أكثر ما يضيق الجنود البريطانيين حرمانهم من الراحة أو النوم ، وكانت الأوامر بالمعسكرات البريطانية تقضى بأنه عند سماع أية طلقة يتمين أن يكون المعسكر بأكمله في حالة استعداد من أصفر جندى إلى أكبر ضابط . كل في العمل المنوط به فلا يؤخذوا على غرة . وكانت هذه هي خطة الوطنيين الأولى لراحة ولا نوم وليعلموا أنهم إذا كانوا قد اغتالوا سبعة من الوطنيين فهناك آلاف غيرهم على استعداد بأن يضحوا كما ضحى اخوانهم ، وأن جريمتهم لن توقف التيار الذى يزحف عليهم رويدا رويدا ولن تكون وحشيتهم سببا فى انحداد جذوره الوطنية أوفتور حماس الكفاح .

وطبقا لهذه الخطة ظل الوطنيون يحيطون المعسكرات الثلاثة : التل ، والقرين ، وكفر حمادة من كل جهة يطلقون النار ويلقون بالقنابل الحارقة على من فيها والانجليز يحاربونهم بالرصاص وقنابل الحارون وكشافاتهم وقنابلهم المضئية Piroz تضىء المنطقة بأكملها فتحيلها إلى نهار شمس ساطعة للكشف عن الفدائيين . واستمر إطلاق النار حتى الساعة الرابعة صباحا ثم توقف الأذى الذى دلا الجو زها ، عشر ساعات لأن الوطنيين كانت لديهم عملية أخرى هامة . عملية الانتقام للشهداء ، فتسل أربعة عشر شابا إلى مشارف بلدة التل وعند الظاهرية بين حمادة والتل نصبوا مدفعين من مدافع البرن القوية فى مدخل البلدة وفى الشارع العام الوجه بها تقريبا فوق سطح منزلين متقابلين كل سبعة من الوطنيين بجوار أحد المدفعين يفصلها عن بعضها الشارع الوحيد بالبلدة لسيطروا على المنطقة ولتتمكنوا من

رؤية الجنود البريطانيين عند دخولهم البلدة . وبذلك تم اعداد الكمين الذي رسمه
الوطنيون بشجاعة واحكام .

وكانت القيادة البريطانية ومن ورائها المخابرات تعلم عن يقين أنه لم يعد ببلدة
التل الكبير أو بالقرى المجاورة لها أى كائن حى . انسانا كان أو حيوانا نتيجة
اضرب المنطقة الشديد بالقنابل وأمر الفدائيين والجنود ونزوح جميع الأهالى
منها ، فلم يتصوروا أن أحدا من الوطنيين يجرؤ بعد ذلك على أن يدخل هذه
المنطقة أو يبقى بها وخاصة بعد أن ظل الوطنيون زهاء عشر ساعات يطلقون النار
على المعسكرات وأنهم بذلك قد انتهوا من عملهم اليومى . ولكن فات الانجليز أن
الوطنيين كانوا قد صمموا على الانتقام مما تسكن الصواب ، وعلى الرغم من
كل الظروف .

كان السكون الشامل يخيم على المنطقة والبرد يلفح الوجوه والندى يتساقط على
السكون والضبباب الكثيف يمنع الرؤية ، والوطنيون قابعون فى أماكنهم فلا همس
ولا حركة يترقبون ما سوف يأتىهم به القدر وأنهم لحكم القدر الخاضعون . ثم بدأ
النور يزحف وريدا وريدا على جحافل الظلام فيددهما وخفت عتمة الضباب بعض
الشيء وما هى الا ساعة أو بعض ساعة حتى سمعت حشجة آلات الدبابات التى
بدأت تتحرك فى طريقها إلى بلدة التل ، فأفاق الوطنيون وكأنهم يهبون من نوم
عميق يترقبون ويترصدون ولاح فى بداية الطريق ثلة من جنود المظلات وفرق
الهائلاندرز تتقدم الدبابات يدخلون البلدة المهجورة مطمئنين وقد بدأ ذلك من
أحاديثهم وتساؤلاتهم ، فقد كانوا يتحدثون بصوت مرتفع ويتناحكون ، وعندما
أصبحوا على مقربة من الوطنيين انطلق رصاص المدفيع فحصدتهم حصدا وكانوا
حوالى ثمانية عشر ضابطا وجنديا لم ينبج منهم سوى ستولوا الأدبار وأشاعوا
الفوضى والخوف فى باقى الفرق التى كانت خلفهم وتمكن بعض الفدائيين من فتح
الكوبرى لمنع تدفق القوات البريطانية والدبابات لحين انسحابهم ثم عادوا وغنموا
بعض الاسلحة الخفيفة تشمل ثلاثة مسدسات وجهاز لاسلكى كان يحمله أحد .

والبطاقة الشخصية لقائدهم وهو البريجادير كوزيل هول .

ثم انسحب الوطنيون بعد ذلك في العريتين القولكس والجيب اللتين كانتا تنتظرهم خارج البلدة . فيما عدا اثنين لم يعرف مصيرهما وقتئذ .

وعندما عاد الوطنيون إلى مدينة الزقازيق كانت الساعة نحو الثامنة صباحا . وقد لبست المدينة لباس الحداد على الشهداء وعزمت على أن تشيع جثمانهم قبل أن تشيعهم القاهرة : فأغلقت المتاجر والمحال أبوابها وخرج الطلبة من مدارسهم والموظفون من مكاتبهم وأقفلت البيوت من ساكنيها ما عدا النساء اللاتي سددن النوافذ والأبواب بأجسامهن يولوان ويصرخن وكانت الكتل البشرية تملأ الطريق الطويل من المديرية حتى المحطة والنعوش السبعة تتقدم كل هذه الجموع في طريقها إلى القاهرة حيث مشواها الأخير .

وكان المشهد في جملة غاية في الحزن والأسى ، وما لبث أن أذيع خبر المعركة ، وقبل توديع جثمان الشهداء ، وعند ميدان المحطة ، تحدث أحدهم إلى جموع المودعين بأن الوطنيين قد انتقموا للضحايا وقتلوا اثني عشر جنديا وضابطا منذ ساعة واحدة ، وأن أرواح الشهداء متلاقى ربها راضية مرضية . وكان لإذاعة هذا الخبر أحسن الوقع على النفوس الغاضبة ، وجاء في وقته كالدواء يوضع على الجرح فيهدأ بعض شيء .

الضابط الطيار :

عندما ضرب الانجليز التل الكبير في يومى ١٢ و ١٣ يناير سنة ١٩٥٢ واشتدت قسوتهم على الأهالى والأمينين ، وخرجت الصحف بأخبار القتلى والجرحى من المصريين وأنباء اعتقال الفدائيين وجنود البوليس ، كان هناك شاب ضابط طيار يحرق الحزن قلبه ويأكل الألم صدره هذا الضابط الطيار هو أحمد عصمت الذى لم يكده يتصفح صحف يوم ١٤ يناير ويعلم أخبار مجازر الانجليز ، حتى هب لتوه فردع زوجته وأطفاله الثلاثة وحمل مسدسين معبأين بالرصاص واستقل عربته

مبوجها إلى بلدة التل لينضم إلى المجاهدين الذي يكافحون الانجليز في القنال ، ولم يكن منتصيا إلى أية هيئة أو مشتركا مع أية جماعة من الجماعات التي تكافح القوات البريطانية . أو حتى على صلة بأي مجاهد هناك ، وإنما سافر إلى القنال بدافع وطف نابع من صميم قلبه أهاب به أن قم ودافع عن شرفك وشرف بلادك فلبى النداء دون احجام أو تردد .

وفي الطريق إلى التل قرب أبي حماد شاهد رتلا من العربات التي تنتظر دورها في التفتيش ، وجاء دور الضابط ، ولكنه رفض أن يفتشه عدو بلاده ، وعندئذ دعا الجندي البريطاني قائده وكان برتبة بريجادير فحضر معه ياوره وهجم على البطل الشهيد بالقول الجارح ، فلم يتمالك ولم يتوان ، ولم تحمل أعصابه أن يشاهد قاتلي زملائه يأمرون وينهون وكانهم أصحاب البلاد وتراءت له جثث ضحايا الأمس السبعة وهم عرايا تنهشهم الكلاب ، فصمم على الانتقام ، ولم لا وأنذ خرج من بيته عاقدا العزم على الجهاد حاملا سلاحه معه . فسيان عنده السكفاح في الميدان أو السكفاح هنا ، وفي هذه البقعة بالذات ، ولم لا يقتل هذه الثلة من الجنود وعلى رأسهم قائدهم ، أن حياته لم تعد لها أية قيمة ، فالأجدر به أن يضحي بها مقابل هذا الصيد الثمين .. ولما اختمرت الفكرة في ذهنه بدأ بتنفيذها على الفور ، وكان في حافظته مبلغ عشرة جنيهات قذفها إلى ركاب سيارة لنقل الركاب ، كما أعطاهم كل ما كان معه من ملابس وماكل صائحا في عجلة : أرجوا أن تعطوا هذه الأشياء لمن يستحقها .

وراجه الجنود البريطانيون وقائدهم البريجادير ومسنديه في يده ، وفي لمح البصر أطلق الرصاصات كلها عليهم فسقط القائد وياوره وجندي آخر صرعى . وتم ذلك بسرعة مذهلة حتى أن باقي الجنود لم يفكروا في ضرب الضابط الشهيد إلا بعد سقوط زملائهم ، واستشهد البطل بعد أن أدى رسالته التي خرج من أجلها — تاركا أولاده الثلاثة الصغار وزوجته — وثلاثين ربيعا هي كل عمره .

وعادت جميع العربات التي كانت تنتظر دورها في التفتيش بما في ذلك عربة

الركاب التي أهدى لركابها ما كان معه إلى الرقازيق ليرووا الأهالي قصة أخرى عظيمة من قصص البطولة النادرة .

وقد يعتقد البعض أن الضابط الشهيد قد استغزته أفوال البريجادير ، وأنه لولا ذلك لما وقع هذا الحادث ، وأنه كان ينوى العودة إلى بيته بعد أن يطمئن على المجاهدين في القتال ، أو بعد أن يدمم بالذخيرة أن العناد . والواقع غير ذلك لأن الضابط الشهيد قد يبت النية على الفداء وصمم على التضحية بنفسه في سبيل وطنه ، وعندما لاحت له الفرصة افتتمها دون تردد . وتؤكد ذلك وصيته التي كتبها إلى صهره يوم رحيله وهذه نصها :

أخي حسن : (١)

« أن حبي لوطني هو الذي حجب إلى سفك الدماء ، دماء الغاصب المستعمر البغيض فذهبت إليهم غير متم إلى هيئة أو جماعة ذهبت إليهم مسرورا فرحا وكأني ذاهب إلى رحلة صيد مثل الرحلات التي كنا نقوم بها .

فإن مت فأعلن إلى كل مصري أنني شاب متزوج ، ولي ثلاثة أطفال ولي أخت وأخوتي ، ومع هذا فقد ضحيت بنفسي ليعيشوا هم أحرارا في بلدهم . فالحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعر التضحيات .

قال اللقاء في كلنا الحالتين أن مت أو عدت .

أخيك

أحمد

هذه هي كلمات البطل الشهيد الضابط أحمد عصمت الذي لم يتجاوز الثلاثين ربيعا وترك أطفاله وأمه وأخوته وضحي بحياته فداء لمصر ، ومن هذا الخطاب نرى أنه لم يذهب للزهة وإتمام سافر وكاه عزم وتصميم على أن يكافح أولئك الذين وطنوا أرض بلاده وحاولوا أن يذلوا مواطنيه ويقتلوا أخوانه في الجهاد .

وستبقى ذكرى هذا البطل مثلا نادرا ساميا في التضحية والشجاعة والفداء .،

(١) من كتاب الاستاذ عبد الحليم الجندي رئيس ادارة قضايا الحكومة عن التقيد .

٥ - كفاح الشباب والشرطة

عربة البرتقال :

عندما اشتدت حركة الوطنيين وزادت وطأتهم على القوات البريطانية أقدموا على عمليات استفزازية كثيرة ، إذ ما لبث الانجليز أن نقضوا تعهداتهم السابقة وتجاهل الجنرال أرسكين في ١٩ يناير ١٩٥٢ اتفاقية أرسكين - غزالي ، والتعهدات الأخرى التي تعنى باعتبار مدن القتال مناطق محرمة على الجنود الانجليز ، وأعلن في تبجح أن القوات البريطانية ستحتل جزءا من مدينة الاسماعيلية ، وبخاصة حي العرب ، بحجة البحث عن الفدائيين المختبئين به .

وقد نفذ الجنود البريطانيون أمر أرسكين بطريقةهم التعسفية المعروفة ، فطردوا الأهالي من بيوتهم وألقوا بالأطفال والشيوخ والنساء إلى عرض الطريق واعتقروا كل شاب قابله باعتباره فدائيا - وما لبثوا كعادتهم أن عاثوا في الأرض مدمجة وفسادا . ومن الطبيعي ألا يقف الوطنيون مكتوفي الأيدي إزاء هذه الأعمال الاجرامية ، فاستعرضوا عربة يد من تلك التي يستعملها الباعة الجائلون وملاوها برتقالا ، وتحت البرتقال كان يكن قبلة زمنية ، وصار أحدهم بالعربة ينادي لبضاعته حتى وصل إلى الكوبري المقام على ترعة الاسماعيلية والذي يفصل المدينة عن المعسكر ، وتوقف أمامه وأشار للانجليز الواقفين في الجانب الآخر عارضا بضاعته ليشتروها منه ، وسرعان ما حضر ليف منهم يزبو على اثني عشر جنديا وصار يساومهم حتى لم يعد على انفجار القبلة سوى أربع دقائق ، فاستأذن منهم ليقبض أمرا من محل البقالة المواجه له . وفي الساعة الثانية من بعد الظهر تماما انفجرت القبلة وتطايرت شظاياها وتساقط الجنود مصرعى وجرحى حول عربة البرتقال .. ولما علم أرسكين بهذا الحادث ثار وأراد أن ينتقم ، ولكن انتقامه كان ينصب دائما على الأهالي العزل الأمنين ، فأمر فرق الجيش والدبابات باحتلال مدينة الاسماعيلية واستعمل القوة مع الأهالي واطلاق النار على المدينة ومن فيها ، وكانت نتيجة ذلك أن كثر عدد الضحايا وسالت الإباء من جديد ، واستشهد

كثيرون منهم راهبة أمريكية . حاول الانجليز الصاق تهمة اغتيالها بالوطنيين ،
ولكن التحقيق أثبت أن الراهبة قتلت برصاص الانجليز وكان استشهادهما دليلا
آخر على انهم اعتادوا قتل الأبرياء . واليك قصة اغتيالها :

بالاسماعيلية دير يسمى سان فانسان دى بول يقيم به راهبات أجنبيات يؤدين واجب
دينهن بإيمان وفي صمت ، وعندما أمر القائد الانجليزى أرسكين باشاعة الفوضى
في المدينة وإطلاق النار على الآمنين . ولم يكن الجنود البريطانيون بأقل رغبة في
تنفيذ هذا الأمر الفوضوي من القائد ، فاحتكموا المدينة وأسرفوا في إطلاق النار
في الطرقات وعلى المنازل وفي كل اتجاه ، فكثر القتل وتناثرت جثثهم في كل مكان ،
وكان من بينهم الراهبة الأمريكية اتقوى المقيمة بدير سان فانسان دى بول في
يوم ١٩ يناير سنة ١٩٥٢ .

وكان لمصرع هذه الراهبة دورى كبير في جميع المحافل العالمية عامة وفي أمريكا
على وجه الخصوص . وتسلت انجلترا بطبيعة الحال من جريمة مقتل الراهبة واتصلت
بالسلطات الأمريكية وادعت بأن الفدائيين هم الذين قتلوها والفدائيون من دمها
براء . وصورت الموقف بأن الأهل والفدائيين يستنون على الأجانب المسلمين
حتى أنه لم تسلم منهم الراهبة المتدينة القابعة في عقر ديرها . ولم يكن من الصعب
اثبات مقترف الجريمة فشكلت لجان التحقيق سخره مندوبون من مصر وانجلترا
وأمریکا وأثبتت هذه اللجان بما لا يدع مجالاً للشك بأن القوات البريطانية هي
التي أودت الراهبة ، فقد وضح من الكشف الطبي أنها قتلت بذات الرصاص الذي
أصيب به المصريون . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن القوات البريطانية التي
أربت على أربعة آلاف جندي تؤيد المذابح الثقيلة والمصفحات والمدافع كانت
قد اكتسبت المدينة الصغيرة وظلت تطلق النيران في كل اتجاه حتى نلت المدينة
من سكانها كما أن الفدائيين كانوا قد اختفوا تماماً من المدينة لأن المقصود هو
اغتيالهم ، أو على الأقل اعتقالهم ، وأخيراً فقد ثبت أن الراهبة الأمريكية لم تكن
وحدتها التي قتلت برصاص الانجليز وهي في ديرها وإنما قتل كثيرون غيرها وهم

في منازلهم أيضا أو في متاجرهم وذلك من جراء الرصاصات الغادرة . وبذلك
أضاف الانجليز إلى سجل جرائمهم جريمة جديدة .

حتى القبور :

بدأ الانجليز بعد ذلك في القبض على الأهل وتذويبهم وقتل كل شاب يقابلونه
باعتباره من الفدائيين .

وكان هناك حائن مصري يسمى (محمود صبرى) يعمل مع الانجليز وأثرى
من وراء خيائته ، فدلهم على مكان اخفاء أسلحة الفدائيين وذخيرتهم وكانت مخبأة
بمنطقة المقابر ، فتوجهت قوة من الجيش تتقدمها الدبابات والسيارات المصفحة
إلى هذه المنطقة وحاصرتها من كل جهة ، ودكت القنابل والدبابات القبور ونبشها
الانجليز وأخرجوا الأشلاء منها بحثا عن الأسلحة والفدائيين وعثروا على بعض
الذخائر وعدد من الأسلحة ، منها ١٢ مدفع استن ، وستة آلاف طلقة من عيار
٣٠٣ و ٤٠ ، مليمترا عدا بعض القنابل والجلجئات التي كان يستعملها الفدائيون في
صنع المفرقات . والأسف قبضوا أثناء تفتيشهم ونبشهم للقبور على خمسة من
الوطنيين استعملوا معهم نفس الطريقة الوحشية التي استعملوها من قبل مع الفدائيين
السبعة الذين قبضوا عليهم ببلدة التل — خطعوا عنهم ملابسهم وأوثقوهم ببعض
جذوع الأشجار المقامة بالمقابر وأغروا بهم الكلاب المتوحشة ، ثم أطلقوا عليهم
النار ، وقد اعترف الشهيد رفعت على بدر بأنه من الفدائيين ، فلم يكتفوا بكل
مافعله به من وحشية وإنما أوثقوه بأحدى الدبابات التي طافت به المدينة —
امدانا منهم في الاجرام واذلالا للشعب الذي هب يطالب بحقه الطبيعي في الحياة
الكريمة الشريفة .

كان هذا المشهد البربري الوحشي يذيب الأسى في القلوب ، ولا يملك من يشاهده
الا أن يعتقد بأنه أمام أناس قد ابتعدوا عن الإنسانية بعدا كبيرا .

الاجازر :

وقعت معركة المقابر في يوم ٢٢/١/١٩٥٢ وانتصر الانجليز على الموتي ،
فيا لها من معركة ، ولكن هل يقف الاستعمار عند حد . أيجوز للمجرم أن يعطف
أو يلين — يقول علماء النفس أن المجرم لا دور في حلقة مفرغة — فلا يكاد ينتهي
من جريمة حتى يقترب جريمة أخرى قد تكون أشنع من سابقتها . وهذا الرأي
أكده باستمرار معتادو الاجرام من ضباط وجنود بريطانيا العظمى ، فلم يكذب
يوزع فجر يوم ٢٥ من يناير حتى أقدم الانجليز على أشنع مجزرة عرفتها الاسماعيلية
حتى ذلك الوقت ، بل انها تعتبر من أدنى الجنايات التي أقدمت عليها أية دولة في
هذا العالم وفي القرن العشرين .

فقد استدعى القائد البريطاني اكسهايم أحد ضباط البوليس المصرى من منزله
الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم وألقى في وجهه بورة ، ثم أدار له ظهره
وتركة وأغلق عليه باب حجره ، وعندما تمسحها الضابط المصرى قرأ فيها
الانذار التالى :

« على جميع قوات البوليس المقيمة في مدينة الاسماعيلية بما في ذلك القوات
الموجودة بمبنى المحافظة والشكنات أن تسلم جميع أسلحتها وذخيرتها إلى القوات
البريطانية ، وأن تجلو عن المدينة وترحل من منطقة القتال في ميعاد أقصاه الساعة
السادسة والرابع » .

ورجع الضابط المصرى ومعه صورة الانذار المهيئ وقدمه إلى قائد بلوكات
النظام ووكيل المحافظة ، وقرروا رفضه ، ثم اتصلوا بوزير الداخلية (فؤاد سراج
الذين) الذى وافقهم على الرفض وعدم التسليم ومقاومة أى اعتداء بالقوة . ولم
يبين لهم الوزير طريقة رد القوات البريطانية ومقاومة القوة بالقوة ، ولم يقدم لهم
أية معونة أو يرسل على جناح السرعة القوات والذخيرة اللازمين لمواجهة اعتداء
الانجليز أو رد عدوانهم . لقد كان من اليسير على الوزير أن يصدر هذا الأمر وهو

قابع في داره محتم بجبرته . مثدثر بأفخر الرياش ، وكأنه بذلك قد أصدر حكما باعدام جميع جنود البوليس المقيمين بمبنى المحافظة .

وفي تمام الساعة السادسة والرابع بدأت المدافع تقصف المدينة وتضرب المحافظة وثكنات بلوكات الخفر ، وحاصر المدينة عشرة آلاف جندي وضابط مسلحين بالدبابات والسيارات المصفحة وقاذفات اللهب ومدافع الميدان ، وتسافطت القنابل على المنطقة بغية هدمها ودكها دكا على من فيها فما كان من جنود البوليس الا أن تحصنوا في المباني التي كانوا يقيمون بها وبدأوا يردون على العدوان ويقابلون القوة بمثلا ويواجهون المدافع والدبابات برصاص الأسلحة الصغيرة التي كانت في حوزتهم ، وهي من نوع لي انفيلد ، والتي لا تقاس بالأسلحة الأوتوماتيكية ومدافع الميدان والدبابات وقاذفات اللهب التي يملكها العدو . ولكن هكذا كتب القدر بأن تدور معركة بين هاتين القوتين المتناوئتين في العدد والعدة .

وأحال الانجليز المنطقة إلى شعلة من النار وظل عشرة آلاف جندي بريطاني تؤيدهم الدبابات والمدافع يقصفون مبنى بلوكات النظام ودار المحافظة مدة ساعتين وبدون انقطاع حتى تهدمت المباني التي كان يحتمي بها جنود البوليس ، ولكنهم ظلوا يقارمون ببسالة ولم يتوقفوا عن اطلاق النار الا بعد أن نفذت منهم الذخيرة فاقنعت الدبابات مبنى بلوكات النظام وأسروا من بها من جنود وضباط وظل باقي جنود البوليس الذي كانوا يعسكرون في دار المحافظة يطلقون النار على الانجليز ولم يرهبهم استسلام زملائهم ولا كثرة عدد القتلى والجرحى ولم يخشوا الذيران التي كانت تتسافط من فوقهم ، ولا تهدم جزء من مبنى المحافظة على بعض الجنود ، بل ظلوا ثابتين في أماكنهم يردون الحديد بالحديد والنار بالنار .

وقد تعجب الجنود الانجليز لهذا الموقف البطولي النادر فما كان منهم الا أن أرسلوا لمن بقي حيا في دار المحافظة انذارا نهائيا بخطر ونهم فيه بأنه إذا لم يستسلموا فوراً فإن الدبابات والمدافع والطائرات ستهدم الدار على من فيها وبذلك يدفنون أحياء : وان الضرب سيبدأ بمجرد عدم الموافقة على الانذار بالاستسلام .

.. وكان يقود جنود البوليس في هذه المعركة ضابط برتبة يوزباشى هو البطل مصطفى رفعت فجمع شمل جنوده وأطلعهم على الاذار فقرروا جميعا رفضه والاستمرار في المقاومة ، ورفض الاذار يعنى أن رجال البوليس الابطال قد قرروا الاستشهاد في سبيل الدفاع عن أى جزء من أرض الوطن حتى ولو كان مبنى متحصنا كالذى يلوزون به ، واستمرت المقاومة - مقاومة مالا يزيد على خمسين جنديا وضابط من رجال البوليس للجيش البريطانى ممثلا في عشرة آلاف جندي وضابط تؤيدهم الدبابات والمدافع وقاذفات اللهب وكان المشهد في جملة يجمع بين البطولة النادرة والسخرية اللاذعة ، وشدد الانجليز الضرب وصمد رجال البوليس ولم يستسلموا حتى نفذت منهم آخر طلقة كانت مع آخر جندي . واقنعهم الانجليز أنقراض دار المحافظة ، لأنها كانت قد تهدمت تماما وشبت بها النيران كما تهدمت قبلها مكنتات بلوكات النظام ، وأسروا الابطال من الجنود والضباط الذين كانوا بها وظلوا أحياء .

وقد اعترف قائد الجيش البريطانى أمام الجميع بشجاعة وبطولة رجال البوليس ضباطا وجنودا وأنه لا يسهه ازاء ذلك الا أن يؤدى واجب الاحترام لهم لأنهم أدروا الواجب الملقى على ماتهم بأمانة . كما أنهم حاربوا بشجاعة منقطعة للنظير .

وقد استشهد (١) في هذه المعركة خمسون جنديا كما جرح أكثر من تسعين أما خسائر الانجليز فتقدر وفقا لتقديراتهم بحوالى ٢٥ قتيل وأربعون جريحا ، أما باقى الجنود والضباط المصريين وعندهم حوالى ستمائة وخمسين فقد أسرم الانجليز في احدى معتقلاتهم بالقنال

هذه المعركة كانت نهاية المجزرة التى بدأها الانجليز يوم ٢٢ يناير ١٩٥١ . ولما كانت مدينة الامامية التى جلتها السواد وخيم عليها الجزن والاسنى قد استركت يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ وكظمت غيظها فقد كانت هناك مدن أخرى

(١) تم تظيل البلاد سنويا بذكرى هذا اليوم .

قد انفجر غضبها ورأت أن تنتقم للضحايا التي سقطت والمدينة التي انتكحت . والنساء التي سفكت ، وكان أول هذه المدن التي قامت تحتج على هذا العدوان الظالم — مدينة القاهرة التي غلى مرجل غضبها غضبا أدى إلى أن يتنهر أعداء البلد ، وعلى رأسهم الملك ، هذه المظاهرات وهذا الغليان فاندس منهم من اندس وسط الجماهير المتدفقة الفياضة وحرقوا القاهرة .

وقبل أن أتحدث عن هذا اليوم المشؤم وتسلسل الحوادث ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة يهمننا أولا معرفة موقف الملك أثناء تلك الأحداث كي نصل إلى مرتكبي الحريق أو المحرضين عليه . وقد سبق أن أشرنا إلى إلحاح الملك في الحصول من الوطنيين على بيان يطمئنه ، وبعد أن حصل عليه لم يقنع به . وخشى من حركة الوطنيين أن تتحول إلى ثورة جامعة يؤيدها الشعب بجميع طوائفه يكون هدفها تغيير النظام واقتلاع الفساد من أساسه ورأى أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بوقف حركة الفدائيين بأي شكل وبأي ثمن مها يكن قادحا .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك . هل يجوز أن يكون بإصدار الأوامر الملكية بإقصاء الفدائيين ومنعهم من محاربة الانجليز . ومن الذي يستمع إلى تلك الأوامر — هذا إذا لم تأت بعكس ما يريد فيتجه الفدائيون إلى تعطيل القصر مع الانجليز بعد أن كانت وجهتهم مقصورة على قوات الاحتلال في منطقة القنال .

الباب السابع

مقدمات ثورة الشعب في يوليو ١٩٥٢

- ١ - روما الجديدة أو (حريق القاهرة) .
- ٢ - تجمعات في الجيش .
- ٣ - رجال التشكيل في فلسطين .
- ٤ - بداية الانطلاق الثوري .

١ - روما الجديدة أو (حريق القاهرة)

صدى معركة الاسماعيلية في القاهرة :

لم تكذ أنباء معركة الاسماعيلية ترد إلى مدينة القاهرة حتى ثار الشعب وهب يطالب المسئولين بالنار . وما بزغت شمس يوم ٢٦ يناير حتى كان الشعب قد أعرب عن سخطه . فأضرب الموظفون وتركوا مكاتبهم ، وخرج طلبة المدارس ، وزحفت جنود بلوكات النظام من ثكناتهم بكامل أسلحتهم ، واتجه الجميع إلى الجامعة مبدئين سخطهم على ما أصاب زملاءهم في الاسماعيلية ، وكانت مظاهرة رجال بلوكات النظام التي خرجت من ثكناتها بالعباسية حتى حرم الجامعة يزداد عددها من وقت لآخر بانضمام أفراد الشعب إليها . حتى وصلوا إلى الجامعة ، وهناك وفي حرم الجامعة الفسيح تبادل الطلبة ورجال البوليس الرأي وقرروا أن يتوجهوا إلى رئاسة مجلس الوزراء ليطالبوا من المسئولين السلاح لمحاربة الانجليز ومشاركة الوطنيين القلائل الذين يقفون وحدهم أمام قوات الاحتلال وموازرة شعب القتال الذي صمد وحده في وجه الانجليز ، واضطهادهم .

وسارت جموع الشعب من حرم الجامعة بالجيزة إلى رئاسة مجلس الوزراء ، وعند مرورها في شارع الجمهورية رأى الأهالي بعض الفدائيين بأسلحتهم يخرجون من العمارة رقم ٢٢ ليتوجهوا إلى القتال ، فعملوم على الاعتناق وساروا بهم إلى ميدان عابدين ، وعندما رأى حرس قصر عابدين الشعب الغاضب نصبوا المدافع الرشاشة فوق القصر وتأهبوا لاطلاق النار عند أول بادرة تبدو من هذه الجموع لاقتحام القصر . ولو أن الفدائيين المسلحين المحمولين على الاعتناق أشاروا إلى هذه الجموع باقتحام القصر ، أو أطلقوا النار في اتجاهه لتغير الموقف . ولقامت الثورة على الفور ، ولسالت الدماء ، ولكثر الضحايا وامل الشعب كان قد نصب المشاتي في الميادين كما وقع قبل ذلك في فرنسا عندما ثار الشعب عند لويس والطبقة الاستقراطية .. ولكن الفدائيين أثروا السفر إلى القتال في العربات التي كانت

تنتظم للقيام بعمليات التار التي رسموا خطوطها طوال يوم ٢٥ يناير وبذلك
تجنبت البلاد ويلات حرب أهلية لا يعرف مداها الا الله حتى قامت الثورة البيضاء
التي لم ترق فيها قطرة دم واحدة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ابن الملك ١٩ :

كانت المناسبات تملأ الجو ، والشعب الحائق ثائر غاضب ، والموقف ينذر بأوخم
المواقف ، فما هو موقف فاروق — وماذا كان يجري داخل القصر ؟ .

من المفارقات العجيبة — ومن مهازل القدر — أن الملك كان يحتفل في هذا
اليوم بعيد ميلاد ابنه ولي العهد الأمير أحمد فؤاد من زوجته الثانية ناريمان كريمة
حسين فهي صادق مكرتير عام وزارة المواصلات في ذلك الوقت . والتي اختطفها
من خطيبها الدكتور محمد زكي هاشم ، وأجبر الجميع على الاذعان لمشيئته والخضوع
إلى شهواته ، وقد دعا الملك جميع المسؤولين في الحكومة للاحتفال بهذا اليوم وكان
ضمن المدعوين كبار ضباط البوليس المنوط بهم المحافظة على الأمن . وكذلك
كبار ضباط الجيش : ورفض الملك رفضا باتا تأجيل الاحتفال نظرا لتوقع
المسؤولين وقوع اضطرابات في هذا اليوم . وقد احترقت القاهرة فعلا على حين
كان الملك ومدعووه يتناولون طعام الغداء ، ولم يحاول مشول واحد انتقاد الموقف .
لقد قبضت الحكومة على رجال مصر الفتاة واتهمت النيابة العامة السادة أحمد حسين
رئيس الحزب ومحمد جبر حسن وممدوح عبد المقصود وسليمان زغارى وعلى عبد
الحليم هاشم وغيرهم من الأهالي بأنهم في يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ اشتركوا بطريق
التحريض والاتفاق في ارتكاب جنایات وضع النار عمدا في محلات البولز
والأمريكين وجروبي وشيكوريل الخ ؛ واتلاف ونهب الأمتعة من تلك المحال
بالقوة الاجبارية (١) وقد ألح المتهمون أثناء محاكمتهم بأن الملك هو الذي دبر
الحريق بالاشتراك مع الحكومة وذكروا أن مسؤولية الملك السابق عن هذا اليوم

(١) من قرار النيابة العمومية لاعضاء مصر الفتاة .

وعن تطور حوادثه هي مسئولية لاشك فيها وهي على أهمون أحوالها صورة من صور الاشتراك بالترك وهذا التعبير معناه أن الملك رأى حريق القاهرة وترك المرتكبين ينفذون قصدهم باحتجازه كبار رجال البوليس المسئولين عن الأمن والواقع أن الأمر لم يكن صورة من صور الاشتراك بالترك ، وإنما هو اشتراك فعل في الجريمة بعد دراسة وتدبير . ولقد تحدث أستاذنا الكبير عبد الرحمن الرافعي عن حريق القاهرة وأسند الجريمة إلى الشعب أو ما أسماه بالناصر الرديئة من الشعب ، ولكنني أعارضه فيما ذهب إليه لأنه لا يتفق مع تسلسل الحوادث ، ولا مع الأغراض التي تحققت من ورائه . وأسوق فيما يلي رأى الأستاذ الرافعي والأسباب التي دعت به إلى اسناد الجريمة إلى الشعب . وسيتأكد بعدها القارىء أن الأسباب التي تدين الملك والانجليز أرجح بكثير ، وهي الأقرب إلى العقل والمنطق . يقول سيادته في كتابه عن مقومات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ تحت عنوان « هل للانجليز أو القصر يد في حريق القاهرة » ، قرأت في بعض الصحف والمجلات تلميحات تشير إلى أن الانجليز هم الذين دبروا حريق القاهرة مثلما دبروا مذبحه الاسكندرية التي وقعت يوم ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ، وزعم آخرون أن لفاروق يدا في هذا التدبير .

و كنت أود أن يسفر البحث والاستقراء عن تدبير الانجليز أو فاروق حريق القاهرة . ولقد قضيت عدة سنين وأنا أعاود البحث لعل أصل إلى بيانات أو مجرد قرائن تثبت هذا التدبير مثلما انتهى بي البحث والتحقيق إلى ثبوت تدبير الانجليز لمذبحه الاسكندرية وتبين لي مع شديد الأسف أن حريق القاهرة كان عملا محليا قامت به العناصر الرديئة من الشعب .

فالحقيقة المؤلمة أن هذا الحريق هو عمل على محض ، وأصل صرف ، ولقد عشنا في هذه الحقبة من الزمن وشهدنا الحريق بأعيننا ، وأمكنا أن تبين صورة صحيحة من حقائقه وملايساته . ولقد رأينا الغوغاء يشعلون النار جزافا في المحلات التجارية دون مبالاة أو اكتراث . رأينا اللهب يتصاعد إلى عنان السماء دون أن

لاحظ أي مجهود ولو يسير من رجال البوليس وضباطه في منع الحرائق ، ورأينا بأعيننا الجماهير المحتشدة على الأرصفة وقت اشتغال النيران مبتهجة مقتبلة . رأيناها تنظر بعين الحقد إلى رجال المطافيء وهم ذاهبون بسياراتهم لاطفاء الحرائق ، ولم ينجم من الغضب الشعبي إلا انحناءات منهم بأنهم لن يعملوا على اخادها . ولاحظنا أن هذه الايماءات كانت تقابل من الجمهور بالهتاف والتصفيق ، وتحققنا أن بعض المتظاهرين كانوا يقطعون خراطيم المياه لينموا رجال المطافيء من أداء واجبهم وهذه المشاهدات دللتنا مع الأسف على أن الحريق انبعث من النفوس المريضة من بين الوطنيين . وقد عثر على كثير من المنهوبات في منازل العناصر الرديئة من الشعب وهذا ينفي أن الحريق أو النهب كان بتدبير من الانجليز أو القصر . وسفوة القول أن حريق العاصمة يوم ٢٦/١/١٩٥٢ كان مأساة ينظر لها البلد حزنا وأسفاً .

ويقول سيادته عن مسئولية فاروق : « لا نعتقد أن لفاروق يدا في تدبير هذا الحريق كما أسلفنا الا في مساعدته على وقوعه بطريق غير مباشر ، فهو شريك في المسئولية بسبب مادية الغداء التي دعا إليها معظم ضباط الجيش والبوليس وأقيمت لهم بقصر عابدين في يوم ٢٦/١/١٩٥٢ يوم الحريق ابتهاجا بميلاد ولي العهد . »

من المسئول :

هذا هو الرأي الذي ذهب اليه الأستاذ عبدالرحمن الرافعي ، وهو يتلخص في أن الذي حرق القاهرة هم العناصر الرديئة ذوو النفوس المريضة من الشعب ، استنادا الى أنه قد شوهد بعضهم وهم يحرقون المحلات التجارية جزافا دون مبالاة أو اكتراث . ومن أن البوليس عثر على كثير من المنهوبات في منازلهم ، وهذان هما الدليلان الوحيدان اللذان ذكرهما سيادته لالصاق تهمة الحريق إلى العناصر الرديئة من الشعب . وهما لا يرقبان بحال الى الأسباب التي ساسوقها وهي تؤيد وجهة النظر التي ترجع تأزر الملك والانجليز في ارتكاب الحريق .

١ - فقد بينت أن الملك كان يخشى من حركة القدائين التي كانت تشتد من

وقت لآخر ويخاف على نفسه وعرشه من أن يطيح بهما الوطنيين ، وبذلك أرسل مصطفى صادق إلى قادة الحركة يطلب منهم الضمان حتى حصل منهم على البيان الذى نشرته الصحف . ولكنه مع ذلك كان دائم القلق وأبدى فى كثير من المناسبات لمن حوله ضرورة وضع حد لحركة الوطنيين فى القتال .

٢ — على الرغم من أن الأخبار قد انتشرت فى جميع الأرجاء عن مجزرة الاسماعيلية وما كان يتوقعه الجميع من مظاهرات واضطرابات احتجاجا عليها لم يحاول المسئولون وعلى رأسهم الملك تلاقى ذلك بل أن الاضطرابات قد بدأت بالفعل قبل بزوغ شمس يوم ٢٦ يناير فى الساعة الثانية من صباح هذا اليوم عندما تجمع عمال مطار فاروق وجنوده وموظفوه حول أربع طائرات لشركة الخطوط الجوية البريطانية ومنعوا نزول الركاب منها ، وكان عددهم يبلغ ١٢٠ راكبا ، ورفضوا تزويد هذه الطائرات بالوقود وحالوا بينها وبين استئنافها السفر ، فضلا عن قيام المظاهرات منذ الصباح الباكر فى جميع الجهات فإن الملك صمم على احتجاز كبار ضباط البوليس المسئولين عن الأمن لحضور مأدبة الغداء بمناسبة ميلاد ولي العهد أحمد فؤاد ، ولم يقبل أى نصيحة بارجاء الوليمة أو جعلها للعشاء بدلا من الغداء .

٣ — وما يؤكد كذلك رأى القائل بتدبير الملك والانجليز للحادث أن (أيامهما) لم يطلب نزول الجيش لقمع المظاهرات الصاخبة التى عمت القاهرة ، مع أنه نزل فى ظروف أقل من هذه الظروف خطورة وكان من اليسير قمع هذه الاضطرابات فى حينها ويؤكد ذلك الاجراء الذى اتبعه مرتضى المراغى محافظ الاسكندرية فى ذلك الوقت فأمر بإتزال الجيش إلى المدينة المحاطة على الأمن مع الفارق الكبير بين القاهرة والاسكندرية ، وقد أخطر مرتضى القصر والوزارة بذلك منذ الساعات الأولى من صباح يوم ٢٦ يناير وألح إلى خطورة الحالة ولكن القصر ضرب بذلك عرض الحائط وأصر أذنيه . أما الانجليز — لأمر بيتوه — فلم ينصحوا كمادتهم بتدخل الجيش ، وكل ما فعلوه أن اتصل السفير البريطانى بإبراهيم فرج

وزير الخارجية بالنيابة وقال له أنه يتمنى أن تكون الحكومة قد أعدت نفسها لهذا اليوم دون زيادة أو نقصان .. فما هو السر الذي يكن وراء كل هذا التراخي والتغاضي والاستهتار . ولم لم يجرع الملك كعادته ويلجأ إلى الجيش ليوقف نذر الشر التي لاحت في الأفق ؟ وهنا يرد سؤال طالما ألح على الجميع .. ألم يخش الملك على عرشه أو نفسه من حالة الفوضى التي كانت تلوح في الأفق . ويأتينا الرد سريعاً من ناحية أصدقائه في القنال . فقد أمر القائد المصام للقوات البريطانية الجيش الانجليزي بأن يتقدم نحو القاهرة — ونصب الحرس الملكي المدافع الرشاشة فوق القصر واستعدوا حتى إذا ما فشت مؤامرة الحريق وتعرض الملك إلى أي خطر كان الانجليز على أهبة الاستعداد لدخول القاهرة لاحتلالها وحماية عرش فاروق والأقليات والمصالح البريطانية التي طالما جعلوها ذريعة لكل تدخل ، هذه هي الحقيقة التي لا تقبل جدلاً أو نقاشاً .

٤ — وإذا تتبعنا سير حوادث الحريق — التي بدأت بعد الساعة الثانية مساء طريق كازينو أوبرا وانتهت قبل الساعة الخامسة وأتت على (٨٥٠) مكاناً وأحرقتها تماماً لما تصورنا أن ذلك من فعل الغوغاء وإنما هو تدبير محكم مرسوم له خط سير معلوم يؤيد ذلك ما أثبتته التحقيق من أن مرتكبي الحوادث كانوا يستعملون مواد غريبة سريعة الالتهاب (كالكبسولات والكيوريس والأنايب) التي كانت تطلق في أماكنها وسرعان ما تشتعل النيران بطريقة لم ير الناس لها مثيلاً .

فهل كان الشعب النائر أو حتى الغوغاء من ذوى النفوس المريضة كانوا يعلمون أنهم سيحرقون هذه الأماكن من قبل ولذلك أعدوا هذه المواد ليستعملوها في الحريق ، من السذاجة أن تصور ذلك ولا ينقل إطلاقاً أن يشق جميع طوائف الشعب على الخروج في مظاهرة يعبرون فيها عن شعورهم ويحرصون قبل الخروج من منازلهم على أن يضموا في جيوبهم هذه المواد الغريبة السريعة الالتهاب . أيجوز لنا أن نتخيل ذلك مجرد تخيل ؟ ليس هناك إلا صورة واحدة لحادث الحريق هي أن عملاء الملك والانجليز من أمثال جماعة الإخوان الحريق والبوليس السياسى وأعوانهم اندسروا وسط المظاهرات والاضطرابات ثم ارتكبوا حوادث الحريق بإلقاء هذا المواد في الأماكن التي شئت فيها النيران .

٥ — ثم أن هناك مسألة جوهرية هامة وهي أن البوليس لم يضع يده على اعتراف صريح أو حتى ضمنى على من ألقى القبض عليهم وهم كثيرون بأنهم اقترفوا جرائم الحريق وإن كان البعض قد اعترف بأنه شارك في أعمال النهب والسلب وهذا يعنى أن مقرفى الحادث قد اندسوا وسط الجوع الفاضية وبعد أن أشعلوا النار تواروا عن الأنظار ليدو الأمر وكأنه شيء طبعى قامت به طوائف الشعب الثائرة.

وأما أعمال النهب والسلب التى تمت بعد الحريق فلا تقل بحال على أن مرتكبيها هم الذين أشعلوا النار ، وإنما يحدث ذلك عادة فى الثورات وفى جميع الدول على اختلاف ألوانها ، حدث ذلك وأكثر منه بكثير فى الثورة الفرنسية وفى الثورة البلشفية وفى كل الثورات دون استثناء ، ولقد وضع رجال البوليس أيديهم على بعض من اقترفوا جرائم السلب والنهب ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى شخص بعينه أشعل النار فى مكان بعينه وام يكن أمام البوليس إلا أن يقبض على بعض رجال مصر الفتاة لكي يلمق بهم تهمة احراق القاهرة ظلما وزورا وبعد أن أعيت الحيل وضافت به السبل .

ولو أن حريق القاهرة كان حقيقة من فعل طوائف الشعب الثائرة لما عجز رجال البوليس من إثبات ذلك ولوضع الأمر بما لا يدع مجالا لاي شك ولكن الحقيقة على خلاف ذلك تماما .

٦ — ولطالما سعى الوفد إلى تأزم الأمور فى القنال وتبنى أن تشتد عنفا وكان يعتمد إظهار موقف رجاله من النضال بأنهم هم وحدهم الذين وراء الحركة يشجعونها ويوجهونها بالمال والسلاح . ويصرحون بذلك فى صحفهم وبمحاسنهم . وكان الوفد يهدف من وراء ذلك إلى الضغط على الانجليز لحل القضية المصرية وفى سبيل ذلك أيضا سحبت مصر سفيرها فى لندن وصممت بأن تقطع العلاقات مع انجلترا . . وكانت السراى تنظر إلى هذه الاجراءات بخوف شديد وشعر الملك بالخطر المحقق بعرشه وتلاقت أهدافه مع أهداف الانجليز وأوا ضرورة ضرب

الحركة الوطنية بوسيلة أو بأخرى . ولاحق لهم الفرصة عندما قامت المظاهرات صبيحة يوم ٢٦ يناير وكانوا يتوقعونها كما سبق وبيننا فاندس بين المتظاهرين جماعة اخوان الحرية المواليين للانجليز ورجال البوليس السياسى (١) الذين كانوا من أعوان القصر ويمنون لحسابه وأحرقوا القاهرة . وبذلك منعت الفرصة للملك بإقالة الوزارة لأنها نصرت في حفظ الأمن والنظام وتحقيقه ولاسياده الانجليز ما أرادوا . فأقصى الوفد وانتكست الحركة .

٧ — وأخيراً فإننا إذا نظرنا إلى النتيجة الحتمية لحريق القاهرة وبحسبنا عن الهدف من وراء ارتكابه والفوائد التي سيجنيها مقترفوا الجريمة لوجدنا أن الملك والانجليز هم أصحاب المصلحة الحقيقية في الحريق ولا يمكن بحال أن يكون الشعب لأنه هو الذى خسر أولاً وآخرأ ، فقد ضاعت الدفعة الثورية التي كانت تعتمد في نفوس الوطنيين بالقنال والتي كان يتجاوب معها الشعب في كل الأرجاء .

وقد رجع هذا رأى كثير من الكتاب فأوضح الدكتور سعيد عبد الفتاح في كتابه « ثورة شعب » بأن الملك هو الذى أحرق القاهرة فقال : (وقد ساد الاعتقاد بأن فاروق هو المدبر الأول لحريق القاهرة لكي يثبت فشل حكومة الوفد في حفظ الأمن والنظام ويتخذ من ذلك ذريعة لإقالتها من الحكم بدليل ما ذكره الملك في كتاب إقالة الوزارة في ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢) (من أن الأمور سارت سيراً يدل على أن جهد الوزارة التي ترأسوها قد قصر عن حفظ الأمن والنظام) وبدليل أن الملك حرم في يوم الحريق على أن يقيم وليمة كبرى في قصر عابدين لضباط الجيش والبوليس ومن جملتهم ضباط المطافىء وذلك احتفالاً بمولد ولي العهد بما أضعف قوة الضغط في العاصمة في ذلك اليوم) كما يؤكد الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير مجلة المصور هذا النظر فيقول (ولم يكن فاروق مستطيعاً أن ينفذ

(١) شاهد كثير من المصريين رجال البوليس السياسى وهم همرون بسياراتهم على المتظاهرين يشجعونهم ويوزعون على بعضهم المواد الحارقة .

بنفسه خطة الحياة والقدر في هذه الظروف فهي مهمة صعبة لا ينهض بها هذا الفاسق الجاهل الذي يعيش في عالم من الاتحلال والقمار ويحالمس حالات هابطة المستوى لا تجيد الا حديث الدعارة مثل بوللى وبترو وحلى حسين فلم يكن بد من أن يختار رجلا ينفذ له الخطة المرسومة وكان حافظ عفيفي ذلك الرجل وكانت الخطة التي رسمها فاروق والانجليز لطمع القضية الوطنية يستهدف أولا اخراج وزارة الوفد وكانت خطة اخراج الوزارة تلتخص في الآتي .

١ - تشجيع الحملة على مظاهر الفساد الداخلي في الوفد والتشهير بالانحطاط والسرقات واستغلال النفوذ لجذب اهتمام الناس إلى الوضع الداخلي ولزعزعة ثقة الشعب في الوزارة التي تحتاز به الحركة .

٢ - نشر الأنباء المختلفة أو المبالغ فيها عن محاربة الوزارة للفدائيين والقبض عليهم وما إلى ذلك لزعزعة الثقة بين المقاتلين في الجبهة والوزارة في الداخل .

٣ - أن يقوم الانجليز باستفزازات وتمحرشات عنيفة لا غرض من ورائها أكثر من تعريض الوزارة لحزات عنيفة .

٤ - مشاورات متصلة للبعث عن الوزارة التي يمكن أن تخلف وزارة الوفد ويجب أن تكون وزارة قادرة على الظاهر بالاستمرار في مقاومة الانجليز تلافيا لثورة الرأي العام من جهة وحتى يمكن تحويل التيار تدريجيا وفي هدوء .

٥ - البعث عن وسيلة للحد من الحريات العامة لأن قتل القضية الوطنية لن يتيسر أبدا وهذه الاجتماعات تعقد والمصحف تكتب والناس يقولون ما يشاءون .

وتمت الخطة بحذافيرها فقد انتشر احساس غير ملائم بعدم قدرة الوزارة الوفدية على مواجهة الموقف : وأثر الاعتداء الوحشي على محافظة الاسماعيلية في استفزاز الناس واشغال غضبهم وتمرد جنود بلوكات النظام ذلك التمرد الذي لم يكشف الاصابع الخفية فيه بعد وكان تحليل هذا الشعب سهلا نتيجة التوجيه الخاطيء .

الذى قامت به بعض الصحف موهمة الناس بأن الحركة تكسب بالتخريب الداخلى والتعرض على أرواح الاجانب وممتلكاتهم .

ولما انطلقت كل هذه العواجل وتفاعلات وسنحت الفرصة لعناصر الخيانة كلها أن تعمل على نطاق واسع . البوليس السياسى وعملاء الانجليز من نوع جماعة اخوان الحرية وغيرهما أخذت هذه بعمل على تكيل المأساة وكانت قيادة الجيش الفاسد كالاصابع فى يد الملك فاستطاع أن يمنع من التدخل لحماية الأمن حتى يعم الدمار بشكل جسيم يبرر الاجراءات التى ينوى الملك الاقدام عليها . :
واحترق القاهر .

من كل ما سبق يبين بجملاء أن أصبح الملك والانجليز كانت من وراء حريق القاهرة ما فى ذلك شك وستحفظ لها مصر هذا العمل من بين ما تحفظ لها فى سجلها المجلد بالسواد والحزى والعار . ومسبق ذكرى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ مائة كدبل ماذى على أعمال الخيانة وكمثل حى للجريمة فى أبشع صورها .

انتكاس الحركة :

تحقق الأمل الذى راود الانجليز والملك للقضاء على حركة الوطنيين فى القتال بحريق القاهرة ونجحوا فى طمس أهم معالمها وآثارها الحديثة بمثلة فى الجبال الفنى المعمارى من فنادق جميلة كشبرد والكوتنتال ومينا هاوس وسميراميس ، الى دور السينما التى بنيت على أحداث الطرق كسينما مترو وريفول وراديو والمتاجر الكبرى كمحلات شيكوريل وشملا وعمر أفندى والمطاعم الفخمة كجروبي والكورسال والأمريكين ومئات المكاتب الأنيقة الأخرى التى كانت تزين العاصمة ثم أصبحت أماكنها خرابا وبطل دخان الحرائق يزكم الأنوف حتى اليوم الثالث من وقوع الحريق ، ومن شاهد القاهرة فى ذلك اليوم المشتم ليدكرنا بما أنبأنا به التاريخ من حريق روما على يد ماكبا زيرون وسعادته الفاتكة وهو يشاهد التيران وهى تتدلع فيها ومنها ، ولعل التاريخ أراد أن يعيد نفسه على يد فاروق أو لعل هذا الأخير أراد أن يقلد

يرون وما أكثر ما كان يقلد غيره من أمور، خاصة ولو كانت تخالف طبيعة البشر. وعقب الحريق فرضت الوزارة الأحكام العرفية وأصدر الحاكم العسكري أوامر عسكرية بمنع الأهالي من التجول من الساعة السادسة مساء حتى صباح اليوم التالي ابتداء من يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢ كما أصدر أمر بمعاينة كل من يضبط ومعه سلاح بالسجن مدة لا تقل عن خمس سنوات.

ومعنى ذلك أن على الوطنيين عدم حمل السلاح، وبمعنى أوضح وقف جميع العمليات بمنطقة القتال ومهادنة الانجليز. وهذا هو ما كان يهدف إليه الملك والانجليز من وراء حريقهم القاهرة.

استمرار كفاح الضباط الأحرار :

ولكن الوطنيين لم يرضخوا لهذا الأمر ولم يسلموا السلاح الذي كان معهم واجتمعوا وقرروا الاستمرار في الكفاح، وإن كانت مهمتهم قد غدت أصعب من ذي قبل، إذ كان عليهم أن يحاربوا الانجليز ويستنفقوا من الحكومة خشية القبض عليهم، وفي هذا الوقت المصيب ودخان الحرائق لا يزال يتساعد إلى السماء والمدينة يلفها غبار أسود، تحرك التشكيل العسكري لأنه رأى أن الموقف يحتم عليه أن يعمل، وبسرعة فائقة لأعداد الترتيبات اللازمة للضربة القادمة القاضية. فقد كان التشكيل العسكري يعمل جنبا إلى جنب بجوار التشكيل المدني في القتال يساعد بخبرته وبأسلحته وبذخيره وبكل إمكانياته في المعركة، بل ترك بعض الضباط عملهم بوحدهاتهم واشتركوا فعلا في عمليات المقاومة ولم يبق منهم سوى القادة الذين كانوا يديرون المعركة من وراء ستار خشية انكشاف أمرهم.

فكنت ترى وسط المعركة على سبيل المثال السادة كمال رفعت وعصام بخيل الضابط الذي كشف مؤامرة الخونة بليان بعد أن سلوه نصف مليون جنيه ليتعاون معهم.. ومجدي حسنين ووجية أباطة — محافظ البحيرة — وصلاح مدايت وزير البحث العلمي وكان يقوم بأعداد القنابل الزمنية، فهو فرق أنه ضابط جيش إلا أنه خريج كلية العلوم.

وتحضر في واقعة طريفة وقعت أثناء اعداد احدى هذه القنابل فقد أحضر له الوطنيون عشر ساعات كانت من النوع الرخيص لاعداد عشر قنابل وتسليها صلاح هدايت ووعد بصنعها على أن تكون معدة صباح اليوم التالي وكان ذلك في أوائل ديسمبر سنة ١٩٥١ وعندما تم تركيبها لم يشأ صلاح أن يسلمها الى الوطنيون الا بعد أن يجرب احداها ، وكانت الساعة الحادية عشرة صباحا فقام باعداد احدى هذه القنابل للتجوير بعد نصف ساعة وتوجه الجميع الى صحراء العباسية وثبت القنبلة تحت أحد الأعمدة الخشبية القديمة وانتظر الجميع انفجار القنبلة دون جدوى حتى جاوزت الساعة الثانية عشر ورأى الوطنيون أن من الحكمة عدم ترك هذه القنبلة في مكانها لأنه من الجائز أن تنفجر بعد ذلك فتصيب أحد المارة وتشاوروا على من يقع عليه عبء احضار القنبلة لافساده فتمسك أحدهم ولكن صلاح هدايت أبى وحسم على أنه هو وحده الذي سيقوم بهذه المهمة ، وكانت القنبلة على بعد حوالي ثلثائة متر ، وذهب صلاح لاحضارها زحفا لان انفجارها في أى وقت مناه اصابة أى شخص في محيط مساحته ٢٠٠ متر مربع ، ووصل إلى مكان القنبلة وأخرجها .

كل هذا والوطنيون يترقبون رجوعه سالما بصبر نافذ وقد أخذ منهم الخوف كل مأخذ وعندما عاد صلاح وجد أن الساعة تشير ببطء وأن القنبلة لا بد لها أن تنفجر لو انتظروا عليها ١٥ دقيقة أخرى ، فأعادها وانفجرت القنبلة .

هذه هي روح بعض الضباط الأحرار الذين كانوا يقودون الحركة وقد سقطت هذه الحادثة البسيطة لأدلل على مدى روح الغداء التي كانت تسيطر على الجميع أثناء معارك القتال .

أعود فأقول ان الرئيس جمال عبد الناصر واخوانه من الضباط كانوا يرون في حركة القتال مرتما نوعيا لاشعال الشهور الوطني ، ويعتقدون بحق أن في ازديار عدد الوطنيون في القتال يوما بعد يوم اعدادا الثورة الشاملة جيشا وشعبا ،

ولذلك لم يتركوا الوطنيين يحاربون وحدهم بالقنال وإنما أمدهم جمال بخيرة الضابط ولم يخل عليهم بالسلاح والذخيرة ، ولطالما كان الوطنيون يتوجهون اليه بالعباسية ليتسلخوا منه رصاص بنادق لي أنفيلد (٣٠٣) والبنادق أو مدافع البرن المشهورة التي استعملوها في معركة ١٤ يناير سنة ١٩٥٢ عندما قتلوا الاثنى عشر جنديا من جنود الكامبيرون والهايلاندورز .

ولذلك فقد ارتاع التشكيل العسكري لحريق القاهرة وما تبع ذلك من فرض الأحكام العرفية وما تلاه من قوانين مقيدة للحرية منعت الوطنيين من حمل السلاح أو التجول ورأى التشكيل أن الحركة قد انتكست وأن الدفعة التي كانت تدير بها قد توقفت لذلك رأى جمال أن الوقت قد حان لبدأ العمل مع اخوانه لتخليص البلاد من الفساد الذي استشرى في كل مكان حتى أصبحت مصر بؤرة من بؤر الفساد ، وقد أعرب جمال عبد الناصر عن شعوره ذلك عندما احترقت القاهرة في إحدى خطبه فقال : « احترقت القاهرة وحرق معها كفاحنا في القنال ومن ذلك اليوم يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ بدأنا نفقد الصبر وبدأنا ننكر في العمل الايجابي وآثرنا أن نصرع الفساد قبل أن يصرعنا وأن نطمع الطغيان قبل أن يطمعنا » .

ومنذ هذا اليوم المشؤم والعربة الاوسن السوداء القديمة التي كان يركبها جمال لا تبدأ لها حركة لا في الليل ولا في النهار .

موقف الملك وحكومته من الكفاح الشعبي :

عقب صدور مرسوم اعلان الأحكام العرفية والاورامر العسكرية التي تفرعت منه مساء يوم الحريق أي يوم ٢٦ يناير اجتمع الوطنيون وقرروا الاستمرار في الكفاح ، على الرغم من هذه الاوامر الصارمة لانهم رأوا أن في وقف العمليات الدائرة بالقنال لطمعة كبرى الحركة وانتشار كبير لقوات الاحتلال وإن كان من المتعين عليهم أن يتحركوا في صمت وحيلة وحذر وأن يخفوا ما معهم من ذخيرة وأسلحة لأن قوات البوليس وضعت نصب عينها تعقب الوطنيين والقبض عليهم،

وكان لدى الوطنيين عربية جيب وعربة لنقل الجنود وخمسين بندقية والتي طلقة من عيار ٣.٣ فرأى الوطنيون أن يخفوا هذه الأشياء تماما عن الانظار، وسافروا فعلا وفي إحدى قرى مديرية الشرقية أخفيت المربتان والأسلحة وسحبوا جميع الوطنيين بالقتال فيما عدا كتيبة واحدة في كل من الاسماعيلية والسويس والتل روعى في اختيارها اعتبارات كثيرة (١) وعاد الوطنيون إلى القاهرة ظهر يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٥٢ وكان البوليس يحد في القبض على من يشتبه فيه تنفيذ الأوامر العسكرية والعجيب أن الملك بعد أن حقق مآربه واتخذ من النحاس مطية للوصول إلى الأحكام العرفية وإيقاف حركة الوطنيين التي كانت تقض مضجعه أعد مشروع إقالة النحاس قبل ميعاد تنفيذ الأوامر العسكرية، فبينما كان النحاس يجلس في داره هادئا مطمئنا حوالى الساعة العاشرة مساء، اذ برسالة من الملك تصله وكانت تحوى إقالته من الوزارة، ثم استد الملك الوزارة إلى على ماهر وفرح الناس ببعض الشيء وترقبوا تغييراً في السياسة انقاداً للوقف المؤسف الذى وصلت إليه البلاد، ولكنها كانت وزارة بطش وغدر فلم تحقق أمل الشعب فيما انتظره طويلا من أن يرى حاكما على قسط من الشجاعة والغيرة الوطنية يسهم في النضال الوطنى ويدفع المناضلين فى القتال دفعة المأزق المضد دون نظر إلى أى اعتبار آخر أو التفت إلى أية مصلحة شخصية أو ذاتية ولكنها خيبت الآمال وصدمت الشعب، فلم تلبث أن أمرت بالقبض على الوطنيين وزجت بهم فى السجون ثم أرسل على ماهر رساله إلى قادة الفدائيين يطلب مقابلاتهم، وفى يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٥٢ قابل اثنان من الوطنيين رئيس الوزارة الذى طالب منهم وقف العمليات فى القتال، وإطلاعه على أسماء المساهمين فى الحركة وأماكن الأسلحة والذخيرة، وبطبيعة الحال رفض الوطنيان على الفور كل ماطلبه صاحب المقام الرفيع ولاذا بالصمت وقد دارت فى ذهنيهما وهما جالسان أمام مقامه الرفيع فكرة القبض عليهما. ولكنها كانت بالنسبة لهما أمون ألف مرة من الاستجابة لطلباته، وكانا يتساءلان فيما بينهما أثناء فترة الهدوء التى استمرت بعض الوقت، وهما جالسان، ألم يعد بمصر

(١) كتيبة الحزب الوطنى .

وطنى واحد يتجاوب مع الشعب ويتفاعل معه ، هل أقفرت البلاد من ذلك المكافح الذى يضعه بمصلحته وينسى مقامه من أجل مصر . ولماذا يتغير السياسيون وتختلف وجهات نظرهم ويتصرفون وهم فى الحكم على عكس ما كانوا يقولون وهم بعيدون عنه ؟ ولماذا يفسون بسرعة وهم لا يندون بكراسى الوزارة بآكيتهم على مصر وتصريحاتهم الملتبة عن الوطنية وعودهم الجياشة عن الكفاح والنضال ؟ ألا لعن الله ذلك الحرص الذى يذل أعناقهم .

خرج الوطنيان من منزل رئيس الوزارة بالجيزة ليسمعا أخبار القبض على زملائهما وتعقبهم فى مدن القناة والقاهرة وفى كل مكان .

وقد أعقب هذه الزيارة زيارتان أخريان تمتا بناء على طلب على ماهر والحاحه وذلك على أثر قيام الوطنيين بمركتين فى القناة هما مركتا المحجر والقنطرة للرد على اءتمال على ماهر لزملائهم وقد اعترف بهاتين المركتين إذاعات الانجليز ، وأخرجت وزارة على ماهر لانه أخذ على عاتقه وقف هذه العمليات اعتقاداً منه أنه سيعمل عن طريق المفاوضات إلى ما لم يصل إليه أسلافه .

وقد ذكر موسى صبرى فى كتابه (قصة ملك وأربع وزارات) هاتين المقابلتين فقال :

« وفى ظل الشك استعد على ماهر لمواجهة الموقف فعرض بنقص الأسلوب ، أسلوب الباب الموارب على بعض الأشخاص للتعاون معه واستمع إلى آراء كثيرين حتى أنه قابل ممثلين عن حركة الكتائب فى الشرقية هما عبد الحميد صادق ومدحت عاصم اللذان شرحا له تفصيلات معركة الكتائب وقدمتا له صورة عن الموقف وسألها على ماهر عن عدد المشتركين فى الكتائب من الحزب الاشتراكي فأجاباه أنهم لا يتجاوزون أصابع اليدين وأنهم يخلمون فى تطوعهم رداء حزيتهم وأن رئيسهم أحمد حسين أبدى أطيّب روح واستعداد للتعاون مع الكتائب قائلاً لهم — خذوني معكم كأي مجاهدين مصري بين الصفوف ثم يسألها على ماهر هل

يمكن وقف أعمال الكنائس ولو فترة قصيرة من الوقت إذا دعت إلى ذلك مصلحة الوطن .

وعندما طلبا تفسيراً لهذا السؤال قال علي ماهر — أن المتحاربين في كوريا ، هذه الحرب التي تشترك فيها جيوش الأمم المتحدة كثيراً ما يعلنون الهدنة ويوقفون القتال في بعض المناطق للوصول إلى حلول — فإذا لم يتفقوا على حل قطعوا الهدنة وتابعوا القتال . فليس الهدف هو سفك الدماء فقط بل الوصول إلى حل ، وقال ممثلا الكنائس نؤكد لرفعتهك أننا على استعداد لهذه الهدنة إذا رأيت في المستقبل أن صالح البلاد يقتضي ذلك فقال علي ماهر أنني أقول لفترة قصيرة مؤقتة بحيث إذا لم تعجب مطالب البلاد عدنا إلى حرب الكنائس حرباً منتظمة قرية توتى نتائجها . وبعد أسبوع واحد من اجتماع علي ماهر بممثلي الكنائس تولى رئاسة الوزارة ودعاها إلى مكتبه برئاسة مجلس الوزراء وحضر هذا الاجتماع وجيه أباطه بصفته قائد كنائس الكفاح في الشرقية والقنال ونصحهم علي ماهر بالتوقف في هدنة . ويستطرد موسى صبرى بأن الفدائيين المجتمعين مع علي ماهر اشترطوا أن تكون الهدنة لأجل محدود مدته ثلاثة شهور وأن لا يقبض على أحد من الفدائيين وأن يطلق للكنائس الحرية في المران وقد أجاب علي ماهر بقوله سأحاول أن أصل مع الإنجليز إلى تحقيق مطلب البلاد فإن أخفقت ورأيت أنهم يماطلون وعدتكم بنفسى إلى استئناف الكفاح ونزات معكم إلى الميدان) .

وقد رأى علي ماهر أن يهادن الفدائيين فوافقهم على جميع طلباتهم وأفرج عن قبض عليه منهم . وتفرغ رئيس الوزراء للحكم محاولاً الوصول مع الإنجليز إلى حل ولكن المراقيل وضمت في طريق الوزارة منذ اليوم الأول من تشكيلها وكان الملك هو الممول الأول في سقوطها ولم تمكث في الحكم سوى شهرين .. ويرجع ذلك إلى أن نفوذ رجال القصر وخدمه كانت قد استفطت وأصبحوا يتدخلون في شئون البلد ويطالبون بتعيين المحاسيب في المناصب من ذلك أن المراسى طلبت تعيين كريم ثابت وزيراً في الوزارة وكامل قانرش نائباً عاماً

بصفته صديقاً شخصياً للشاعر محمد حسن وما زاد الموقف سوءاً إيعاز السراى إلى السفير البريطانى بعدم التفاوض مع على ماهر أساس أن فاروق سيقبل الوزارة وعندما أراد رئيس الوزارة مقابلة الملك ليسترضع الموقف رفض هذا الأخير مقابلته بما اضطر على ماهر إلى تقديم استقالته . وأسندت الوزارة بعد ذلك إلى نجيب الحلالى ، وبذفس السياسة والأسلوب بدأت العاشية تتدخل فى الحكم فاعترضوا على الأسماء النظيفة التى رشحها نجيب الحلالى مثل محمود محمد محمود ومحمد نجيب ، وعزير المصرى ورشحوا هم من ناحيتهم محاسيب السراى ، فطلب الملك تعيين أحمد النقيب وزيراً للصحة — وهو صديق الملك — فرفض نجيب الحلالى هذا الأمر قائلاً كيف أعين أحمد النقيب وزيراً وهو ضمن الأشخاص الذين سيتناولهم التطهير .

وكانت الوزارة قد وضعت نصب عينها لإجراء التطهير فى جميع النواحي حتى بين رجال السراى وكانت هذه السياسة هى السبب الرئيسى للاطاحة بوزارة نجيب الحلالى ، فقد أعاد رجال السراى ما سبق أن طلبوه فى وزارة على ماهر من ضرورة تعيين كامل قاريش نائباً عاماً أو وكيلاً للوزارة وغير ذلك من الطلبات .

ولم يكن الملك وحده هو الذى يحارب الوزارة وإنما يحاربها كذلك حزب الوفد الذى ظل يتربص بالوزارات الأربع المتعاقبة التى جاءت فى الفترة بين حريق القاهرة ٢٦/١/١٩٥٢ حتى قيام الثورة فى ٢٣ يوليو، للاستيلاء على مقاليد الحكم ، فقد حدث أنه بعد أن اتفق نجيب الحلالى مع الانجليز على الجلاء ووحدة مصر والسودان ، عادوا ورفضوا هذا الاتفاق وكان وراء هذا الفشل حزب الوفد الذى طلب من الانجليز الاتفاق معهم بشروط أسخى من تلك التى عرضت على نجيب الحلالى . وروى الحلالى فشل المفاوضات فقال : « زارنى عبدالخالق حسونه وزير الخارجية فى منزلى وأطلعنى على ما تلقاه من السفير البريطانى وآويت إلى مخدعى لاستيقظ فى الصباح وفى يدي الإعلان بالجلاء والوحدة الذى طلبته . ثم قابلت السفير فى اليوم التالى وتبينت أن النهار قد عما كلام الليل وإذا بالرجل (يلعن) كل ما قاله

قبل ذلك وإذا بالموقف كما هو لم يتغير ولم يتبدل فقد اتصل الوفد بالانجليز وعرض عليهم التفاهم . عرض عليهم أن يقبل الورد بشوكة (١) . وكان وسيط الوفد لدى الانجليز هو لليونير عبود باشا الذي كان يمهّد لعودة الوفد ، حتى انه عرض مبلغ مليون جنيه على الملك وحاشيته للاطاحة بوزارة نجيب الهلالي وعودة الوفد . ولم يمهّد هذا الأخير بدا من تقديم استقالته هروبا من هذا الجو المشحون بالمؤامرات والخيانات ، من كل جهة ، وكان عمر الوزارة ثلاثة أشهر لا تزيد ، وجاءت حكومة حسين سري التي ألغى الملك على مائدة القمار في نادي السيارات بناء على طلبات رجال حاشيته وعلى رأسهم محمد حسن والياس اندراوس وبدأت العرافيل تهام أمام الوزارة الثالثة ، فقد أصدر وزير الحرية قرارا بحل نادي ضباط الجيش (ونقل اللواء محمد نجيب الى منقباد ، وكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أن محمد نجيب هو مرشح الضباط الأحرار وربما المتزعم لتشكيلاتهم السرية كما حضر رئيس الديوان حافظ عفيفي الى حسين سري رئيس الوزارة ومعه كشف بأسماء ١٢ ضابطا من الضباط الأحرار وطلب منه نقلهم من وحداتهم الى جهات متفرقة كطلب السراي . وقد اتضح أن هذا الكشف كتب بخط أحد خدم السراي وهو واحد من الذين كانوا يحكمون مصر في ذلك الوقت (٢) ، وعندما رأى حسين سري أن الحالة تسوء والموقف يدهور ، وأن تبشير الثورة العسكرية قد لاحت عرض على الملك تعيين محمد نجيب وزيرا للحرية وإخراج حسين سري عامرا لكراميته في الجيش ، ولكنه رفض . . ولم يمهّد رئيس الوزراء سبيلا آخر أمامه سوى الاستقالة بعد أن مكث في الحكم عشرين يوما واتجهت الانظار مرة أخرى الى الهلالي كمنقذ للموقف المنهار ، وتألّفت وزارته في صبيحة يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ ودخل فيها اسماعيل شرين زوج شقيقة الملك ، الأميرة فوزية ، مطلقة إيران ، وأذن الملك الى طلبات الوزارة الجديدة وهي إبعاد أصحاب النفوذ في

(١) من كتاب ملك وأربع وزارات لموسى صبرى .

(٢) الشهاب شرقي عزيز .

السراى من أمثال : كرم ثابت ، والياس أندراوس ، واستعد بحبيب الهلالى لتنفيذ سياسته السابقة وهى التطهير ومقاومة الانجليز . ولكن القدر كان يخفى للبلاد حدثا سعيدا . ولم يكن أحد يدور أن جماعة من الضباط المخلصين قد رسموا مستقبل مصر بعد أن يشروا من الأحزاب والزعماء . فخرجوا من ثكناتهم ليستقروا الوزارة التى استمرت يوما واحداً وليطهروا بالملك ، وليقضوا على الفساد ، وليبنوا مصر الحديثة القوية .

٢ - تجمعات في الجيش

فكرة الثورة :

كانت فكرة الثورة تراود كثيرين من ضباط الجيش المخلصين ، ولكنهم كانوا يخشون الخيانة ويخافون الميون التي رصدها الملك ، وسultan الانجليز الذين كانوا يسيطرون على الجيش في ذلك الوقت ، وكان من الحكمة وبعد النظر والحال كذلك ألا يطمئن ضابط إلى زميل له فيبوح له بفكرة سامية خطيرة كهذه خشية ألا يكون من رأيه فيفتي سره ، أو يكون من الميون عليه فيفري به ، ويبتلى أمره بعد ذلك إلى ما هو معروف من السجن والطرده والتشريد ، وأهم من ذلك تبدد الفكرة وتلاشيها . وكان يسيطر على الجيش جو من الخوف والارهاب ، ولم يكن له من عمل سوى مارسه له الاستعمار طبقاً لسياسة خبيثة مرسومة كأن يطلب منه المحافظة على الأمن أو قمع المظاهرات بقوة السلاح إذا لزم الأمر ، وهكذا تحددت مهمة جيش مصر كما فرضها الانجليز . المصري يعتدى على أخيه بحجة المحافظة على الأمن . ونجحت سياسة فرق تسد التي كان يطبقها الانجليز في كل البلاد القوزت بهم .

وفي هذا الجو الملبد بالنيوم ولدت فكرة الثورة . وتبناها الملازم جمال عبد الناصر وكان يعمل في ذلك الوقت بمنقباد وشق طريقه وتيدا محاذراً فاختر من الأعضاء من يطمئن إليهم اطمئناناً كافياً وبعد اختبار طويل ، وكان يؤمن بالكيف لا بالكلم وأن عضواً واحداً أفضل من عشرة أعضاء إذا أحسن اختياره .

النواة الأولى والثانية :

وكون هناك أول سرية (١) في الجيش وكان من أعضائها الملازم أنور السادات . وكانت هذه النواة البسيطة تفكر فيما آلت إليه حالة البلاد والشعب ومدى طغيان

(١) من كتاب صفحات مبهمة لأنور السادات .

الانجليز ومن سار في فلسكهم من المصريين فيحزنون أشد الحزن ويشنون لو هيات لهم مبل الخلاص ولم يحدوا لذلك من وسيلة إلا بثورة يقوم بها الجيش .

ولم تستمر اجتماعات نواة منقباد طويلا إذ لم يلبث أن صدر الأمر بنقل أفرادها إلى جهات متفرقة ، وجاء أمر النقل غيباً لآمالهم ، لأن الصلة الجديدة التي جمعتهم كانت قد وثقت بينهم وربطت بينهم برباط وطيد من الصداقة والاخلاص . ولم يدروا أن نقلهم من منقباد إلى وحدات متفرقة فيه خير كثير للحركة ، لأن كلا منهم بدأ على الفور في خلق خلية جديدة في منطقة عمله طبقا للتعليمات التي أفسموا أن ينفذوها بالطريقة التي تفنت في منقباد وعلى « باب الشريف » (١) .

وتفرقت النواة الأولى للتشكيل بنقل أنور السادات إلى مرسى مطروح حيث كانت الحرب دائرة بين الحلفاء والألمان ، وينقل جمال إلى السودان ضمن الكتيبة الثالثة ، وكلا النقلين يحملان قصة ساعدتا كثيراً في تدعيم فكرة الثورة .

فأما جمال عبدالناصر فقد نقل إلى السودان بسبب آرائه المتطرفة وبمضمر رؤسائه من الانجليز والمصريين على السواء ، لأنهم كانوا يمثلون في نظره أبناء مدرسة واحدة وقبل سفره إلى السودان حضر لتوديعه صديقه الصاغ عثمان نصار واستفهم منه عما إذا كان يعرف أحدا هناك . فلما أجاب بالنفي قال له « هناك الملازم عبد الحكيم عامر فاسأل عنه بمجرد وصولك إلى الخرطوم ويمكنك الاعتماد عليه كثيراً » . وسافر جمال عبدالناصر إلى السودان وفي الخرطوم قابل عبد الحكيم عامر وتوطدت بينهما صلات الصداقة التي ظلت تنمو وترعرع حتى أصبحتا لا يفترقان ، وفي عاصمة السودان تكونت النواة السرية الثانية في سنى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ويروى لنا أنور السادات أول عوامل توطيد الصداقة بين جمال وعبد الحكيم فيقول : (٢) « وكان أول هذه العوامل قومندان الكتيبة فقد كان قومنداناً من نوع

(١) مكان لى منقباد كان الضباط يجتمعون فيه .

(٢) من كتاب صفحات مجهولة لأنور السادات .

فريد قل أن يوجد بين الضباط مثله ، فقد عرفنا قومنداناً ذلك الزمان قطعاً
في ثياب أسود عرفناهم أذلة للضباط الانجليز أعزة علينا نحن أبناء الفلاحين عرفناهم
يتحكمون في معاشنا وأعمالنا وخطواتنا بالباطل أكثر مما يتحكمون بالحق.

بل لعلمنا لم نعرفهم يتحكمون بالحق أبداً - ولو كانوا كذلك ما غضبنا ولا اعتبرنا
صلتهم من مستلزمات الحياة العسكرية . جهلاً . في مناصب القيادة أذلة لأصغر
ضابط انجليزي وعلى اكتافهم المزيد من النجوم والنيجان وتحت أمرتهم شبان صغار
كبر بالعلم وبالعزة والوطنية أنفسهم وقلوبهم . وهكذا كان موقف القومندان منا -
أو هذه كانت أسباب هذا الموقف ، ولكن قومندان الكتيبة الثالثة في السودان
كان يحب أن يتحكم في ضباطه الصغار من نوع جديد لم نعرف له في الجيش مثيلاً .

كان الرجل ولوعاً بالشراب ما يكاد المساء يقبل حتى يعد عدته لسكرة تذهب
بعقله وتريه نفسه أسداً مصوراً يلا زئيره الفلوات ، ولم يكن يحب الشراب
وحده ، ولم يكن يظنر بفحشة الشراب مع الانجليز . فكان الحال الطيبي عنده
أن يأتي بضباط بالأمم وأن يكلفهم بمجالسته ومشاهدة كل ما جاء المساء .
وتصوروا شراباً بأمر القائد وفي مجلس الأسد .. لقد كان الضباط جميعاً حتى الذين
يشربون أكثر منهم يضيقون بهذا التكليف الثقيل ، ولكن جمالاً لم يكن يضيق فقط
بل يضيق ويسخط ويقاوم ويفسد على القائد مجلس الشراب ، وماذا يستطيع أن
يصنع وقد امتنع عن المشاركة في الشراب فصدر إليه الأمر بالمشاركة في جلسة
الشراب ، وكانت ليلة لا ينساها جمال ولا عبد الحكيم ، وحينما حلوا أن يتركا
مجلس القائد رفن وزجر وقام إلى أبوابه فغلقتها ، وتلفت جمال حوله وانتظر حتى
شرب القائد كأسين أو ثلاثاً وبدأ يصول في المكان ويزار ثم أشار إلى عبد الحكيم
وقفز من النافذة وقفز عبد الحكيم خلفه ونيمهما الضباط جميعاً وعاد القائد إلى
مجلس الشراب ليحده خالياً حاوياً من السمار ولم يخن صراخه ولا زئيره شيئاً ..
ومنذ الصباح التالي بدأت حرب باردة بين القومندان وبين جمال وعبد الحكيم
وبلغ التنفن بين الطرفين أقصاه في هذه الحرب الباردة . حتى جاء يوم تنفس فيه

القائد الصمداء شيئا ما لأن عبد الحكيم قد هبط الى القاهرة ليلتحق بفرقة دراسية من فرق الجيش .

وبعد سنين عبد الحكيم لم يجد القائد كبير عناء في اقضاء جمال الذي كان يحتمره الى جبل الاولياء .: وبذلك تفرق الصديقان الى حين وفي رأسيها أفكار جديدة .

وعندما انتهى عبد الحكيم من فرقة الدراسة بالقاهرة عاد ثانية الى السودان، ولكنه لم يجد جمالا ، ورأى كره القائد وحقه عليه يتأججان في صدره . وكما تخلى القائد من جمال نقل عبد الحكيم أيضا الى جبل الاولياء كذلك وهناك التقى مرة ثانية بجمال وكانا هما الضابطان الوحيدين اللذين يمثلان كتيبة جبل الاولياء لا ثالث لهما سوى الجنود ، فكان القومندان هو جمال وضابطه الوحيد عبد الحكيم ، وفي هذه البقعة النائية تنفصم الضابطان أكثر وأكثر ، وتلاقت أفكارهما وتأكدتا من أن حل الموقف بأكمله يقع على كاهل الجيش ، وأقسا وتعاهدا ، ولكن اجتماعهما لم يدم طويلا ، اذ لم تلبث القيادة أن أمرت بنقلها . فنقل عبد الحكيم الى متفاد حيث كان جمال ونقل جمال الى الصحراء الغربية . ولم يلتقيا بعد ذلك الا في ديسمبر سنة ١٩٤٢ وكانت قد وقعت خلال هذه الفترة أحداثا كثيرة .

نواة ثلاثة :

هذا ما كان من أمر جمال — أما أنور فقد نقل الى مرسى مطروح ، وكانت قوات المحور تهدد الحماة ، وكان روميل يضرب بقسوة الجنود البريطانيين في الصحراء الغربية وأرادت القيادة البريطانية نقل الجيش المصري الى واحة سيوة في الجنوب وبدون سلاح لتفزع لملاقاة روميل لعدم اطمئنانها للجيش المصري . ولكن عزيز المصري رفض وقدم استقالته وامتنع من تنفيذ هذا النقل لسببين : أولهما أن تسليم الجيش لسلاحه يحمل معنى الالهامة ، وثانيهما أن في نقله الى الجنوب ما يرضه للإبادة في حالة استيلاء الألمان على مرسى مطروح والعلمين ، لأنه في هذه الحالة سيقطع الألمان الطريق على الجيش المصري ، وبخاصة وهو بدون سلاح،

ولكن على ماهر رئيس الوزارة رفض الاستقالة ، وأعطاه اجازة لاجل غير مسمى بناء على نصيحة الانجليز . وعندما علم ضباط الجيش بما حدث ثاروا وصمموا على عدم تسليم أسلحتهم للانجليز وقرروا مقاومتهم اذا لزم الامر ، بل وفكروا في أن يعودوا الى مصر ويحتلوا جميع المواقع الهامة أثناء عودتهم ، ولكن الانجليز عادوا ووافقوا على أن ينسحب الجيش المصري مع أفرادهم جميع أسلحتهم . واعتبر الضباط هذا التمهق من الانجليز انتصارا كافيا لهم ، فرجعوا الى مصر بعد أن تكونت نواة ثالثة وقد استقر رأى التشكيل العسكري على أن يتصلوا بعزير المصري يستمدون منه الرأى ويلتمسون منه التوجيه ليؤمنوا حركتهم في تضالم الطويل المخوف بالصعاب والمخاطر .

وتوصل الضباط الى عزير المصري فقابلوه وسمعوا اليه في بيته بضاحية عين شمس — وتكررت المقابلات وكانت توجيهاته ونصائحه صريحة وواضحة كالخط المستقيم — فكان يقول لهم لا تعتمدوا على أحد ، واستلهموا الايمان من داخل أنفسكم ، وتسلموا بالعلم وتكلموا واختاروا من بينكم الرجل المؤمن الواثق بنفسه ليقودكم والله لو أن هناك خمسة ضباط مؤمنين فحسب لكنت أنا سادسهم ، ولتقدمت لأحمل لواء الثورة لانقاذ البلاد . هذه كانت عينة من توجيهات عزير المصري الذى كان يعتبره الضباط مثلهم الأعلى . ومن ثم كانوا يلجأون اليه كلما حزم الامر أو اكفر الجو .

وتوطدت صلة الضباط بعزير المصري حتى انه أفتى اليهم بسر اتصال الألمان به عندما أصبحوا على أبواب مصر ليستفيدوا بخبرته وليسام معهم في طرد الانجليز ، وكانت خطة الألمان في بادىء الامر تقضى بأن يرسلوا له في يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٤١ طائرة حربية عليها شارات سلاح الطيران البريطانى تهبط في مطار الخطاطبة قبيل غروب الشمس ثم عادوا وغيروا الموقع الى جبل رزه على طريق الواحات البحرية ، ولكن شاءت الظروف أن تعطل العربة التى كانت تقل عزير المصري في طريق الهرم ، وفشلت الخطة وفانت فرصة اتصال عزير المصري

بالألمان ، ثم تجددت الفكرة مرة أخرى ، وكانت ثورة رشيد على الكيلاني قد قامت بالعراق ورأى عزيز المصري ورجال التشكيل أن الوقت قد أوفى للسفر الى العراق لتحقيق هدفين : لمساعدة ثورة رشيد الكيلاني من جهة ، وللإتصال بالألمان من جهة أخرى ، لأن الإتصال من العراق بالألمان سيكون سهلا وميسورا ، ووضعت الخطة واستند عزيز المصري للسفر بصحبة الضابطين : حسين ذو الفقار ، وعبد المنعم عبد الرؤوف ، ولكن الطائرة سقطت بهم بناحية قليوب كما سبق وبيننا في مايو سنة ١٩٤١ ، أما في الطيران فقد تكونت به نواة رابعة عملت منفصلة عن خلايا جمال فترة من الزمن حتى ضمها جمال اليه بعد ذلك . وعرفنا ما قامت به من محاولات للإتصال بالألمان بعد أن رسمت جميع مواقع الانجليز وسافر لها أحمد سمودي الى الصحراء الغربية حتى هبط بطائرته في منطقة الضبعة الملقمة وانفجرت طائرته واستشهد . كما سافر لنفس السبب المول محمد رضوان وظل مع الألمان واستصحبوه معهم الى ألمانيا أثناء انسحابهم حتى قبض عليه بعد انهزام المحور ووسلته القوات البريطانية الى مصر فحرم وقضى بسجنه ١٥ عاما .

الجمعات اخرى في الجيش :

ولم تكن هذه الخلايا الأربع وحدها التي كانت تعمل في تلك الفترة من أواخر سنة ١٩٤٢ وانما كان حادث ٤ فبراير حوى كبير في جميع الأوساط سواء منها المدنية أو العسكرية فتكونت جماعات أخرى عملت منفصلة تماما عن تشكيل الجيش الذي تحدث عنه هنا . فكانت هناك على سبيل المثال جماعة مصطفى كمال صدوق كان ضابطا بإدارة مخبرات الجيش ورأى بعد أن كون جماعته وكان أكثرهم من ضباط الصف أن يتخلص من ابراهيم عطا الله واعتقد أن عمله كضابط في المخبرات يجعله بمنأى عن أية مظنة ويعد عتة الشبهات ، وبلغ به الاستهتار أنه كان يطبع المنشورات الثورية في نفس الادارة التي يعمل بها معتقدا أن رؤسائه لا يمكن أن يتطرق اليهم . ذلك بان ادارة المخبرات بالذات هي التي تطبع هذه المنشورات ، ولكن هيون الخيانة كانت تبحث وتتعبق الوطنيين في كل مكان فأبلغ بعضهم عنه وقبض على

مصطفى صدق وعلى ٢٣ ضابطا وصولا وقدموا للحاكمة .

وكانت هناك جماعة الضابط الوطنى وجيه خليل التى عملت متصلة أيضا عن التشكيل العسكرية وقدر له أن يعلم أن بالجيش تشكيلا عسكريا فسعى اليه وعرض على أحد الأعضاء وكان ذلك عتب حادثة فبراير بأن يتعاون التشكيلان :تشكيل وجيه خليل والتشكيل الذى يرأسه جمال عبد الناصر للقيام بموجة من الاغتيالات فى الضباط الانجليز وبعض الوزراء المصريين من كانوا يتعاونون معهم وخاصة بعد حادثة فبراير .

ولكن جمال رفض الفكرة وقال تبريرا لأسباب هذا الرفض (بأننا نرى القيام بحملة ارهابية واغتيالات ، ولكننا عندما نمنع ذلك يجب أن نمنعه بأنفسنا وتحمل وحدنا كل مسئولياته ونتائجها فالحظ الذى يجب أن نسير عليه كضباط فى الجيش هو ألا نكون آلات ولا أدوات فى يد أحد من الناس ولا جماعة من الجماعات مهما كانت وحدة أهدافنا ومهما كانت درجة اخلاصهم) .

وبذلك شق التشكيل العسكرية طريقه وحده ببطء وبحذر ودون تعجل ومن غير استعانة بأية قوة أخرى واعتمد أعضاؤه على أنفسهم فى كفاحهم وهذه هى نفس التعاليم التى كان يیشها فيهم عزيز المصرى ورفض جمال وجماعته التعاون مع جماعة وجيه خليل وكان هذا منتهى الخدق وبعد النظر ومع ذلك فقد كان وجيه خليل وطنيا صادقا ومناضلا غاملا فلم تكده تعلن الحكومة للحرب على اليهود حتى كان أول من تطوع للجهاد وقدم أرواح الأمثلة فى الشجاعة والفداء وقد حدث أن جرح زميل له بالمدفعية وكان لا يزال جالسا بمصفحته لا يستطيع الحراك الثمين أثر الجرح الجسيم الذى أصيب به وكانت المصفحة واقفة تحت مرمى نيران اليهود ولكن وجيه عندما رأى هذا الموقف وشاهد الرصاص ينهال حول زميله وهو يصرخ ويستغيث لم يتوان فتقدم دون باقى زملائه وتوجه الى المصفحة وحمل زميله وما كاد يسير به بضع خطوات حتى أصابته رصاصة غادرة أردته قتيلًا وهكذا استشهد بطل من أبطال مصر .

هذه بعض التجمعات التي كانت بالجيش ولم تكن هي كلها فقد كانت تجمعات أخرى ظهرت به نتيجة لروح التذمر والاستياء التي سادت فرق الجيش ووحداته وقتذاك وقد وصل الفتن الفكرى والحيرة فى ذلك الوقت أن التجأ الضباط الى الاغتيالات كطريق الى الثورة . أو وسيلة للتفيس عما فى صدورهم من عوامل الكره والغضب ، فخرج كثير من رجال الشكيل يمارسون هذا العمل وان كانوا فى قرارة أنفسهم لم يستريحوا لساوك هذا الطريق لانه لم يكن السبيل الجدى المؤدى الى الخلاص . ويحدثنا جمال عن مثال من هذه العمليات فيقول فى كتابه فلسفة الثورة : « وفكرت فى اغتيال الكثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ورحلت أفند جرائمهم وأضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم . وعلى الاضرار التى ألحقها بهذا الوطن ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم ولم أكن وحدى فى هذا التفكير ، ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الايام ، وما أكثر الليالى التى سهرتها - أعد العدة الاعمال الايجابية المنتظرة - كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قمة بوليسية مشيرة كانت لنا أسرار هائلة وكانت لنا رموز وكنا نستر بالظلام وكنا نرصد المسدسات بجوار القنابل وكانت طلقات الرصاص هى الامل الذى نحلم به . وقنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه وما زلت أذكر حتى اليوم انتفالاتنا ومشاعرنا ونحن نتدفع فى الطريق الى نهايته . والحق أننى لم أكن فى أعماقى مستريحا الى تصور العنف على أنه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا كانت نفسى فى حيرة تتمزج فيها عوامل متشابكة . عوامل من الوطنية ومن الدين ومن الرحمة ومن القسوة ومن الايمان ومن الشك ومن العلم ومن الجهل .

ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهمجت فى خيالى تنهوى جذوتها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل الايجابى المنتظر . كنا قد أعدنا العدة للعمل واخترنا واحد قلنا انه يجب أن يزول من الطريق ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطط بالتفاصيل ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى اطلاق النار

ورتبنا فرقة الحراسة التي تحمى فرقة الهجوم ورببنا فرقة تنظيم خطة الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح . وجاءت الليلة المودعة وخرجت بنفسي مع جماعات التنفيذ . وسار كل شيء طبقا لما تصورناه كان المسرح غالبا كما توقعنا ، وكنت الفرق في أماكنها التي حددت لها وأقبل الواحد الذي كان يجب أن يزول وانطلق نحوه الرصاص وانسحبت فرقة التنفيذ وغطت انسحابها فرقة الحراسة وبدأت عملية الافلات الى النجاة وأدركت محرك سيارتي وانطلقت أغادر المسرح الذي شهد عملنا الإيجابي الذي رتبناه .

وفجأة دوت في سمعي أصوات صرير وعويل وزلولة امرأة ورعب طنل ثم استغاثة متصلة محومة وكنت غارقا في مجموعة من الانفعالات الثائرة والسيارة تندفع في مرعة ثم أدركت شيئا عجيبا . كانت الأصوات مازالت تمزق سمعي ولم أنم طول الليل . بقيت مستلقيا على فراشي في الظلام أشعل سيجارة وراء سيجارة وأسرح مع الخواطر الثائرة ثم تبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني أكنت على حق — وأقول لنفسي في يقين — ودوافعي كانت من أجل وطني أكانت تلك هي الوسيلة التي لا مفر منها وأقول لنفسي في شك ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل — أيمن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره أم المسألة أعمق من هذا — وأقول لنفسي في حيرة أكاد أحسن أن المسألة أعمق اننا نحلم بمجد أمة فإما هو الأهم ؟ أيضى من يجب أن يمضى أم يحمى من يجب أن يحمى . وأقول لنفسي واشعاعات من النور تتسرب من الخواطر المزدحمة . بل المهم أن يحمى من يجب أن يحمى ، اننا نحلم بمجد أمة ويجب أن يبنى هذا المجد وأقول لنفسي وما زلت أقلب في فراشي في الغرفة التي ملاءها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات — وإذن ؟ أسمع هاتما يرد — وإذن ماذا ؟ وأقول لنفسي في يقين هذه المرة — إذن يجب أن يتغير طريقنا ليس ذلك هو العمل الإيجابي الذي يجب أن نتجه اليه . فالمسألة أعمق جذورا وأكثر خطورة وأبعد غورا — وأحسن - براحة نفسية صافية ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات

الهراخ والويل والولولة والاستغاثة — تلك التي مازالت أصدائها ترن في أعماق
ووجدت نفسي فجأة أقول — ليته لا يموت وكان عجيباً أن يطلق على الفجر وأنا
أتمنى الحياة للواحد الذي تمنيت له الموت في المساء وهرعت في لحظة إلى إحدى صحف
الصباح وأسعدني أن الرجل الذي دبرت اغتياله قد كتبت له النجاة .

هذه هي إحدى الطرق التي لجأ إليها أعضاء التشكيل في إحدى مراحلها عندما كانت
الطريق لم تكن قد مهدت بعد . وكان الضباب يحجب الانظار عن تبين معالم
المسالك والدروب بوضوح .

هذه كانت بعض التيارات والتشكيلات الثورية بالجيش . ولكن التشكيل
العسكري الذي بدأ ينظم صفوفه من جديد كان هو التشكيل الأدق نظاماً والاثبت
جناناً ، والأقوى إيماناً . فكيف تم له ذلك ؟ .

تنظيم التشكيل :

بدأ التشكيل ينظم صفوفه في سنة ١٩٤٤ وسط الجو القائم الذي كان يخيم على
الجيش . فتكونت به ثلاثة لجان هي اللجنة الاقتصادية التي كانت تعمل على المال
بما كان يتبرع به الأعضاء . ومن يعجز عن المساهمة كان يقترض بضمان مرتبه .
وكان لمزير المصري حديقة مانهو مشرة حول منزله بعين شمس ، وباعها وقتئذ
بمبلغ خمسين جنيهاً ، وساهم بها كلها . والواقع أن المال من أسباب نجاح التشكيلات
السرية . وبدونه تصبح فرص النجاح ضئيلة . وقد تعدت خطة العمل بأكملها
أو تفشل .

واللجنة الثانية كانت لجنة التشكيلات وتنظيم الخلايا واختيار الأعضاء وحرصت
الجماعة على أن يضم إليها ضابط من كل سلاح بالجيش يكون مسئولاً عن سلاحه
أمام التشكيل وهذه اللجنة كانت تحت إشراف جمال عبد الناصر لأهميتها ، اذ
يتوقف على حسن اختيار الأعضاء نجاح التنظيم وثبتت أركانه . والا فإذا يكون
الحال لو انضم إليه ضابط ممن لهم صلة بالسراي أو الوزارة أو كان مزعزع الإيمان
ضعيف العقيدة .

وكانت اللجنة الثالثة والأخيرة هي لجنة الدعاية وكان من عملها الدعوة إلى الجهاد بين الضباط أثناء اجتماعاتهم سواء أكانوا في النادي أو في مكاتبهم . كما أنها حاولت بثق الطرق الاتصال بالهيئات الشعبية الوطنية كالحزب الوطني والشباب الوطني الثائر لإيجاد تشكيل شعبي خارج الجيش يسير جنبا إلى جنب مع تشكيل الجيش . يعاونه ويؤازره .

ويتحدث جمال عبد الناصر عن المراحل التي مر بها التشكيل فيقول : « ولقد مرت على حركتنا ثلاث مراحل . الأولى التي كانت خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٢ و ١٩٤٥ وهي فترة صعبة قضا خلالها بنشر مبادئنا واشغال الروح الوطنية وتقوية الجيش .

والمرحلة الثانية كانت خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٩٤٥ وشهر مايو سنة ١٩٤٨ ، وقد بدأت الحركة تأخذ خلالها شكلا منظما وأصبحتنا مجموعة كبيرة ، ولقد اعترضت طريق المرحلة الثانية عقبات كان من أهمها عدم وجود الثقة بين النفوس ، فالفرد لا يثق بنفسه ولا بزميله .

وكانت المرحلة الثالثة للحركة هي التي بدأت عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٢ وهي المرحلة الفاصلة التي بدأت الحركة فيها تتطور وتتخذ لانجاحها شكلا محددًا لتحقيق خطتها في القضاء على أعوان الاستعمار .

وبدأت مشكلة فلسطين فسارع الضباط الأحرار في التطوع مع البطل أحمد عبد العزيز ، وكان أغلب المتطوعين من الضباط الأحرار ، وعدنا من فلسطين في مارس سنة ١٩٤٩ وبدأنا نجمع صفوفنا بعد أن تفرقت جموعنا وقتل في الحرب عدد كبير من الضباط الأحرار .

هذه هي مراحل الحركة حتى حرب فلسطين كما رواها جمال عبد الناصر فإذا حدث في فلسطين . وما هو أثر التكبّة التي وقعت هناك في نفوس الضباط الوطنيين .

٣ — رجال التشكيل في فلسطين

من اجل فلسطين العربية :

استعد التشكيل العسكري لبدأ الكفاح الايجابي من أجل تحرير مصر وبناء
بعدها ثم ظهرت مسألة فلسطين ، فرأى الضباط الأحرار أن يجاهدوا من أجل
تحرير فلسطين العربية أولا .

ولم يتردد الكثير من ضباط الجيش في تقديم استقالاتهم مع أحمد عبد العزيز ،
وكانت جامعة الدول العربية قد حددت القطاع الذي يذهب اليه المتطوعين المصريون
بالجزء الجنوبي من فلسطين وعينت لقيادته اللواء سليمان عبد الواحد سبل قبل أن
يتوجه أحمد عبد العزيز الى فلسطين ، ولم يمكث سبل هناك الا فترة وجيزة ، وكون
بعدها أحمد عبد العزيز كتيبه من بعض الضباط الذين استقالوا من الجيش أو
طلبوا احوالهم الى الاستيداع وسافروا الى فلسطين بعد أن لاقوا الأمرين في الحصول
على الأسلحة والذخيرة ، لأن الحكومة كانت تعارض في مدهم بالأسلحة الحديثة
ولم تصرح لهم ببعض المدافع الا بعد أخذ ورد بما أياس البعض فعادوا الى الجيش ،
وفي القطاع الجنوبي الذي حددته الجامعة المتطوعين المصريين بدأت كتيبة أحمد
عبد العزيز تقاوم عصابات شترين والمهاجنا المدربة والأسلحة بأحدث وأقوى
الأسلحة . وقد قامت هذه الكتيبة بالكثير من المعارك الناجحة وضربت المثل الأعلى
في الشجاعة والتضحية ، وستظل معارك بيت لحم ، ورأس جالات ، وعراق المنشية ،
شاهدة على ما قامت به هذه الحفنة من الأبطال .

وعندما تآزمت الأمور في فلسطين وازداد الشعور الوطني في البلاد العربية
وبدأ يفور غيظا من تفاض وتلكؤ الحكومات في معالجة قضية فلسطين قررت
الدول العربية اعلان الحرب ، ودخل الجيش المصري فلسطين في ١٥/٥/١٩٤٨
ليواجه التفكك والخيانة ، وحارب بأسلحة فاسدة تحت قيادات متضاربة جاهلة ،
فلم يكبد الجيش المصري يصل الى أرض المعركة حتى امتنع الانجليز عن مده

بالأسلحة وقد وجد الملك وحاشيته وقتئذ أن الفرصة سانحة للآثراء فتاجروا في الأسلحة والذخيرة والخوذات الحربية ومدوا جنودنا وضباطنا بأسلحة فاسدة وذخيرة تالفة وخوذات لا تصلح وعرفنا كيف كانت تتفجر القنابل في أيدي الجنود والضباط قبل القائها ، وحتى التي كانت تستعمل في المعركة لم تكن لها أية تأثير حتى ان اليهود كانوا يتفنون مهللين : (ارم كان يا مصرى) .

ومع ذلك فقد كانت الروح الوطنية تهيمن على الجنود والضباط وحاربوا بشجاعة وافدام وفدائية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كانت المعارك تدار وفقا لمشيئة الانجليز ، فقد عين الملك عبد الله قائدا للقوات العربية الذي أسند القيادة بدوره الى جلوب الانجليزى ، ولم يكن يتصور اخلاص جلوب هذا في قيادته للعرب لأن التعليمات التي صدرت اليه من شارع دوتنج ستريت بلندن كانت صريحة في مساعدة اليهود واحكام الخطة لاجراج الجيوش العربية وتخبطها حتى تحقيق بها الهزيمة وما خيائته في الد والرملة الا احدى نماذج الخيانة التي وقعت في فلسطين ، وشعر الجنود والضباط وهم في الميدان بأنهم ضحية مؤامرة واسعة محكمة لتشريدهم والقضاء عليهم ، وفي هذه البقعة العزيزة من أرض الوطن العربي وأثناء تلك الاوقات الحرجة الدامية كان يجتمع بعض أعضاء التشكيل العسكري يستعرضون الموقف العسير الذي وضعته في القيادات الحائرة والثامرات الدنيئة ويروى جمال عبد الناصر بعض ذكرياته في هذه الايام فيقول :

« كنا نحارب في فلسطين ، ولكن أحلامنا كلها كانت في مصر ، كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض أمامنا في خنادقه ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه . وفي فلسطين كانت خلايا الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز . في فلسطين جاء في صلاح سالم وذكرياعبي الدين واخترقا الحصار الى الفالوجا وجلسنا في الحصار لانعرف له نتيجة ولا نهاية وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا أن نحاول انقاذه ، وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني الى مشاكلنا . كانت الفالوجة محاصرة

وكان تركيز العدو عليها بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا ، وكثيرا ما قلت
لنفسى (ما نحن فى هذه الجحور محاصرين . لقد غرر بنا ودفننا الى معركة لم نعد
لها . لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشبهوات وتركنا هنا تحت الطيران
بغير سلاح) .

ويقول الرئيس جمال فى موضع آخر : (لقد خلوت الى نفسى مرات كثيرة فى
خنادق عراق المنشية وفى جحورها ، وكنت يوما أركان حرب الكتيبة السادسة
التي كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الأحيان ،
وكنت أخرج الى الأطلال المحيطة من حولى بفعل زيران العدو ثم أصبح بعيدا مع
الخيال ، وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمنى بي بعيدا الى آفاق النجوم ، فأطل
من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها ، وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت
واضحة أمام بصيرتى .. هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه هذه مواقع كتيبتنا
وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط وهذه قوات العدو تحيط
بنا هذه هى جيوش اخواننا جيشا جيشا كلها هى أيضا محاصرة بفعل الظروف التي
كانت تحيط بها والتي كانت تحيط بمحرماتها ، لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج
لا قوة لها ولا ارادة الا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين . وكانت شعوبنا تبدو فى
مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفيت عنها عمدا حقيقة ما يجري وضللنا
حتى عن وجودها نفسه وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الأرض
فأحس أننى أدفع عن بيتى وعن أولادى ولا يعنينى أحلاى الموهومة والعواصم
والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجمعات فرق الأطلال المحيطة ببعض أطفال اللاجئين
الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد أن خرب بيوتهم وضاع كل ما يملكون .
وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت
الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة
العيش أو خارقة قماش . وكنت دائما أقول لنفسى قد يحدث هذا لابنتى . وكنت

مؤمننا أن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث وما زال احتمال حدوثه قائما
لاى بلد فى هذه المنطقة مادام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكم (١) الآن
تحت وطأة هذه الظروف القاسية وفى داخل المصيدة الكبيرة التى رسم خيوطها
الانجليز واليهود كان بعض أعضاء التشكيل يتجمع ويتكلم أكثر اخاء وصحة
لرسم خيوط الثورة ، وكان الضباط يتوقعون الى العودة الى مصر كي يحققوا هذه
الفكرة التى اختمرت فى أذهانهم عن أى وقت معنى ، وبعد أن شاهدوا بأعينهم
المؤامرات تدبر والخيانات ترسم وتمالك .

(١) من كتاب فلسفة الثورة الرئيس جمال عبد الناصر .

٤ - بداية الانطلاق الثورى

خطوط العمل الثورى :

وما كادت تعقد الهدنة في ٧ يناير سنة ١٩٤٩ ويعود الجيش الى أرض الوطن حتى بدأ التشكيل العسكرى يضع خطة الثورة موضع التنفيذ ، وكانت تركز الى أساسين الأساس الأول إيجاد قاعدة للعمل ظاهرة ويكون مقرها العاصمة تمثل في بعض أعضاء التشكيل الذين كان عليهم رسم خطوط الثورة بهدوء واتزان أثناء قيامهم بأعمالهم العادية وعلى رأس هذه القاعدة كان الصاغ جمال عبدالناصر المدرس بمدرسة الشئون الادارية بالجيش ، والأساس الثانى اخراج فكرة الجهاز السرى بما يحويه من خلايا دقيقة التنظيم الى حيز الوجود ، وكانت عبارة عن خلايا خماسية تبدأ كل خلية بأحد ضباط القيادة الذى يكون من نفسه نواة لخلية ثم تتسلسل الخلايا على هذا الوجه كل عضو من أعضاء الخلية الأولى هو نفسه نواة لخلية جديدة لا يعرف أعضاؤها غيره ، وكانت القاعدة الأولى ترسم خطوط العمل أثناء قيام الأعضاء بأعبائهم العادية ومن وراء مكاتبهم الحكومية فى هدوء وثقة واطمئنان بينما يقوم الجهاز السرى بالتنفيذ فكان يطبع المنشورات ويوزعها على ضباط الجيش فى وحداتهم المختلفة وكانت تصدر هذه المنشورات أسبوعيا كما كان يحاول الجهاز كذلك أن يضم اليه من يثق فيهم من الضباط من جميع الوحدات مع فرض اشتراكات شهرية يدفعها أعضاء التشكيل وبصفة منتظمة لمواجهة التكاليف التى يواجهونها ، ثم اشترى أعضاء التشكيل ما كينة رونيرو لطبع المنشورات من مبالغ التبرعات التى كانوا يجمعونها ، وشكلت لجنة للإشراف على طباعتها وتوزيعها بصفة مستمرة وفى سرية تامة .

وقد تكونت هذه اللجنة من الصاغ خالد محيى الدين والبكباشى حمدى عبيد واليوزباشى جمال منصور ، واليوزباشى عبد الحميد كفانى ، واليوزباشى مصطفى نور ، والساغ عثمان فوزى ، والساغ ثروت عكاشة وهم من سلاح الفرسان .

وزير الخارجية بالنيابة وقال له أنه يتمنى أن تكون الحكومة قد أعدت نفسها لهذا اليوم دون زيادة أو نقصان .. فما هو السر الذي يكن وراء كل هذا التراخي والتغاضي والاستهتار . ولم لم يجزع الملك كمادته ويلجأ إلى الجيش ليوقف نذر الشر التي لاحت في الأفق ؟ وهنا يرد سؤال طالما ألح على الجميع .. ألم يحش الملك على عرشه أو نفسه من حالة الفوضى التي كانت تلوح في الأفق . ويأتينا الرد مريماً من ناحية أصدقائه في القنال . فقد أمر القائد العام للقوات البريطانية الجيش الانجليزي بأن يتقدم نحو القاهرة — ونصب الحرس الملكي المدافع الرشاشة فوق القصر واستعدوا حتى إذا ما فشلت مؤامرة الحريق وتعرض الملك إلى أى خطر كان الانجليز على أهبة الاستعداد لدخول القاهرة لاحتلالها ولحماية عرش فاروق والأقليات والمعاليخ البريطانية التي طالما جعلوها ذريعة لكل تدخل ، هذه هي الحقيقة التي لا قبل جدلاً أو نقاشاً .

٤ — وإذا تتبعنا سير حوادث الحريق — التي بدأت بعد الساعة الثانية مساءً طريق كازينو أوبرا وانتهت قبل الساعة الخامسة وأتت على (٨٥٠) مكاناً وأحرقتها تماماً لما تصورنا أن ذلك من فعل الغوغاء وإنما هو تدبير محكم مرسوم له خط سير معلوم يترد ذلك ما أثبتته التحقيق من أن مرتكبي الحوادث كانوا يستعملون مواد غريبة سريعة الالتهاب (كالكبسولات والكيوس والانايب) التي كانت تطلق في أماكنها وسرطان ما تشتعل النيران بطريقة لم ير الناس لها مثيلاً .

فهل كان الشعب الثائر أو حتى الغوغاء من ذوى النفوس المريضة كانوا يعلمون أنهم سيعرفون هذه الأماكن من قبل ولذلك أعدوا هذه المواد ليستعملوها في الحريق ، من السذاجة أن نتصور ذلك ولا يغفل إطلاقاً أن يثق جميع طوائف الشعب على الخروج في مظاهرة يعبرون فيها عن شعورهم ويحرضون قبل الخروج من منازلهم على أن يضعوا في جيوبهم هذه المواد الغريبة السريعة الالتهاب . أيحوز لنا أن نتخيل ذلك مجرد تخيل ؟ ليس هناك إلا صورة واحدة لحبوث الحريق هي أن عملاء الملك والانجليز من أمثال جماعة الإخوان الحريثوا بالبوليس السياسى وأعوانهم اندسروا وسط المظاهرات والاضطرابات ثم ارتكبوا حوادث الحريق بالقاء هذا المواد في الأماكن التي شبت فيها النيران .

يحكم حكما مستبداً فإن الجيش هو الآخر يخضع لنفس الظروف ، فقد سبق الى
جزيرة فلسطين دون رأى ودون استعداد وفرضت عليه الخطط الفاسدة والأسلحة
الفاسدة ويروى أحد رجال الثورة جانباً من قصة المنشورات فيقول :

« وكنا قد وضعنا قائمة بأسماء جميع ضباط الجيش وعناوين منازلهم حصلنا
عليها بعد أن كلفنا كل ضابط من جماعتنا بكتابة عناوين زملائه في وحدته ،
وطبعناها في الأخرى على آلة الرونيو ، واجتمعنا في منزل أحدنا حيث قمنا بتطبيق
المنشورات بطريقة خاصة ، ووضعنا على كل منها عنواناً مطبوعاً وطابع بريدي من
قبة الأربع مليمات ، ثم قمنا بتوزيع هذه الكميات التي وصلت الى ألف منشور على جميع
صناديق البريد في القاهرة ووصل المنشور الأول الى أيدي الضباط ، وكان ذلك في
أكتوبر سنة ١٩٥٠ وبدأنا نعد المنشور الثاني ووجدنا أن سلامة العمل تقتضي عدم
وضع آلة الرونيو في مكان واحد بسفينة مستمرة فكنا ننقلها من منزل الى منزل حتى
طبع المنشور الثاني ، وقامت لجنة برئاسة البكاشي جمال عبد الناصر بتوزيعه على
صناديق البريد . وحدثت مفاجأة ، فقد قام البوليس السياسي بمصادرة جميع نسخ
هذا المنشور من صناديق البريد ، وكان لابد لنا بعد ذلك أن ندخل شيطان التغيير
على تفاصيل الخطة فنقلنا آلة الرونيو الى منزل البكاشي حمدي عبيد ، وكلفنا
أحد أصدقائنا المدنيين بكتابة العناوين بخط اليد على ظروف عادية وضع عليها طابع
بريدي من قبة العشرة مليمات .

منشورات الضباط الأحرار :

وقد وضع الضباط نسب أعينهم مبادئ ثلاثة ظالما كانوا ينشرونها فيها بينهم
وكثيرا ما كانت تتضمنها منشوراتهم ، وهي : القضاء على الاستعمار وأعوانه من
الخونة المصريين ، وتسكين جيش وطني قوي ، وأخيرا إيجاد حكم نيابي سليم .

وعقب حريق القاهرة عندما اشتدت حركة الوطنيين بالقنال كتب الضباط
الأحرار المنشور التالي :

(نوات مؤامرت الاستعمار الانجليزى أمريكى فى الفترة الأخيرة فى مصر لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية وصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار فى القنال الى مشا كل داخلية فى القاهرة فبعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات والغاء المعاهدة ورفض حلف الشرق الأوسط الرباعى الاستعمارى وتكوين السكائب الوطنية واشتدت جذوة الوطنية فى البلاد حتى اذا كادت أن تصل مصر الى حقوقها الكاملة دبر الاستعمار وأذنا به انقلاب ٢٦ يناير الماضى وجاءت حكومة على ماهر وبدأت المفاوضات من جديد وكان الاستعمار واخوة المصريين يأملون كثيرا من على ماهر التسليم تسليما كاملا بمطالبهم بقبول ائتلف الرباعى وحل البرلمان واعتقال الآلاف من الوطنيين واستعمال الأحكام العرفية للتشكيل تكيلا واسعا بالشعب ولكن خاب رجاءهم ولم يجهم على ماهر الى مطالبهم فكان لابد من انقلاب جديد لتحقيق الأهداف الاستعمارية السابقة وتحويل الحركة الى الداخل والقيام بحركة تطهير واسعة بالبلاد بحجة تقوية الصفوف قبل مجابهة الاستعمار وهكذا وصل الهلالى الى الحكم بعد تدبير سابق وقد جاء الهلالى وأعلن برنامج الوزارة بصراحة وأن مهمتها الرئيسية هى التطهير وقد تناسى أن الفساد الأكبر مصدره الاستعمار وأنه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلى الا اذا أفغى على أسبابه ومصدره . ان من أهداف الضباط الأحرار الكفاح ضد الفساد وضد الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ ولكن لا يجب أن ننتج الى ذلك الا بعد القضاء على الاستعمار . وبعد تكوين الجهاز السرى قوى التشكيل وتحددت أهداف الضباط الأحرار واكمل الهيكل العام للتنظيم ولم يعد أمامهم غير تحديد ميعاد التنفيذ .

قبل الثورة :

كان الضباط الأحرار قد حددوا ميعاد قيام الثورة فى سنة ١٩٥٥ حتى يتم استعدادهم ، ولئلا يتركوا أية ثغرة قد يكون من الجائز أن يتسلل منها مفرض أو جاسوس أو خائن ، وكان قادة الضباط الأحرار أو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار كما سميت وقتئذ وعلى وجه التقريب فى سنة ١٩٥٠ يعملون فى مقار

ووجداتهم بالقاهرة، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلا فاكادت تقبل سنة ١٩٥١ حتى صدر الأمر بنقل بعض رجال الثورة الى سيناء، ورأت اللجنة التأسيسية وكان عدد أعضائها ١٤ ضابطا أن هذا النقل فيه تشتيت للجهود قد يكون مدعاة لتشيط مهم البعض الأمر الذي يقلل من سرعة اندفاع الثورة نحو هدفها ولذلك رأوا أن ينتخبوا فيما بينهم رئيسا عليهم يكون مسئولون عن تنفيذ قرارات اللجنة التأسيسية كما يكون له الحق في البت والتصرف فيما يعن من مشا كل وأمر

٢٢٢٠

وفي يناير سنة ١٩٥١ اجتمعت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار وانتخبوا ولأول مرة جمال عبد الناصر رئيسا لهم، ثم أعيد انتخابه مرة ثانية في أوائل شهر يناير سنة ١٩٥٢. ثم عادت اللجنة واجتمعت مرة أخرى بمنزل بمصر الجديدة ولم يكن قد مضى على الاجتماع الأول أيام قليلة. وأثار أحدهم في هذا الاجتماع فكرة وجوب البدء فورا في اتخاذ موقف الاستعداد الكامل للعمل في أى وقت وعلى أن تعطى مهلة شهر على الأقل قبل تنفيذ خطة العمل، وكلفت اللجنة أحد الأعضاء لبحث الموقف من كافة نواحيه العسكرية والشعبية والسياسية والتأكد من مدى قوة الضباط الأحرار. وقد جاء تقريره بعد ذلك مطمئنا. وعندئذ حاول التشكيل أن يتعرف رأى الوفد بصفته صاحب الأغلبية الشعبية وصاحب السلطة الحاكمة في ذلك الوقت. وما هو موقفه في حالة قيام الجيش بالثورة. وأرسل التشكيل أحمد أنور للوفد وتقابل مع وزير الداخلية وأفهمه بأنه موفد من قبل الضباط الأحرار وأنه يتحدث معه على هذا الأساس ويعرض عليه صداقة الجيش والرغبة في تحالف التشكيل العسكري مع حزب الأغلبية الشعبية والتعاون معه ضد العوامل والظروف الخارجية، ولكن الوزير دار حول الموضوع ولم يعط أحمد أنور^(١) أى ردحازم في هذا الشأن، وكان همه الأول والآخر معرفة أسماء الضباط وعددهم ولكن مندوب التشكيل لم يمكنه من ذلك.

(١) سفيرنا في الدائراك .

ولما علت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار بما دار بين مندوب الثورة والوزير كفروا بالوفد ونفضوا أيديهم منه كما سبق لهم أن نفضوا أيديهم من مداورات الإخوان وسلايتهم ، وقرروا أن يعملوا دون الاستعانة بأية هيئة أو حزب أو جماعة ، وقد تباينت الحوادث بعد ذلك في سرعة مذهلة فقد تأمر الاستعمار والملك على حرق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ في الوقت الذي وقعت فيه معركة نادي ضباط الجيش وهي معركة تمخض غمارها الضباط الأحرار وأعلنوها حرباً مافرة ضد الملك الذي كان يعتقد خطأ هو ومن معه من رجال القصر والحكومة أن محمد نجيب على رأس الضباط الأحرار فأبعده عن رئاسة سلاح الحدود وعينوا مكانه أحد أعوانهم وهو حسين سرى عامر ، ولم يقتصر الملك على ذلك بل أبدى رغبته في أن يكون هذا الأخير رئيساً لنادي الضباط ، وعندئذ قرر الضباط الأحرار ترشيح محمد نجيب لرياسة النادي ضاربين برغبة الملك عرض الحائط ، وعندما شعر الملك بأن مرشحه سينشل في الانتخابات لتكتل الضباط وبعد أن لاح في الأفق فوز محمد نجيب مرشح التشكيل أمر وزير الحرية بإلغاء الانتخابات وتأجيلها إلى أجل غير مسمى وكان هذا القرار في شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ .

في هذا الوقت بالذات وكان الضباط الأحرار بدأوا يتحسسون مواقع الأرض التي يقفون عليها وشعروا بأنهم من القوة بحيث يستطيعون القيام بعمل إيجابي ، اجتمعوا وقرروا الإقدام على حركتهم في مارس سنة ١٩٥٢ بدلاً من سنة ١٩٥٥ ، ورأوا بادية ذي بدء ألا ينفذوا قرار تأجيل الانتخابات ، ودعوا الضباط لاجتماع غير عادي ليقرروا رأيهم في هذه المشكلة وفي اجتماع وافق الضباط على تحديد موعد للانتخاب وتحديد الميعاد بالفعل وفي أثناء الانتخاب رفض الضباط أن يمثل سلاح الحدود في المجلس ونجحت خطة التشكيل وفاز نمشوا الضباط بأغلبية ساحقة وأبعد حسين سرى عامر وانتصر التشكيل العسكري وانهمزت جبهة الملك ، ولكن اللطمة التي أصابته كانت قاسية فاستدعى إليه وزير الحرية وقال له أما أن يمثل حسين سرى عامر بالمجلس أو يحل فوراً وبدأ الوزير يساوم الضباط ويعرض عليهم الحلول دون

جسوى وأخيرا أمر الوزير بحل نادى الضباط . وكان ذلك فى عهد حسين مـرى
الذى تولى الوزارة فى أول يوليو ، ولم يكـد يـمضى على توليه الوزارة أيام قليلة حتى
جاءه حافظ عفيقى وطلب منه باسم السراى نقل ١٢ ضابطا من الضباط الأحرار
الى أماكن متفرقة وكان حسين مـرى يشعر أن الجيش على وشك الانفجار ، وأن
الثورة العسكرية وشيكة الوقوع ، فاستقال ولم يمكث فى الوزارة سوى عشرين
يوما ، ثم خلفه الهلالى ولم يمكث بالحكم سوى ٢٤ ساعة اذ فاجأته الثورة وأطاحت
بوزارته كما أطاحت بالملك وبكل النظم الفاسدة التى كانت سائدة وقتئذ .

الباب الثامن

الكفاح الأعظم : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

- ١ - مشرق النور في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
- ٢ - خاتمة ملك ونهاية اسرة .
- ٣ - بناء مصر العظمى .
- ٤ - تأميم القناة .
- ٥ - كفاح الشعب يهزم ثلاث دول .

١ - مشرق النور في يوليو ١٩٥٢

خيوط الفجر الجديد :

تولى فاروق عرش مصر سنة ١٩٢٦ ، وكان حدثا ضئيل الخبرة والتجربة ، وحكم فترة قصيرة بواسطة مجلس الوصاية ، وما لبث أن أنهى الوصاية في سنة ١٩٢٧ ، وأقسم اليمين أمام البرلمان على احترام الدستور والقوانين ولكنه طالما حدث في هذا اليمين . وتصارعت الأحزاب السياسية حول الحكم ، وتقربت الى الملك لتفوز بأسلاب السلطة ، وأغمضت عيونها عن انحرافات الملك وأخطائه . وترك الملك وحكوماته القوات البريطانية تترحم في الأراضي المصرية . وعملوا جميعا على تقييد الحريات ، ومصادرة الصحف وتكليم أفواه الوطنيين . وامتلات السجون بالاحرار .

وأصبح الحكم في مصر اقطاعيا في جميع جوانبه ، فالملك وزعماء الأحزاب من الاقطاعيين والرأسماليين المستغلين ، وشغل الاقطاعيون أيضا مقاعد البرلمان ، وأصبح الفلاح المصري يشكر الفقر والجهل والمرض ، وعاش الفلاحون في مصر كما كان الفلاحون في أوروبا في القرون الوسطى . زيفت الحكومات الانتخابات ، حتى لا يصل الوطنيون الى البرلمان . وأصبحت وظائف الحكومة سلعا تباع وتشترى بالمال ، وانتشرت المحسوبية والرشوة واشتغل بعض الوزراء نفوذهم واشتغلوا بالتجارة وحازوا ثروات كبيرة . وأقبل الملك على حل البرلمان والعبث بالديموقراطية ، وكثر تغيير الوزارات ، وزالت ثقة الشعب تماما في الملك والحكومة والأحزاب والبرلمان ، وأصبحت مصر على فوهة بركان .

واضطرب توزيع المصدر الرئيسي للثروة وهي الأراضي الزراعية ، وسيطر الاقطاعيون على الأراضي الزراعية ، وأصبح الفلاحون المصريون أجراء يعملون بما يشبه السخرة في مزارع هؤلاء الاقطاعيين ، وأصبح ٧٠٪ من ملاك الارض

يملكون أقل من فدان ، ولا يتجاوز ما يملكون من الأراضى ١٢ ٪ من مساحة الأراضى الزراعية ، بينما كان ٣٧ ٪ من هذه الأراضى يملكها ٤ ٪ من الملاك الذين كان يملك الواحد منهم أكثر من ٥٠ فداناً ، ومنهم من ملك أقطاعات واسعة تتألف من ألوف الأفدنة . وتدهور الانتاج الصناعى تدهوراً واضحاً ، وأصبحت مصر تعيش على المصنوعات الأجنبية ، كما أضحت سوقاً رائجة للسلع البريطانية المختلفة ، وكان العمال المصريين محرومين من الرعاية الاجتماعية والصحية ، حتى أصبحوا شموعاً تحترق من أجل الرأسماليين من الأجانب أو من المصريين والاقطاعيين المستغلين ، ولذا انعدمت كل صور العدالة الاجتماعية .

ولكن روح الكفاح لم تخمد فكثيراً ما أعلن الفلاحون ثورتهم على الاقطاعيين ، فيقول الميثاق : « ان ثورات الفلاحين ضد استبداد الاقطاع وصلت الى الاشتباك المسلح بين الذين ثاروا على عبودية الأرض وبين سادة الأرض المتحكمين فيها ، وفي أقدار الذين ارتبطت حياتهم بها منذ أقدم العصور ، وان كانوا منذ أقدم العصور قد حرروا منها ، .

وأي كانت الفئة الحاكمة .. ويجب الميثاق على هذا التساؤل : « ان الفئة المنحكمة فى العاصمة لم تكن تشعر باحتياجات الشعب ، وكانت غارقة فى حياتها المترفة ، لا تشعر بعذاب الجوع أو آلامها ، .

الجيش والشعب فى الليلة الخالدة :

خرجت قوات الجيش ، جيش الشعب ، فى ليلة عظيمة خالدة ، لتعبّر عن رغبات الشعب وآماله ، ولتؤيد النضال الشعبى ، وكانت القوى الحاكمة تريد دائماً عزل جيش الشعب عن هذا النضال ، وفتح الجيش الطريق أمام تصحيح الأوضاع ، وأمام اردة التغيير .

وصف الميثاق هذه الليلة الخالدة ، ومنزاهها ومدلولها ، وصفاً رائعاً فقال : « ان أعظم ما فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أن القوات التى خرجت من الجيش

لتنفيذها ، لم تكن هي صانعة الثورة ، وإنما كانت أداة شعبية لها .

لقد كانت المهمة الكبرى للطلائع الثورية التي تحركت في الجيش تلك اليلة الخالدة ، هي أنها استولت على الأمور فيه ، واختارت لها المكان الذي لا مكان له غيره ، وهو جانب النضال الشعبي .

إنها قامت بعملية تصحيح أوضاع بالغة الأهمية والخطر في تلك الظروف متحدية بذلك ارادة كل القوى الحاكمة التي أرادت عزل الجيش عن النضال الشعبي . إن الثورة تفجرت تلك اليلة العظيمة من انضمام الجيش الى مكانه الطبيعي تحت قيادة للشعب وفي خدمة أمانيه . إن الجيش في تلك اليلة أعلن ولاءه للنضال الشعبي ، ومن ثم فتح الطريق أمام ارادة التغيير .

إن انضمام الجيش الى النضال الشعبي صنع أثرين هائلين في نفس اليلة ، ولقد سلب قوى الاستغلال الداخلي أدواتها التي كانت تهدد بها ثورة الشعب ، كذلك فإنه سلاح النضال الشعبي في مواجهة قوى السيطرة الأجنبية المحتلة بدرع من الصلب قادر أن يصد عنه ضربات الخيانة والغدر

إن الثورة لم تحدث ليلة ٢٣ يوليو ، ولكن الطريق إليها قد فتح على مصراعيه تلك اليلة العظيمة .

قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحقيق احتياجات الوطن ، ورسم الميثاق الخالد صورة لهذه الاحتياجات وطريقة تحقيقها فقال : « إن احتياجات الوطن لم تكن تكتفى بترميم البناء القديم المتداعى وصلبه بقوائم تسنده وتميد طلاؤه . وإنما كانت احتياجات الوطن تتطلب بناء جديد أثابت الأساس صلبا شامخا . إن سقوط النظام الذي كان سائدا قبل الثورة ، هذا السقوط الكامل المريع ، كان يقطع بعدم جدوى محاولات الترميم . لكن سقوط النظام القديم لم يكن هدف التطلع الثوري . إن التطلع الثوري بكل آماله ومثله العليا يهتم بالبناء الجديد أكثر من اهتمامه بالانقراض التي تداعت » .

عندما اشتدت أزمة نادي الضباط بعزل مجلس ادارة النادي ، اجتمع الضباط
الاحرار وقرروا التحرك فورا ، وكانت امامهم خطتان مدروستان : الاولى أن
يقوم الجهاز الخامس باغتيال جميع الخونة المصريين ، والخطوة الثانية هي أن
يقوم الضباط الاحرار بالعمل لتغيير النظام بأجمعه .

وفي يوم ١٨ من يونيو كانت الخطوة الاولى هي الراجعة وحدد لتنفيذها يوم
٢٠ يوليو .

احداث الليلة العظيمة :

اجتمعت اللجنة التأسيسية مرة أخرى يوم ١٩ يوليو لدراسة عملية يوم ٢٠
ووجدوا أن عملية الاغتيالات لن تغير من النظام السائد شيئا ، فضلا عما يصيب
البلاد من وراء تنفيذها من أضرار . وقرر الضباط في هذا الاجتماع إلغاء الخطوة
الأولى وتنفيذ الخطوة الثانية (١) وقام جمال عبد الناصر بوضع الخطوة التنفيذية . بعد
أن أطمأن على قوات الجيش بالاسكندرية عقب عودته منها في ١٢ يوليو . وبعد
أن قدم أحد رجال الثورة تقريراً وافياً عن حالة الجيش وموقف الضباط من الحركة .
وعلى أثر ذلك حددوا يوم ٢٤ يوليو موعداً للقيام بالحركة ، ولكنهم عاودوا
وجعلوا الميعاد يوم ٢٣ يوليو على أثر ما أشيع من تسرب بعض أنباء الحركة
للسنولين . واجتمع الضباط الاحرار مرة أخرى بمصر الجديدة في الساعة السادسة
من مساء يوم ٢٢ يوليو لوضع الخطوة النهائية للحركة ، وكان بعض الضباط من
أعضاء اللجنة لا يعلم بتقديم هذا الميعاد ، وكانت التعليمات تقضى بوجود جميع
الضباط يوم الخميس ٢٤ يوليو بالقاهرة وطبقا للخطوة التي وضعت بإحكام خرج
أعضاء اللجنة التأسيسية الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٢ يوليو ومعهم ما يزيد
على تسعين ضابطا من الضباط الاحرار الى وحداتهم وأما كن تجمعهم انتظارا
لساعة الصفر ، ولزم جمال منزله ومعهم عبد الحكيم يراقبان سير الحوادث ، وجاءهما

(١) من حديث الرئيس جمال عبد الناصر .

أحد الضباط الأحرار وأخبرهما بأن القصر قد تسرب إليه نيا الحركة ، وإن
رئيس هيئة أركان حرب الجيش قد دعا الى عقد اجتماع عاجل في الساعة الحادية
عشرة مساء بمقر رئاسة الجيش بمنشية البكري مع بعض اللواءات لاتخاذ الاجراءات
المشددة ضد الضباط الأحرار ولم يجد جمال بدا من محاولة اخطار باقي زملاء
بهذا الخطر الجديد الذي يهدد الحركة ، وتوجهوا ثلاثتهم الى مركز تجمع الضباط
بشكنات العباسية واكنهم وجدوا أن الوحدات بدأت في التحرك قبل ميعادها ،
وأن البوليس الحربي قد أعلن ثكنات العباسية والفرسان (وبدأ للحظات أن الخطة
كلها في خطر ولم يبق على ساعة الصفر الا تسعون دقيقة ولاح أن خطة الثورة كلها
تدخل في مرحلة من تلك المراحل الخطيرة في التاريخ عندما تتدخل قوى أكبر
منها لتوجه الحوادث ، ولقد تأكد لي من تطور الأمور أن عناية الله كانت تلك
الليلة معنا (١)) وعندئذ لم يجد جمال وزميليه سوى التوجه الى ثكنات الماظه لعله
يتمكن من الاتصال بوحدات الجيش التي به ، وفي أثناء سيرهم اعترضت طريقهم
فرقة من الجنود تابعة للكتيبة الأولى وأنزلتهم من العربات الأوسن الخاصة بحمال
بالقوة وألقت القبض عليهم ، وكانت التعليمات تقضى بالقاء القبض على كل ضابط
لا ينتمي الى الضباط الأحرار ما لم يثبت شخصيته ، ولم يجد جميع المحاولات التي
بذلت مع هذه الكتيبة أو القائمين عليها للافراج عن جمال وزميليه وتجاهلوا جميع
الأدلة التي ساقوها على أنهم من كبار الضباط الأحرار ، وذهبت مساعيهم أدراج
الرياح .

وكانت كل دقيقة تمر بمثابة ثقب كبير في بناء الثورة يوشك أن يودي بها ،
وبعد عشرين دقيقة جاء قائد الكتيبة البكباشي يوسف منصور صديق على صوت
الضجة التي أثارها جمال وزميلاه وتعرف عليهم فقد كان جمال رئيس الضباط الأحرار
والمنظم الأول للثورة وعرف منهم الخطر الذي يحيق بهم جميعا وقرروا أن يتجهوا
فورا الى مكان اجتماع رئيس هيئة أركان حرب وباقي اللواءات بالقيادة ، وفي

(١) من حديث لجمال عبد الناصر لـدوب سانداي تأري في يوليو سنة ١٩٦٢ .

الطريق قبضوا على بعض قادة الجيش ، ثم اقتحمت الكتبية الأولى مبنى القيادة وحدثت مقاومة أثناء ذلك قتل خلالها جنديان أحدهما من حرس القيادة وآخر من الكتبية الأولى ، وهذان الجنديان هما (١) الشهيدان الوحيدان في ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ البيضاء ، وفوجىء المجتمعون بمبنى رئاسة الجيش بحمال عبد الناصر وعبد الحكيم هاجر ويوسف صديق ومعهم باقى القوة يحيطون بهم بعد أن اقتحموا عليهم حجرة الاجتماعات وكان على رأس المجتمعين حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش يرسم مع أركان حربيه خطة اعتقال رجال الثورة فقبضوا عليهم وأودعهم مبنى الكلية الحربية ، وعلى أثر ذلك انتقل مجلس قيادة الثورة إلى مبنى رئاسة الجيش واتخذوه مقرا لقيادتهم ، وكان حيدر مصطفى مع الوزارة والملك فى الاسكندرية وعلم بوجود حالة التذمر ، فانصل بحسين فريد الذى كان يعتقد أنه يجتمع مع بعض لواءات الجيش بالقيادة ، وكان قد تم القبض عليهم فرد عليه جمال عبد الناصر وتحدث معه على أنه حسين فريد وأخبره بأن الجمالة هادئة ، ومطمئنة ، وأن الموقف مستتب بالجيش ولكن حيدر عاد بعد نصف ساعة وطلب مكالمه اللواء حافظ بكري مدير سلاح المدفعية ، وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ، فرد عليه أركان حرب جمال وطمأنه مرة أخرى وقال له . ان كل ما بلغه من قيام الضباط بالتمرد إنما هو مجرد اشاعة ولا أساس لها .

وفى حوالى الساعة الثالثة ، وكان الضباط قد هيموا على الموقف ، عاد حيدر واتصل مرة أخرى بقيادة الجيش فطمأنه رجال التشكيل كما فعلوا فى المراتين السابقتين . مما جعله يقول للملك عندما أراد أن يستفسر عن الجمالة فى ثقة ويقين : « يا مولاي انها مجرد عاصفة فى فنجان » . وكان مجلس قيادة الثورة قد قسم القاهرة الى أربعة مناطق يتولى أمر كل منطقة بعض الضباط الأحرار على أن يبادر الضباط الى احتلال المراكز الهامة فى الجيش وبعض الهيئات والمعامل الحكومية

(١) الجنديان الشهيدان هما عطية سيد أحمد من حرس حسين فريد وعبد الحكيم محمد المشرف من الكتبية الأولى .

كالإذاعة والتليفونات والتلغرافات والسكك الحديدية والكبارى وغيرها وكان يقع على عاتق سلاح الفرسان عبء كبير ، وقد وضعت القيادة على رأسه أربعة من الضباط وفى تمام العاشرة من مساء يوم ٢٢ يوليو توجهوا الى مقر سلاح الفرسان. ودخلوا القشلاقات من الأبواب الخلفية غير المطروقة ، وحدث فى ذلك الوقت بالذات أن أطفئت جميع أنوار المعسكر فظن الضباط أن هذا الحادث قد يكون متعمدا توطئة للقبض عليهم ، ولكن هذا الخاطر زال بعد فترة وجيزة مرت وكأنها ساعات وعلى ضوء البطاريات والشموع بدأوا فى تنفيذ العمليات وتجهيز الدبابات الكبيرة من نوع السنوتوريون والمصفحات الضخمة ، بينما كان أحدهم يفتح أبواب مخازن الأسلحة والذخيرة لتأمين الفرق الميكانيكية . وعندما كانوا يستعدون للخروج نعى اليهم أن قائد قسم القاهرة ، وكذلك قائد اللواء المدرع ، حضرا بالقشلاق فقبضوا عليهما وأودعوهما مبنى الكلية الحربية وتوجه الآلاى الثانى وحاصر شارع الخليفة المأمون من جهة مصر الجديدة وكوبرى القبتوالعباسية ، وعزل منطقة التكنات عن باقى مناطق أحياء القاهرة . وفرض الآلاى الثانى ستارا حديديا على المنطقة ، ومنع دخول أو خروج أى شخص سوا. أ كان مدنيا أم عسكريا الا بعد التحقق من شخصيته .

أما الآلاى الأول ، فقد قام بالقبض على بعض لواءات الجيش وأودعهم الكلية الحربية ، وكان يدخر آلايه لعملية أخرى لم يحن وقتها بعد ، وان كانت قد حددت ضمن خطة العمليات التى وضعها من قبل جمال عبد الناصر ، وهى العمليات الخاصة بمدينة الاسكندرية .

كما توجه بعض الضباط على رأس القوات الميكانيكية والمدرعة فاحتلوا الإذاعة والتليفونات والسكك الحديدية والمرافق العامة جميعها وقاموا على حراسة البنوك والمصالح الأخرى الهامة وعندما اقتربت الساعة من الرابعة كان سلاح الفرسان قد انتهى من مهمته التى رسمت له

وقد بين أحدهم (١) خطة الحركة كاملة فيقول : « أن أمامى خطة الحركة كاملة.

(١) السيد ثروت عكاشة .

والذى يراها اليوم قابعة فى ست صفحات من الفولسكاب ويخط ليس بجيداً جداً
وفىها شطب وتعديل وهى كذلك مشحونة بالمصلحات الفنية والرموز . من
يرأها اليوم وهى ملقاة على مكتب لا يمكن أن يظن أنها كانت الحد الفاصل
بين عهدين وكانت الفيصل فى مصير البلاد . وأنى أنقل منها بالحرف : ١٢٠٠
يصل جميع الافراد الى الوحدات ويمنع استخدام التليفون وتفسير ذلك أنه على
جميع الافراد الاحرار بطبيعة الحال أن يجتمعوا فى منتصف الليل ثم تضى الحطة
العامة تشمل فى وسط السطر المرحلة الاولى . ثم تفصيل الخطة فى المرحلة الاولى
وهى خاصة بالتليفونات وتقول ما يأتى بالحرف . تروب سيارات لضابط +
ضابط من الخارج وبين قوسين (أنور) جماعة مشاة من السوارى معها جهاز
لاسلكى على موجة رياسة الجيش ستب ١٣٠٠ التجميع فى سلاح الفرسان . تعود
التليفونات للعمل بأوامر رياسة الجيش وتمشى الخطة الى رقم ٢ فتحدث عن عمليات
القبض وكيف تبدأ ساعة ١٢.٠ أى. الواحدة والنصف ثم رقم ٣ وهو الطريق
الموصل من الحدائق الى ادارة التجنيد ثم رقم ٤ وهو الخاص بكوبرى المترو وأمام
المستشفى العسكرى بقيادة اليوزباشى وجيه رشدى ثم رقم ٦ الخاص بتقاطع شارع
الخليعة المأمون بشارع نادى أوسبورتنج بقيادة خاند محي الدين وتمضى الخطة
حتى تصل الى عنوان الراديو وتحت العنوان مايلى : يلقى بيان على الشعب بمجرد
فتح الراديو وبيان آخر على الجيش ويأتى بعد هذا العنوان سلاح الطيران . وتحت
هذا العنوان مظاهرة على القاهرة والاسكندرية سمعت ١٠٠٠ وتمضى الخطة فتتص
على ضرورة عمل ترتيب المواصلات الداخلية داخل الوحدات وان يقدم تقرير موقف
كل ١٥ دقيقة ابتداء من سمعت س الى رياسة الجيش حتى سمعت ١٠٠٠ يوم ى .
وتتحدث الخطة عن تنظيم الرياسة العامة فتذكر الاسماء التى ستقوم بها ، وفى مقدمة
الاسماء اسم الرئيس البطل جمال عبد الناصر .

وتعرض الخطة لشبكة المخابرات العسكرية والمدنية فتقول بالنص :

١ — بواسطة ادارة المخابرات .

٢ — بواسطة الصحف .

المطلوب معرفة جميع التطورات السياسية وخلافه في المملكة عموماً وفي الجيش بوجه خاص معلومات وافيه عن التطورات في الاسكندرية وتنتهي النحلة العامة بالحديث عن عملية فلسطين وتحت هذا تسجيل مايلي: تبدأ بعد اذاعة الحديث بالراديو - أى بعد اذاعة بيان الرئيس نجيب الإتصال بالاسلكي مع فلسطين - طلب كنية مدافع يوم ١٠ - ويستمر ثروت عكاشة فيقول: «أعود فأقول بعد أن درسنا هذه النحلة أخذنا القسم الخاص بسلاحنا وكان جسيماً وخطيراً ومضنياً عند لكل شيء عدته . فدونت الخطوات التنفيذية على وريقات صغيرة عددها عشرة مقسمة الى سبع أقسام كل قسم منها عبارة عن عملية من العمليات مضافاً الى هذا أربع أوراق متشابهة . ان سبعة الأقسام الخاصة بسبع عمليات الواردة تحت عنوان تعليمات وعمليات حربية رقم ١٠٠ تحمل الواجبات التالية :

دار الاذاعة ك . ميكا التليفونات ، الاعتقالات بوابة العباسية سلاح الحدود . مطار مصر الجديدة وكل قسم من هذه الأقسام يحوى اسم القائد والقوات الموجودة تحت قيادته والشئون الادارية من طعام وذخيرة ووقود . والمواصلات الداخلية ومقصود بها طريقة الاتصال بالاسلكي بقى مذكورة عن القسم الخاص الذي يضع أربع وريقات تحت عنوان : « باقى القوات ، ولعل من الأوفق أن أنقل نص ما سجلته هذه الورقات :

١ - تجهيزها واستعدادها قبل ساعت ٥.٠٠ .

٢ - تكون هذه القوات على أهبة الاستعداد للقيام بأى عملية تطلب في ظرف ١٥ دقيقة .

٣ - يقوم الآلاى الأول المدرع بتجهيز أورطة دبابات لعمل طابور سير داخل المدينة سعت ١.٠٠٠ .

٤ - خط السير . شارع الخليفة المأمون . الملكة نازلى . شارع ابراهيم . الأوبرا .

٥ — يقوم الآلاى المدرع الاول بتجهيز أورطة دبابات على أهمية الاستعداد للسفر الى الاسكندرية فى ظرف ساعتين اذا لزم الامر .

٦ — باقى القوات تظل بوحدها تحت الاوامر وفى حالة استعداد فى ظرف ساعة بعد صدور الامر (راحة) .

٧ — على حضرات الضباط عدم مغادرة جنودهم والتأكد من عدم تسرب أى دعاة للهزيمة بينهم وذلك بالاشراف الشخصى المتواصل والظهور بمظهر الثقة .

٨ — تجهيز الدبابات الستوريون لاحتمال أى تدخل من جانب القوات البريطانية .

٩ — تعيين عربية جيب لقائد الآلاى الخيالة .

١٠ — تعيين الحرس اللازم للقيادة .

١١ — ٢ عربية مدرعة لمعارنة خالد بمصر الجديدة :

١٢ — طلبات ك ميكام لوارى وذخيرة وتعيين ١٣٠ قوة مشاة للتدريب الحربى ان لم تكن قد عينت .

١٣ — تعزيز قوة ك ميكام ١٥ رصاصا برسمت .. عند بوابة الفرسان لاستلام مندوب التليفونات .

١٤ — قروب سيارات لخالد سمعت ١٠٠ + ٣ لورى + ٢ ضباط + ذخيرة وبهذا تنتهى الخطة التنفيذية التى وضعها مجلس قيادة الثورة وظاهر منها مدى الدقة والحرص الشديدين كما أن واضعيها لم يغفلوا صغيرة ولا كبيرة الا وأثبتوها . وشارك كذلك سلاح الطيران بنصيبه فى الحركة . وقبض الضباط الاحرار على اللواء شعراوى مدير السلاح كما قبضوا كذلك على قائد الفرقة الجوية عبد الحميد سليمان وحققى هارون

وجزارين وعدلى الشافعى وحسن عاكف وصالح محمود صالح الذى
ضبط متلبسا بمحادث حيدر لينبئه بقيام الثورة .

كما كلف أعضاء مجلس قيادة الثورة قائد الجناح محمد شوكت للاشراف على
عمليات طيران الطيارين لحماية الحركة من الجو ولارهاب الملك وأهوانه ومراقبة
الموقف اذا ما فكر الانجليز بالتدخل ، ولم يكذب يوزغ صباح يوم ٢٣ يوليو حتى
انطلقت في سماء مصر الطائرات يقودها الضباط الاحرار .

انباء الثورة الاولى:

صباح الشعب يوم ٢٣ يوليو على صوت الطائرات يملأ ضجيجها سماء القاهرة
وبدأت تترامى بعض الاخبار عن قيام الجيش بالثورة . والناس بين مصدق
ومكذب حتى اذاع الراديو اول نبأ عن اخبارها ، وفي تمام الساعة السابعة والنصف
اذاع أحد رجال الثورة من دار الاذاعة البيان التالى :

« اجتازت مصر فترة عصية في تاريخها الاخير من الرشوة والفساد وعدم
استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب
المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين . وأما فترة بعد هذه الحرب فقد
تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو
فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها وعلى ذلك فقد قنا بتطهير أنفسنا وتولى
أمرنا في داخل الجيش رجال ثقت في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم . ولا بد أن
مصر كلها تستلقي هذا الخبر بالابتهاج والترحيب . أما من رأينا اعتقالهم من رجال
الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب واني
أؤكد للشعب المصرى أن الجيش كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور
بجردا من أية غاية وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمع لاحد من
الخونة بأن يلجأ لاعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس في صالح مصر ، وان
أى عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى فاعله جزاء الخائن
في الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس واني أطمئن اخواننا

الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولاً عنهم والله
ولى التوفيق .

وقد قابل الشعب أنباء الثورة بالبشر والسرور والترحيب وتأكد أن يوم
الخلاص الذى انتظره طويلاً قد جاء . ثم أذاع القائد العام للقوات المسلحة بيانين
آخرين أحدهما الساعة ٨.٣٠ الثامنة والنصف والآخر بعده وكان البيان الأول كما يلي:
« تعاون جميعا الفترة العصية التى تمتازها البلاد ورأيتم أصبح الخونة تتلاعب
بمصالح البلاد فى كل فرع من فروعها وتجرأت حتى تدخلت فى داخل الجيش وتغلغل
فيه تظن أن الجيش قد خلا من رجاله الوطنيين .

واننا فى هذا اليوم التاريخى نطهر أنفسنا من الخونة والمستضعفين ونبدأ عهد
جديداً فى تاريخ بلدنا . وسيسجل لكم التاريخ هذه النهضة المباركة أبد الدهر ولا
أظن أن فى الجيش من يتخلف عن ركب النهضة والرجولة والتضحية التى هى واجب
كل ضابط منا والسلام .

وعندما تأكد نجيب الهلالي من قيام الثورة قدم استقالته وطلب مجلس القيادة من
على هامر أن يؤلف وزارته فوافق وتم له تشكيلها فى اليوم الثانى للثورة أى فى يوم
الخميس ٢٤ يوليو .

٢ - خاتمة ملك ونهاية أسرة

التهيار رأس الفساد :

عندما استتب الأمر للثورة وأطمأن الأبطال الذين قاموا بها وشاركوا فيها وتألقت الوزارة التي يرضون عنها اتجهوا بأنظارهم الى الملك رأس الفساد. فزحفت الى الاسكندرية فرق من السوارى وكثائب المدفعية الثقيلة والكتيبة الثالث عشرة وكان ذلك يوم الجمعة ٢٥ يوليو . ولم يكن الملك يعرف على سبيل اليقين ماهو موقف الجيش منه وان كانت البوادر تنبئ بأن شيئاً هاماً لابد أن يحصل بالنسبة له ولأسرة محمد على كلها .

لذلك فقد كان الملك على استعداد لأن يلي أى مطلب يطلبه الجيش وقادته مقابل انقاذ رقبته ، فبعد أن استجاب لرغبتهم بتسوية وزارة الهلال واسنادها على ماهر عادوا وطلبوا منه يوم الجمعة ٢٥ يوليو أثناء زحف الجيش الى الاسكندرية حيث كان يقيم بإبعاد ستة من حاشيته وهم محمد حسن أمينه وخادمه وانطون بوللى سكرتيره الخاص والياس أندراوس مستشاره الاقتصادى ويوسف رشاد كبير أطباء البخوت الملكية وحسن عاكف قائد طائرته الخاصة والأميرالاي محمد حلى حسين مدير ادارة السيارات بالقصر ، وعندما وصله هذا المطلب وافق عليه كذلك. اعتقاداً منه أن هذه هى آخر طلبات مجلس قيادة الثورة ولكنه مع ذلك كان يتوجس خيفة فانتقل من قصر المنتزه الى قصر رأس التين فى ساعة متأخرة من يوم ٢٥ يوليو هو وزوجته وابنه وبناته وكان معهم حسن عاكف لتدبير خطة للهرب سواء بطريق الجو أو عن طريق البحر بأن يستقل اليخت المسمى المحروسول لكنه لم يتمكن لأن الجيش كان قد حاصر القصر وسد طريق الهرب فى وجهه . بينما كان سلاح الطيران يلاحق المدينة وكان الملك فى هذه الساعات يتحسس رقبته لأنه أصبح من المتيقن بعد أن منعه من الهرب بأن اجراء أعتيافاً سيتخذ ضده . فلم يضمن له جفن وظل مسجداً ترتد فرائسه وتسطك أسنانه حتى جاء يوم السبت ٢٦ يوليو ولا أحد يدرى مايجبته هذا اليوم .

وكان مجلس قيادة الثورة قد اجتمع وبحث موقف الجيش من الملك وما يلزم اتخاذه من اجراءات ضده . هل يحاكم على ما اقترف من جرائم في حق الوطن وعقوبة هذه التهمة بطبيعة الحال هو الاعدام . أم يسكتني بطرده من البلاد . وقد رجح المجلس الرأى الثانى لأنه يتفق مع المبادئ التى التزموها بعدم اراقة دماء وبقاء صفحة الثورة بيضاء لا يشوبها شائبة ومن أجل ذلك كتبوا انذارا وجهوه الى الملك وحمله أحدم وتوجه به الى على ماهر فى مقر رئاسة الوزارة ببولسكى بالاسكندرية وقال له الساعة التاسعة صباح يوم ٢٦ وسله الانذار الذى يحوى تنازل فاروق عن العرش وطلب منه أن يسله الى الملك ويبلغه بضرورة التنازل عن العرش ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم ونص الانذار كما يلي :

« انه نظراً لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فرضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفرادها لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته . ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يحدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير . ولقد تجلّت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الاسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من عكاكات تعرضت لتدخلكم السافر بما أفسد الحقائق وزرع الثقة فى العدالة . ومساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك فقد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو عمكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه والجيش يعمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج .

نزولاً على إرادة الشعب .

حال على ماهر إنداد الجيش وذهب الى مرآى قصر التين فوصله حوالى الساعة العاشرة وقابل الملك وأبلغه فحوى الإنذار شفاها فتنفس الملك الصعداء وهدأت نفسه بعض الشيء ورضخ على الفور . وفى حوالى الساعة الواحدة ذهب وكيل مجلس الدولة إلى الملك ومعه وثيقة التنازل عن العرش ، وهى صورة أمر ملكي ونصها :

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان — لما كنا نطلب الخير لامتنا وابتغى سعادتها ورفقها . ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ونزولاً على إرادة الشعب . قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمراً بهذا الى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه . »

صدر بقصر رأس التين فى ٤ ذى القعدة سنة ١٢٧١ — ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ .
وعندما أراد فاروق التوقيع ارتعدت يده . فماد ووقع عليها مرة ثانية فى أعلى الوثيقة ، وهذه الواقعة ثابتة فى وثيقة التنازل الأصلية .

وخرج وكيل مجلس الدولة يحمل الوثيقة التاريخية وبدأ الملك يستعد للسفر خارج البلاد . قبل الموعد الذى حددته مجلس قيادة الثورة .

وفى تمام الساعة السادسة سافرت المحرومة الى نابولى بإيطاليا تحمل معها عهداً أسود من عهد مصر ، ولم يكن حاضراً وداعه سوى على ماهر وسفير أميريكاجفرسون كافرى ، وتظهرت البلاد من حكم فاروق المدموغ بالرشوة والاستهتار والمجون .

وبخروج فاروق انتهت مرحلة هامة من مراحل الثورة وأسدل الستار على أسرة محمد على الى الأبد . وانتصرت إرادة الشعب وبدأ يحكم نفسه بنفسه بعد عهد طويلة من الظلم والطغيان .

٣ - بناء مصر العظمى

أسس وطيدة :

نجحت ثورة الجيش ، وطردت الملك ، وبدأ قادة الثورة في التنظيم الداخلى المتخلف من اليهود البائدة .

وبادر مجلس قيادة الثورة فالقى مصيف الوزارة بالاسكندرية ، كما ألغى الألقاب ، ودعا إلى التقشف ، ثم أصدر قانون الاصلاح الزراعى فى ١٩٥٢/٩/٩ بعدم جواز ملكية أى شخص لأكثر من ٢٠٠ فدان على أن يتصرف لأولاده بمائة أخرى . وهذا القانون من أهم القوانين التى أصدرتها الثورة ، وهو وسيلة متواضعة لعلاج سوء التوزيع وتقارب الطوائف نوعا ما . نظراً لما كان يمتلكه بعض الاقطاعيين من آلاف الأفدنة يبعثون ايرادها فيما لا يفيد ، بينما الأغلبية من الشعب تتضور جوعاً والكثير منهم لا يجد أحياناً قوت يومه . وأصدر المجلس كذلك قانوناً بالعفو الشامل عن المحكوم عليهم فى الجرائم السياسية التى وقعت فى عهد ما قبل الثورة وكانت قد ارتكبت بدوافع وطنية وكان الوطنيون يتطلعون إلى هذا العفو من حكومة الثورة ، ثم حلت الأحزاب جميعها التى كانت موجودة لأنه لم يعد لها أى عمل بعد أن استنفدت أغراضها .

وفى يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ أعلنت الثورة قيام النظام الجمهورى فى البلاد والغاء النظام الملكى وسقوط حكم أسرة محمد على وبذلك أُنقذت البلاد من طغيانهم وخياناتهم مدى مائة وخمسين عاماً .

كما صادرت أموالهم بما فى ذلك أموال فاروق واعتبارها من أموال الشعب وردتها إليه ، أما فى المحافل الدولية فقد اختطت الثورة لنفسها خطة الحياد التام وعدم الانحياز وساهمت مصر مساهمة فعالة فى نجاح مؤتمر باندونج الذى عقد بها فى ١٨/٤/١٩٥٥ وأسمع جمال عبد الناصر صوت مصر فى هذا المؤتمر وهجم على الاستعمار فى كل مكان . وعندما رفضت الدول الغربية مد الجيش المصرى

بالأسلحة اتجهت مصر إلى الدول الشرقية وعقدت مع تشيكوسلوفاكيا صفقة الأسلحة المشهورة في سبتمبر سنة ١٩٥٥ وكانت العقيلة الاستعمارية لا تزال تسيطر على سياسة بريطانيا وحلفائها . من أن مصر لا يمكنها أن تتعامل مع غيرها واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يسيطرون على السوق العالمية ، وقد ظهرت نياتهم مسافرة عندما قام سلوين لويد في فبراير سنة ١٩٥٥ وأعلن أمام مجلس العموم البريطاني بأن إنجلترا أوقفت بيع الأسلحة لمصر . ورد جمال عبد الناصر على محاولات الغرب في خطبة ألقاها في سبتمبر سنة ١٩٥٥ فقال : « أحب أن أقول لكم في هذه المناسبة : قصة تسليح الجيش ، فحينما قامت الثورة التجأنا إلى كل الدول من أجل تسليح هذا الجيش . التجأنا إلى إنجلترا والتجأنا إلى فرنسا والتجأنا إلى أمريكا والتجأنا إلى باقي الدول من أجل تسليح هذا الجيش . ومن أجل السلام ومن أجل الدفاع ، فإذا حدث . أننا لم نأخذ إلا بماطلات . لقد أرادوا أن يسلم الجيش بعد أن نوقع على موائيق . وقد أعلننا أننا إذا أردنا أن نسلح جيشنا فلن نوقع وثيقة واحدة . إلى أن قال : إلى أن وصلنا رد على هذا الخطاب من حكومة تشيكوسلوفاكيا يقول فيه : (أنها مستعدة أن تمنونا بالسلاح حسب حاجتنا على أساس تجاري بحث) .

جيش وطني عظيم :

ونجحت الثورة في تسليح الجيش بالأسلحة الثقيلة والخفيفة وتخطت جميع العرافيل التي وضعتها الغرب في طريقها ومضت في طريق المكاسب الوطنية ووصلت إلى ذروة انتصاراتها عندما قرر الإنجليز في ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ الجلاء عن أرض الوطن بعد احتلال بنيض دام أربعة وسبعين عاما ، ولم يكن جلاء الإنجليز عن مصر بمحض رغبتهم ولكنه جاء قسرا . فبعد أن قامت الثورة استمرت المقاومة الشعبية التي بدأت سنة ١٩٥١ بعد إلغاء المعاهدة ضد القوات البريطانية في القتال ولكنها نظمت وأشرف على فرق المقاومة بعض الضباط الأحرار وكان الجيش في حاجة ماسة إلى رصاص المدافع الخاص بالطائرات فأمدته

فرق المقاومة بالكثير منها . كما استولى الوطنيون على العديد من العربات الحربية والأسلحة ، ثم وقعت بعض المعارك المنظمة التي ذهب ضحيتها العديد من الضباط الانجليز كما اختطفوا بعض الضباط البريطانيين منهم الضابط الطيار ريجدن وثارت الحكومة الانجليزية وهددت مصر بأنها ستنفذ اجراء عنيفا إذا لم يعد الضابط المخطوف ولكن حكومة الثورة لم تهم بهذا التهديد واستمرت في خطتها في عدم التعرض للوطنيين من أفراد الشعب وتركهم يناوئون الانجليز ويكذبون صفو حياتهم ، وقد اعترف وكيل وزارة الخارجية البريطانية بهذه المقاومة في سنة ١٩٥٤ إذ قال أمام مجلس العموم : وبأنه وقع ٥٢ اعتداء على القوات والرعايا البريطانيين في منطقة القناة في فترة لا تزيد على الستة الأسابيع الماضية فقط ، كما طالب سلوين لويد بضرورة الكشف عن المسؤولين عن حوادث القناة إذا كانت مصر ترغب في التغامر مع بريطانيا ولما لم يجد الانجليز أن هناك أية بارقة من أمل في وقف الأعمال العدوانية ضد قواتها بالقناة ورأت أن حكومة الثورة ليست كباقي الحكومات بل أنها كانت على أتم الاستعداد لأن تذهب الى القناة لتساعد في أعمال المقاومة جنبا إلى جنب مع أفراد الشعب اذا لزم الامر وافقوا على جلاء قواتهم التي كانت تبلغ ٨٠ ألف جندي وضابط وتركوا لمصر الكثير من المعدات والأسلحة الضخمة التي كانت لديهم .. وبهذا تحقق أمل الشعب كما حققت الثورة أهم هدف من أهدافها وقد زف جمال عبد الناصر هذه البشري للشعب في ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ قائلا (اننا نقف الآن على عتبة مرحلة حاسمة من مراحل كفاح شعبنا لقد وضع الهدف الأكبر من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلي فقد وقفنا الآن بالأحرف الأولى اتفاقا ينهى الاحتلال وينظم عملية جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر الخالدة) .

وقد بر الانجليز بوعدهم ولأول مرة مرغمين ونفذوا بنود المعاهدة دون لف أو دوران فخرجت آخر قوة بريطانية في مصر يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ وبذلك تحررت مصر وأصبحت مستقلة استقلال حقيقيا لازيف فيه ولا غموض .

ثم استمرت حكومة الثورة في دعم السلام والصورة الى الحياد والتعايش السلمي بين الدول فكما ساهمت في مؤتمر بانكوك في ١٨/٤/١٩٥٥ عملت على عقد ونجاح مؤتمر بريوني في يوجوسلافيا الذي عقد في ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ومن هذه الجزيرة الصغيرة خرجت نداءات نهرو وتيتو وعبد الناصر الى العالم أجمع تدعو الى السلام والحياد .

السدد العالي :

وفي طريق البناء ودعم الحياة الاقتصادية فكرت حكومة الثورة في بناء السد العالي بأسوان الذي سيزيد الرقعة الزراعية بما لا يقل عن مليون فدان فضلا عن عشرة مليون كيلوات سنويا من الكهرباء . اللازمة لإدارة المصانع والمدن والقرى وبذلك يرتفع الانتاج وتنخفض تكاليف المعيشة . ورات أن تلجأ لتحقيق هذا المشروع العملاق وتمويله الى البنك الدولي الذي وافق أول الأمر على اقراض الحكومة مبلغ ٢٠٠ مليون دولار كما وافقت أمريكا وانجلترا على المساهمة كذلك بمبلغ ٧٠٠ مليون دولار للقيام ببناء السد العظيم ولكن الدولتين عادتتا وسحبتا عرضهما السابق كما سحب البنك الدولي عرضه كذلك ، وقد بنت أمريكا رفضها على أساسين الأول أن مصر لن تتمكن من سداد القسط السنوي من القرض ويقدر بحوالي ٣٧ مليون جنيه والثاني انه يلزم موافقة الدول التي يهملها مياه النيل وهي السودان وأثيوبيا وأوغندا .

وهاتان الحجتان واهيتان لأن مبلغ القرض السنوي الذي تدعى أمريكا بأن مصر لا يمكنها من سداده زهيد بالنسبة لدولة زاد دخلها السنوي على ١٢٠٠ مليون جنيه .

وأما بخصوص ما أثارته من ضرورة أخذ رأي السودان وأثيوبيا وأوغندا بشأن بناء السد فانه قول مردود لأن السد سيحتجز المياه الزائدة التي تذهب كل عام الى البحر ولا يستفيد منها أية دولة من هذه الدول شيئا ، وعلى العموم

فان البيان الأمريكى صدر ودلائل السكره والحقد تنطق فى كل سطر من سطره
كما وان البيان غير صادق بما حواه على اطلاقه أما الحقيقة التى دعت الدولتين
الاستعمارييتين الى سحب اتفاقيتهما فيرجع الى عدة أسباب أهمها التجاء مصر الى
شراء الأسلحة من روسيا ويقولون ونستون تشرشل الابن فى كتابه سقوط ايدن :
« ان الأمريكان اعتبروا ابتياع مصر السلاح من روسيا بمثابة ايعاء بوجود
نقطة ارتكاز لها فى الشرق الأوسط ، وماذا كانت تريد منا انجلترا وأمريكا أن
نفعل بعد أن حبسوا عنا السلاح ورفضوا أن يزودوا جيشنا به . هل كانتا تريدان
من مصر أن تستجديهما المرة تلو المرة بعد أن أفصح وزير خارجية انجلترا أنها
لن تمد مصر بالسلاح لمدة طويلة . هل يجوز لعاقل أن يتصور أن حكومة الثورة
كان فى امكانها انتظار عدول الدول الاستعمارية عن قرارها بحبس السلاح عن مصر
واسرائيل تتحرش بنا كل يوم بألحاح مستوردة من أمريكا وانجلترا وفرنسا .
فقد كانت مصانعها ومخازنها تحت أمر اليهود يغتربون منها كيفما يشاءون ودون
أى قيد ولا شرط .

ثم هناك سبب آخر لسحب قرار التمويل هو غضب أمريكا من خطة الحياد
التي اتخذتها مصر أساسا لسياستها الخارجية لأنها تبغى ربط الدول الصغيرة الى
عجلتها . ولسكن مصر سلكت طريق الحياد وآثرت فكرة عدم الانحياز وأيدتها
بأى الدول العربية . وغيرها من الدول الآسيوية والأفريقية .

كما أن النفوذ الصهيونى دخلا كبيرا فى سحب قرار التمويل خاصة ، وأن
الانتخابات الأمريكية كانت على الأبواب ، وفى سحب القرار ما يضمن أصوات
اليهود وكسب لنفوذهم الكبير .

وبما أوغر صدورهم أيضا اعتراف مصر باليمين الشعبية وما اختطته من بحث
القومية العربية بين الدول ومساعدة شعب الجزائر ضد الفرنسيين ومؤازرة جميع
الشعوب الحرة ضد الاستعمار والاستغلال ويشير ونستون تشرشل الابن سيبا
آخر لسحب القرار فيقول : « وتعرض وزير الخارجية الأمريكية لضغط كبير فى

داخل أمريكا السحب القرض المزمع تقديمه لمصر . كما أن لجنة القطن في الكونغرس الأمريكي طلبت عدم تقديم القرض الى مصر لأنها ترى أن بناء السد العالي سيزيد من مساحة الأرض المصرية المزروعة قطنًا بمقدار مليوني فدان مما سيؤدي الى انخفاض أسعار القطن العالمية .

ولم يكن أمام مصر للخروج من الضغط الاقتصادي الذي فرضته الدول الاستعمارية عليها الا أن تلجأ الى ما هو حق لها ، وهو تأميم قناة السويس . ولو أن أمريكا وإنجلترا وافقتا على التمويل لما سكت مصر على ترك مشكلة قناة السويس بدون حل ، وكان الحل السليم هو إنهاء الوضع الشاذ الذي عاشت فيه قناة السويس منذ عهد اسماعيل حتى سنة ١٩٥٦ بتأمير القناة وتأميمها واسترداد هذه القطعة العزيزة من أرض الوطن واعادتها اليه .

كان تأميم القناة ضرورة وطنية حتمية ، فقد قام بحفرها المصريون وحدهم ، وكان يعمل بها ستون ألف عامل مصري يستبدلون شهرياً ، وقضى أكثر من مائة ألف عامل نجيبهم أثناء قيامهم بهذا العمل الشاق في ظروف قاسية ، وساهمت مصر بجميع الأعمال الأخرى التي طلبت منها وسخرت جميع مواردها لانجاح هذا المشروع ، وإذا كانت الشركة قد ساهمت بمبلغ زهيد لا يزيد على نصف مليون جنيه ، فإن مصر تكلفت عمداً أجور أبنائها ما يربو على ١٦ مليوناً من الجنيهات :

وربح المساهمون الأجانب من شركة قناة السويس الملايين من الجنيهات التي كانت ترسل لهم في الخارج ، وهذه الشركة وإن كانت مصرية ولكنها تتمتع بامتيازات تتناقض مع استقلال البلاد . كما كانت شركة قناة السويس هي مفتاح الاحتلال ، واحتلت هذه الشركة دائماً بالاستعمار ، وتكررت مصر .

والواقع أن وضع شركة قناة السويس لا نظير له في جميع أنحاء العالم ، لا من الجهة الاقتصادية أو السياسية ، فصر لم تتناول عن قناة السويس الى الشركة

كما كان يبدو من تصرفاتها ، فحق سيادة مصر على القناة ثابت في مواد فرمانين المؤرخين في ١٨٥٤/١١/٢٠ و ١٨٥٦/١/٥ ، كما أكد له كذلك اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ . والثابت من هذين فرمانين أن مصر لم تتنازل عن حق سيادتها على القناة ، كما أنها هي التي رسمت نظام الملاحة الدولية وحددت رسوم المرور . كما أن هذه القناة حفرت في أرض مصرية وبسواعد المصريين وأموالهم ، أما عنصر الاستقلال والاعتصاف فواضح من أرباح قناة السويس ، ويمكن أن تبين أن أرباح القناة سنة ١٩٥٥ كان حوالي ٣٥ مليوناً من الجنيهات ، بلغ نصيب مصر منها حوالي مليون جنيه ، والباقي تسرب إلى المساهمين الأجانب في إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من الدول الغربية .

٤ - تأمين القنساء

حتمية التأمين :

في يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ أعلن جمال عبد الناصر تأمين قنساء السويس وانتقال جميع ماله من أموال وحقوق وما عليها من التزامات إلى الدولة وقالها جمال صريحاً مدوية (لقد كانت قناة السويس صرحاً من صروح الاستبداد وصرحاً من صروح الاغتصاب - واليوم أموالنا ردت إلينا - هذه حقوقنا عادت إلينا اليوم أمت قناة السويس) .

وما من شك في أن قرار التأمين يعادل في أهميته قرار جلاء الانجليز عن مصر. وقد استقبله الشعب بالارتياح والبشر - ووضع في المرتبة - الثانية من مكاسب الثورة بعد الجلاء . على أن قرار التأمين لم يصدر إلا بعد دراسة فلم يكن خافياً مدى الأثر الذي ينجم من قرار التأمين . وما كان أولى الشأن بنافلين عما قد يصيب الغرب من ذعر وهوس عندما تأتيم أنباء التأمين بل أن قادة مصر كانوا على يقين بأن الغرب سوف يقوم بأي عمل طائش يعيد إليه كرامته السلية .

وقد وضع في الاعتبار أن التدخل العسكري قد يكون أحد هذه الأعمال الطائشة ولذا كان من المتعين أن تترك مرة وأن نقلب الأمر مرتين وبدأ جمال عبد الناصر يدرس الموقف الداخلي والخارجي - وانتهى إلى تحرير وثيقتين أحدهما :

(تقدير الموقف من وجهة النظر المصرية في حالة تأمين قنساء السويس)
والأخرى (تقدير الموقف من وجهة النظر الغربية في حالة تأمين قناة السويس) -
والوثيقة الثانية تضمنت دراسة مستفيضة حول موقف الغرب وكافة الاحتمالات التي قد ينتجها في حالة التأمين بل أنها اشتملت على بيان دقيق للقوات البريطانية التي يحتمل أن تستغلها إنجلترا في الاعتداء على مصر . سواء في ذلك القوات المربطة

بالدول العربية كليبيا والأردن أو - المراقبة في قبرص ومالطة وعدن - وقد استبعدت مصر كما ورد بالوثيقة استخدام قواتها بليبيا والأردن لسببين أنه من الصعب أن تستخدم بريطانيا قاعدة عربية في غزو ضد مصر - وثانيهما أن بريطانيا سوف تكون في حاجة إلى هذه القوات حيث هي في الأردن وفي ليبيا لحماية الوجود البريطاني فيهما أمام الغلبة الشعبية التي سوف تحدثها عملياتها العسكرية ضد مصر .

وأما القوات البريطانية المراقبة بقبرص ومالطة وعدن - فقد كانت مصر تعلم كل شيء عنها - عددها ومدى تسليحها وأماكن تجمعها حتى أسماء قادة وحداتها - وبحسب قول مصر على هذه الأمور الحرية تأكد لها استحالة استخدام انجلترا لها في عملياتها ضد مصر - لأنه فضلا عن كونها قوات غير مخصصة لعمليات الغزو فإن انجلترا تحتاج إليها للمحافظة على قواعدها العسكرية في تلك البلاد . فكان لا انجلترا على وجه اليقين حاملة طائرات واحدة في مالطة ولواءان من المشاة وثلاث كتائب من فدائي المظلات لمقاومة جماعة (أيوكا) العربية بقبرص ولواء مشاة واحد وطرادان يقومان بأعمال - المراقبة في عدن . وكلها قوات لها عملها المرسوم بتلك القواعد ومن الميسر استخدامها في عمليات ضد مصر وإلا كانت هزيمتها ساحقة - وخسائرها فادحة .

ولم يبق أمام انجلترا من قوات سوى قواتها التي تحتفظ بها داخل الجزيرة البريطانية - وأقربها الفرقة الثالثة التي تعسكر في مدينة سوثهامبتون في الجنوب وهي في حاجة إلى تعزيز ووقت ليس بالقصير لتصبح على أهبة الاستعداد لتقوم بغزو بلد أضفى قوى الشكينة شديد المراس .

فدائيون وطنيون :

ويهمني أن أسجل بكل فخر دور الفدائيين والوطنيين العرب ضباطا ومدنيين وما قاموا به في سبيل الحصول على المعلومات والبيانات الدقيقة التي حصلوا عليها بشأن القوات البريطانية .

فقد سافر بعض الضباط المصريين متخفين . إلى قبرص واتصلوا برجال حركة التحرير الوطني وظلوا يستمعون أبناء تحركات القوات البريطانية بالجزيرة - كما كان هناك من يعمل في مالطة وعدن والأردن وليبيا في مهمة لا تعرف الكال وفي ظروف يكتنفها الغيوم والأخطار من كل جانب وعندما تجمعت هذه الأنباء ووردت تلك المعلومات ولاح أن كفة مصر هي الراجحة قرر جمال عبد الناصر تأميم القناة - على أن تظل مفتوحة لمرور كل السفن وتحت إشراف الإدارة المصرية وأن يبق باب المفاوضات مفتوحاً كذلك حقوق لا تتم مصر بأنها تعوق الملاحة في القناة أو أنها تتركب رأسها بدون حق فيما قررتة - وبذلك تكسب إلى جانبها الرأي العام العالمي وتضمن مؤازرته ، ولتحقيق ذلك طلب جمال عبد الناصر من رئيس (١) إدارة قناة السويس دراسة وضع قناة السويس دراسة شاملة من كل الوجوه وعملاً إذا كان في الامكان إدارتها تحت إشراف الموظفين والمهندسين المصريين لإدارة سليمة في حالة السحاب المرشدين الأجانب - وقد أجابه بعد أيام قليلة بأنه قام بما كلف به وتم وضع كافة التدابير التي تكفل حرية الملاحة في القناة بسواعد المصريين وحدهم .

إعلان التأميم :

وعقب هذه الدراسة وذلك التنظيم - أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس في يوم الخميس الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ . وفي ذات اللحظة التي بدأ الرئيس يلقى كلمته تسلمت الإدارة المصرية بموظفيها ومهندسيها هيئة قناة السويس .

وانسحب المرشدون الأجانب وقام بعملهم ربانة مصريون بل كانوا خيراً منهم - ولم تقف الملاحة في القناة ساعة واحدة كما اعتقد الغرب بل ظلت مفتوحة في وجه جميع السفن دون استثناء وبذلك بطلت حجة من أقوى حجج الغرب - كما تحقق لمصر أحد أهدافها .

(١) المهندس محمود يونس

وأما في المجال الدولي فإن مصر لم توصل إليها في وجه الدول كسبا للوقت
والرأى العالمي في آن . ويقول محمد حسنين هيكل .

(ومضت الأيام وهدف ايدن أن يكسب وقتا لاتمام استعداداته العسكري
وهدف مصر هو نفس الهدف أن تكسب وقتا يصبح بعده استهلاك القوة بعد
استكمال الاستعداد بها أمراً صعباً ومستحيلاً من وجهة نظر الموقف الدولي والرأى
العام العالمي وقبل ايدن مؤتمر لندن الأول ليكسب وقتاً . ولم يعترض اعتراضاً
كبيراً على ذلك المؤتمر وكانت مصر هي الأخرى تكسب وقتاً وأصدقاءه . وجاءت بعثة
منزيس إلى مصر وأم يكن هدف البعثة أن — تتفاوض وإنما كان هدفها هو إنذار
عبد الناصر وتخوينه — وحاول منزيس منطق الإنذار والتخويف مع
عبد الناصر لكن عبد الناصر رفض منطق التخويف والإنذار — وتراجع
منزيس .

وبطل باب المفاوضات مفتوحاً على مصراعيه — حتى وصل النزاع إلى
الأمم المتحدة — الذي قرر إجراء مفاوضات ثلاثية بين محمود فوزى وزير
خارجية مصر وسالوين لويد وزير خارجية بريطانيا وكريستيان بينو وزير خارجية
فرنسا وتحدد لإجراء المفاوضات يوم ٢٩/١٠/١٩٥٦ بمدينة جنيف أى بعد
أكثر من ثلاثة أشهر من إعلان قرار التأميم — وهو ما هدفت إليه مصر وقد
لخص داج هرشولد حقيقة الموقف وقتئذ عندما قال لمحمود فوزى (لقد استكمل
الاجل استعدادهم العسكري ضدكم لكن الوقت فات الآن فإن البخار الذى كان
محبوساً كله تسرب وتم التنفيس عنه) .

والواقع أن انجائنا قد أتمت استعداداتها العسكرية ولكنها كانت تفتقد المبرر
للتدخل العسكرى ضد مصر .

لأن الوقت قد فات — فالقناة مفتوحة — ومصر لم تفعل سوى ما هو
حق لها .

لما هي الوسيلة التى يمكن أن يتذرع بها الغرب لتبرير تدخلهم العسكرى ؟

قبيل العدوان :

على أثر إعلان قرار التأميم ثارت إنجلترا وفرنسا وأمريكا واحتجت -الأولتان احتجاجا يحمل معنى التهديد - والمختا باتخاذ أعنف الاجراءات - وجمد الغرب أموال مصر وأرصدتها الاسترلينية المودعة بينوكها وتقدر بحوالى ١١٢ مليون جنيه ثم شرعت إنجلترا وفرنسا بعد ذلك فى الضغط على مصر . وكثرت التحركات العسكرية التهديدية من لندن وموليه ، كما نادى صحافتها بضرورة استعمال القوة وقالت جريدة الصنداي تايمز فى ٢٩ يونيو سنة ١٩٥٩ (أنه قد تم وضع الخطط العسكرية التى ستبمع لحماية مصالح الدول الغربية) ونهجت باقى الصحف سواء فى إنجلترا أو فرنسا أو فى أمريكا هذا النهج - وخطب إيدن فى مجلس العموم البريطانى فهدد بأن (بريطانيا متففة تماما مع بقية الدول حول الاجراءات الواجب اتخاذها فى حالة قيام مصر بمرقة أعمال الجمعية سواء عن طريق الأمم المتحدة أو عن أى طريق آخر) .

وقد هل الأعضاء المؤيدون منهم والمعارضون لهذا التصريح . وقال النائب روبرت موثى فرحا . شكراً لله سوف لا تتحقق أحلام بملك عبد الناصر الذى طالما رددتها فى خطاباتة ، وكانت إنجلترا تحاول القيام بعمل جماعى وافق عليه كل من أمريكا وفرنسا للاعتداء على مصر بحجة حرية قناة السويس تماماً كما فعلت سنة ١٨٨٢ عندما جرت فرنسا معها وعندما وصل الأسطولان الفرنسى والانجليزى إلى الاسكندرية عملت إنجلترا وحدها ولكن أمريكا لم توافقها على حل مسألة قناة السويس بالقوة . وقد ظهر ذلك واضحا من تصريح مستر دالاس وزير خارجية أمريكا عندما سأله أحد الصحفيين عن الاجراءات التى ستتخذها أمريكا إذا منعت مصر مرور سفن الدول المنضمة إلى جمعية المنتفعين بالقناة فأجابته (قائلا) : فى هذه الحالة ستحول السفن الأمريكية طريقها عن قناة السويس إلى جنوب رأس الرجاء الصالح وستساعد الولايات المتحدة الدول الأخرى التى تنوى القيام بنفس العمل بتقديم قروض وناقلات بترول ضخمة كما صرح كذلك بأن السياسة الأمريكية تجاه مشكلة قناة السويس تعالف السياسة الانجليزية والفرنسية

وأن الولايات المتحدة لا توافق مطلقاً على استخدام القوة . وعلى أثر هذين التصريحين اللذين كانا لهما وقع سيء للغاية في فرنسا وانجلترا كان يبدو لإيدن حزينا مكتئباً ، ويصف ونستون تشرشل الابن حالته فيقول (وهنا فقد إيدن سيطرته على أعصابه ولم يعد يستطيع تحمل مسئولية القيادة مطلقاً وصار يبدو دائماً في حالة من الاضطرابات والمصيبة ^(١) الظاهرة) .

وعلى الرغم من ذلك فإن حزب المحافظين ظل يقتله الغيظ والحق طوال الفترة التي تلت قرار التأميم حتى بدء العدوان . وكان بعض أعضاء الوزارة قد جرفهم حماس إيدن اللاحق ، فقام لاندسبورى يملن ، بأن الأمة لم تجبن أمام الاختبار القاسى ، كما طالب بتلر (بالأيجشوا أمام القومية التي تقادم عهدهما وأن يتبموا إيدن في تضحيته الشجاعة من أجل الحرية والتقدم وسيادة القانون) : على أنه كان هناك من عارض فكرة التدخل المسلح وجاهر به منهم مستر فيكتون وزير الدفاع ، لأنه يعتقد أن استخدام القوة غلطة كبيرة ، كما استقال مستر ناتنج وزير الدولة البريطانى احتجاجاً على تدخل انجلترا العسكرى وحرر أكثر من أربعين عضواً من أعضاء حزب المحافظين مذكرة أعلنوا فيها سحب ثقتهم بالوزارة .

قد يكون هذا بعض ما كانت تضطرم به أروقة الوزارة البريطانية فى دونج ستريت وفى المحافل السياسية بانجلترا قبل العدوان . أما فى فرنسا — فقد كان الموقف أكثر ثباتاً — ويكاد يكوز من المقطوع به أن جميع أعضاء الوزارة — الفرنسية قد أجمعوا على استعمال القوة ضد مصر — حتى أن اجتماعات — الجمعية الوطنية الفرنسية أسفرت عن تأييد الوزارة فى قرار استعمال القوة — حتى أن أحد النواب صاح فى وجه رئيس الوزراء متسائلاً : هل ستنتظر الحكومة حتى تشرب خيول القوازيق من نافورات قصر التويلرى قبل أن تتخذ قرارها ، ولكن يتوطلما أنه وصرح أمام الجمعية الوطنية بأن الحكومة قررت التدخل وأن لديها ورقة جديدة رابحة ، وقد كانت هذه الورقة هى إسرائيل — إذ أن التقارب العاطفى بين فرنسا وإسرائيل

(١) من كتاب سقوط إيدن .

كان قد تم - قبل لقاء هذه الأخيرة مع انجلترا وتوصلت فرنسا معها على تحديد معالم المؤامرة وحوك خيوطها ورسمت معها الترتيبات التي يمكن بموجبها تنسيق الهجوم الاسرائيلي مع عملية (١) ، وموسكبير ، وكل ما كان مطلوباً بعد ذلك هو موافقة بريطانيا بالرغم من أنه كان هناك اقتراحاً بأن تحاول فرنسا أن ترضى بهذه الخطة وحدها ولكن رجعت كفة من نادى بضرورة اشتراك انجلترا - لتنسيق العمل معها - خاصة وأنها كانت ماضية في استعداداتها العسكرية .

وعلى أثر ذلك تقابل مسئولان (٢) فرنسيان مع ايدن وعرضاً عليه خطة العدوان كما اتفقت عليها فرنسا مع امرائيل .

ويضع الكاتب الانجليزي ونستون تشرشل الابن خيوط هذه المؤامرة فيقول :
(قبل شهر من انعقاد الاجتماع الرباعي في باريس (يقصد اجتماع) ايدن ولورد وموئييه وبينو في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٦) ذهب ممثلان عن وزارة الدفاع الفرنسية إلى اسرائيل واقترحا على الحكومة الاسرائيلية والعسكريين اليهود تقديم المساعدة إلى اسرائيل في حالة قيام الأخيرة بهجوم على مصر ولن تقتصر هذه المساعدة على تقديم الأسلحة والتأييد الدبلوماسي وعاد المبعوثان الفرنسيان إلى بلادهما يحملان خطة واسعة النطاق وكانت هذه الخطة تقضى بأن يقوم سلاح الجو الفرنسي بدعم الهجوم الاسرائيلي كما يقوم الاسطول الفرنسي بحماية الشواطئ الاسرائيلية من الهجمات المصرية على أن تدعم العملية الفرنسية اليهودية بتدخل أنحازو فرنسا مباشر يشكل هجوم جوي وانزال الجنود في الاراضي المصرية .

وقد حدد موعداً لهذه العملية في أوائل نوفمبر سنة ١٩٥٦ وبعد بضعة أيام أبلغت فرنسا بن غوريون أن على اسرائيل أن تشرع في عملياتها العسكرية في أواخر أكتوبر في وقت تكون الحكومة الأمريكية فيه منشغلة جداً بانتخابات الرئاسة بحيث لا تتمكن من القيام بأي عمل ، ولما أبدى بن غوريون

(١) من كتاب خبايا السويس لليون توماس .

(٢) جادية وشارل

شيئا من التحفظ حول موعد بدء العمليات قال المبعوث الفرنسي : أما أن يكون هذا التاريخ أو لا يكون هجوم أبدا ، — ولما قال بن غوريون هل أعتبر هذا انذارا كان الجواب اذا . شئت فاعتبره كذلك . .

المرامضة :

وبعد عدة اجتماعات من مثلى الدول المتآمرة اتفقوا على خطة العدوان كتابة وهو ما عرف باتفاق (١) سيفر السري ويكشف الكاتب هيو توماس النقاب عما تم بشأن اتفاق سيفر فيقول (وفي يوم ٢٢ أكتوبر وصل بن غوريون وديان وبرتر في طائرة الى مطار فيلا كوبلي — واستقل الجميع سيارة قطعت بهم ميلا أو ميلين الى فيلا سيفر إحدى ضواحي باريس وانضم اليهم فيما بعد بينو وموليه . ثم اشترك في المباحثات سلوين لويدي وباتريك دين المستشار القانوني لوزارة الخارجية البريطانية وعند نهاية الاجتماعات التي عقدت في سيفر أقسم الحاضرون جميعا على ألا يتحدث أحد بما وقع مادام الآخرون على قيد الحياة ، وأخذ بن غوريون صورة من الاتفاقية وقفل راجعا إلى بلده لتنفيذ ما جاء بها فإذا كانت تحوي الاتفاقية المسمومة الدنيئة من يتود ؟

تم اتفاق الدول المعتدية الثلاث على أن تقوم اسرائيل بهجوم شامل على مصر على أن تقوم فرنسا بالقاء كتيبة من رجال المظلات الاسرائيلية في عمر متلا وتباشر حمايتها وتموينها — كما يتولى الطيران الفرنسي حماية المدن الاسرائيلية حتى لا تتعرض لغارات القاذفات المصرية — كما يقوم الاسطول الفرنسي بفرض ستار بحري حول شواطئ اسرائيل حتى لا تتعرض الموانئ الاسرائيلية لهجمات الاسطول المصري وبعد ٢٤ ساعة من بدء تحرك جيش اسرائيل وجهت فرنسا وانجلترا انذارا لمصر واسرائيل بسحب قواتها لمسافة ١٠ أميال على جانبي القناة وأن يمكنا انجلترا وفرنسا من احتلالها — بحجة أن الاشتباك العسكري بين مصر واسرائيل سيرقل

(١) إحدى ضواحي مدينة باريس .

الملاحه في القناه وأن التدخل لا يقصد من وراءه سوى وقف القتال وحماية القناه وتمضى الاتفاقية الحقاء في تصورهما الساذج — فقرر بأن على اسرائيل ان ترضخ للانذار الانجليزى الفرنسى وتقبله — أما مصر فهى لا بد وان ترفضه لأنه يعنى احتلال جزء من أرضها — وعندئذ وفى مدى لا يتجاوز اثنى عشر ساعة من توجيه الانذار يقوم الطيران البريطانى بتدمير جميع الطائرات والمطارات المصرية تدميرا كاملا ثم يعقب ذلك انزال جنود من رجال المظلات الانجليز والفرنسيين من الجو على مدينة بورسعيد .

على أن تتعاون انجلترا وفرنسا في القضاء على الجيش المصرى الذى سبب لمواجهه الاعتداء الاسرائيلى في سيناء . وبذلك يسهل الاستيلاء على مصر ويوضح محمد حسين هيكل كيف نفذت الخطة كما بينها هيو توماس فيقول : ولقد نفذت لبن غوريون مطالبه كلها — فى الساعة الخامسة من مساء الاربعاء ١٠/٣١ سنة ١٩٥٦ بعد ٤٨ ساعة من بدء تحرك اسرائيل انطلقت من قبرص ومن حاملات الطائرات البريطانية أول موجة منقاذات القنابل في طريقها الى مصر — وكانت الموجة الأولى مكونة من مائتين وعشرين طائرة . وقبل ذلك كان كل شىء قد تم لبن غوريون كما أراد أرسلت فرنسا أسطولاً جويًا مكوناً من ٦٠ طائرة من طراز مستير المقاتلة وثلاثة أسراب من طراز ف ١٨٤ القاذبة بطياريهـا الفرنسيين الرباطة فى المطارات الاسرائيلية وحمايتها كذاك قامت أربعون طائرة نقل من طراز نور أتلان أقلعت من مطار تيمبو فى قبرص فألقت كتيبة من المظلات الاسرائيلية فى مرميتلا وتولت طول الوقت عملية تموينها وقامت البوارج الثلاث الفرنسية بجورج ليجيه وسيركون وكيرسان بالوقوف أمام الشواطىء الاسرائيلية وقيل ضرب الطائرات الانجليزية الطائرات المصرية لم يكن يعتقد أحد من المسئولين بنخطة التآمر الانجليزى الفرنسى حتى أن متحدثا بريطانيا رسميا اذاع بيان عقب تحرك اسرائيل قال فيه : أن بريطانيا لا تتوى أن تستغل الموقف الناشئ على الحدود بين مصر واسرائيل ، (١) ويرجع لدى المسئولين لعدة اعتبارات جوهرية ان الاعتداء

(١) من تعليق محمد حسين هيكل .

الامرائيل لا يعتمد على أية مساعدة خارجية لأن التحرك الامرائيل يبدو أمرا لاعلاقة له بالنزاع من حول قناة السويس بين مصر من جانب وبريطانيا وفرنسا من جانب آخر — ذلك أن هذا النزاع وصل الى نهاية سلمية بقرارات مجلس الأمن الستة لضمان الملاحة في قناة السويس وهي قرارات قبلتها مصر ولم تعترض بريطانيا وفرنسا عليها في مجلس الأمن — ومن أن التحرك الامرائيل يبدو عملية كبيرة فإن القوات المشتركة كما تشير تقارير الاستطلاع الاولى تبدو أكبر مما كان يتكرر على مرأ كز الحدود — هذا فضلا عن اسقاط كتيبة مظلات في عرمتلا — وإذا فهي عملية عسكرية واسعة النطاق اسرائيلية بمحتمة تستهدف تصفية حساب مصر وامرائيل تصفية نهائية وهي على الأرجح تعكس ياس امرائيل من أن تؤدي أزمة قناة السويس بعد قرارات مجلس الأمن الستة الى غزو بريطاني فرنسي لمصر يسرى بين مايسرى حساب امرائيل قبل مصر من غير أن تطلق هي رصاصة واحدة أو تريق إفطرة دم ، لكل هذه الاعتبارات تحرك الجيش المصرى متجها الى سيناء للالتحام بجيش اسرائيل . وكان الاعتداء الامرائيل هو الوسيلة التى لجأ اليها الغرب ليبرروا تدخلهم المسلح فاذا يبقى ياترى بعد ذلك لم يتم تنفيذه من اتفاقه سيفر ؟ .

هجوم اسرائيل :

وقبل الاعتداء يوم قام بن غورين وأعلن فى الكنيست ، بأن مصر ماضية فى تهديد امرائيل وأن مصر هي العدو امرائيل الحقيقى وأن امرائيل — ستخوض المعركة هذه المرة فى داخل الاراضى المصرية وفى الساعة الرابعة من مساء اليوم الثانى الموافق ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ هاجم اليهود مصر واشتبكوا مع القوات المصرية الموجودة فى الكونتله ورأس النقب . ثم أنزل اليهود قوة أخرى من جنود المظلات بالقرب من « عرمتلا » وعندئذ وضع لمصر أن الهجوم اليهودى يهدف الى الاستيلاء على قناة السويس وتطويق القوات — المصرية فى سيناء وفصلها عن القوات الرئيسية بمصر وعلى أثر ذلك اشتبكت قواتنا مع قوات العدو

في كل القطاعات وخاضت القوات المصرية معارك كثيرة حامية الوطيس في أبو عجيله ورفع في الشمال وشرم الشيخ في الجنوب واستطاعت أن تكبد العدو خسائر جسيمة في الأرواح والمعتاد وقد اعترف موسى ديان بمنف مقاومة القوات المصرية على الرغم من قلتها ويقول في كتابه يوميات في معركة سيناء بأنه اضطر أثناء القتال الى تغيير قائد اللواء المدرع السابع لأنه عجز لمدة ٤٨ ساعة كاملة عن اقتحام أبو عجيله كما قام سلاح الطيران بعمليات رائدة في هذه الحرب وأفسد توقف هجوم اليهود وخطة انجلترا وفرنسا اللتان كانتا تتوقعان وصول امراييل الى القناة في مدى يومين على الأكثر وعندئذ يأتي دورها ويدآن في الاعتداء كما بيناه ولكن مقاومة القوات المصرية كان شديدا مما عرقل خطط الدول المعتدية وقد اعترفت اذاعة تل أبيب في ١١/١١/١٩٥٦ بهذه المقاومة وأذاعت هذا البيان (استطاع الطيران - المصري أن يعرقل مواصلة تنافي اليومين الأولين قبل تدخل طيران الحلفاء واننا لو لم نتفاهم مع بعض الدول التي لها مصلحة في تدمير قوة مصر لما استطعنا أن ننجو من مغالب قوة الطيران المصرية الهائلة (١) فضلا عن الأسلحة الثقيلة والدبابات والطائرات التي مدت بها انجلترا وفرنسا اسرائيل فان القوات المصرية قاومتها وكبدتها خسائر جسيمة على الرغم من أن قواتنا التي كانت موجودة وقتئذ في سيناء كانت قليلة العدد والعدد لأنها تعتبر نقطة ارتكاز والحراسة فحسب أما قواتنا الرئيسية فقد عبرت القناة ليلة ٢٠ أكتوبر لسحق اسرائيل ولم يكن يتصور ان هناك مؤامرة دسنة قد دبرتها دولتان كبيرتان كإنجلترا وفرنسا للقضاء على قوة الجيش المصري وكحاولة جديدة لاحتلال مصر . وفي اليوم الثاني وحسب اتفاق سيفر وجهت هاتان الدولتان انذاراً مازجا الى كل من مصر واسرائيل من مساء يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ تطلبان فيه وقف جميع الاعمال الشبيهة بالحرية في البر والجو والبحر وسحب جميع القوات العسكرية إلى مسافة عشرة أميال من قناة السويس وأخيراً أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للواقع

(١) من كتاب المدوان الثلاثي والضيق العالمي .

الرئيسية في بورسعيد والاسماعيلية والسويس وهذا الشرط الأخير هو الحلف الذي قامت على أساسه مؤامرة العدوان الثلاثي .

والواقع أن هذا الإنذار لم يكن يعلم به سوى خمسة من الوزراء الانجليز هم لويد وبتل وماكيلان واللورد سليزبوري وهيد وعندما أبدى أحد الوزراء تذمره من إيدن لاخفائه عنهم عزم انجلترا على الحرب أجابه إيدن بنظرسة « كثير من أعضاء وزارتي الحالية لم يسبق لهم أن اشتركوا في وزارة حربية ، بما حدا بوزير آخر (١) ليقول لإيدن :

« حسنا يا دولة الرئيس فنحن لم نكن نعلم أننا في حالة حرب ، ومعنى ذلك أن إيدن كان يتصرف دون أخذ رأى باقي وزرائه نتيجة للحقد الذي ملا قلبه وبطبيعة الحال رفضت مصر هذا الإنذار بينما قبلته على الفور إسرائيل . وقال جمال عبدالناصر لسفيرى انجلترا وفرنسا أن مصر ستدافع عن نفسها ضد الاعتداء في كل شبر من أرض الوطن وأصدر التعبئة العامة — في جميع أنحاء البلاد وشرع جيش التحرير في تكوين كتائب الشباب والمتطوعين تأهباً للدفاع ووزع السلاح على الوطنيين وباتت البلاد وهي تترقب الأحداث المقبلة واجتمع بعد ذلك جمال عبد الناصر مع قيادة الجيش وصدر الأمر بسحب القوات المصرية من سيناء إلى مصر للدفاع عنها ولانقاذ الجيش من المسكيدة المدبرة بعد أن وضعت نيات الاستعمار وظهرت طائرات انجلترا وفرنسا وأسطولهما في الميدان وخلال يومى ٣١ أكتوبر وأول نوفمبر عاد الجيش المصرى سليماً بعد أن نجح في الانسحاب وخرج من الكمين المعد له .

ويقول محمد حسنين هيكل « بعد ساعتين من الغارة البريطانية كانت القيادة المصرية قد اتخذت قرارها التاريخى بالانسحاب فوراً من سيناء وبأن تتجمع كل القوات المصرية شرق قناة السويس لمواجهة الحركة الأصلية أمام انجلترا وفرنسا .

(١) ماكليود .

٥ - كفاح الشعب يهزم ثلاث دول

الاعتداء الالام

بدأت الطائرات البريطانية يوم ٢١ أكتوبر تغير على القاهرة وأصاب السكك من المباني ، منها مبنى الكلية الحربية ومطار القاهرة الدولي ومستشفى الماظة وجميع المطارات العسكرية كما أغارت على مدن القتال وظلت الطائرات البريطانية بعد أن انغم اليها سلاح الطيران الفرنسي تخرب القاهرة ومدن القتال والاسكندرية ضربا شديدا لمدة خمسة أيام أسقطت القوات المصرية خلالها ما يقرب من ثمانين طائرة .

وفي ٥ نوفمبر وصلت أمراب كبيرة من الطائرات الانجليزية والفرنسية إلى بورسعيد وكزت الضرب على منطقة الجبل ومطار الجبل ومنطقة الرسوة وفي حوالي الساعة الخامسة وخمس عشرة دقيقة بدأت في انزال جنود المظلات في منطقة الجبل وفي المطار اشتبكت القوات المصرية مع القوات الهابطة وكان من أثر ذلك ان اكتشف العدو مواقع المدافعين المصريين فركز الضرب عليها وعزلت هذه المنطقة عن مدينة بورسعيد واستطاع العدو الأسف أن يبيد جميع القوات المصرية التي كانت تدافع عن المطار أما كتيبة المظلات الانجليزية الثالثة التي هبطت فقد تحصنت بالمطار وكان عددهم حوالي ١٢٠٠ جندي وضابط أما جنود كتيبة الفرنسيين فقد نزلوا قرب منشآت المياه جنوب المدينة وكان عددهم حوالي ٥٠٠ جندي وسيطروا على المصدر الوحيد الذي يمد المدينة بالمياه ويروى قائد منطقة بورسعيد اللواء سعدى نجيب سير هذه المعارك فيقول : « ومن منطقة الجبالناط خط الدفاع الرئيسي كان لابد ان تتحرك قوات لاستعادة المطار رغم أن الطريق الى المطار ضيق ومكشوف ولكنها كانت عملية يملها الموقف وتحركت سريتان قوامها ١٥٠ جنديا لاستعادة المطار وتم ضرب المطار بأكثر كية من النيران وقوات العدو تحاول أن تتقدم لتشتبك في قتال متلاحم معنا رغم الخسائر الشديدة التي نزلت بها وتقدمت القوات بالقرب من المطار وبدأت الضرب بالأسلحة

الصغيرة والرشاشات وخسر العدو نصف قواته ومن المكان الذى تحصنت فيه القوات ظلت محصورة فيه ولم تستطع التقدم واستشهد قائدها وفي الساعة الثانية ظهر أسقط العدو كتيبتى مظلات فى نفس المنطقة وحاول التقدم الى المدينة ولكنه فشل تماما ولم يستطع السيطرة على الطريق المؤدى اليها ، وكان العدو قد أسقط فى نفس اليوم الساعة الثامنة صباحا بعض الدبى والمهمات فى منطقة الرسوة ، بقصد الكشف عن مواقع القوات المصرية ليهدهد لاسقاط قوات من جنود المظلات وكان العدو يهدف الى السيطرة على الطريق الى الاسماعيلية وعلى مداخل المدينة من الجنوب بجانب تشيت قواتنا فتحارب من الامام فى الجبل ومن الخلف فى الرسوة ولكن فوتنا هذا الغرض على العدو فقد كانت الخطة الدفاعية للمدينة تضع فى اعتبارها أن العدو سيحاول تنفيذه رغم ان القوات التى وضعت فى الرسوة كانت أقل من القوات المرجوة بمنطقة الجبل لأن هذه الأخيرة معرضة للهجوم البحرى والجوى واما منطقة الرسوة فمن معرضة للهجوم الجوى فقط — وأخيرا نجح العدو فى السيطرة على منطقة الرسوة وبدأت القوات العربية فى الاستعداد للقيام بهجوم مضاد لاسترداد كوبرى الرسوة وصدرت الأوامر من بور فؤاد بالتجمع ولكنها لم تستطع عبور قناة السويس بعد أن اكتشفها طائرات العدو الذى قام بعملية اسقاط أخرى فى بور فؤاد وتمكنوا من النزول بعد خسائر جسيمة لحقت بهم ولكن المدينة قاومت ببسالة حتى اضطر القائد الفرنسى إلى التهديد بتدمير المدينة تدميراً كاملاً إذا لم تتوقف الزيران ورغم الخسائر الكبيرة من الجانبين فقد استمر الضرب .

وفى الساعة الخامسة مساء اتصلت القيادة الانجليزية بالقائد المصرى تطلب منه التسليم ورفضت القيادة فى بور سعيد ثم تحول طلب التسليم الى طلب وقف القتال ليتمكنوا من جمع قتلاهم وجرحاهم ورفضت القيادة المصرية هذا الطلب أيضا . وكان الموقف فى نهاية يوم ٥ نوفمبر كالاتى : قوات العدو فى الجبل عاجزة عن التقدم ، وقواته فى الرسوة عاجزة عن التقدم أيضا ، والقتال مازال عنيفا فى بور فؤاد ، والضرب الجوى بصفة مستمرة على المدينة والخسائر فى ازدياد .

عربات الاسعاف دمرت بأجمعها ، المستشفيات ملأى بالقتلى والجرحى ، المرافق الحيوية كالمياه والكهرباء دمرت تماما .

وفي فجر يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ بدأ سلاح طيران العدو في ضرب المدينة كالعادة ، ثم أعقب ذلك نسفها من البحر تمهيدا لعمليات الانزال البحرى وتسببت نيران الاسطول في تدمير حى المناخ بأكمله وحرقت منطقة السكاين عن آخرها ، ودمرت المنازل بعمق ثلاث شوارع من البر ، وكانت الطائرات تضرب المدينة بما فيها من مستشفيات انتقاما من المدينة الباسلة التى عاقت خطط قادة العدوان ، وكانوا يقدرون لاحتلالها أربعاً وعشرين ساعة فقط ، ثم أنزل العدو بعض الجنود والدبابات في القوارب البامع (١) حوالى الساعة الحادية عشر صباحا واستطاعت للقوات المصرية أن تصيب عشرة قوارب برماثة ولكن العدو تمكن من الوصول إلى منطقة السكاين وعندما حاولوا الدخول إلى المدينة من ناحية حى العرب فشلوا نظرا للمقاومة الشديدة التى قابلهم بها الأهالى والفدائيين وأصابوا سبع دبابات منها .

وعندما فشل العدو في دخول بور سعيد عن طريق حى العرب اتجه إلى حى الأفرنج وتمكن فريق من عبور المدينة والاتصال بباقي القوات فى الرسة وكانت الساعة حوالى الرابعة مساء ولم يستطع احتلال المدينة وبما يؤسف له انه منذ بدأ الاسطول في ضرب المدينة والجاليات الأجنبية الانجليزية والفرنسية تساعده من الداخل وتطلق النار على الوطنيين والأهالى والجنود وكان لضرب الجاليات الأجنبية أكبر الأثر فى تسهيل مهمة القوات المعادية — وكانت القوات المسلحة المصرية تقاتل جنبا إلى جنب مع قوات المقاومة الشعبية التى سهرت للدفاع عن المدينة فى الشوارع والمنازل ومضى يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ والعدو لم يتجع بعد فى احتلال المدينة . وباتت هذه الليلة وليس بها أى جندى من جنود العدو وجاء يوم

(١) قوارب لمل الدبابات .

٧ نوفمبر وعلى الرغم من صدور أمر وقف إطلاق النار اعتباراً من الساعة الثامنة صباحاً فإن العدو استمر في ضرب المدينة للسيطرة عليها ولكن فرق المقاومة صمدت له وقاومته .

وفي يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أصدر قائد القوات المصرية أمر بالانسحاب بناء على تقديره للموقف واستطاعت القوات ان تخرج من المدينة دون أى عقبات فالعدو لم يسيطر على المدينة بعد ، وترك مهمة الدفاع عنها لقوات المقاومة الشعبية ورجال المقاومة المسلحين من الجيش الذين صدرت اليهم الأوامر بالانضمام لقوات الشعب . ورغم انسحاب القوات المصرية فقد حققت نصراً ذاقت مرارة طعمه القوات المعادية لأول مرة بعد أن عرفت الخطط التي وضعت للعدوان وان كان تقدير العدو للموقف وضخامة القوات التي يهاجمون بها ومعلوماتهم عن المدينة والمنطقة التي لم يرض على مغادرتها لها أكثر من أربعة أشهر جعلهم يعتقدون أن العملية لن تستغرق أكثر من ٢٤ ساعة ولكن استمرت القوات المصرية أكثر من ثلاثة أيام تقاوم بيسالة وشجاعة .

وكانت قواتنا تواجه طبقاً لمعلومات الكتاب الأبيض الذي أصدرته الحكومة الانجليزية قوات تتكون من قوات انجليزية برية تضم اللواء ١٦ مظلات واللواء الثالث من اليندائيين البحريين وكتيبتى دبابات سيتوريون وقوات برية فرنسية تضم مجموعة لواء مظلات ولواء فدائيين بحريين وكتيبتى دبابات وبعض قوات الفرقة السابعة السريعة الميكانيكية وأطقم قتال عامة (عربات مدرعة مركب عليها ماونات ثقيلة) علاوة على خمسة طائرة انجليزية من الطائرات المقاتلة ومن ناقلات الجنود ومائتى طائرة فرنسية وأما الأسطول البريطانى فكان يتكون من ٥ حاملات طائرات وخمس طرادات واثنتى عشر مدمرة وعشرة سفن حاملات جنود ودبابات وسبع غواصات عدائلات مدمرات وبارجة وحاملة الطائرات وبعض السفن المساعدة التي اشتركت في الهجوم على السويس من البحر الأحمر .

وأما الأسطول الفرنسى فكان يتكون من بارجة واحدة وطرادين وأربع

مدمرات وثمان فرقاطات و٣ غواصات ، هذه هي أخبار معارك بور سعيد الحربية الأولى التي وقعت على حدود المدينة رواها اللواء سعدى نجيب كما شاهدها باختصار وكانت هناك أعمال بطولية أخرى في الجو والبحر والبر ومن وراء ذلك كله ما قام به أهالي بور سعيد من كفاح ونضال ومن مقاومة مستميتة استمرت أربعين يوما دون توقف .

مؤازرة الضمير العالمى لمصر .

قبل أن نتحدث عن الأعمال البطولية التي قام بها المصريون في البر والبحر والجو يتعين علينا أن نلمح في عجلة إلى موقف دول العالم عامة — والدول العربية على وجه الخصوص من العدوان الآثم .

فقد عازمت انجلترا على الاعتداء وهي تعمل جادة على عزل مصر عن الدول العربية وباقي الشعوب المؤيدة لها ، وكانت تلجأ الى أسلوب معين مع كل دولة وبالنسبة إلى العراق ضاعفت نشاط مكاتب الدعاية لحلف بغداد في العواصم العربية ، وبالنسبة لسوريا بدأ الانجليز يهددون باحتلال فرنسى جديد اذا استمرت في تأييدها لسياسة مصر . وأنزلوا بالفعل قوارب فرنسية في قبرص كنوع من الضغط . وبالنسبة للأردن افعلوا حوادث على حدودها مع اسرائيل وحشدوا قوات عراقية على حدودها المتاخمة للعراق . وبالنسبة للبنان أوغزوا إلى القوميين السوريين بأن يندسوا في المظاهرات التي قامت في بيروت تأييدا لحق مصر في قناة السويس ، وذلك لتشويه مظاهر هذا التأيد ، ثم قاموا باحراق عربة أزهار كانت تحمل اسم مصر تتقدم المظاهرات . وبالنسبة لكويت عمدوا إلى انحاء جميع الحركات التي قامت تأييدا لمصر واستعملوا الشدة في ذلك . ثم أجرى الانجليز بعد ذلك اتصالات مع المنوك العرب لاقتناعهم بأن استمرارهم في تأييد مصر تعنى تهديد مصالحهم . وخاصة البرولية منها ، كما أشيع عن وجود اتفاق مري بين بريطانيا وروسيا تتمد فيه بريطانيا بالمواقفة على حل مشكلة ألمانيا بشكل يتلاءم ووجهة النظر الروسية مقابل

أن توافق روسيا على أن تطلق بريطانيا يدها في الشرق الأوسط (١) .

هذه هي جهود بريطانيا لعزل مصر عن العالم الخارجي ، فإذا كان الموقف بعد ذلك ؟ وما أثر هذه الجهود في تلك الدول ؟ بما لا شك فيه أن مصر قد كسبت عطف جميع الدول بلا استثناء عدا الدول المعتدية بطبيعة الحال — وتبجلى ذلك عندما قدم داج هرشلد السكرتير العام للأمم المتحدة استقالته استنكاراً منه للعدوان ، وهذه الاستقالة وإن كان المجلس قد قرر عدم قبولها إلا أنها دفعت بعض الدول المحبة للسلام وعلى رأسها يوغوسلافيا بأن تطلب عقد اجتماع عاجل لميثمة الأمم المتحدة التي اجتمعت وأصدرت في ١٩٥٦/١١/٢ بأغلبية ٦٤ دولة قراراً بوقف إطلاق النار فوراً وانسحاب القوات الأجنبية من مصر وعودة قوات إسرائيل إلى ما وراء خطوط الهدنة

وفي اليوم التالي لصدور هذا القرار تسدعت الوزارة البريطانية ، وكان أول مظهر لها استقالة وزير الدولة البريطاني انطوني (٢) ناثنج .

أما الدول العربية فلم تلتفت إلى محاولات بريطانيا أو تخشى من تهديداتها وإنما أظهرت شعورها القوي ، وهب الوطنيون في كل مكان يهبون عما يختلط في قلوبهم من غيرة وحمية تعدت إلى العمل الإيجابي — فدمر الوطنيون في سوريا أنابيب البترول الممتدة من كركوك إلى طرابلس وبانياس ، ومنعت تدفق البترول إلى شاطئ البحر حيث كان يشحن إلى الدول الغربية ، وامتنع العمال السوريون من شحن ناقلات البترول البريطانية .

ومن لبنان خرجت المظاهرات الصاخبة تعلن تأييدها لمصر وألقى الوطنيون القنابل على الأندية البريطانية ، ومنها نادي «ان جورج» وتنادوا بمقاطعة المعتدين والتطوع لمساعدة المكافحين في مصر — وفي العراق ألقى الوطنيون أنابيب

(١) كان دفت في ١٩٥٩/١١/٢ .

(٢) وقد كشف النقاب عن أسرار المؤامرة في مذكرات نشرت أخيراً .

البترول في كركوك وغيرها وقامت المظاهرات ونادت بسقوط نوري السعيد وطلب الوطنيون اعلان الحرب فورا على اسرائيل والدولتين الغريبتين المعتديتين : وأما في الاردن فقد قام الشعب كذلك بنسف أنابيب البترول المارة بهارمنعت وصولها إلى حيفا ، وامتنع العمال من تزويد الطائرات البريطانية بالوقود وطالب الشعب بالتطوع في جيش مصر لمحاربة المعتدين ونادوا بقطع العلاقات مع دولتي فرنسا وانجلترا .

وفي باقي الدول العربية تجلى نفس الشعور - في السعودية والكويت وفي اليمن وفي البحرين وقطر والمغرب وتونس وليبيا وعدن والسودان وظهرت قوة القومية العربية بأجلى مظاهرها وتجلت وحدة العرب مما كان له أكبر الأثر في المجال الدولي ، ورأى الاستعمار أنه يحارب تسعين مليوناً من العرب ، وأن مصالحه أصبحت مهددة والموارد التي كان يعتمد عليها من الدول العربية قد قطعت ، وخاصة البترول الذي يعتبر الشريان الحيوي بالنسبة للدول العربية قاطبة . الأمر الذي هدد الصناعة في أوروبا بأكملها بالتوقف وشعر الغربيون بفداحة الخسارة التي حاق بها من جراء السياسة الخرقاء التي جرهما إليها المحتوهمان ايدن وموليه .

ولم تكن الشعوب العربية وحدها التي آزرت مصر ، وإنما آزرها كذلك جميع الشعوب الحرة في جميع أنحاء العالم ، في الصين . واليابان . والهند ، وباكستان ، وأفغانستان ، وأندونيسيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، وغيرها .

وأما روسيا فقد وجهت إنذارها المشهور في ١٩٥٦/١١/٥ إلى كل من فرنسا وانجلترا ، وهددت بأنها ستضربهما بالصواريخ الموجهة أن لم يوقفنا عدوانها على مصر . وقال بولجانين رئيس وزارة روسيا في الإنذار : (ان بريطانيا وفرنسا تعرضان أنفسهما لاعتداء دولة أقوى منها بكثير) . ولم يقتصر هذا الشعور على الدول الحرة والمحبة للسلام فحسب بل ان شعبي الدولتين المعتديتين فرنسا وانجلترا استكروا هذا المدوان ونظروا اليه بامتناع وازدراء شديدين .. بما كان له أكبر الأثر في الاطاحة بوزارة ايدن وموليه بعد ذلك .

المعارك البحرية

زوارق الطوربيد :

في الرابع من نوفمبر ، بينما كانت زوارق الطوربيد المصرية تقوم بحملة تفتيشية على حدود ساحل البحر الأبيض للاح لها الطراد الفرنسي الكبير (جان بارت) وكان يحاول انزال دفعة من الجنود الفرنسيين في اتجاه بحيرة البرلس ، وعلى بعد ١٠ (عشرة كيلومترات) منها فتصدت لها ثلاثة زوارق طوربيد من قوة البحرية المصرية ، وكانت الساعة حوالي العاشرة صباحا وأطلق الزورق الأول — وكان تحت قيادة الصاع البحري جلال دسوقي — طوربيدين عليها ، ثم أعقبه الزورقان الآخران فأصيب الطراد اصابة مباشرة أحدثت به عدة ثغرات وبدأ ينشطر نصفين وأرسل استغااثات لاسلكية الى قيادته يستجدها . وعندما بدأ الطراد ينحصر بين فيه وكانوا يقدرون بحوالي ألف ضابط وجندي قفلت الزوارق الثلاثة عائدة إلى قاعدتها فخوره منتصرة ، وما لبث أن لاح في الجو سرب من طائرات العدو جاء على أثر الاغاثات اللاسلكية التي تلقتها ، ونشبت بينها وبين الزوارق معركة رهية وتمكنت الطائرات من اغراق زورق واحد ، واستشهد في هذه المعركة الخالدة الأبطال جلال دسوقي ، وجول جمال . واسماعيل عبد الرحمن وصبحي نصر ، وعلى صالح صالح ، وعادل مصطفى ، ومحمد ياقوت عطية ، وجمال رزق الله ، ومحمد البيومي زكي ، ومصطفى طبالة .

ومن مغارات القدر أن الزوارق الثلاثة عندما خرجت للاستكشاف في مساء يوم : ١١/٢ لم يكن مقدراً للصاع جلال دسوقي أن يذهب مع من ذهب لأداء هذا العمل الكبير ، ولكنه عندما رأى الزوارق تتحرك قفز في أحدهما ليشارك زملاءه شرف قتال العدو ، وكأنه كان يتعجل حكم القدر ، وقاد جلال دسوقي أحواله في معركة البرلس واستشهد مع من استشهد من الأبطال بعد أن انتصروا في أروع معركة من معارك البطولة والفداء .

وقد اشترك في هذه المعركة ضابطان من سوريا الشقيقة هما : جول جمال ، ونحله اسكاف ، أما جول فقد لقي وجهه ربه ، وأما نحله فقد تلقفه البحر الهائج بعد غرق زورقه وظل إحدى عشرة ساعة يصارع الأمواج "ماتية ويقاوم قسوة الرياح وبرودة المياه حتى وصل الى شاطئ البرلس ليرى الملا قعة رائحة من قصص البطولة .

وعلى أثر غرق الطراد الفرنسي جان بارت بمن عليه — هاجمت طائرات العدو قطع الاسطول المصري بميناء الاسكندرية هجوما عنيفا لتدميرها ، ولكن مدفيعتنا المضادة للطائرات لم تتمكن من تحقيق غرضها وأسقطت بعضها .

فدائية مدمرة مصرية :

وعندما وضع للمصريين بأن اسرائيل أعلنت الحرب فعلا على مصر بتوغل جيوشها في سيناء وافتتح عدة معارك على طول الجبهة — رأت قيادة الجيش أن في الامكان دحر اسرائيل وتدمير قواتها والاستيلاء عليها في مدى مالا يريد على أربعة أيام — ومن ثم فقد ألقت بقوات كبيرة لمواجهة جيوش اسرائيل وضربت حصارا بحريا عليها ، وبدأت الطائرات تقصف استحكاماتها والمناطق العسكرية في تل أبيب وحيفا وغيرها ، وخلال هذه المعارك التي وقعت في اليومين الأولين من الاعتداء كانت هناك مدمرة مصرية تتجه الى ميناء حيفا ، وفي حوالى الساعة الثالثة من صباح يوم ٣١ أكتوبر وقعت المدمرة ابراهيم في اتجاه المينا وضربت بالمدافع فأصاب جميع المنشآت العسكرية وأحالت الميناء الى شعلة من النيران ، وبعد أن قامت بالمهمة الجريئة التي كنّت بها قفلت راجعة وأثناء عودتها اعترضتها بعض قطع الاسطول الفرنسي الذي أخذ على عاتقه حماية شواطئ اسرائيل طبقا للاتفاقية الدنيئة التي وافقت عليها اندول الثلاث المعتدية ، ولم تسكن مصر قد علمت بهذه الخيانة بعد ، والا لكانت غيرت خططها من أساسها ، وسرعان ما حاصرت قطع الاسطول الفرنسي المدمرة المصرية وطلبت منها التسليم فرفض قائد المدمرة

ودارت معركة غير متكافئة بين مدمرة مصرية وثلاث مدمرات وبارجة فرنسية عدا الطائرات التي استدعتها القيادة الفرنسية للمساهمة في المعركة ، ثم عادت القيادة الفرنسية تطالب المدمرة بالتسليم فرفضت للمرة الأخيرة واستؤنف القتال وأحرق العديها من كل ناحية ولم يتمكن من الاستيلاء عليها لأنها آثرت أن تتحرق من أن تستسلم .

بطولة سفينة :

كانت بشرم الشيخ — وهي قرية تقع عند ملتقى خليج العقبة بخليج السويس — قوة مصرية قليلة العدد والعدة عندما وقع الاعتداء الصهيوني ، ونظرا لأهمية هذه القرية وموقعها الاستراتيجي رأت القيادة تعزيزها ببعض القوات وكذلك بالأسلح والعتاد ، وكان من بين السفن التي رعت القيام بهذا العمل سفينة تدريب دمياط ، وفي يوم أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ أثناء توجهها إلى شرم الشيخ قابلتها بعض قطع الأسطول الانجليزي بالبحر الأحمر وطلبت من السفينة التسليم ، لرفض قائدها ولما كان هذا الرفض معناه غرق الباخرة وموت من عليها لبون الشاسع بين قوة الأسطول الانجليزي وسفينة تدريب بسيطة . فقد عاد الأسطول الانجليزي وأندرقائد الباخرة بأنه سيأمر بخربها فورا ان لم يستسلم . والبرة الثانية رفض القائد المصري أمر التسليم ، ودارت المعركة العجيبة ، ومع ذلك فقد تمكنت السفينة دمياط من إصابة سفينة للأعداد وظلت تقاوم مقاومة المستميت حتى غرقت وغرق معها قائدها البطل الصاغ محمد شاكر حسن (١) الذي ظل طيلة المعركة فوق ظهرها يصدر الأوامر ويدير المعركة ببسالة وبطولة تفوق الخيال .

الزوارق المصرية تهزم الأسطول الانجليزي

حدث أثناء العدوان أن توجهت بعض قطع الأسطول الانجليزي نحو السويس في يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ لانزال بعض الجنود البريطانيين تمهيدا للزحف شمالا

(١) استشهد كذلك في هذه المعركة اليوزباشي مدحت الزيات .

لتتلاقى مع القوات الأخرى التي تحاول النزول في بورسعيد وبورفرداد ، وبذلك
تحصن القوات المصرية في القناة كما تكون بذلك قد قطعت خط الرجعة على الجيش
المصري في سيناء . ولما لاحت قطع الأسطول الانجليزي بالقرب من ميناء السويس -
أطلقت عليها مدفعية الساحل النيران وتصدت لها بعض زوارق الطوربيد ودارت
معركة رهيبية لم يتوقعها الأسطول الانجليزي الذي لم يكن يتصور أن مصر أصبح
لها قوة بحرية مرهوبة ، وظلت الزوارق المصرية الصغيرة تحوم وتتنور حول
البارج والمدمرات الانجليزية العملاقة تطلق عليها الطوربيدات ، الجبارة حتى
تمكنت من اغراق ثلاث قطع بريطانية منها حاملة الجنود ، وولت باقي قطع
الأسطول الانجليزي الفرار - تهرجرا أذيال الهزيمة وانتصرت البحرية المصرية
الناشئة في هذه المعركة على أكبر أسطول في العالم وفشلت محاولة احتلال مدينة
السويس وانهار ركن كبير من أركان خطة العدوان .

هذه هي الأعمال المجيدة التي قامت بها البحرية المصرية أثناء العدوان الثلاثي
أما السلاح الجوي فانه ساهم مساهمة فعالة في المعركة وعرقل تقدم قوات العدو
وأبزل بهم خسائر جسيمة اعترفوا بها في تصريحاتهم واذاعاتهم ، وقدم السلاح
الجوي خدمات جليلة أثناء المعركة ستظل ذكراها حية في قلوبنا .

مخالب القوة المصرية :

منذ الانباء الأولى للمعركة والسلاح الجوي كان أول قوة مصرية هبت لتقابل
العدوان وتصارعه ، وأصلت قوات اسرائيل المهاجمة في سيناء بسيل من القنابل
المدمرة لم ينقطع طوال النهار والليل عما عاق تقدمهم وحطم الكثير من معداتهم
ونجدهم وكانت خسائرهم من غارات الطائرات المصرية أضغاث خسائرهم في
المبارك المفتوحة في سيناء .

ولم يقتصر السلاح الجوي على ضرب جيوش العدو وخطوط مواصلاته في
سيناء فحسب بل ألقى على اسرائيل ذاتها الآلاف من القنابل المدمرة الحارقة
والحارقة ، ولم تسلم مدينة أو قرية في اسرائيل منها . وخاصة الأهداف والمطارات

العسكرية حتى أن السلاح الجوى حطم ما يقرب من ثلث سلاح الطيران الاسرائيلي في مدى يومين ، أى في يومى ٣٠ و ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ وكانت الغلبة للسلاح الجوى في كل معركة اشترك فيها مع قوات اسرائيل ، ولم يبق نسور مصر الا بطال هذين اليومين . أى طعم للنوم أو الراحة ، وكان الطيار المصرى ينزل من طائرته ليركب طائرة أخرى مجهزة للقتال دون أية راحة (١) ولم يتسحب سلاح الطيران من المعركة الا بعد أن انكشفت خطة العدوان وبدأت فرنسا وانجلترا فى هجومها الفادر على مصر .

وعندما وضعت الرغبة المبيتة للقضاء على الجيش المصرى قامت القيادة المصرية بسحب جيوشها من سيناء سالمة . وأنشأت على وجه السرعة مطارا جديد بجوار قليوب فى الطريق الزراعى بين مصر والامكتندرية وجعلته قاعدة لسلاحها الجوى عوضا عن المطارات العسكرية الأخرى التى كان يعرفها الانجليزى جيدا وكان المصريون يتوقعون مهاجمة الأعداء لها .

ونقلت جميع الطائرات الى المطار السرى الجديد . وقامت القيادة بعد ذلك بصنع الكثير من هياكل الطائرات الخشبية وتركها معروضة فى المطارات القديمة المعروفة وعندما أغارت طائرات الأعداء على مدن القنال والقاهرة كانت المطارات الحربية ضمن الأهداف الهامة التى وضعوها نصب أعينهم فحاربوها ضربا محكما وخاصة عندما رأوا الهياكل الخشبية بأرض المطار .

ولما تم لهم تدميرها اعتقدوا خطأ بأنهم قضوا على قوة السلاح الجوى المصرى الرهيب الذى شككت من قوته اسرائيل لحليفيتها ، وكان من أثر هذه الشكوى أن مدتةا فرنسا بقوة من السلاح الجوى الفرنسى قوامها سبع وتسعون طائرة من طراز مستير ، ويكفى أن نستشهد على قوة السلاح الجوى المصرى بأقوال كبار المسئولين فى اسرائيل فيقول شمعون يونس مدير عام وزارة الدفاع الصهيونى فى

(١) من حديث لقائد الجيش .

١٧/١١/١٩٥٦ بأن معركة سيناء برهنت على ان امرا ئيل ينقصها سلاح جوى وينقصها قواعد جوية وشبكات رادار وبدون ذلك لا يستطيع أن يتوازن مع السلاح الجوى المصرى .

كما قرر مصدر آخر بأن غارات الطائرات المصرية على مطار رافات دافيد قد أحدثت أضرارا بالغة بالمطار وشبت حرائق كبيرة ودمرت عددا كبيرا من الطائرات ، وقد نقل عدد من الطائرات المحطمة إلى ميناء حيفا على ظهر إحدى القطارات وكانت عربات القطار منطاه بالمشعات .

كما أذيع في تل أبيب في ١١/١١/١٩٥٦ البيان الرسمى التالى ..

(استطاع الطيران المصرى أن يعرقل مواصلاتنا فى اليومين الاولين قبل تدخل طيران الحلفاء واننا لو لم نتفاهم مع بعض الدول التى لها مصلحة فى تدمير قوة مصر لما استطعنا ان ننجو من مخالب القوة المصرية) .

هذه هى تصريحات كبار المسئولين فى اسرائيل عن قوة السلاح الجوى المصرى وهى أكبر دليل على ما قام به هذا السلاح من أعمال مجيدة .

الكفاح الشعبى فى بور سعيد :

بعد أن قامت القيادة العامة للجيش المصرى بسحب جنودها من سيناء ونجحت فى إعادة قواتها إلى مصر سالمة — سدت قناة السويس فى يوم ٢/١١/١٩٥٦ وقتلتها بأن أغرقت خمس سفن عند مدخل القناة ببور سعيد وبذلك استحال على البوارج والمدمرات المعتدية من استعمالها للوصول الى الاسماعيلية واحتلال منطقة القناة طبقا للخطة التى وضعوها ولم تقع القيادة المصرية فى الخطأ الذى وقع فيه عرابى سنة ١٨٨٢ اعتمادا على وعد دليسى الذى أعطاه لعرابى بعدم السماح لانبجلا بامستعمال القناة وقد أحجم عرابى عن قفل القناة لتلا يغضب الدول الغربية .

وكان من جراء هذا الخطأ هزيمة مصر . ولكن قيادة الجيش المصرى

في سنة ١٩٥٦ لم تردد في اغلاق القناة — ولم تقع فيما وقع فيه عرابي من قبل .

ثم تفرغت مصر بعد ذلك للكفاح الشعبي ووزعت على الشباب ما يزيد على خمسمائة ألف بندقية وبدأ ضباط الجيش في تدريبهم على حرب العصابات واستعمال القنابل اليدوية استعدادا للحرب طويلة الامد بخوص غمارها كل فرد من أفراد الشعب في المدن والقرى ، وفي الشوارع ، والأزقة وليصبح كل بيت قلعة صغيرة ؛ تحمل بين جدرانها الموت ، والهلاك للمعتدين وأصدر جمال عبد الناصر بيانه المشهور للشعب في أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ وقال فيه : (سنقاتل أيها المواطنين قوى الظلم التي تريد انتهاك حريتنا ، سنقاتل أيها الاخوة في سبيل حرية مصر ، وفي سبيل حرية الشعب المصري . لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح وعندنا منه الكثير سنقاتل في معركة مريرة ، سنقاتل في المعركة من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان) .

ومن أجل تحقيق فكرة اشراك الشعب في الكفاح وتنظيمه يقول كالدرفستد وكان قد عين رئيسا لفرق المقاومة في منطقة القنال : « وبدأنا نفكر هل نلقى العيب على القوات المسلحة فقط — بما لاشك فيه أن القوات المسلحة يجب أن تلعب الدور الرئيسي في المعركة المقبلة ولكن يجب أيضا أن نشرك الشعب معها في المقاومة وبدأنا ننظم المقاومة بمنطقة القناة أولا ثم اتجهنا إلى تنظيم المقاومة في البلاد المحيطة بها وفي فترة قصيرة جدا كانت كل قرية وكل شارع في مصر يعرف دوره في المعركة المقبلة وأعدنا فرقا خاصة مهمتها تخريب كل شيء أمام قوات العدو وأعدنا فرقا لنسف الطرق وأخرى لنسف السكك الحديدية وفرقا لنسف المعسكرات وهكذا وعندما بدأ العدوان لم نضيع وقتا وكانت القوات المسلحة تعرف دورها ومكانها وكانت فرق المقاومة تعرف مكانها ودورها كذلك . »

القدائيون يعملون عملية داخل اسرائيل

ودروعي في تكوين القدائيين أن يكون شاملا لبعض فرق الصاعقة من القوات

المسلحة بعد أن يخلعوا عنهم زيهم العسكري . ومن بعض الوطنيين من أفراد الشعب المدربين وتكونت منهم خمس تشكيلات سرية وبدأوا في العمل وقد افتتحوه بعملية على جانب كبير من الخطورة واتسمت بالجرأة الخارقة ، ذلك أنه في يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ تسلل بعض الفدائيين إلى داخل إسرائيل وكان هدفهم نسف مطار اللد بما فيه من طائرات بعد ورود الكثير منها من فرنسا وكانت المعلومات التي لدى القيادة العامة للجيش المصري تفيد بأن طائرات المستير الفرنسية التي زود بها جيش إسرائيل بلغت حوالي مائة طائرة وحصل منها النصف على الأقل قبل نهاية شهر أكتوبر . وعندما وصل الفدائيون إلى المطار تحققت معلومات القيادة ، ورأوا الكثير من الطائرات الفرنسية على أرضه ، ووفقا للخطة المدروسة التي رسمت في القاهرة ، وضع الفدائيون المواد المتفجرة في جهات متفرقة من المطار ونسبوه بما كان عليه من طائرات ، وظلت الانفجارات تدرى وتسمع من بعد حتى عاد الأبطال إلى داخل الحدود بعد أن قاموا بعمل من أجل الأعمال الوطنية وأكثر شجاعة وجرأة .

عمليات الفدائيين ببور سعيد :

أما المقاومة بمنطقة القنال فعلى الرغم من صعوبة الاتصال ببور سعيد نظرا للحصار الشديد الذي فرضته القوات المعادية على منطقة القنال بأسرها حتى أصبح الاتصال بمدينة بور سعيد بالذات غير ميسر على الإطلاق ، إلا أن رياسة قوات المقاومة تمكنت من الوصول ببور سعيد ونجحت في مد الوطنيين بالأسلحة والذخيرة والقنابل وبعض الأجهزة اللاسلكية اللازمة لضمان بقاء الاتصال بين فرق المقاومة والقيادة العامة بالقاهرة . وتسلم أفراد التشكيلات الخمس السرية التي تكونت ببور سعيد هذه المهمات وبأشرت عملها وظلت تقارم مع الشعب قوات العدوان ثمانية وأربعين يوما بحماسة بالغة دون راحة أو هواة .

وعلىنا أن نمود بالذاكرة الى أيام العدوان لتبع سيره ساعة بساعة . وكيف قاومه الشعب في الطرقات والأزقة والبيوت ولم يمكنه من التقدم خطوة واحدة .

ففى فجر يوم ٥ نوفمبر سنة ٥٦ قامت القوات المعتدية بضرب بور سعيد ضربا شديدا واستعملت صواريخ النابالم الحارقة وركزت طائرات العدو الضرب على ثلاث مناطق وهى حى الجليل والرسوة وبور فؤاد وظلت تقصفها بالقنابل مدة ساعتين وعندئذ تأكدت قوات المقاومة أن العدو فى سبيل انزال جنوده فى هذه المناطق الثلاث فذهبت اليها ومعها جموع خفيفة من الشعب حملت ما تستطيع حمله من البنادق والقنابل حتى الحناجر والمصى والمراوات ، وأما جماعات النساء والأطفال والشيوخ فقد توجهت الى بحيرة المنزلة حيث استقلت القوارب متجهة إلى الجنوب، ومع ذلك فقد تبيعتها الطائرات الانجليزية والفرنسية وضربتها بالقنابل وبرصاص مدافعها الرشاشة فأغرقت الكثير من القوارب وقتلت العديد من الشيوخ والأطفال والنساء بصورة وحشية لم يسبق لها مثيل .

أما أفراد الشعب وقوات المقاومة فقد كنت فى الأماكن الثلاثة السابقة وتمكنت من إبادة الجنود الهابطين من الجو عندما نزلوا بمنطقة الجبانة بين مطار الجليل وبور سعيد إبادة كاملة وكان عددهم ٣٥٠ ضابطا وجنديا وأذهلت هذه المقاومة قوات العدوان فلجأوا الى خدعة طالما مارسوها فى الحروب بأن أسقطوا بعض الدمى والهياكل فى منطقة كوبرى الرسوة فأتبعه نصورها الأمامى وفرق المقاومة بكامل معداتهم وأطلقوا عليها الرصاص ولكن رجال المقاومة اشتبكوا معهم وكانت قوات المقاومة تقضى على هذا الفوج لولا أن العدو تمكن من إسقاط فوج آخر بمنطقة الجليل كما أنزل الفرنسيون مجموعة ثالثة قرب منشآت المياه جنوب بور سعيد ثم أنزلوا دفعة أخرى بمنطقة بور فؤاد والتحمت قوات العدو مع قوات الشعب التى كانت تحارب فى أكثر من موقع وتعرض لرصاص الطائرات التى كانت تهبط حتى تصبح فى مستوى الأرض تقريبا ثم تفتح على الوطنيين قوهات مدافعها الرشاشة فتحصد منهم المئات ، ومع ذلك فقد ظلت قوات الشعب تقاوم المعتدين منذ الساعة السادسة صباحا حتى ساعة متأخرة من ليلة ١١/٥ وتمكنت هذه الجموع على الرغم مما تكبدته من خسائر فى الأرواح من محاصرة القوات المعتدية فى الأماكن

التي نزلت بها بالرسوة والجمل وبور فؤاد ومنعتها من الاتصال ببعضها أو التقدم خطوة واحدة نحو المدينة في الوقت الذي اذاعت فيه الوزارة البريطانية أن المدينة قد استسلمت ، وأن أيدين أمر بوقف إطلاق النار حتى يتم الاتفاق على التسليم وأذاع أيدين في مجلس العموم في مساء يوم ٩ نوفمبر هذه الأنباء الكاذبة فقال : (ان حاكم بور سعيد وقائدها العسكري يجرى الآن محادثات شروط التسليم مع الزعيم بتر وقد صدرت الأوامر بوقف إطلاق النار) .

ويقول ونستون تشرشل الابن : (وقد تراءى لهم — أي للقوات المعتدية — في تلك اللحظة من الحماسة العارمة أن جمال عبد الناصر ، وليس حاكم بور سعيد ، هو الذي استسلم ولكن الصحيح هو أن أوامر وقف إطلاق النار كانت عملية ، وحتى هذه لم يطل أمدها ، اذ بينما كان الحاكم المصري يتقدم لاجراء مفاوضات للتسليم مع القادة البريطانيين ، والفرنسيين صدرت أوامر جديدة للقوات المصرية ، بمتابعة القتال حتى لو دمرت بور سعيد بأسرها إذا كان لابد من ذلك ، واستؤنف القتال في الساعة الثامنة والنصف من مساء ذلك اليوم ، ولأول مرة كان قاصيا مريرا ، فقد أخذت السيارات التي تحمل مكبرات الصوت تطوف شوارع بور سعيد وتصبح بأعلى صوتها طائرات الميج الروسية متصل حالا ، الصواريخ الذرية الروسية دمرت لندن وباريس ، اشتعلت الحرب العالمية الثالثة ، ووزعت الأسلحة في بور سعيد على المدنيين ، واتضح للحليفين المحتلرا وفرنسا أن القتال في شوارع بور سعيد الضيقة سيستغرق وقتا طويلا وان الخطط المعدة لانزال الجنود من البحر في اليوم التالي ستتعطل كما أن المدافع الروسية الجديدة المضادة للدبابات كانت تشكل خطرا كبيرا على القوات الانجليزية والفرنسية وقد أدى استبسال مدينة بور سعيد وعدم استسلامها الى احراج الحكومة البريطانية أمام المعارضة مما دفعها الى الادلاء ببيانات كاذبة ، وقد بلغ السخط بنواب المعارضة أن وقف انورين ييفان يهيج في المجلس : « ألا تتوى الحكومة أن تسكف عن كذبها أمام المجلس ؟ » .

المدينة الباسلة :

وظلت جموع الشعب تحاصر القوات المعادية طوال الليل ، وفي الساعة الرابعة

والنصف من صباح يوم ٦ نوفمبر عارفت الطائرات المعادية ضرب المدينة والمناطق الساحلية بصورة أشد ، بينما كانت البوارج والمدمرات تقصف المدينة الباسلة بقنابل مدافعها ، وقدر العسكريون عدد الغارات الجوية على المدينة بما يقرب من ثمانمائة غارة جوية ، كما قدروا القطع البحرية ، التي اشتركت في الغزو بضعف القطع التي اشتركت في انسحاب الانجليز من دنكرك أثناء هزيمتهم أمام قوات هتلر .

ومن أثر هذا الضرب المتواصل كثرت الحرائق في أنحاء المدينة وانهارت العمارات والمساكن على من فيها ، وأصبح حتى العرب بأكمله أطلالا يتصاعد منه سحب الدخان والأتربة مصحوبة بأعين الأطفال وولولة النساء الذين سالت دماؤهم في الشوارع والأزقة ، واختلطت أشلاء القتلى بأنقاض المباني المتهدمة بصورة تقشعر لها الأبدان .

وبينما كانت المدينة الباسلة تجاهد هذا الجحيم كان الأسطول البرطاني والفرنسي يقتربان منها وعلى الرصيف الذي أقيم عليه تمثال دليسيبس نزلت البعابع ، والصنادل تحمل الجنود والمدافع والمصفحات والدبابات واشتركت على الفور مع باقي القوات المعادية في مقاتلة جموع الشعب وقوات المقاومة التي تصدت لها ولم تنهقر أو تهجن أمام هذه القوات المعادية العاتية والتحت معها في قتال دموي رهيب استمر طيلة اليوم دون هوادة واستشهد المئات من الوطنيين في هذه المعركة الخائدة ومع ذلك فلم يتمكن المعتدون من احتلال المدينة لأن الوطنيين كانوا واقفين لهم بالمرصاد يردون الحديد بالحديد ويقابلون النار بالنار ، وعندئذ لجأوا إلى الخديعة وسيلتهم الخائدة التي يلجأون إليها كلما حاقت بهم الهزيمة أو عندما تؤول الأمور .

الخديعة :

كانت القوات المعادية الهابطة من الجو محاصرة في بورفواد وفي مطار الجبل والجبانة والرسوة ، وتمكنت فرقة جنود المظلات الفرنسية أن تستولي على وابور المياه جنوب بورسعيد ، وبذلك سيطرت على المورد الوحيد بالمدينة للشرب ،

وهددت بقطع المياه عن الأهالي ان لم يستسلموا ولكن الأهالي رفضوا الاستسلام
وظلت قوات المقاومة تحيط بهم وتحاصرهم ولكن الأهالي وقفوا بالمرصاد للقوات
التي نزلت من الأسطولين الفرنسي والبريطاني وقابلوا الجنود والدبابات والطائرات
المعتدية بالمدافع والرصاص بما كبدتم خسائر فادحة وأوقعهم في حيرة بعد أن
أذهلتهم هذه المقاومة الرائعة من شعب أعزل ، وتخطت قيادتهم وتفتت قريحتهم
العسكرية عن وسيلة يخرجون بها من هذا المأزق المخزى المتخاذل ، وكانت خديعة
دنيئة فيها كان الموقف كما ذكرت اذ بالأهالي يشاهدون بعض الدبابات تتجه
نحو المدينة وقد رفعت عليها أعلام مصرية وأخرى روسية ، فترك الوطنيون
مواقعهم واتجهوا اليها مهللين فرحين بعد أن ظنوا وتيقنوا أنها دبابات درلة حليفة
أنت لنجدتهم ، وأن الروس الذين هددوا بضرب الدولتين المعتديتين قد نفذوا
وعيدهم بالفعل ، وما ظهور هذه الدبابات الا بؤادر لهذه المساعدة التي وعدوا
بها شعب مصر . وما كادت الجموع الشعبية تقترب من هذه الدبابات التي كانت
تسد شارع محمد علي وتلتف حولها مريحة ومهالة حتى فتحت عليهم أفواه مدافعها
فحصدتهم حصدا .. وسارت فوق أجسادهم فزقة تزيقا ، وأنزلوا جام غضبهم
على من قابله من الأهالي حتى الأطفال والنساء والشيخ لم يسلبوا من انتقامهم ا
ودخلت دبابات العدو حتى العرب ومن خلفها جنود المشاة من الجيش ولكنهم لم
يحددوا بيتا واحدا مسلما في الحى يحتمون به فقد تهدم عن آخره واستحال الى أنقاض
وأشلاء وغبار ودخان، تعذر على رجال الاسعاف القيام بواجبهم من كثرة الضحايا
وتكدسهم في الطرقات وتعرضت المدينة لخطر انتشار الأوبئة . وواجه الانجليز
فوق ذلك الحرائق التي شبت في كل مكان ، ووجدوا آثار أعمالهم الوحشية ماثلة
أمامهم في كل خطوة يخطونها ولكنهم لم يحددوا الشيء الوحيد الذي يبحثون عنه
وهم رجال المقاومة الشعبية وكانوا يعلمون عن يقين أنهم جد قريين وقد كانوا
صادقين لأنهم ما كادوا يجاوزون حتى العرب (حيث كانت المنازل أقل دمارا)
حتى واجهتهم النيران من كل جانب ، من المنازل والمقاهي والشوارع ومن خلف
الجدران ، وبدأت الاشتباكات الدامية من جديد وشعر المعتدون أن الشعب عازم

على الاستمرار في أعمال المقاومة ، من شارع الى شارع ، ومن زقاق الى زقاق ، وأن تقدمهم سيكلفهم ثمنا غاليا ففى كل خطوة كان يسقط جنود وضباط ، حتى الأرض التى كانوا يكسبونها بتقدمهم البطيء لا يتسلونها الا وقد امتحالت الى أنقاض ، وبعد أن يشيع فيها الخراب والدمار وتصبح مباءة لليكروبات ومصدرا للأمراض ولم يجد المعتدون من بد سوى البقاء فى الأماكن التى نزلوا فيها أول الأمر فى بورفؤاد ومنطقة الجبل والرسوة . فانسحبوا اليها وإلى بعض المناطق الساحلية ليستريحوا من أثر هذه المعارك الدامية وليتمكنوا من جمع ضحاياهم وتضميد جراح من جرح منهم .

العدوان يستمر :

قضت مدينة بور سعيد ليلة ٦ نوفمبر وهى جريحة حزينة بعد أن استشهد العدد الكثير من أبنائها المجاهدين وتهدمت المئات من المباني الجميلة ، ولكن رجال المقاومة الشعبية ظلوا ساهرين لا يغمض لهم جفن ، وانضم اليهم رجال الجيش بالمدينة وبعض رجال البوليس بعد أن خلعوا عنهم زيهم الرسمى وانخرطوا ضمن الفرق الخمسة التى تكونت ونظمت لمقاومة العدوان وتحصنوا فى أماكن متفرقة من المدينة ، وانتظروا الخطوة التالية لجنود بريطانيا وفرنسا وعلى الرغم من قرار وقف إطلاق النار الذى أصدرته الأمم المتحدة فى يوم ٢ نوفمبر وموافقة إنجلترا وفرنسا عليه يوم ٦ نوفمبر فإن الدولتين المعتديتين لم تنفذا هذا القرار ، وكانت أعمالها تدل على تصميمهم على المضى فى العدوان ، فقد ظلت المعدات الحربية والجنود تتدفق على الساحل ، وفى صباح يوم ٧ نوفمبر حاصرت الدبابات المناطق الآهلة بالمواطنين وبدأت فى ضربها ، واعتدى العدو على رجال البوليس وجمع منهم السلاح ، وقطع الفرنسيون المياه عن المدينة ، وحرمت بور سعيد من النور كذلك بعد أن فصلت القوات المعتدية التيار الكهربى عنها وجمع الانجليز أجهزة الراديو التى كانوا يجمعونها وحطموها لئلا يسمع شعب بور سعيد الأنباء والبيانات الحماسية ، التى كان يوجهها المستولون اليهم ويحرمونه من أن يحيط علما بما كان يدور فى جميع أرجاء العالم

من عطف ومؤازرة وليخفوا عنه كذلك ماحاق بقوات المدوان من هزيمة وقتل، ولم يكتف الا تجميل بكل ذلك بل (القوا القبض) على بعض المواطنين واستعملوا معهم أشد وسائل التعذيب وأقسى ضروب الوحشية !

مثالان :

وأسوق مثالين من وسائل التعذيب التي اتبعتها الممتدون مع الوطنيين لئلا يرى مدى ما وصلت إليه المدنية الغربية من وحشية وهجمية لم تبلغها أية دولة من دول العالم حتى في أحلك العصور :

حدث عندما وقع المدوان وتطوع الشباب للكفاح أن كان من بينهم جواد حسنى الطالب بكلية الحقوق الذى هب من فوره وقاد كتيبة الحرس الوطنى بكلية واتجه بها إلى سيناء لمقابلة اليهود ، وعندما صدر أمر الانسحاب عادت الكتيبة لتتأرب الفرنسيين فى بور فؤاد وفى خلال هذه المأرك أصيب جواد برصاصة فى كتفه ، وعندما أأحق الفرنسيون بكتيبة كاية الحقوق ورأى جواد أن زملاءه سيقعون فى الأسر لا محالة طلب منهم الانسحاب وظل يقاوم الدورية الفرنسية بمفرده حتى نجح أخوانه فى الانسحاب ، وعندئذ قبض الفرنسيون على جواد حسنى ، وكانت الدماء تآرف منه بفزارة واستعملوا معه وسائل قاسية لكي يمدم بالمعلومات التى تفيدهم عن عدد القوات ومواقعهم ، ولكنه رفض فى أباء وشم ، فأأدوا إلى تعذيبه من جديد ولم يرحموا جرحه البالغ ، ولا الدماء التى كانت تسيل منه فتسلبه الحياة رويدا رويدا ، وسجنوه فى حجرة جرداء لا أثاث بها خالية من غطاء يتدثر به دون ماء يروى غليله أو طعام يقيم أوده ولم يجد جواد أمامه سوى الدماء التى كانت تسيل غزيرة على أرض الحجرة ، فاستعملها كدأد فسطر به على جدرانها ما قامت به كتيبته من أعمال وطنية وعبر عن بعض ما كان يعمل فى صدره وهو يلاقى الموت من شعور وطنى كان يضطرم به قلبه من حب كبير لبلاده ودخل عليه الفرنسيون بعد ذلك يستجوبونه للمرة الأخيرة ولكنه كان يصارع

سكرات الموت فأطلقوا عليه الرصاص وسقط جواد في وسط الحجرة حيث كانت هناك بحيرة صغيرة من الدماء دماء الشهيد البطل جواد حسنى .

هذه كانت احدى جرائم الفرنسيين ، أما الانجليز فقد بزوا حلفاءهم في الوحشية والاجرام ، فالنمط الثانى من جرائم المعتدين حدث عندما كان الوطنيون يقاومون قوات العدوان بمنطقة الجليل وفي خلال المعارك التى دارت فى ذلك الوقت تمكن الانجليز من أمر الوطنى محمد مهران عثمان وظلوا يذبونه طوال الليل بعد أن أوثقوه بحوار تبة مسلحة بمنطقة الجليل وفي الصباح . شرعوا يحققون معه بمسائلهم الوحشية المعتادة ، وحاولوا بثى الطرق أن يحصلوا على البيانات التى يطلبونها منه ولكنهم رفضوا فاستعملوا معه القسوة مرة ثانية ومنعوا عنه الطعام والشراب وعذوه تعذيباً شديداً حتى انهارت قواه وتهالك على نفسه ولم تعد قدماه تتحملان جسمه الواهن وعندئذ حملته طائرة حربية سافرت به إلى قبرص ، وهناك أقدم الانجليز على أبشع جريمة يمكن أن تقترف فى حياة البشرية . فقد رأى الانجليز أن أحسن وسيلة للانتقام من محمد مهران هو فقء عينيه (١) . فترجوا به إلى احدى المستشفيات وفى حجرة العمليات أجرى الأطباء الانجليز العملية الاجرامية ، فنزعوا عنه عينيه الاثنتين او حرموه من نعمة النظر وحكوا عليه بالعمى مدى الحياة ! ولم يكن محمد مهران يعلم بما ارتكبه الانجليز ، وعندما أفاق وجد أن عينيه معصوبتين فاعتقد أنهما مكدودتان ولم يعلم بالكارثة الا عقب عودته إلى مصر ، فقد أرجعه الانجليز اليها ليكون عبرة للوطنيين . حسب اعتقادهم !!

هذان مثالان - ردتها على سبيل المثال استخلصتهما من سجل الدولتين المعتديتين كدليلين حين على ما كان يقوم به المعتدون من وحشية ضد الوطنيين فى بورسعيد أحدهما من فرنسا والآخر من إنجلترا . ولكنها فى الوقت نفسه مثالان من الكفاح المجيد الذى قام به أبناء شعب بورسعيد أثناء العدوان الغادر ..

(١) وقد اتهم عليه السيد الرئيس بـ رتبة الملازم فى الجيش بعد ذلك تقديره .

تنظيم المقاومة :

ولم تكن لهذه الأعمال الوحشية أى أثر على روح الوطنيين الذين استمروا في الكفاح وقد بدأت المقاومة الشعبية تأخذ شكلا آخر منذ يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ فقد ترك الجنود والضباط المصريون وحداتهم بالجيش وانخرطوا مع الوطنيين ووزع العمل عليهم وحملت التشكيلات الخمسة السرية عبء الدفاع عن المدينة ومقاومة المعتدين بما في ذلك اقتحام جنود العدوان والقواء القنابل على سياراتهم ودباباتهم كلها حاولوا اقتحام المدينة أو السير في شوارعها ويروى كمال رفعت بإيجاز بعض الأعمال التي قام بها الوطنيون في بورسعيد فيقول : « في داخل بورسعيد كنا نعتمد الى جانب قوات المقاومة على خمسة تشكيلات سرية — كانت أعمالها تفقد القوات المعادية صوابها وهذا هو تقرير أعمال هذه التشكيلات ، في يوم ١٦ نوفمبر أطلق التشكيل رقم ٢ النار على القوات البريطانية في شارعى صفيه زغلول ومحمد على ، وفي يوم ١١/٧ كان عمل التشكيل رقم ٢ منصبا على القوات الموجودة في شارع السلطان حسين وفي يوم ١١/٧ قننى التشكيل رقم ١ على دورية بريطانية بأكملها في شارع رقم ١٠٠ وفي يوم ١٢/٧ قام التشكيل رقم ٣ بنسف ميارتين بريطانيتين وقتل عدة جنود في شارعى كبرى ودمهور ، وفي نفس اليوم قام التشكيل رقم ٤ بتخليص كمية من الذخيرة المرسلة إلى قوات المقاومة وقتت في يد العدو وفي يوم ١٢/١٠ نسف التشكيل رقم ١ سيارتي جيب ومدعة وفي نفس اليوم ألقي التشكيل رقم ٤ زجاجات مولوتوف على ثلاث طائرات كانت ترابط بمطار الجبل وأفسدتها تماما . وفي ١٢/١١ قام التشكيل رقم ٤ بمهاجمة دورية بريطانية في شارع المناخ وفي نفس اليوم خطف التشكيل الضابط انطوني مورهاوس وفي يوم ١٢ — ١٢ قام التشكيل رقم ٥ بنسف سيارتين بريطانيتين وبعد ذلك قام بمهاجمة دورية بريطانية وقام التشكيل رقم ٢ وفي نفس اليوم بنسف سيارة مصفحة ومهاجمة دورية بريطانية في شارع نبيه ، وفي نفس اليوم قام التشكيل رقم ٤ بالقاء القنابل على معسكر العدو في المدرسة اليونانية — وفي يوم ١٣ — ١٢ قتل التشكيل

رقم ٢ جنديا بريطانيا في تفتيش الجرك - وفي يوم ١٤ - ١٢ قام التشكيل رقم ٢ بالقاء القنابل على سيارة ميچور ويليامز ضابط المخابرات البريطانى ودمرت السيارة وقتل ويليامز احدى ساقيه وفي نفس اليوم قام التشكيل رقم ١ بمهاجمة مركز تجمع الدبابات وفي نفس اليوم قام التشكيل رقم ٥ بمهاجمة دورية بريطانية، كانت تحاول انقاذ مركز تجمع الدبابات وفي نفس اليوم قام التشكيل رقم ٢ بمهاجمة دورية بريطانية مشاة خلف جامع توفيق ونسف سيارتين في شارع العرفانية ثم هاجم دورية بريطانية أخرى بجوار مخازن البوليس ثم هاجم دورية بريطانية قادمة من شارع كبرى وفي يوم ١٥ - ١٢ نسف التشكيل رقم ١ سيارة فرنسية وفي نفس اليوم منع التشكيل رقم ٥ وصول أية نجدات إلى القوات البريطانية المحصورة في المدرسة الواصفية واشتبك مع دورية بريطانية . وفي اليوم نفسه قام التشكيل رقم ١ بالقاء قنابل على جميع الدوريات البريطانية التي دمرت في الشوارع من ١ - ١٠٠ وشارع محمد علي وسعد زغلول . ثم قام بنسف سيارة فرنسية حاولت اقتحام أحد المنازل وفي نفس اليوم قام التشكيل رقم ٢ بنسف سيارة فرنسية في شارع محمد علي وأخرى بريطانية وفي يوم ١٦ - ١٢ هاجم التشكيل رقم ٢ دورية بريطانية ونسف سيارة مدرعة في شارع محمد علي واشتبك مع دورية بريطانية أخرى في شارع الثلاثين ، وفي يوم ١٧ - ١٢ انسحبت القوات البريطانية من مواقعها داخل الحى العربى وصدرت لنا الأوامر بإيقاف جميع العمليات وفي يوم ٢٤ - ١٢ قامت رئاسة التشكيلات المرية بنسف تمثال فرديناند ديليسبس ، وكانت هذه هي آخر عملية تقوم بها .

على ان العمليات التي قام بها الوطنيون تحتاج إلى شيء من التفصيل . هي في واقع الأمر صفحة بيضاء من كفاحنا المجيد .

هجرة العمليات :

عند بدء الكفاح رأى الوطنيون أن يبحثوا عن مكان يجتمعون فيه لدراسة شؤونهم وتقرير عملياتهم على أن يكون بمنأى عن أى شبهة أو مظنة عن عيون العدو

التي كانت تراقب تحركات الوطنيين في كل مكان وقد استقر الرأي على أن يتخذوا من حجرة ضابط المباحث الكائنة بالدور العلوي لمبنى البوليس مكانا لإدارة عمليات المقاومة ، وفي هذه الحجرة كان الوطنيون يجتمعون برجال الصاعقة وضباط البوليس ، ويصدرون الأوامر والتعليمات ويديرون معارك المقاومة التي استمرت ٨٨ يوما ذاق العدو خلالها طعم الهزيمة مرارا واستحالت حياته إلى ما يشبه الجحيم .

وكان يخرج من هذه الحجرة كذلك المنشورات التي وجهها رجال المقاومة إلى جنود العدو باللغتين الفرنسية والانجليزية وإلى أهالي بور سعيد لتشجيعهم وحشهم على النضال ، وكان الوطنيون يكتبون صور المنشورات والرسوم الهزلية ثم يرسلونها إلى مطبعتي مخلوف والمفرني ومن هناك ينسلها من يقوم بتوزيعها من الوطنيين في شتى الأنحاء .

ومن الرسوم : الكاريكاتورية ، التي نشرت في تلك الأيام صورة تجمع ايدن وموليه وبين غوريون وقد رسم موليه الرئيس الفرنسي في صورة معزة وبين غوريون في شكل كلب وايدن في هيئة حمار يداعبها ، وصورة أخرى لايدن في هيئة حمار وجمال عبد الناصر يتمطيه وقد ذاع هذين الرسمين ذيوما كبيرا بما كان يضائق جنود العدو ويشير حفيظتهم ، بل ان الوطنيين لم يتركوا كلبا بالمدينة الا ورسموا عليه وجه ايدن أو حمارا إلا وقد طبعوا عليه صورة موليه ولم تهدفوا العدوان وسيلة سوى ضرب هذه الحيوانات البريئة بالنار كلبا وقع نظرم عليها .

ومن المنشورات الطريفة هذا الزجل :

يا لى جنيت ع الدولة الدايمجة	قولوا لايدن فين أعصابك
تعمل فيها العملة البايمة	قولوا لايدن ايه كان صابك
وبالعاهرة الفاجرة قرسا	جيت تعملى وتعملى
جاتكم حوسة ، جاتكم وا كسة	جاتكم خيه ، جاتكم فاييه ،

وأما أول منشور وجهه الوطنيون الى الأهالي فكان عقب ضرب المدينة
بالقنابل ونصه كما يلي :

أيها المواطنون ... ان الخراب والتخبط والحرائق التي حلت ببور سعيد هي
ثمن الحرية والكرامة والشرف ، لا تلقوا السلاح وحافظوا عليه ، ومن الآن
فلنقاوم العدو مقاومة سرية ، ولننضم كل منكم الى حركة المقاومة السرية ولا نتركوا
مدينتكم نهبا للأعداء .

« حافظوا على القسم الذي أقسمتموه وإلى المعركة فلا تزال أسلحتنا قوية
وحيويتنا وفوانا متماسكة احذروا الشائعات والنصر لنا : هـ - ت .

وهذا التوقيع هو مختصر هاتا شاما - أحد المجموعات السرية ببور سعيد .

والمنشور الثاني يقول : « أيها المواطنون .

« أن المدير لن يستطيع التقدم خطوة واحدة خارج بور سعيد فلنقاتله ولنورق
مضجعه لن نتعاون معه ولنحافظ على ثرفنا واستقلالنا . »

وجاء بالمنشور الثالث :

« أيها المواطن أيالك أن تلقى سلاحك ، أيالك أن تخشى تهديدهم ، أو دورياتهم ،
انهم أجبن من الجبن ، ارفع رأسك وسدد رصاصك واقتلهم حيث وجدتهم ،
ابحث عن يتعاون معهم إلى أن يحين الوقت للانتقام . »

« والنصر لنا ، »

وكان الشعب يوزع المنشورات على المواطنين لتبصيرهم بالموقف الذي كانوا
يجهلونه تماما نتيجة لعزل بور سعيد عن باقي المدن كإقام بطبع العديد من المنشورات
باللغتين الانجليزية والفرنسية لتوزيعها داخل معسكرات العدو .

وأول منشور وجهته فرق المقاومة إلى العدو كان به (الى قوات بريطانيا

وفرنسا المعتدية في مصر اعلوا يقينا اننا هنا مستعدون للقائم صامدون لعدوانكم
والكم متلاقون الموت في كل خطوة تخطونها ، وفي كل دقيقة تمر عليكم هنا
بور سعيد .

والعجب أن قوات العدو كانت ترد على منشورات الوطنيين بمنشورات أخرى
ساذجة منها على سبيل المثال المنشور التالي : (يا أهالي بور سعيد أنتم لبستم بالاطفال
الذين يضللكم الكذب ، وقد منحى عليكم زمن كتم تعيشون فيه مع الانجليز
والفرنسيين جنبا إلى جنب في سعادة ، ومها يكن رأيكم فينا فأنتم تعلمون على اليقين
باننا لانكذب) .

وهكذا بدأت حركة المقاومة بالمنشورات ، ثم سرعان ما تطورت إلى حرب
عصابات منتظمة شملت جميع طوائف الشعب ، وسام فيها كل فرد من أهالي بور
سعيد حتى النساء والأطفال وخرجت من حجرة ضابط المباحث مشروعات الممارك
المدرومة التي قام بها الوطنيون ضد قوات العدوان ونفقت بعزم وشجاعة فأوقفتها
عند حدود المدينة ولم تتمكن من التقدم خطوة واحدة وكبدتها من الخسائر مالم
يكن يتصوره أحد من قادة العدوان .

وقد ذكر السيد كمال رفعت ذلك فيقول : ، انه في أثناء وجود قوات العدوان
في بور سعيد لجأنا إلى حرب الأعماب ، مثلا كنا نوزع منشورات بصفة مستمرة
باللغة الانجليزية والفرنسية على قوات العدوان ، تتضمن تهديدات دائمة لأفرادها ،
وكنا نشيع اشاعات باستمرار عن عمليات هجوم على مناطق معينة ، وكنا نحدد
عمليات النسف والتدمير وننفذ ذلك فعلا وكنا نرسل صور العمليات البطولية
التي قامت بها فرق المقاومة إلى عائلات الجنود البريطانيين والفرنسيين في فرنسا
والبحار ليدركوا مدى الحالة السيئة التي يعيشها أبناؤها ، وكنا نستولي على
الخطابات التي كانت ترسل لأفراد القوات ومنهم إلى أهاليهم حتى تنقطع الصلة تماما
بينهم وكنا نلجأ إلى (الدوبل ايجبت) أو العملاء المشتركين بذلك بتشغيل بعض
أفراد في نقل معلومات خاطئة إلى قوات العدوان ، وإذا سألتني اليوم عن الأيام

الحلوة التي عشناها منذ قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ساجيك على الفور بأنها أيامنا في فترة العدوان .

هذه هي ذكريات كمال رفعت عن المقاومة الشعبية الرائعة ضد العدوان الثلاثي رواها لنا في صدق ومنها يتضح أن المقاومة ، لم تقف يوما واحدا ولم يهدأ أوارها لحظة منذ أن وطئ المعتدون بأقدامهم أرض بور سعيد حتى قرروا أخيرا الانسحاب منها ومن حجرة ضابط المباحث أو من حجرة العمليات كما كانت تسمى ، قام الوطنيون بجلائل الأعمال التي ستظل خالدة على طول الزمن .

ملاحم وطنية .

أن واجب الوفاء والتقدير يقتضيان منا أن نقف قليلا عن بعض المواقع على الأقل ، لنذكر ونستذكر ونحيي أولئك الذين سقطوا في المعركة وضحوا بأرواحهم فداء لوطنهم والآخرين . وفيما يلي بعض هذه الحوادث الخالدة .

اختطاف مورهاوس :

كان من بين أفراد القوات الممتدية ضابط انجليزي يدعى مورهاوس يمت بصلة قرابة الأسرة المالكة في بريطانيا وتجرى في ذماته كراهية شديدة للمصريين عامة وجمال عبد الناصر بعسفة خاصة ، وكانت مهمته هي رفع وإزالة صور جمال من فوق جدران المنازل والعمارات ، ولكن الوطنيين سرعان ما كانوا يعيدون وضعها والصاصها من جديد .. وتكررت هذه العملية مرارا وتكرارا حتى قرر ولجمال المقاومة اختطافه وحددوا لذلك يوم ١١/١٢/١٩٥٦ ونظموا أنفسهم بأن كمن ستة منهم في طريق مروره اليومي — اثنان للمراقبة وأربعة قبعوا في سيارة سوداء يملكها أحد عم وعندهما لاح لهم مورهاوس قادم في سيارته الجيب اعترضوا طريقه وكانت السيارة السوداء تقف في وسط الطريق . فتعجب من سوء النظام ولكن عجبه لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما هبط الوطنيون منها وانتزعوه من سيارته بالقوة ، وألقوه في سيارتهم ، وكموه ، وقيدوا يديه وقدميه ، وتوجهوا

٥ — ثم أن هناك مسألة جوهرية هامة وهي أن البوليس لم يضع يده على اعتراف صريح أو حتى ضمنى على من ألقى القبض عليهم وهم كثيرون بأنهم اقترفوا جرائم الحريق وإن كان البعض قد اعترف بأنه شارك في أعمال النهب والسلب وهذا يعنى أن مة ترقى الحادث قد اندسوا وسط الجوع الفاضية وبعد أن أشعلوا النار تواروا عن الأنظار ليدو الأمر وكأنه شيء طبيعي قامت به طوائف الشعب النائرة.

وأما أعمال النهب والسلب التي تمت بعد الحريق فلا تدل بحال على أن مرتكبيها هم الذين أشعلوا النار ، وإنما يحدث ذلك عادة في الثورات وفي جميع الدول على اختلاف ألوانها ، حدث ذلك وأكثر منه بكثير في الثورة الفرنسية وفي الثورة البلشفية وفي كل الثورات دون استثناء ، ولقد وضع رجال البوليس أيديهم على بعض من اقترفوا جرائم السلب والنهب ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى شخص بيته أشعل النار في مكان بعينه ولم يكن أمام البوليس إلا أن يقبض على بعض رجال مصر الفتاة لكي يلقى بهم تهمة احراق القاهرة ظلما وزورا وبعد أن أمته الحيل وضافت به السبل .

ولو أن حريق القاهرة كان حقيقة من فعل طوائف الشعب النائرة لمسا عجز رجال البوليس من إثبات ذلك ولوضع الأمر بما لا يدع مجالا لأي شك ولكن الحقيقة على خلاف ذلك تماما .

٦ — ولطالما سبق الوفد إلى تازم الأمور في القنال وتبنى أن تشتد عتفا وكان يعتمد إظهار موقف رجاله من النضال بأنهم هم وحدهم الذين وراء الحركة يشجعونها ويوجهونها بالمال والسلاح . ويصرحون بذلك في صحفهم ومجالسهم . وكان الوفد يهدف من وراء ذلك إلى الضغط على الانجليز لحل القضية المصرية في سبيل ذلك أيضا سحبت مصر سفيرها في لندن وصممت بأن تقطع العلاقات مع انجلترا . . وكانت السراى تنظر إلى هذه الاجراءات بخوف شديد وشعر الملك بالخطر المحدق بعرشه وتلاقت أهدافه مع أهداف الانجليز وأورا ضرورة ضرب

ضابط المخابرات :

كان من بين جندهم بريطانيا للتكيل بالوطنين ضابط متحجر القلب هو جون ويليامز . وقد مضى جون وليامز هذا ٢٥ سنة بمصر أثناء وجود القوات البريطانية بها حتى تعلم اللغة العربية وأصبح يتحدث بها كأحد أبنائها ، وعندما فكر الانجليز في العدوان استعانوا به لاجادته لغة البلاد ولمعرفته لمصر التي عاش بين ظهرانيها طوال حياته وكان يعمل كضابط في المخابرات البريطانية وهي وظيفة مرهقة وكانت مهمته تعقب الوطنيين والقبض عليهم وتقصى أخبارهم ، ووجد رجال المقاومة في جون صيدا ثميناً ووضعته القيادة خطة لاغتياله واختاروا لتنفيذها الوطني السيد عسران . وعند التقاء شارع رمسيس بالنهضة كن له السيد عسران وفي يده رغيغ من الخبز بداخله قنبلة مايلز ٣٦ مغلفة بعريضة تظلم مكتوبة باللغة الانجليزية . وعندما لاحت عربة جون وليامز أشار عسران لها بالوقوف ولكن السائق تخطاه ولكن ويليامز أمر السائق بالرجوع إلى حيث يقف عسران الذي شرح له تظلمه المزعوم وفي غمرة الحديث ترك عسران القنبلة على وسادة العربة بعد أن جذب الفتيل منها فسقط داخل العربة وشعر ويليامز بحركة السقوط المريعة وتأكد بأن هناك مؤامرة لاشك لاغتياله . فأسرع بطلب النجاة ، وما كاد يفتح باب السيارة حتى انفجرت القنبلة التي أطاحت بقدمه اليسرى وأصاب السائق وآخر بأصابات قاتلة لم يتأكد عسران من نتيجتها لأنه كان في ذلك الوقت في بيته وبين أهله .

معركة خالدة :

كان مركز تجمع الدبابات البريطانية في مكان الحرس الوطني بشارع ٢٣ يوليو أمام مبرة محمد علي ولطالما خرجت من هناك الدبابات لتهاجم الوطنيين وتعتدى على الأهلالي وتسيب المباني أثناء سيرها وتجوأ لها في شوارع المدينة وعزم الوطنيون على مهاجمة هذا المركز الحصين مما كلفهم الأمر وكانت هذه المهمة تحتاج إلى تضافر جميع الجهود وتآزر كل القوى بيور سعيد لأن قوات المدون كانت قد منعت التجول بعد الساعة الخامسة واستثنت من ذلك عربات الإسعاف والمطافيء والبوليس ،

ورأت قوات المقاومة الاستعانة بهذه العربات في نقل الأسلحة والصواريخ من مخابثها إلى مكان المعركة ، وفي الوقت نفسه كان يتم رصد فرقة أو أكثر لتقوم بمهاجمة الدوريات التي كان يطلقها العدو من وقت لآخر لاسترواخفاء العملية الكبرى وهي ضرب مركز تجمع الدبابات .

ونفذت الخطة بحذافيرها فنقل رجال المقاومة الأسلحة اللازمة من مخابثها في عربات البوليس بينما كان الوطنيون يشاغلون الدوريات الانجليزية في شوارع بورسعيد ، وقد وضع في الاعتبار أن رجال الصاعقة في الجيش هم الذين سيتولون ضرب الدبابات ، لأن هذه العملية تحتاج إلى خبرات خاصة ، ولذلك وزيادة في الحرص وخشية إثارة الشبهات قيد بقسم المناخ ببورسعيد ٢٣ ضابطا وصف ضابط باعتبارهم مساجين وخرجو من القسم بهذه الصفة ، وكان على رأسهم المرحوم الضابط نبيل الوقاد الذي استشهد في اليمن ، وطاهر الأسمر ، ومدحت الدريني ، وحسين مختار . وكان معهم كأدلة السيد / عبد النبي رشاد ، والسيد / البوص ، وعحسن عبد الخالق ، وشعبان عبده ، وعلى الاشكرايلي ، وكل فتية — وهم من المجموعة الاولى من رجال المقاومة الدورية .

وكانت خطة رجال الصاعقة تتركز في أن يبدأوا في ضرب الدبابات في تماما الساعة الاولى من صباح يوم ١٢/١٥ ، على أن تكون هناك جماعة أخرى تقوم بمهاجمة الدوريات الانجليزية في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الهجوم على الدبابات وتنفيذا لنجاح هذه الخطة أعد الوطنيون كينا لدورية بريطانية كانت قد اعتادت السير في هذا الوقت وتتكون من عربتين مصفحتين بأن علقوا شيكارة أسمنت في حبل بعرض الشارع الذي اعتادت أن تمر به الدورية وبدأت الشيكارة والحبل في صورة حبل الغام ووزع الوطنيون أنفسهم على أن يتولى ثلاث منهم القاء القنابل اليدوية على أن تكون مهمة الآخرين اطلاق المدافع الرشاشة على رجال الدورية وجاءت الدورية البريطانية في الميعاد المحدد إلى قضائها ، وعندما دخلت المنحنى في أول الشارع خففت من سرعتها ونظر سائق العربة الاولى إلى الحبل المعلق في وسط

الطريق وأشار محذرا فاعتقد الانجليز أنه جبل ألغام فوقفت القافلة ونزل سائق السيارة الأولى ليفحصه ، وفي نفس اللحظة انطلقت القنابل والنيران من كل ناحية ولم ينج أحد من الانجليز سوى السائق الذي هرب بجلاء . وكان المكان المعد للقاء بعد تنفيذ هذه العملية أمام سينما مصر ولم يكديلتهم جمع رجال المقاومة حتى ظهرت أمامهم دورية بريطانية أخرى مكونة من ميارتين بها عشرة جنود وعلى حين غفلة ودون تفكير أو تدبير سابق اندفع من بين الوطنيين الجاريش رمضان عبد الرازق وهو من رجال الصاعقة وعندما وصل إلى مكان الدورية ألقى عليها قنبلتين ميلز ٣٦ احدهما على السيارة التي كانت على يمينه والاخرى على تلك التي كانت على يساره ، فقتل الانجليز العشرة الذين كانوا بها (١) وسقط البطل شهيدا وسطهم — تمت هذه العملية في ثوان وأمام نظر باقي أفراد رجال المقاومة الذين عقدت الدهشة ألسنتهم من هول المفاجأة وللتضحية المثالية التي قام بها الجندي الشهيد .

وأما عملية الدبابات فقد تمت على الوجه التالي قام الملازم حسين مختار ومعه باقي رجال الصاعقة ومن أمامهم الأدلة الذين ذكرنا أسماؤهم وتوجهوا جميعا إلى مكان العملية . وكانت المسافة بين قسم المناخ وهو مكان خروجهم إلى مكان الدبابات ليست بالمسافة القصيرة كما أن الطريق منطى بأنقاض المباني المهتدمة ولذلك لم تكن مهمة الوطنيين سهلة ميسرة — ولكنهم كانوا قد عقدوا العزم على تنفيذ هذه العملية مهما كانت العقبات وعندما اقتربوا من هدفهم وهو مركز تجمع الدبابات بدأوا في تنظيم أنفسهم ، وكانوا ستة للتحارب حملوا ثلاثة مدافع صاروخية من نوع بلانديست الخاصة بضرب الدبابات واقتربوا منها ووقفوا في مواجهتها وعلى رأسهم الضابط حسين مختار بينما وقف باقي رجال المقاومة على قرب من الجماعه الأولى يحملون البنادق السريعة الطلقات والرشاشات لتغطيه زملائهم إذا دعت الحاجة أو تخرج الموقف ، كما انتشر حوالي اثني عشر وطنيا في الشوارع والطرق

(١) صدر قرار بترقيته الى رتبة ضابط بالجيش

المحطة بهذه المنطقة للدفاع عنهم اذا لزم الامر ، وانتظر رجال الصاعقة امر ، حسين مختار لم بالضرب لان السماء كانت ملبدة بالغيوم والمطر يتساقط مدرارا وما هي الا لحظة حتى انقشع الجو ولاح القمر من بين السحب ووضعت الدبابات للوطنيين ولاح لهم سائقها ورجال الحراسة ، وعندئذ صدر الامر بالضرب فانطلقت المدافع تهز المدينة وتصيب الدبابات وما يحيط بها من ضباط وجنود وقد ثبت أن الوطنيين فجروا أربع دبابات استوريون وسيارتين مصفحتين كانتا بالقرب منها وان لم يتأكدوا من عدد خسائر الانجليز في الأرواح ، وعلى أثر ذلك راح رصاص الانجليز يدوى في كل مكان ولكن رجال المقاومة انسحبوا وعادوا جميعا سالمين الى قسم المناخ حيث كانوا ليسجنوا من جديد كما هو ثابت من دفاتر القسم ، ولم يكن يعتقد الانجليز أو يسمروا أن هؤلاء المساجين هم الذين قاموا بهذه المعركة الخالدة من معارك بورسعيد العديدة .

عيد القنابل :

أثناء معركة الدبابات كانت جميع فرق المقاومة في بورسعيد تعمل ضد قوات العدوان . وكان التعاون وثيقا بين الجيش ممثلا في رجال الصاعقة ورجال البوليس والاسعاف وبين أفراد الشعب ممثلا في المجموعات التي كانت تعمل برئاسة كمال رفعت وقد ظلت عمليات المقاومة تعمل بصفة مستمرة قبل وبعد ضرب مركز تجمع الدبابات وكان دوى الرصاص والقنابل يسمع في كل مكان حتى أن الأهالي ظنوا أن الجيش المصري قد وصل الى بورسعيد لتحريرها ومحاربة جنود العدوان. ففضلا عما قام به الوطنيون يوم ١٥/١١ وبيناه في الفصل السابق فقد التحموا مع الانجليز والفرنسيين في عدة معارك أخرى في هذا اليوم ، من تلك المعارك أنه لاحت للوطنيين عقب ضرب موقع الدبابات دورية انجليزية تقف خلف الجامع التوفيقي في شارع صفية زغلول فألقوا عليها بعض القنابل اليدوية وفتحوا عليها رصاص رشاشاتهم بعد أن كتموا تحت البواكي المعلقة على الجامع التوفيقي وقتلوا جميع أفراد هذه الدورية ولم ينج منهم أحد وقد قام بهذا العمل بعض أفراد التشكيل رقم ٢

ومن أعضائه السيد بكر ، وحسين الطوبى ، وطلعت سالم ، وأحمد شوقي الحسيني وشاهين عبد العال ، والسيد محمد المرجاني ، ومحمد محمد العسال .

وفي شارع عرفت كمن بعض أفراد التشكيل رقم ٣ وهم محمد عليوه وسعد الاسكندراني ومحمد الاسكندراني وصبحى عليوه وعندما مرت بهم سيارتان مملوءتان بالجنود البريطانية ألقوا عليها ثمان قنابل يدوية فقتلت الكثير منهم ثم توجه التشكيل السابق بعد ذلك الى مخازن البوليس وأثناء سيره قابلته دورية بريطانية أخرى فالتحم معها وهاجها بالمدافع الرشاشة وأحرق العربتين اللتين كانتا تنقلان جنود العدوان وهذه المقاومة الرائعة العنيدة تحولت بورسعيد في تلك الليلة الى جحيم كما تحولت الشوارع الى مقابر للدوريات البريطانية وتلوثت الأرض وجدران البيوت بدمائهم وأشلاتهم . ولم ينم مواطن واحد في المدينة هذه الليلة ، اذ لم تهدأ الانفجارات لحظة واحدة ولم يكف صوت الرصاص طوال هذه الليلة من ليالى الشتاء الطويل وسيطر الأبطال على شوارع المدينة تماما وكانوا يتنقلون تحت البواكي كما يشاءون وكأنهم خيالات وكانت عندما تقابل مجموعة من الوطنيين مع أخرى ترتفع الأصوات بكلمة السر بصوت مدوى ويتردد الصدى في كل مكان بكلمة « جمال » واعتقد الناس بعد أن سمعوا الانفجارات وكلمة جمال تتردد صداها في أرجاء المدينة أن الجيش المصرى قد دخل المعركة هنا في بورسعيد .. ففتحوا الأبواب والنوافذ والشرفات فرحين مهللين ، بينما كان النساء يزغردن والحنافات تدوى بملجلة ، في كل مكان ، وسمى الوطنيون هذا اليوم بعيد القنابل .

دور المرأة في المعركة :

لم تقتصر أعمال المقاومة على الرجال والشباب فحسب ، بل كان للمرأة دور بطولى في كفاح قوات العدوان في بورسعيد ، ومنذ اللحظة الأولى للاعتداء ، والنساء يقمن بدورهن ويساهمن بنصيبهن في المعركة بهمة وشجاعة وكانت تتكون المجموعة النسائية من السيدات والآنسات زينب الكفراوي ، وزينب أبو زيد ، وأفكار المoadلى ، ونجدة عبد الغفار ، وليلى الفخار ، وسلوى الحسيني ، واعتماد

ومن أعضائه السيد بكر ، وحسين الطويل ، وطلعت سالم ، وأحمد شوقي الحسيني وشاهين عبد العال ، والسيد محمد السرجاني ، ومحمد محمد العسال .

وفي شارع عرفات كن بعض أفراد التشكيل رقم ٣ وهم محمد عليوه وسعد الاسكندراني ومحمد الاسكندراني وصبحى عليوه وعندما مرت بهم سيارتان ملوءتان بالجنود البريطانية ألقوا عليها ثمان قنابل يدوية فقتلت الكثير منهم ثم توجه التشكيل السابق بعد ذلك الى مخازن البوليس وأثناء سيره قابلته دورية بريطانية أخرى فالتحم معها وهاجما بالمدافع الرشاشة وأحرق العربتين اللتين كانتا تنقلان جنود العدوان وبهذه المقاومة الرائعة العنيدة تحولت بورسعيد في تلك الليلة الى جحيم كما تحولت الشوارع الى مقابر للدوريات البريطانية وتلوثت الأرض وجدران البيوت بدمائهم وأشلاتهم . ولم ينم مواطن واحد في المدينة هذه الليلة ، اذ لم تهدأ الانفجارات لحظة واحدة ولم يكف صوت الرصاص طوال هذه الليلة من ليالى الشتاء الطويل وسيطر الأبطال على شوارع المدينة تماما وكانوا يتنقلون تحت البواكي كما يشاءون وكانهم خيالات وكانت عندما تتقابل مجموعة من الوطنيين مع أخرى ترتفع الأصوات بكلمة السر بصوت مدوى ويتردد الصدى في كل مكان بكلمة « جمال » واعتقد الناس بعد أن سمعوا الانفجارات وكلمة جمال تتردد صداها في أرجاء المدينة أن الجيش المصرى قد دخل المعركة هنا في بورسعيد .. ففتحوا الأبواب والنوافذ والشرفات فرحين مهللين ، بينما كان النساء يزغردن والهنافات تدوى مجلجلة ، في كل مكان ، وسمى الوطنيون هذا اليوم بعيد القنابل .

دور المرأة في المعركة :

لم تقتصر أعمال المقاومة على الرجال والشباب فحسب ، بل كان للمرأة دور بطولى في كفاح قوات العدوان في بورسعيد ، ومنذ اللحظة الأولى للاعتداء ، والنساء يقمن بدورهن ويساهمن بنصيبهن في المعركة بهمة وشجاعة وكانت تتكون المجموعة النسائية من السيدات والآنسات زينب الكفراوى ، وزينب أبو زيد ، وأفكار الموالدى ، ونجدة عبد الغفار ، وليلى الفخار ، وسلوى الحسينى ، واعتما

مثال الثبات والجرأه مع ما كانت تتعرض له بين لحظة وأخرى الى أشد المخاطر التي قد تؤدي بحياتها وحياة الطفل الذي تحمله وكأنه زهرة يانعة فوق فوهة بركان.

وهناك مثل آخر لما قامت به المجموعة النسائية من أعمال جليلة خلال المعركة ، وهو تلك التضحية الكبيرة التي قامت بها السيدة — أمينة محمد الغريب — فقد قبلت بأن تحوى بمنزلها بشارع سعد زغلول جهاز اللامسكي الذي أدخله كمال رفعت بورسعيد لتيسير الاتصال بالقوات الرئيسية خارج المدينة . وكان من السير على القوات المعادية بوسائلها الخاصة تحديد مكانه . كما قبلت أن تأوى بمنزلها بعض ضباط الجيش الذين تحملوا عبء ادارة المعركة كالضابط الذي عهد اليه بتشغيل جهاز اللامسكي ميد غفرة (سفيرنا الحالي في بولندا) وغيرهما — ولم يد عليها أى تردد أو خوف فى أى لحظة من لحظات الكفاح — بل قبلت أن تتحمل هذه المسئولية الضخمة بما تحويه من أخطار جسام تهددها هي وأولادها بصدر رحب ونفس راضية ، ولم يكن هذا العمل وحده الذى تحمته هذه السيدة الفاضلة وإنما دفعت بأولادها الثلاثة الى جحيم المعركة وهم عبد المنعم ويحيى وهادى وقد قام عبد المنعم بنفس تمثال دليسيبس ، كما اشترك يحيى فى دفن جثة مور هاوس بعد أن ظلت فى المنزل الذى وضعت به ثلاثة أيام .

ولا ننسى فى هذا المقام موقف السيدة المجاهدة انصاف د مدح التي دفعت بولديها الى المعركة وكانت تحشما على الجهاد والنضال حتى استشهدا ، وتحملت فجيعتها فيها بصبر الكرماء ، ولهذين الشهيدين قصة نبيلة وحزينة فى آن ذلك أنه فى يوم ٦ اوفبر عندما اشتدت غارات الطائرات المعادية وبدأ الاسطول الانجليزى والفرنسى فى قصف المدينة بالقنابل ، كان ولداها يسرى ووجدى يخيت المدرسان ببورسعيد ضمن من انخرطوا للدفاع عن المدينة ، وخرج كل واحد منها وتحت ابطه مدفعه الرشاش ، وتركا أمهما الوحيدة بالمنزل — وأثناء تربصها تحت البواكى شاهدا الطائرات تلتى البوجرة الحارقة على المنطقة التي يقيان بها — ورأيا النيران تلتهم المنازل الكائنة فى شوارع عيادى وعرفات وعباس ، وخشى يسرى على والدته من

أن يصيبها مكروه فهب لاتقاذها واقتحم منزله وحلها فوق ذراعه اليسرى بينما كان سلاحه لا يزال بيده اليمنى . وعند باب البيت كانت هناك رصاصه غادرة تنتظره لتصيب منه مقتلا . فسقط يسرى أمام والدته وتحت بصرها فنظرت اليه زائفة العينين ، وقد عقدت الدهشة لسانها وأذهلتها الفاجعه ، ولكنها تمالكت ميم ركعت تحاول وقف النزيف الذى كان يسيل بغزارة من جراحه ، ولكن يد القدر كانت أسرع فلفظ أنفاسه بين أحضانها - وعندما شاهد شقيقه بنحيت هذا المشهد أسرع نحو والدته لينقذها من الرصاص الغادر الذى كان يدوى فى كل ناحية وحاول جذبها بعيدا عن منطقة الخطر ، ولكن رصاص العدو أصابه هو الآخر فى رأسه فسقط بجوار شقيقه مخرجاً بدمائه والام الشكىلى تنقل الطرف بين ولديها الراقدين تحت قدميها فى ذهول وجزع .

عشرات من السيدات ساهمن فى المعركة وقدمن لبلدهن أجل الخدمات ولو أنى استتميت كل ما قن به من أعمال لاحتجت إلى مجلد كبير ، وأذكر فيما يلى من سقط منهن فى المعركة أثناء قيامهن بأعمالهن الوطنية . وان كن سيقين خالداً أبداً الدهر ، وستظل ذكراهن باقية دائماً فى قلوبنا ، وهن : فاطمة حسن قريش - نبوية ابراهيم عبد الله - عزيزة حسن الرجال - انصاف عبد الرحمن - فريته عبد الرحمن - الشاذلى شفيقة أحمد زقروق - فاطمة عبد الموجود محمد - وجنات على الصياد - صفية المرجاني - فاطمة حسن سعد - وليفه محمد حسن - فاطمة أحمد زغلول - انصاف أحمد آدم - بهية محمد حسن - قدريه عبد اللطيف محمد - نفسية محمود تويله - عزيزة محمد عطا الله - هانم داود نويهر - حياة عبده بسام - فاطمة عباس فرك - عواطف داود - عواطف محمود موسى - وحيدة ابراهيم الفرارجي - بديعه عيوض عيد الامام - معروزة السيد موسى - صيحه السيد الكشيش - زكية عبد العزيز محمد - زينب على الدياسلى - أمينة حسين - شوق محمد بكرى - ياسمين متولى حنفى - زينب حسن محمد - لطيفه مرسى - فريده محمد عبد الغنى - أمينة أحمد حسن - عائشة أحمد هلال - اعتماد عباس الطنطاوى - أنيسة عبد ربه - حنيفه حسب الله - أسيمان أحمد محمد - زنوبة عبده -

عائشة العيسوى — زاهية عبد الرازق جمه — زينب حافظ مصطفى — صابحة
اليوسى ابراهيم — نفسه أحمد سليمان — فوزيه فراج عبد الحافظ — نظيمه
ابراهيم الحداد — وغيرهن كثيرات من النساء المجاهدات اللاتي استشهدن خلال
المعركة وقدمن لبلدهن أجل الخدمات .

المجموعة اليونانية .

لم تقتصر أعمال المقاومة على المصريين وحدهم ، وإنما رأى اليونانيون أن من
حقهم على مصر التي أكرمت ضيافتهم وعاملتهم كما تعامل المصريون سواء . بسواء -
أن يساهموا في الكفاح جنباً إلى جنب مع أهل البلاد الأصليين ، وقد سبق أن
بينا أن الكفاح ضد الانجليز استمر بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولم يتوقف
لحظة واحدة وتكونت في تلك الاثناء مجموعة تضم بعض اليونانيين الذين تطوعوا
بدافع من شعورهم وبوحى من وجدانهم سميت بالمجموعة اليونانية وكان من أفرادها
جورج قسطنطين والبالاكرس وبنايوتى مافروماتين وقاموا بالكثير من الأعمال
المجيلة التي سيذكرها لهم الوطن على مدى الأيام . وقد التأم شمل هذه المجموعة
عقب العدوان وساهموا في الكفاح مع الوطنيين وأبلوا بلاء حسناً وقاموا بأجد
الأعمال .

ومن هذه الأعمال أن قوات العدو عندما اقتحمت المدينة يوم ٦ نوفمبر ،
وخرج الوطنيون ورجال المقاومة لملاقاتها ، كانت المجموعة اليونانية في مقدمة
المناضين ، وحدث أن دفع الحماس بأحد الوطنيين — وهو الشهيد السيد/عبد الله
ابراهيم — أن يخرج من تحت البوابة ، وهو المكان الذي كان يكن فيه مع بعض
أفراد رجال المقاومة ويندفع فجأة نحو الدبابة المتجهة في شارع محمد علي ، ودون
أر ينتبه أحد ، ألقي على الدبابة الأولى — وكان يطل من فتحتها العلوية أحد الضباط
البريطانيين — قبلتين يدويتين من طراز ميلز ٣٦ فانفجرتا في الدبابة وعطلتها ،
وقضت على من كان فيها ، وعندما شاهدت الدبابة الثانية تلك المحاولة الجريئة التي لم
تسكن في الحسبان أطلقت الرصاص على البطل الفدائي فسقط على الأرض مخرجاً

في دماؤه ، ثم تقدمت من الجثمان المسجى ومرت عليه فزقته تمزيقا واختلطت
أشلاقه بقطع الحجارة وكادت لثقلها أن تدفن مابقي من جثمانه تكت الثرى . وقع
ذلك أمام نظر رجال المقاومة المختبئين تحت البواكي فأطلقوا النار على هذه الدبابة
التي مالبت أن جاوبتهم بالمثل وتبه الوطنيون إلى أن البعض يطلق عليهم الرصاص
من فوق المنازل الخلفية . وكان العدو قد أسقط عددا من جنود المظلات على أسطح
بعض المنازل من الناحيتين الشرقية والغربية وبذلك حوصرت قوات المقاومة بين
الدبابات الزاحفة من الأمام وبين جنود المظلات المهابطين من الجو من الخلف
وبدأ اللحظة أن الوطنيين أصبحوا محاصرين ، وأنه سيقضى عليهم لانهالة ، وهنا
تقدم بنايوتى مافروماتيس ومعه مدفعه الرشاش وقال لزملائه انه سيواجه جنود
المظلات (القناصة) بمفرده ليتيح الفرصة لهم بالانسحاب ، ولم ينتظر بنايوتى قرار
لوطنيين ، وخرج على الفور من تحت البواكي واتجه ناحية منزلى فاقوسه وعمد
عباس حيث كان يربض القناصة الانجليز وفتح عليهم نيران مدفعه الرشاش فجندل
بعضهم ، وعندئذ اتجهت اليه أنظار الآخرين وركزوا الضرب عليه فانهزم الرصاص
من كل جانب على الفدائي الوحيد الذى ظهر لهم بغتة فى وسط الطريق كالعملاق
وخل يحاربهم وحده وكأنه فرقة كاملة . وأخيرا سقط البطل شهيدا بعد أن مضى
بنفسه لينقذ الآخرين من زملائه الذين انسحبوا سالمين إلى منزل عبد المنعم مختار
بشارع رشيد ، وبذلك قدم الفدائي بنايوتى مافروماتيس من أعضاء المجموعة
اليونانية مثالا حيا آخر من أعمال البطولة التي كان يقوم بها الوطنيون فى بورسعيد.

ابطال يافعة .

ولم تقتصر أعمال المقاومة على ما ذكرت آنفا إنما كان لطلبة المدارس الصغار
دور كذلك فى الكفاح ولم يمنهم حداثة سنهم ، كالم يرهيبهم رصاص العدو من
المشاركة فى المعركة ولطالما شاهد رجال المقاومة هؤلاء الطلبة الصغار يهرون هنا
وهناك — يمدون يد المساعدة لجريح أو يسرعون فى تلبية ما تطلبه المعركة من
مساعدات كجلب الطعام أو احضار المياه أو شراء الادوية.

ولم تجد محاولات رجال المقاومة لإبعاد هؤلاء الطلبة أو إيقاف نشاطهم — فقد كانوا يشعرون بأن عليهم رسالة لا تقل عن رسالة اخوانهم الكبار أو آبائهم — ومن أجل ذلك سقط منهم شهداء أيضا ورويت بدمائهم الطاهرة أرض مدينة بورسعيد وضواحيها ، وأسوق القصتين التاليتين كشلين حين لما قام به هؤلاء الأبطال الصغار .

لم يتجرب المهندس السيد عليمى سوى ولدين ... أحدهما بالمدارس الثانوية . والآخر بالمدارس الاعدادية — وعندما وقع العدوان حملا السلاح وخرجا يقاومانه معا جنبا إلى جنب ، وفي إحدى المعارك حاصرتهما دورية بريطانية ، ولكنها ظلا يقاومانها وحدهما حتى أصابت رصاصة قاتلة الشقيق الأكبر فخر شهيدا ، وعندما انحنى شقيقه عليه وجده قد فارق الحياة فحمل جثمانه على كتفه وعاد به إلى بيته حيث كان والداه ، وتركه معها ومع الأحزان والدموع ليقتل راجعا إلى المعركة أكثر عزما وأقوى تصميا على القتال وحده لعله ينتقم لشقيقه الوحيد الذى سقط أمام عينيه — أما الأب الحزين فلم يجد أحدا يساعده على دفن ابنه سوى زوجته وسار الزوج مع زوجته وأمامها جثمان البطل بعد أن وضعاه على عربة صغيرة إلى منطقة المقابر ، وهناك حفر الأب بيديه قبر ابنه وأهال التراب عليه .

والقصة الأخرى - قصة حسن سليمان محمود الطالب بمدرسة القنساء الاعدادية بالصف الثالث ذى الحسة عشر وبيعا ، وكان الوطنيون يعرفونه جيدا - لكثرة ثقله بينهم ولما كان يقدمه لهم من مساعدات - وحدث عندما وصلت القوات الدولية في يوم ١٩٥٦/١١/٢١ وخرج الأهالى فرحين يعبرون عن شعورهم بالنصر كان الطالب حسن سليمان على رأس المظاهرات التى قامت في هذا اليوم ، ولفت حماسه البالغ أنظار الجميع اليه ، وكان يحمل صورة للرئيس جمال عبد الناصر فرفه بعض رجال المقاومة على أكتافهم وساروا به أمام المتظاهرين ، وعند تقاطع شارع محمد على وسعد زغلول أمام مكتبة بدره على وجه التحديد ، وفي تمام الساعة

الثالثة من بعد الظاهر تصدت للمتظاهرين دورية فرنسية وحاولت تشتيتهم فلم يتمكنوا ، وهدد الفرنسيون باستعمال السلاح أن لم ينزل المتظاهرون الطاباق حسن سليمان أو يخفوا الصورة ، فما كان منه الا أن تحدام ، ورفع صورة جمال بيديه الاثنتين من فوق رأسه وعلا هتافه بسقوط الاستعمار ، ولم يخش البنادق المشهورة نحوه . وظل صوته يدوي بحياة بلده وزعيمها ، ولم يجد الفرنسيون وسيلة لاختفاء هذا الصوت سوى الرصاص . وسقط الجثمان اليافع وهو يهتف بحياة بلاده وصورة جمال بين أحضانه .

هاتان صورتان من عشرات الصور البطولية التي قام بها الشباب البريء /تقدمها للنشأ ذكرى وعبرة .

الفضيحة :

كان للمقاومة الرائعة التي قام بها شعب بور سعيد الأثر المباشر في هزيمة الانجليز والفرنسيين ، هذه المقاومة التي تجلّى فيها التعاون الوثيق بين جميع طوائف الشعب فاشترك فيها الجيش والبوليس والرجال والنساء والأطفال من أفراد الشعب كل بنصيبه في المعركة ، ولم تكن بور سعيد وحدها التي تحصلت على السكفاج — بل ان الخطة وضمت على أن تقاوم جميع مدن مصر وفراها وبشدة أى قوات أجنبية تحاول الوصول اليها أو احتلالها وقد وطد الشعب عزمه على حرب طويلة ، ونظم نفسه على أن يحارب العدو حرب عصابات لا هوادة فيها — ووزعت الأسلحة لهذا الغرض على الشباب والوطنيين وترك الجنود والضباط من رجال الصلحفة أعمالهم بالجيش وتفرغوا لقيادة وتنظيم عمليات المقاومة الشعبية وكان العدو قد بدأ يتحقق من خطة المصريين وما عزموا عليه ، وتجمعت لديه الأخبار بأن الوطنيين في مصر يعدون لجنود العدوان مقبرة كبيرة ، وأن خسائره ستضاعف في كل خطوة يخطوها ، وتيقن بأن الموت يترصد به من كل جانب وقد شعر بذلك من المقاومة المذهلة التي قوبل بها في بور سعيد والتي استمرت من يوم ٥ نوفمبر حتى رحل عنها جنود العدوان في ٢٣ ديسمبر ولم تستسلم المدينة كما توقعوا في أربع وعشرين

ساعة ، وكما أذاعوا في تصريحاتهم وبياناتهم ، حتى ان موليه رئيس وزراء فرنسا قرر يوم ٧ نوفمبر بأن مدينة الاسماعيلية قد استسلمت وسقطت في يد القوات الفرنسية في الوقت الذي كانت فيه القوات المعادية تلقى الأمرين في بور سعيد وتحاول تثبيت أقدامها في الأماكن التي نزلت بها . بل انه حدث بعد ذلك أن حاولت بعض قوات المقاومة الزحف جنوبا للاستطلاع فاشتبكت معها المجموعات الدورية التي نظمت بالقنطرة والكاب وأصلتها نارا حامية ، وشتت شملها ، وأسرت جنديين بريطانيين بما خذا بهذه القوات إلى التقهقر من حيث أتت قاعة من الغنيمه بالاياب (١) .

وقد اعترف الجميع بوطاة المقاومة الشعبية وكان الأعداء أول من شهدوا بذلك فيقول ونستون تشرشل الابن في كتابه سقوط ايدن : « واتضح للحليفتين بريطانيا وفرنسا أن القتال في شوارع بور سعيد الضيقة سيستغرق وقتا طويلا . » كما يقول كذلك في مكان آخر « انه في ساعات بعد الظهر دخلت القوات الانجليزية والفرنسية ضواحي المدينة خلال مقاومة مصرية عنيفة جدا .. »

ويقول ارمكين تشيلدرز في كتاب الطريق إلى السويس : « وأعدت العدة في بور سعيد لجرب من أعنف حروب الفدائيين وأكثرها دماء ليخوض الشعب المصري غمارها ضد الغزاة — ولم يكن ثمة هلع أو ذعر وأثبتت فرق المكافحة كفايتها وحسن تدريبها وهرع الشبان والشيوخ الذين يمثلون مختلف نواحي الحياة المصرية الى مراكز التطوع والتدريب في الميادين العامة ليتسلخوا بنادقهم ويتدربوا عليها .. »

ووصف كاتب فرنسي شدة المقاومة في بور سعيد قال: انه حين نزل مع القوات الفرنسية في بور سعيد وجد الشباب المصري يقاتل في اصرار وعناد ورأى شبانا في سن ١١ ، ١٢ ، ١٣ سنة يحملون السلاح ويقاتلون ببراعة ورباطة الجأش واستبسال .

(١) كان من بين هذه المجموعة الملازم محمد عبد المجيد الهلاحي واللازم سلامة عثمان وانضم اليهما مأمور قسم القنطرة المقدم عمرو هبة .

كما أذع صحفى سويدي نزل مع القوات المعتدية رسالة من بور سعيد يصف فيها وحشية الانجليز والفرنسيين يوم ٥ نوفمبر والمآسى التي اقترفوها ضد الأهالى ويمجد المقاومة الباسلة التي قام بها الشعب ويصفها وصفا مزم العالم .

وقد اعترف الجنرال كيتلى بعنقت المقاومة فقال : « لقد قاتلنا ضد شعب جهزت قواته المسلحة بأحدث الأسلحة والطائرات واستماتت أفرادها في الدفاع عن بور سعيد بأصرار وعناد وحنكة » .

كما أثبت في تقريره الذى قدمه للوزارة البريطانية بعه ذلك شدة كفاح الوطنيين فقرر « بأن السلطات المصرية وزعت الأسلحة على المدنيين في بور سعيد فراحوا يستخدمونها بطريقة واسعة النطاق وكانوا يلقون القنابل على السيارات العسكرية ويمتهدون لايقاع الدوريات في كائن أثناء الليل ، وأن القتال الذى دار في شوارع بور سعيد كان معقدا ، لأن الجنود المصريين نزعوا ملابسهم العسكرية واختلطوا مع المدنيين الذين كان كثير منهم مسلحين » .

هذه هي اعترافاتهم الصريحة عن بعض مالاقوه في بور سعيد من مقاومة عنيفة وكانت من أسباب هزيمتهم فقررروا الانسحاب وخرجوا مدحورين إلى بلادهم في يوم ٢٣/١٢/١٩٥٦ .

ومن مفارقات القدر أن الجنرال كيتلى القائد العام البريطانى أحيل بعد العدوان إلى التقاعد ، كما نقل الجنرال استكويل قائد معركة بور سعيد الفاشلة إلى وظيفة كتابية . أما ايند فقد انهارت أعصابه وترك وزارته في ١٠/١١/١٩٥٦ لبتلر حامل أختام الملكة وهرب إلى جزيرة جامايكا — للاستشفاء وغل بها حتى استقال من الوزارة في ٩ يناير سنة ١٩٥٧ .

هذا ما كان من أمر ايند — أما زميله موليير رئيس وزراء فرنسا فقد استقال وزارته بعد ذلك بقليل في مايو سنة ١٩٥٧ نتيجة لسياسة الخرقاء نحو مصر .. وهكذا أدت مقاومة الشعب العنيدة في بور سعيد إلى اخفاق وهزيمة حكومتى انجلترا وفرنسا وفضيحتها أمام العالم . وأصبح يوم ٢٣ ديسمبر وصمة عار في جبين الغرب ، كما أضفى في الوقت نفسه عيدا للابتصار في مصر .

الباب التاسع

من تمار السكاح

- ١ - استقلال تام وديموقراطية سليمة :
- ٢ - اشتراكية عربية :
- ٣ - تحرير الوطن العربي وتحقيق الوحدة العربية :
- ٤ - تحقيق الوحدة الافريقية والسلام العالمى :
- ٥ - دفعة الاسلام والعالم الاسلامى :

١ — استقلال تام وديموقراطية سلمية

اتفاقية الجلاء :

أعلن الرئيس جمال عبد الناصر : « أننا نعلنها عالية مدوية : يجب أن يحصل الاحتلال عصاه على كاهله ويرحل ، أو يقاتل حتى الموت دفاعاً عن وجوده ، » .

ولذا لم يكن أمام الانجليز إلا أن يتغيروا أمراً من اثنين ، الجلاء التام ، أو القتال حتى الموت . وقد لمس الانجليز أن الموقف قد تغير تماماً ، فلم تعد هناك حكومات حزبية تماليهم وتصانيمهم وترسخ لأوامرهم وتتغاضى عن مساوئهم ، وشاهدوا قيام حكومة مصرية وطنية من أبناء الشعب المصري ، بل هي أول حكومة مصرية في أشخاصها وسياساتها تولت حكم مصر منذ العصر الفرعوني . وأدرك الانجليز أن الشعب المصري ، على اختلاف عناصره يقف كله وراء حكومته الوطنية الحرة . وتأكد الانجليز أن العصر قد تغير ولم يعد في صالحهم ، وأنه من المحتم عليهم الجلاء التام عن الأراضي المصرية .

وتتضح الروح الجديدة ، التي لم يهبها الانجليز من قبل ، في المفاوضات التي دارت بين المتفاوضين المصريين والانجليز ، فقد صرح المتفاوض المصري في ٢٧ أبريل ١٩٥٣ : « أن مصر ، مصر الحرة سوف تنطور بسرعة وقوة حتى تستطيع أن تملأ أكثر من الفجوة التي تتخلف من انسحاب القوات البريطانية ، فلسوف تملأ هذه الفجوة لا بالقوات والمعدات وحدها ، بل بحماسة أهلها المنبثقة من كلة الحرية السعيرية . وهذه الحماسة لا تقل أهمية عن القوات والمعدات . وأن مصر لتؤمن إيماناً قوياً باعتمادها على نفسها ، وهي عازمة على أن تركز قواتها بسواعد أبنائها ومواردها في أرضها لإنشاء قلعة سلام وأمن تصد أي عدوان . » .

وبعد هذه اجتماعات تعرضت المحادثات للقطع بين آن وآخر ، وبعد جذب وشد ، توصل المتفاوضان إلى اتفاقية الجلاء التي وقّعت بالاحرف الأولى في ٢٧

يوليو سنة ١٩٥٤ أى بعد مولد الثورة بعامين . وكان توقيع الاتفاقية النهائي في ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ .

وضعت هذه الاتفاقية نهاية للاحتلال البريطاني البغيض الذى استمر أكثر من ٧٢ عاماً ، وغادر الانجليز معسكراتهم في منتصف أبريل سنة ١٩٥٦ أى قبل الموعد المحدد للجلاء بشهرين ، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر هذا النبأ السار الذى كان له رنة فرح وسرور في نفس كل مصري .

كان جلاء الانجليز يخلص مصر تماماً ونهايا من كل تأثير أجنبي ، ويمثل مصر تتيج سياسة جديدة تمكنها من العمل في حرية تامة ، فان مصر لا تزال في حالة حرب مع اسرائيل ، ووجود قوات أجنبية في الاراضى المصرية قد يهدد مصر بأخطار جسيمة حينما تفكر اسرائيل في هجوم غادر على الحدود المصرية ، ونحن نعرف احتضان انجلترا ودول الغرب لاسرائيل .

وأصبح جلاء الانجليز نهاية مرحلة ، وبداية مرحلة جديدة ، هي مرحلة البناء ، ولذا قال الرئيس جمال عبد الناصر في خطابه الذى ألقاه بمناسبة توقيع اتفاق الجلاء : « أيها المواطنون : إن مرحلة من كفاحنا قد انتهت ، ومرحلة جديدة توشك أن تبدأ . هاتوا أيديكم وخذلوا أيدينا ، وتعالوا نبني وطننا من جديد ، بالحب والتسامح والفهم المتبادل » .

استقلال اجتماعى واقتصادى :

ان اتفاقية الجلاء تحرر المجتمع المصرى من كل قيود الماضى وأدران الاحتلال البريطانى . وأصبح الشعب المصرى يعرف مكانه من الحياة المعاصرة ومسئوليته في توجيهها ، فهو من ناحية يحافظ على مقوماته الأصيلة ، ويلتزم بين مقتضيات التطور من ناحية أخرى . وبالتخلص من الاحتلال والاقطاع ، تخلص المجتمع من تلك الاستجابة الآلية لتزوات الامة المالكة والحكومات الحزبية ، ويرى

المجتمع من آفة الارتجال والخيالة ، وأصبحت الحياة تسير في طريقها عن هدى وبصيرة . وتدفقت دماء جديدة في تلك الشرايين التي ضمرت وأهملت منذ أمد بعيد ، وتمت الوحدة الاجتماعية على أساس صحيح ، وعلى صورة إيجابية فعالة تؤدي إلى نفع جميع المواطنين على حد السواء .

وكانت كل الخطوات التي سارت فيها الثورة المؤيدة بالكتلة الشعبية المتنامية تؤدي إلى الهدف الذي رسمه زعيم الثورة وقائدها ، ونجحت كل الخطوات لسهين ، أولها تماسك الكتلة الشعبية وإيمانها بالهدف الذي رسمه قائدها .. وثانيهما إيمان القائد الزعيم وإصراره على الوصول إلى الهدف .

نجحت الثورة في تحقيق الاستقلال الكامل ، وأقامت سيادة استقلالية على أسس الحياد الإيجابي وعدم الانحياز . وإرساء قواعد البناء الاجتماعي الذي يقوم على أسس العدالة الاجتماعية ، والديموقراطية ، وتكافؤ الفرص ، واشتراكية عربية تحققي الكفاية والعدل .

تحدث السيد الرئيس في الميثاق عن نتائج العمل الديموقراطي فقال : « إن العمل الديموقراطي في هذه المجالات سوف يتيح الفرصة لتربية ثقافة نابضة بالقيم الجديدة عميقة في احساسها بالإنسان صادقة في تعبيرها عنه ، قادرة بعد ذلك كله على إضاءة جوانب فكره وحسه وتحريك طمسقات كامنة في أعماقه خلاقة ومبدعة ينمكس أثرها بدوره على ممارسته للديموقراطية وفهمه لأصولها وكشفه لجوهرها الصافي النقي .

٢ - اشتراكية عربية :

ظلت مصر عصوراً طويلة محرومة من كل اصلاح في أي ميدان من الميادين ، وهذا الحرمان طال عليه الزمن حتى تعقد وأصبح من العسير القضاء عليه إلا بقوى جبارة لا تتوفر إلا في مثل النظام الاشتراكي . وقد جربت مصر أنواعاً مختلفة من الحكم الحزبي الفاسد الذي أدعى نوعاً من الديموقراطية الزائفة ، وأخفقت هذه

الحكومات الحزبية في اصلاح احوال المجتمع المصرى . وأصبحت مصر في أشد مانكون إلى التماسك والتآزر والوحدة حتى تستطيع أن تقوى ماديا وروحيا ، حتى تواجه مشكلاتها الداخلية والمؤامرات الخارجية وأصبحت مصر قبل الثورة في حاجة إلى إيجاد نوع من التوازن بين الطبقات فيها ، فلا تطفئ طبقة ، ولا تتحكم جماعة في جماعة ، أو قلة في أغلبية .

أصبحت مصر في حاجة إلى (الحرية الاجتماعية) وليس هناك طريق لتحقيق هذه الحرية الاجتماعية غير الاشتراكية ، التي تحقق الكفاية والعدل ، وتخلص مصر من التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، ولذا أصبح الحل الاشتراكي حتمية تاريخية . قال الرئيس في الميثاق : « أن الحرية الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق إلا بفرصة متكافئة أمام كل مواطن في نصيب عادل من الثروة الوطنية ، وقد كافح الشعب سنين طويلة من أجل هذه الحرية وكان يكافح الاستعمار في الخارج والداخل بينما كان يحطم القيود التي فرضت عليه ليبني مجتمعه الحر على أسس واقعية تسنده ديمقراطية حقيقية سليمة — ولم يكن أمام شعبنا من وسيلة إلا الاشتراكية » إن الاشتراكية العملية هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم ، وكان يتعين وصولا إلى اشتراكية سليمة صحيحة أن لا تترك رأس المال حراً دون قيود . ويقول الميثاق :

« أن رأس المال في تطوره الطبيعي في البلاد التي أرغمت على التخلف لم يعد قادراً على أن يقود الانطلاق الاقتصادي ، وهذا راجع إلى نمو الاحتكارات الرأسمالية الكبرى في البلاد المتقدمة اعتماداً على استغلال موارد المستعمرات . وهذا النمو المتزايد للاحتكارات العالمية لم يترك أمام الرأسمالية المحلية في البلاد التي تمضي في طريق التقدم والتحرر ، إلا سيلين ذكرهما الميثاق :

« أولهما : أنها لم تعد تقدر على المنافسة إلا من وراء أسوار الحسابات البركية العالية التي تدفعها الجماهير .

ثانيهما : أن الأمل الوحيد لها في النمو هو أن تربط نفسها بحركة الاحتكارات العالمية وتقتني أثرها وتتحول إلى ذيل لها وتجر أوطانها وراءها إلى هذه الهاوية الخطيرة .

كما أن اتساع الهوة بين الذين سبقوا إلى التقدم ، والذين مازالوا في دور التخلف ، لم تعد تسمح بأن يصبح منهاج التقدم متروكا للجهود الفردية العفوية التي لا يحررها غير واقع الربح الآتاني . وقد حدد الميثاق ثلاثة شروط لمواجهة التحدي هي : تجميع المدخرات الوطنية ، ووضع كل خبرات العلم الحديث في خدمة استثمار هذه المدخرات ، ووضع تخطيط شامل لعملية الإنتاج . ويقابل زيادة الإنتاج أيضا عدالة التوزيع ، بما يحتم ضرورة وضع برامج شاملة للعمل الاجتماعي تعود بخبرات العمل الاقتصادي ونتائجه على الشعب العامل . بما يحقق له الرفاهية . وبطبيعة الحال ، لا يمكن ترك العمل من أجل زيادة قاعدة الثروة الوطنية لعفوية رأس المال الخاص المستغل ، ونزعاته الجامحة . ويصبح من المحتم سيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج ، وعلى توجيه فائضها طبقاً لخطة محددة .

ولكن سيطرة الشعب على أدوات الإنتاج لا تؤدي إلى تأميم كل وسائل الإنتاج ، ولا تلغى الملكية الخاصة ، ولا تمس حق الإرث الشرعي . ولكن هذه السيطرة تتم بطريقتين : أولها ، خلق قطاع عام وقادر يقود التقدم في جميع المجالات ويتحمل المسؤولية الرئيسية في خطة التنمية . وثانيهما ، وجود قطاع خاص يشارك في التنمية في إطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال . ويخضع القطاعان لرقابة الشعب .

ومن أسس المجتمع الاشتراكي ، الاهتمام بالصناعة والتصنيع بما يحقق زيادة الإنتاج ، يخرج بالمجتمع من مرحلة الزراعة إلى مرحلة الصناعة ولا تبقى الأقطار العربية حقول بترول ومزارع قطن وأسواقا لمنتجات المصانع الغربية .

قال الرئيس في إحدى خطبه القيمة : وكلنا نعرف أن المصانع الأجنبية الاستثمارية

كانت تعمل على الحد من نشاطنا الصناعي . كانت تعمل على وقف التوسع الصناعي . ولكن حينما كانت الثورة السياسية تأخذ طريقها للقضاء على الاستعمار البريطاني ، والقضاء على الاستبداد السياسى كانت الثورة الاجتماعية تأخذ طريقها فى نفس الوقت لبناء أساس اقتصادى سليم ، واجتماعى سليم .

ومن أسس المجتمع الاشتراكى الجديد فى مصر تقديم الخدمات العامة للمواطنين جميعاً فى مساواة تامة وهذه النظرية تعتبر حجر الزاوية فى بناء مجتمع حر كريم ، وقد كافح الشعب المصرى طويلاً للوصول إلى المساواة الكاملة فى الحقوق والواجبات . وقد خفف المجتمع الانقطاعى البائد رواسب كثيرة فى المجتمع المصرى ، وخلق فى أجزائه أنواعاً من التناحر والواناً من الظلم الاجتماعى ليوحد نوعاً من المصراع الداخلى يستطيع أن ينفذ خلاله إلى حقيقة الكفاح الشعبى ليحطمه واصبح الحل الاشتراكى هو السبيل الأول والوحيد لتوفير الخدمات العامة للمواطنين جميعاً بما يحقق الرفاهية وهو رغاء للجميع على قدم المساواة .

جاء فى الميثاق : ، أن ذلك الحل الاشتراكى هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن تلاقى عليه جميع العناصر فى عملية الانتاج على قواعد علمية وإنسانية تقدر على مد المجتمع بجميع الطاقات التى تمكنه من أن يضع حياته من جديد وفق خطة مرسومة مدروسة وشاملة .

، أن التخطيط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية — المادية والطبيعية والبشرية بطريقة علمية وعلمية وإنسانية لكي تحقق الخير لجموع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية .

وان ذلك لا يقتصر على مجرد إعادة توزيع الثروة الوطنية بين المواطنين ، وإنما هو يتطلب أولاً ، وقبل كل شئ ، توسيع قاعدة هذه الثروة الوطنية ، بحيث تستطيع الوفاء بالحقوق المشروعة لجمهور الشعب العاملة . إن ذلك منناه أن الاشتراكية بدعائيتها من الكفاية والعدل هى طريق الحرية الاجتماعية .

« إن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر ومولا ثوريا إلى التقدم لم يكن اقتراسا على الالتقاء الاختياري وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع ، وفرضها الآمال العريضة للجماهير ، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم في النصف الثاني من القرن العشرين . »

أصبحت مصر بعد الثورة في حاجة إلى مجتمع جديد، ولكن هذا المجتمع لا يقوم على أسس هدم الفساد فحسب ، بل يقوم على أساس بناء قيم جديدة ، لأن الثورة تعرف أن هدم الفساد ليس هو العمل الأول ، ولكن العمل الأول هو بناء الأسس الجديدة بعد التخلص من فساد الماضي .

وإذا كانت عمليات الهدم تتم بسرعة ، فإن عمليات البناء تحتاج إلى زمن أطول كثيرا ، كما أن تخطيط البناء يحتاج إلى دراسة عميقة ، وتقدير للظروف ، وإعداد كل الامكانيات اللازمة لنجاح البناء ، والوصول إلى هدف .

ومن أسس المجتمع الاشتراكي تحرير الاقتصاد المصري ، وهناك نوعان من الضغط تعرض لهما المجتمع المصري في أول عهد الثورة ، أولها ضغط خارجي تمثل في الحصار الاقتصادي والضغط الاقتصادي ، وثانيهما ضغط داخلي تمثل في الاستغلال والانتهازية والظلم الاجتماعي .

تحدث الرئيس في خطاب له عن الضغط الأول فقال : « بدأ الاستعمار بالحصار الاقتصادي والضغط الاقتصادي ، وطبعاً كان يعتقد أنه بهذا يستطيع أن يخلق ثغرة بين الشعب وبين الحكومة . جرد أموالنا ومنع عنا طلباتنا ، وعمع بكل الوسائل حتى لا نبيع القطن . ولكننا كانت لنا سياسة معينة محددة . أن نبيع لمن يشتري منا بأكبر ثمن ، ونشتري ممن يبيع لنا بأقل ثمن ، مصلحتنا محددة ، وقتنا أسواقا واستطعنا أن نقضي على مؤامرات الاستعمار التي وجهها ضد ثورتنا الاجتماعية .

« استطعنا أن نتصر على الحصار الاقتصادي ، واستطعنا أن نتصر على تهديد

الأموال، واستطعنا أن نتصر على الضغط الاقتصادي . طبعاً بتضحيات ، وتضحيات ليست كبيرة ، ولكن اتهمنا في هذه المرحلة من مراحل الثورة الاجتماعية . ان الاستعمار يهدف من هذا إلى إثارة الشك والبلبة وخلق حرب بين الطبقات وتدمير بين الناس .

أما الضغط الثاني، فهو ضغط الاستغلال والظلم الاجتماعي والانتهازية والرجعية، وقد تختلف هذه العناصر عن العبود الغابرة ، وهذه العناصر تقف في طريق رفاهية الشعب ، فقال السيد الرئيس في خطاب له : « الدستور حدد أن الغرض خلق مجتمع ترفرف عليه الرفاهية . هل إذا كانت أقلية تستعبد الاكثية يكون هذا المجتمع ترفرف عليه الرفاهية ؟ قطعاً لا . لأننا كنا في الماضي نعانى من سيطرة الأقلية المتنفذة على الأغلبية . هل إذا كان الاستغلال هو العامل الأساسي في التعامل يكون هناك مجتمع ترفرف عليه الرفاهية . لا يمكن أن يكون هناك مجتمع ترفرف عليه الرفاهية إذا كان هناك استغلال بأي وسيلة من الوسائل . استغلال للإنسان أو استغلال للفرصة . أو استغلال اجتماعي أو استغلال سياسي أو استغلال اقتصادي .

« هل يمكن إذا استمر الظلم الاجتماعي أن يتحقق المجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية . أو إذا سيطرت الانتهازية أو إذا سيطرت الرجعية أو إذا سيطرت الرغبة في الانتفاع . كلنا نعرف أن الوطنية كانت باستمرار لا تسير أو تتماشى مع الانتهازية . ولا مع الاستغلال أو الرجعية ، لأن الرجعية تعتبر الوطنية أول أعدائها .

٣ - تحرير الوطن العربي

وتحقيق الوحدة العربية

الوحدة العربية في الميثاق :

نالت الوحدة العربية نصيباً كبيراً من الميثاق ، فالجمهورية العربية المتحدة جزء من الوطن العربي الكبير ، وهي مسئولة عن توفير وسائل التقدم داخل الجمهورية وفي كل مكان في هذا الوطن العربي . وقد أصبح الوجود العربي حقيقة واقعة ، وأصبحت مقومات الوحدة العربية غنية عن التعريف ، فهي تقوم على أساس وحدة اللغة العربية التي تطبع الثقافة والعقيلة والنفسية والشخصية بالطابع العربي ، وعلى أساس وحدة التاريخ ، والتاريخ هو ذاكرة كل أمة وسجل حياتها المشتركة ، وعلى أساس وحدة الآلام والآمال ، ووحدة الأهداف والصف والمصير .

فقال الميثاق : وإن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة في صنع التقدم وفي تدعيمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية . أن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها . لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته . يكفي أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل . ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير .

حقاً تقوم بعض خلافات بين بعض دول عريضة من وقت لآخر ، وهي خلافات بين حكومات ، وليس خلافاً بين أبناء الشعب العربي الكبير ، فهناك - للأسف - بعض حكومات لا تزال تتصف بالرجعية ومهادنة الاستعمار ولكن هذه الخلافات أضعف من أن تضعف أسس الوحدة العربية ، وأن لقضاء القوى التقدمية الشعبية في الدول العربية لتعادر على تحطيم هذه الخلافات وتلك النزعات الرجعية الانتهازية .

وفي هذا يقول الميثاق : « إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أسماء باسندلين بقيام خلاقات بين الحكومات العربية ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية . إن مجرد وجود خلاقات هو في حد ذاته دليل على قيام الوحدة . إن هذه الخلاقات تنبع من الصراع الاجتماعي في الواقع العربي . واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية في كل مكان من العالم العربي والتجمع الذي تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية في العالم العربي هو دليل على وحدة التيارات الاجتماعية التي تهب على الأمة العربية وتحرك خطواتها وتنسيقها عبر الحدود المصطنعة .

« إن اللقاء القوي، التقدمية الشعبية على الأمل الواحد في كل مكان من الأرض العربية ، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة في كل مكان من الأرض العربية هو في حد ذاته دليل على الوحدة أكثر بما هو دليل على التفرقة . أن مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذي كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات . »

وإذا اختلفت بعض الحكومات العربية في الأهداف ، فإن الشعوب العربية متفقة تماماً في أهدافها . أهداف الحرية والتحرر والاستقلال والرفاهية . لقد قطع الوطن العربي شوطاً كبيراً ، فاجتاز مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار ، وانتقل إلى مرحلة كبرى أخرى ، هي مرحلة الثورة الاجتماعية . وأن اعتماد المستعمرين على الجماعة الرجعية الانتهازية في بعض الدول العربية ، جعل الشعب العربي يدرك أهمية وحشية الثورة الاجتماعية وهذه الثورة الاجتماعية ستدفع بالأمة العربية إلى وحدة الهدف .

يقول الميثاق : « إن مرحلة الثورة الاجتماعية تقدمت بهذا المفهوم السطحي للوحدة العربية ، ودفعت به خطوة إلى مرحلة أصبحت فيها وحدة الهدف هي صورة الوحدة . إن وحدة الهدف حقيقة قائمة عند القواعد الشعبية في الأمة العربية كلها . واختلاف الأهداف عند الفئات الحاكمة هو صورة من صور التطور الحتمي الثوري واختلاف مراحلها بين الشعوب العربية . لكن وحدة الهدف عند

القواعد هي التي ستتكفل بسد الفجوات الناشئة من اختلاف مراحل التطور .
إن وحدة الأمة العربية قد وصلت في صلابتها إلى حد أنها أصبحت تتحمل مرحلة
الثورة الاجتماعية .

« إن وحدة الهدف لا بد أن تكون شعار الوحدة العربية في تقدمها من مرحلة
الثورة السياسية إلى الثورة الاجتماعية . ولا بد أن ينبذ الشعار الذي جرت تحته
مرحلة سابقة من النضال الوطني هي مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار . إن
الاستعمار الآن غير مكانه ولم يعد قادراً على مواجهة الشعوب مباشرة ، وكان
مخبّزه الطبيعي بحكم الظروف داخل قسور الرجعية . إن الاستعمار نفسه ، دون
أن يدري ، ساهم في تقريب يوم الثورة الاجتماعية ، وذلك حين توارى بمطامعه
وراء العناصر المستغلة يوجهها ويحركها ،

وبين الميثاق أن العمل العربي لا بد أن يعتمد على خبرات وتجارب الأمة العربية
التي استمدتها على طوال العصور التاريخية ، كما يعتمد على روحها
الثورية ، وإرادتها القوية ، ويجب أن تكون ومائل الوحدة العربية
متكافئة مع شرف الهدف . وطريق الوحدة طريق طويل ، ولكنه يوصل
الأمة العربية إلى هدفها الآمن ، وهو الوحدة . وقد يقنع الشعب العربي
الكبير بقيام وحدة جزئية ، بين شعبين عربيين أو أكثر ، كتمهيد للوحدة
العربية الكبرى الشاملة .

ويقول الميثاق : « والعمل العربي في هذه المرحلة يحتاج إلى كل خبرة الأمة
العربية مع تاريخها الطويل المجيد ، ويحتاج إلى حكمتها العميقة ، بقدر حاجته إلى
ثورتها وإرادتها على التغيير الحاسم . إن الوحدة لا يمكن ، بل ولا ينبغي ، أن
تكون فرضاً ، فإن الأهداف العظيمة للأمم يجب أن تتكافأ أساليبها شرفاً مع
غاياتها . ومن ثم فإن القصر بأي وسيلة من الوسائل عمل مضاد للوحدة . أنه ليس
عملاً غير أخلاقي فحسب ، وإنما هو خطر على الوحدة الوطنية داخل كل شعب

من الشعوب العربية، ومن ثم بالتالى فهو خطر على وحدة الأمة العربية فى تطورها الشامل .

« وليست الوحدة العربية صورة دستورية واحدة لامناس من تطبيقها ، لكن الوحدة العربية طريق طويل ، قد تتعدد عليه الاشكال والمراحل وصولا الى الهدف الاخير . أن أى حكومة وطنية فى العالم العربى ، تمثل إرادة شعبها ونضاله فى إطار من الاستقلال الوطنى ، هى خطوة نحو الوحدة من حيث أنها ترفع كل سبب للتنازع بينها وبين الآمال النهائية فى الوحدة .

« أن أى وحدة جزئية فى العالم العربى ، تمثل إرادة شعبين أو أكثر من شعوب الأمة العربية هى خطوة وحدوية متقدمة ، تقرب من يوم الوحدة الشاملة ، وتمهد لها ، وتمد جذورها فى أعماق الأرض العربية . إن مثل هذه الظروف تمهد الطريق للدعوة إلى الوحدة الشاملة .

واجبات الجمهورية العربية المتحدة نحو الوحدة العربية :

أصبحت الجمهورية العربية المتحدة مركز إشعاع ، تخرج منه اشعاعات الحرية والتقدمية إلى أرجاء العالم العربى . كما أصبحت الجمهورية قدوة تحتذىها سائر الدول العربية ، وطلبة للحرر والوحدة والتقدم الاجتماعى .

ومن ثم فقد أدت الجمهورية العربية المتحدة واجباتها نحو الشعوب العربية ، فأملت جميع الثورات التقدمية ، وألقت بكل طاقاتها فى معارك التحرير العربية فى كل مكان سعيا وراء تحرير المواطن العربى من الاستعمار والرجعية والانتهازية .

وضح الميثاق واجبات الجمهورية العربية المتحدة نحو الأمة العربية و وحدتها الشاملة، فقال : « والجمهورية العربية المتحدة ، وهى تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية ، لا بد أن تنقل دعوتها والمبادئ التى تتضمنها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربى ، ولا ينبغى الوقوف لحظة أمام الحججة البالية القديمة التى قد تعتبر ذلك تدخلا منها فى شئون غيرها .

« وفي هذا المجال ، فإن الجمهورية العربية المتحدة لا بد لها أن تحرص على أن لاتصبح طرفا في المنازعات الحزبية المحلية في أى بلد عربى ، أن ذلك أمر يضع دعوة الوحدة ومبادئها فى أقل من مكانها الصحيح .

« وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تشعر أن واجبها المتأكد يحتم عليها مساندة كل حركة شعبية وطنية ، فإن هذه المساندة يجب أن تظل فى إطار المبادئ السياسية ، تاركة مناورات الصراع ذاته للعناصر المحلية تجمع له الطاقات الوطنية وتدفعه إلى أهدافه وفق التطور المحلى وإمكاناته .

« كذلك فإن الجمهورية العربية المتحدة مطالبة بأن تفتح مجال التعاون بين جميع الحركات الوطنية التقدمية فى العالم العربى . أنها مطالبة بأن تتفاعل معها فكريا من أجل التجربة المشتركة . لكنها فى نفس الوقت لاتستطيع أن تفرض عليها صيغة محددة لصنع التقدم .

ثورة رائدة :

كانت ثورة ٢٣ يوليو هى نقطة الانطلاق نحو تحقيق الوحدة العربية . فقد خاضت هذه الثورة معركة الذئال العربى على هدى وبصيرة ، وتصدرت للدعوة القومية العربية ، ورفعت شعار وحدتها ، ونادت بأن لا أمل فى تحقيق القومية العربية إلا إذا توحدت الدول العربية التى شاء الاستعمار أن يصطنع لها حدوداً واهية وأن يفرق ما أراد الله أن يوحد مستهدفاً من وراء ذلك اضفاف الروح القومية وأن يظل الوطن العربى عاجزاً عن أن ينهض بمسئوليته أو يحقق مطالبه أو يسير فى طريق التقدم .

وبما لاشك فيه أن ثورة ٢٣ يوليو كان لها أثر كبير فى جميع الشعوب فى البلدان العربية — خاصة الدول التى لم تزل حريتها بعد — وكما يسرى التيار الكهربى فى المادة الطيبة سرى مفعول ثورة ٢٣ يوليو بين الشعوب العربية . فتطلعت إلى الاستقلال وسعت إلى الحرية وفقام شعب الجزائر بالثورة فى ديسمبر سنة ١٩٥٤

وانتهصر على الاستعمار الفرنسي الذي استمر مائه وثلاثين عاما وقام العراق بثورته الأولى في نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، ثم أعقبها بثورة ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ — ثم تحرك السودان الشقيق في ١٧/١١/١٩٥٨ — وسعت سوريا إلى طلب الوحدة مع مصر فتمت في ٢١/٢/١٩٥٨ .

حدث كل ذلك في أعقاب ثورة ٢٣ يوليو العظيمة — ولم تقف الجمهورية العربية المتحدة من هذه الثورات موقفا سلبيا جامدا ، بل عاونتهما جميعا وألقت بكل طاقاتها في معارك التحرير العربية في كل مكان سعيا وراء تحرير المواطن العربي من ربة العبودية — ولم ندخر وسعا في سبيل تحقيق هذه الغاية النبيلة — بل ساهمت مساهمة فعالة في جميع هذه المعارك بالمال والعتاد والجيش في بعض الأحيان إيمانا منها بأن الإنسان العربي أيا كان موطنه — ماهر إلا مواطن في الوطن الواحد — في ارتقائه إرتقاء للكل وفي رخائه وسعادته رخاء وسعادة للمجموع .

فإذا كان يحدث لو أن الجمهورية العربية أغلقت على نفسها أبوابها وبدأت تنظم شئونها وهي كانت في أمس الحاجة إلى ذلك التنظيم بعد الثورة — دون أن تعير أدنى اهتمام لما يجري وراء حدودها وبالذات في داخل حدود الدول العربية ؟

ما هو مصير تلك الدول لو أن الجمهورية العربية المتحدة أصمت أذنيهما عن نداءات التحرر التي كانت تنبعث من هذه الدول عقب ثورة ٢٣ يوليو ؟ مما لا مرأ فيه أن التاريخ كان سيظالمنا بوجه آخر مخالف لما نراه الآن تمام الاختلاف — وجه كره لا مرضاه .

ولكن الجمهورية لم تغلق أبوابها في وجه هذه البلدان التي رزئت بالاستعمار — وتقدمت تساعدها بيد بينما كانت تنفض باليد الأخرى غبار السنين المتراكم على البلاد ، ولم ينكر أحد كائنا من كان مجهود الجمهورية في هذا المجال — وقد فوه زعماء الجزائر في الخطاب الذي ألقوه في ٥ مايو سنة ١٩٦٣ عندما زار الرئيس جمال عبد الناصر الجزائر فقالوا :

(وقف معنا عبد الناصر في الوقت الذي لم نجد فيه من يوازرنا في الشرق أو الغرب) وقالوا عند بدء الثورة الجزائرية في أواخر سنة ١٩٥٤ (جاءت أول باخرة مصرية محملة بالأسلحة الى ليبيا الشقيقة واتفق جمال عبد الناصر مع المسؤولين في ليبيا أن يسلموها لنا ثم جاءت بعد ذلك سفينة ثانية وثالثة ورابعة) .

ولم تكف الجمهورية بمساعدتها المادية ، بل انها تبنت قضية الجزائر أمام المحافل الدولية كقوتمر باندونج وغيره مما كان له أكبر الأثر في نجاح ثورة الجزائر — بما أوغر صدر فرنسا ، فاشتركت في العدوان على مصر في سنة ١٩٥٦ (١) .

ومما كان الأمر فقد نجحت ثورة الجزائر وانهزمت فرنسا في مصر وفي الجزائر معا .

وكما تحررت الجزائر من طغيان فرنسا تحرر العراق من سيطرة انجلترا فقامت فيه الثورة في نوفمبر سنة ١٩٥٢ في أعقاب ثورة ١٣ يوليو ثم جاءت ثورة ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ التي أطاح فيها شعب العراق بحكم نوري السعيد المظلم — وقد درجت هذه الثورة على هدى ثورة ٢٣ يوليو — ويؤكد ذلك الأستاذ فؤاد الركابي في كتابه « على طريق الثورة » فيقول : ومن الملاحظة التي قامت فيها الجمهورية العربية المتحدة وكتيجة مباشرة لقيامها تطور هدف التحرر وهدف الوحدة الى مستوى جديد نوعي بحيث أصبح نضال الجماهير في العراق هدفا طرد الاستثمار والقضاء على عملائه وأصبح هدف الوحدة يعني فعلا الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة التي أصبحت نواة للوحدة العربية الشاملة وبسبب هذا التطور الاستراتيجي اتجه هدف الوحدة والتحرر — وأثر هذا التطور في عقلية ونفسية الجماهير أمكن قيام ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ . .

ثم سعى العراق بعد انقلاب ١٢ فبراير سنة ١٩٦٣ الى الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة وتم لها ذلك — كخطوة في سبيل الوحدة الشاملة .

(١) قررت الجمعية الوطنية الفرنسية في يوم ١٩/١٢/١٩٥٦ بأن سبب عدوان فرنسا على مصر سنة ١٩٥٦ هو رغبتها في القضاء على ثورة الجزائر — ان هي اكدت « لى مصر » .

وإذا كان ذلك تأثير ثورة ٢٣ يوليو في ثورتى الجزائر والعراق فإن مصر كانت لها اليد الطولى في استقلال السودان وفي الانقلاب الذى حدث بعد ذلك .

ف عقب ثورة ٢٣ يوليو ، وبالتحديد فى الثانى من نوفمبر عام ١٩٥٢ ، طلب مصر من انجلترا بصفتها شريكه معها فى حكم السودان تحقيق رغبة القطر الشقيق فى تقرير مصيره — ولكن بريطانيا ما طلت وسوفت ووضعت المراقيل أمام طلب مصر العادل ، ولم يذعن الجانب المصرى لالاعيب بريطانيا ووقف بجانب الحق الذى قامت الثورة من أجل اقراره ودافع عن الحرية التى كانت أحد أهدافها .

أصبح للثورة أن تنكر على غيرها ما تطلبه لنفسها ٢٢ .

وهل يجوز لما أن تطالب بالحرية فى الوقت الذى تأباه وتمننه عن جيرانها ؟ وأخيرا وتحت ضغط مصر رضخت بريطانيا ووقع الجانبان فى ١٢/٢/١٩٥٣ اتفاقية سمح فيها للسودانيين بالحكم الذاتى وحق تقرير مصيرهم — وبعد فترة الانتقال التى قررتها الاتفاقية تسلم السودانين مقاليد الحكم لأول مرة وبأشروا فى أول يناير سنة ١٩٥٦ حكم البلاد — وهكذا استقل السودان بفضل مساعى مصر المتواصلة — وقد حاول الانجليز بعد ذلك التدخل فى شئون السودان مخفين خلف بعض الوزراء من عملائهم ولكن السودانيين قاموا يدافعون عن استقلالهم بالقوة — فقامت ثورة الجيش فى ١٧/١١/١٩٥٨ واستولى على الحكم وطهر البلاد من عملاء الانجليز — وأخذ يصلح ما افسده الانجليز طرال حكمهم البغيض .

قد جاء انقلاب السودان صورة مصغرة من ثورة ٢٣ يوليو — مقتنيا أثرها سائرا على نمطها متأثرا بها .

وكما سعى العراق فى طلب الوحدة مع مصر سمعت سوريا قبل ذلك واجتمع لتحقيق ذلك الرئيس شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر وأعلنوا فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٨ بأن « اتفاقهم التام وايمانهم الكامل وثقتهم العميقة بوجوب توحيد سوريا ومصر فى دولة واحدة تسمى الجمهورية العربية المتحدة » ، بتاريخ ٢١/٢/١٩٥٨ أسفر الاستفتاء فى مصر وسوريا على اقرار الوحدة الشاملة .

وانتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا)
وظفرت سوريا في ظل الوحدة وفي مدى قصير طفرة لم تبلغها طوال مئات السنين
التي سبقت الوحدة - فعملت مصر على تحرير المواطن السوري سياسيا واقتصاديا -
ويسرت له حياة رغدة كريمة - بعد أن دعمت الاقتصاد السوري وضاعفت الدخل
القومي - واستولت لصالح الشعب على جميع شركات الاحتكار ثم صدر قانون
الاصلاح الزراعي ووزعت الدولة على الفلاحين ما يزيد على ٥٦١١٢٣ هكتارا
كانت في يد قلة من الرأسماليين المستغلين وقررت الجمهورية كذلك أن يكون للمالك
ربع أرباح الشركات السورية ، وبذلك أصبح العامل شريكا في المصنع الذي يعمل
به بعد أن كان عبدا فيه تطبيقا لمبدأ الاشتراكية السمع . ولكن الاستثمار كان
يتربص بالجمهورية الفتية فدير انقلابا في ١٩٦١/٩/٢٨ ضد الوحدة وضد رغبة
الشعب السوري لصالح طائفة الرأسماليين والرجعيين ، ولما كانت مصر لاتبغى من
وراء الوحدة غير رفاهية المواطن السوري وخشية اهدار الدم العربي أثرت مصر
أن يترك أمر الوحدة للشعب السوري ليقول فيها كلمته بعد أن ترفع عن كاهله القيود
وتتكسر من حول يديه الأغلال .

ثم قامت بعد ذلك ثورة الجيش في اليمن ضد حكمه المستبدين الذين عاثوا في
الأرض فسادا أجيالا طويلة - ذات الشعب خلالها الوانا من العنف وضروبا من
الظلم قلا سمعنا بمثلها في أحلك العصور وأشنعها ضراوة وظلمه فكان الملك - أو
الامام كما كانوا يلقبونه - يمارس عمليات القتل في الناس جملة وانطاغى - دون
محكمة في أى وقت يشاء ولأى سبب يراه - ولم يكن للشعب من عمل غير جمع
الأموال وتسليمها له لكي يكدمها في سبائك من ذهب طبقات بعضها فوق بعض
في أفية قصره ولم يكن غريبا والحالة كذلك أن تنتشر الأمراض ويتفشى الجهل
بين الناس وينشب الفقر محال به فيهم - فساءت الحالة وتفاقت حتى لم يعد بد من التغيير
فقامت الثورة في ١٩٦٢/٩/٢٦ وحمل لواءها الجيش برياسة الزعيم عبد الله السلال -
وتخلص من آخر أسرة حميد الدين وعلى وهو سيف الاسلام البدر - أو الامام

محمد - الذي هرب هو وأعواله إلى الجبال . وعلى أثر ذلك أعلن السلالة مولد
الجمهورية العربية اليمنية متأباً فى ذلك خطى ثورة ٢٣ يوليو .

وقد أرسل الزعيم اليمنى إلى الرئيس جمال عبد مناصر عقب الثورة مباشرة
يقول له : : لقد كاتنا ممثلو الشعب الحقيقىون بتنفيذ رغبتة فى تغيير أوضاع حكم
الرجعية البالية والاطاحة بالطغيان الذى طالما تمنى شعبنا العربى النيل زواله ، وقد كان
الزعيم اليمنى شديد التأثر بثورة ٢٣ يوليو ينظر اليها باعجاب وا كبار . لذلك سعى بعد
أخذ رضا الشعب اليمنى للاتفاق مع مصر - وتنفيذا لذلك تم توقيع اتفاقية للدفاع
المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية اليمنية فى ١١/١١/١٩٦٢
للرد على مؤامرات الاستعمار التى كانت تتحين الفرص بعد أن حشدت حشودها
لإعادة أسرة حميد الدين - وقد نمت الاتفاقية على أنه : تعتبر الدولتان كل اعتداء
مسلح على أية دولة منها أو قواتها اعتداء عليها ، وعلى الفور أرسلت الجمهورية
العربية المتحدة بعض قواتها إلى اليمن لموازة ثورته ولرد مؤامرات الانجليز فى
الجنوب وتأييد قنول البدر الهاربة على الحدود فى الشمال وبذلك ساهمت الجمهورية
فى انجاح ثورة اليمن والحفاظ عليها وعملت على تحرير المواطن اليمنى من ربقة
الظلم التى تردى فيها سنين طويلة .

وإذا كانت اليمن هى أحدث دولة عربية تحررت متأثرة فى ذلك بثورة ٢٣
يوليو ، فإن هناك دولاً أخرى على الطريق تنتظر دورها لى تحرر وتطلع
شعوبها إلى يوم الخلاص . ويشق الأحرار من أبناءها طريقهم الوعر فى عزم واصرار
نحو النور والحرية - وما كفاح العرب فى عدن وفى المحميات والامارات الشرقية
والغربية وغيرها الا أثراً من آثار ثورة ٢٣ يوليو سرى فى جسم الأمة العربية
شرقاً وغرباً ..

جامعة الدول العربية :

وإذا كنا قد تهمدنا عن الوحدة العربية ردور الحركات الشعبية الوطنية التقدمية

في تحقيقها ، لما هو دور جامعة الدول العربية ؟ لقد ساهمت مصر مساهمة كبيرة في قيام هذه الجامعة سنة ١٩٤٥ ، وما تزال تدعم قيامها وتوطد أسسها لتحقيق الأهداف التي قامت من أجلها ، وتحمل الجمهورية العربية المتحدة الآن على أحباط كل محاولة رجعية لهدمها .

تحدث الميثاق عن دور جامعة الدول العربية في تحقيق الوحدة العربية فقال :
« ان قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية في العالم العربي أمر سوف يعرض نفسه على المراحل القادمة من النضال ، إن ذلك لا يؤثر — ولا ينبغي له أن يؤثر — على قيام جامعة الدول العربية ، وإذا كانت الجامعة العربية غير قادرة على أن تحمل الشروط العربي فآيته العظيمة البعيدة ، فانها تقدر على السير به خطوات .

« أن الشعوب تريد أملاً كاملاً ، والجامعة العربية ، بحكم كونها جامعة للحكومات ، لا تقدر أن تصل إلى أبعد من الممكن . أن الممكن خطوة في طريق المطالب الشامل . ان تحقيق الجزء مساهمة في تقريب يوم الكل لهذا فان الجامعة العربية تستحق كل التأييد ، على أن لا يكون هناك تحت أي ظرف من الظروف تعميلها أكثر من طاقتها العملية التي تحددها ظروف قيامها وطبيعته .

« أن الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربي في المرحلة الحاضرة ، لكنها في نفس الوقت تحت أي ستار وفي مواجهة أي ادعاء لا يجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به . »

أصبحت ثورة ٢٣ يوليو رائدة ، وأصبح جمال عبد الناصر رائد العروبة الأول . وأصبحت سياسة الوحدة العربية ترتبط باسمه وأصبحت الدعوة إلى السلام في الوطن العربي تعود إلى جهوده ، وأصبحت السياسة المستقلة بين المعسكرات ترتبط بأفكاره . وباختصار ، أصبحت معالم الطريق العربي الجديد ترتبط بجهود رائد العروبة جمال عبد الناصر .

٤ — تحقيق الوحدة الافريقية والسلام العالمى

سياسة الحياد الايجابى :

من خلال تصارع القوى العالمية فى الشرق والغرب ، برزت سياسة الحياد الايجابى التى اصبحت الجمهورية العربية المتحدة فى مقدمة روادها . وقد اصبحت هذه السياسة حتمية لاقامة الدعائم الجديدة لحياة البشرية فى المستقبل . وقد اصبحت هذه السياسة أيضا من السياسات المميزة لقارتى افريقيا وآسيا ، وأصبح تجمع الملايين من أبناء القارتين حول هذه السياسة من سمات التحرر والتضال ضد الاستعمار . وسياسة الحياد الايجابى لا تتحاز الى شرق أو غرب ، ومعتنقوها ليسوا الادعاء السلام والمحبة والتعاون بين الشعوب . وقد اصبحت هذه السياسة الايجابية المتفاعلة مع الأحداث الممثلة للكفاح الشعبى من العوامل الفعالة فى اقرار السلام وتأكيد المحبة بين شعوب العالم .

والرئيس جمال عبد الناصر هو الزعيم العربى الذى أرسى دعائم سياسة عدم الانحياز ، وجعلها فلسفة راسخة للشعب العربى كله وإذا كان الرئيس عبد الناصر هو رائد القومية العربية وبطلها . فان هذه القومية ما كان لها أن تصبح حقيقة واقعة الا فى ظل سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز . ذلك أن القومية العربية لا يمكن أن تلدور فى فلك سياسة من السياسات ولا يمكن أن تكون تابعة لمعسكر من المعسكرات ، بل أن حياتها مرهونة بالسياسة المستقلة .

أعلن الرئيس جمال عبد الناصر سياسة عدم الانحياز فى وضوح وبصوت دوى فى مؤتمر باندونج يوم ١٩ ابريل ١٩٥٥ فقال : « ان فرض الدول الكبيرة سياسة معينة لتحقيق مصالحها الخاصة له أثره الضار على الدول الصغيرة ، فهو يفرق فيما بينها ، كما يضعف الروابط والتعاون الذى قد يكون قائما بينها . وبذا تقسح تحت السيطرة الأجنبية . فان على الدول الصغيرة أن تقوم بدورها الانشائى فى سبيل تحسين العلاقات الدولية ، وتخفيف حدة التوتر الدولى .

« وثمة شيء آخر ، ذلك هو موضوع تصفية الاستعمار الذي طالما كان سببا في الاحتكاك بين الدول وما يستتبعه من قلق ، فانه منذ أن اتسعت رقعة الاستعمار ، اتسعت معه مشكلة نظام الحكم الاستعماري الأجنبي الذي كان دائما مثار الحروب » .

« ولقد شاهدنا منذ سنين ، ومازلنا نشاهد ارتفاع موجة القومية ، لا في بلادنا والمناطق المجاورة لها فحسب ، بل في عدة أقطار أسيوية وأفريقية ، ولقد علمتنا تجارب الحياة أن القومية إذا أحبطت تربت عليها عواقب وخيمة ونشأت عنها مشا كل عويصة ، وأن الدول إذا تآزلاتها في حكمة وهودة وواقعية ، أثمرت ثمرا طيبا من الصداقة والتفاهم والمحبة » .

وضع الرئيس عبد الناصر للمؤتمر مبدأين هامين هما : (١) يجب على كل دولة أن تحترم الاستقلال السياسي لاية دولة أخرى ، وأن برعى العدالة الاليمية فيها ، وألا تتدخل في شئونها . (٢) لكل دولة الحق في أن تختار ما تراه صالحا لها من النظم السياسية والاقتصادية .

وعند عودة السيد الرئيس من باندونج أعلن الشعب سياسة المستقبل ، سياسة الاستقلال والحرية والتحرر ، فقال : « ان بلادنا اليوم لها كيان مستقل وشخصية مستقلة ، وأنها حينما تتصرف من وحي هذا الاستقلال إنما تتصرف في الداخل وهي كاملة الاستقلال ، وفي الخارج وهي تشعر أنها كاملة الاستقلال » .

وفي ١٠ مارس سنة ١٩٥٧ تحدث السيد الرئيس إلى الصحفي الهندي (كرانجيا) ، ورسم سياسة الجمهورية العربية المتحدة فقال له : « انا نعمل دائما بما توصى به القومية العربية ، واستقلال العرب ، وتمسكهم بالحياد الايجابي ، ومناهضة اسرائيل والصهيونية » .

ووضع السيد الرئيس سياستا في الحياد الايجابي في حديث له مع وفد الصحفيين الامريكيين في ٢٧ يناير ١٩٥٨ فقال سيادته : « انا نعتبر ان فكرة عدم الانحياز وعدم الاشتراك في حلف دفاعي مع دولة كبرى مقاومة لسيطرة

الدول الكبرى ، ولا تقوم فلسفة السيد الرئيس على أساس معارضة الأحلاف العسكرية التي تضم بعض الدول العربية فحسب ، ولكن هذه الفلسفة تقوم على معارضة الأحلاف العسكرية من أى نوع كان بين القوى غير المتكافئة .

ألقى السيد الرئيس خطاب في مؤتمر التعاون في ديسمبر ١٩٥٧ شرح فيه سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز فقال : « ظهر في المنطقة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز . كلام سيؤمن به كل مواطن . كل مواطن في المنطقة العربية كان ينادى بعدم الانحياز ، الحياد الإيجابي ، الدفاع عن المنطقة يجب أن ينبعث من المنطقة نفسها بدون الاشتراك مع أية دولة كبرى . لأن الاشتراك مع أية دولة كبرى معناه وضعنا ضمن مناطق النفوذ . القضاء على الاستعمار مبادئ جديدة ظهرت . القضاء على أعوان الاستعمار . القضاء على الاقطاع . القضاء على الاحتكار . القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم . إقامة جيش وطني قوي . إقامة عدالة اجتماعية إقامة حياة ديمقراطية سليمة القومية العربية بدأت تعتق هذه المبادئ . العرب في كل مكان بدأوا يشعرون أن هذه المبادئ ، وهذه الأهداف تعبر عما يختلج في نفوسهم تعبر عن الكلام الذي يريد كل واحد منهم أن يقوله ، تعبر عن الشعارات الحقيقية التي تمثل القومية العربية والعرة العربية والحرية العربية .

جمهوريتنا والسلام العالمى

السلام العالمى أمنية غالية تبدو التفائلين عزيزة المثال، إلا أنها ممكنة التحقيق. لذلك نخدم لا يألون جهدا ، ولا يدخرون وسعا فى السعى وراء تحقيقها والعمل على توطيد السلام . وأى وقت أنسب للعمل على تحقيق السلام العالمى من وقتنا هذا ، الذى لا تقتصر فيه مضار الحرب على المتحاربين بل تمتداهما إلى المدنيين الآمنين، ويتأثر بتتاخمها العالم كله كما أصبح بين الدول من مصالح مشتركة وارتباطات دولية تضطر الصغير منها والكبير إلى خوض غمار الحرب ، فيخرج الجميع منها منهوكى القوى خاسرين ، إلا فئات محدودة تذكى نار الحرب لا تكتوى بأوارها ، لأنها تستغلها فى تنفيذ مآربها وغاياتها .

أن السلام كلمة عامة كثر استخدامها حتى أنها كادت أن تفقد مدلولها والدول الآن تعنى بالسلام (انعدام الحرب) ، ولكن من المؤكد أن هذا ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن تعطيه للسلام ، ولكنه أفضل تعريف يخدم الأهداف العالمية، لأن الدول عندما تحلم بالسلام لا تفكر فى وسائل زيادة التفاهم الدولى ، أو فى توطيد مشاعر الأخوة بين البشر ، فإن كل ما تريده تجنب قيام حرب عالمية أخرى .

والجمهورية العربية المتحدة تعمل دائما على إزالة التوتر فى العالم ، فقد أصبحت البشرية فى أمس الحاجة إلى السلام وانتهاء الحرب الباردة . وقد أوضح السيد الرئيس جمال عبد الناصر هذه السياسة فى قوة ووضوح فقال سيادته : «أما فى سياستنا العالمية ، فنحن نعمل من أجل إزالة التوتر بعد أن أصبحت البشرية الآن فى مرحلة يتعين عليها أن تنهى الحرب الباردة وأن تضع أسس السلام ، نحن نريد تقرير المصير . نحن نريد مساعدة الدول التى تكافح فى سبيل استقلالها ، نحن نعمل من أجل تصفية مناطق النفوذ ، على أن يكون الاستقلال استقلالا حقيقيا ، ولا تكون الدول الصغرى العوبة فى يد الدول الكبرى ، نحن نعمل ونكافح من أجل تحرير التجارب النورية ، ومن أجل تحرير استخدام الأسلحة النورية .

« نحن نعمل من أجل السلام ونزع السلاح حتى تتجه جهود العالم من أجل التنمية . العالم الذى يتكون من ٢ مليار ، منهم مليار يقاسى الجوع . نصف العالم يقاسى من الجوع . لا يقدر على أن يأكل فى اليوم أكلة كاملة . نصف العالم يسعى للتنمية ويكافح فى سبيل التنمية . ثم يصرف على السلاح أكثر من ١٠٠ مليار دولار .

« أمريكا وحدها تصرف على السلاح ٤٤ مليار على إنتاج الأسلحة ، يعنى ٤٤ ألف مليون دولار . قطعا روسيا تنتج مثل هذا الشيء إلى جانب الدول الأخرى ، سيكون المجموع على الأقل ١٠٠ ألف مليون أى مائة مليار دولار لوقفنا المائة مليار التى نصرفها على السلاح البوت والملاك على سكان العالم رتدادهم ٢ مليار ، ينال كل واحد فى العالم ٥٠ دولارا . يعنى الدولة التى تتكون من مليون تأخذ فى السنة ٥٠ مليون دولار . والدولة التى تتكون من ١٠ مليون يصيبها ٥٠٠ مليون دولار . والدولة التى تتكون من ٢٠ مليونا يصيبها كل سنة ١٠٠٠ مليون دولار ، يمكن انفاقها فى التنمية ، وفى خلق صناعة وأكل ، وننقذ نصف البشر الذين يقاسون الآن من الجوع .»

« ونحن نهدف إلى العمل على نزع السلاح ، وتحديد التسليح فى سياستنا ، ولهذا نسير فى طريقنا وبهذا نصمم أيضا على هذه السياسة ، سياسة الحياد وعدم الانحياز ، والعمل من أجل السلام ومنع الحرب ونزع السلاح ، من أجل صالح البشرية كلها .»

أصبح السلام فى القرن العشرين هدفا قوميا هاما أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحربين العالميتين عاملا على ظهور رأى ينادى بأن قيام حرب عالمية ثالثة كفيل بالقضاء على البشرية . ان اختراع الأسلحة الحديثة الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة ، جعل قيام حرب عالمية أمرا خطيرا لا يجرؤ على الخوض فيه الا رجل مجنون ، إذ أن طبيعة الحرب قد تغيرت تغيرا كبيرا ، وازدادت بذلك أهمية السلام بوضعه هدفا قوميا

أن الهدف الذى يستهدفه المجتمع البشرى العالمى الآن يتلخص فى تدعيم السلام العالمى الدائم ، وتحقيق الرخاء الشامل ، أى رفع مستوى المجتمع المادى والروحى إلى أعلى الدرجات التى يمكن أن تصل إليها الانسانية كافة وهذا الهدف على بساطته ينطوى على معان كثيرة ، ويتطلب أعمالا جبارة وحركات نشيطة فى ميادين الحياة. إذ أن السلام لا يتحقق ولن يدوم الا بشر وانماء المحبة، ولا يمكن أن يكون شاملا إلا بتوجيه أفراد المجتمع جميعا إلى أعمال منتجة مفيدة لأنفسهم والآخرين، وذلك لكي تكثر وتتضاعف الخدمات والانتاج لسد حاجات الجميع . ورفع مستوى المجتمعات المادى والروحى وانعاش الحضارة والمدنية وتعميم الثقافة والتعليم بين سائر الطبقات وجميع أفراد المجتمع ، ليحيا الجميع فى أمن وسلام وليجنوا ثمار هذه الحضارة العظيمة ، وهذه المدنية الشاملة .

وقد وضع السيد الرئيس جمال عبد الناصر مبادئ الجمهورية العربية المتحدة نحو تحقيق السلام العالمى فقال أن وسائل تحقيق السلام فى يد جميع الشعوب ، لأن هذا السلام يقرر مصير هذه الشعوب ، وهذه الشعوب أيضا هى التى تصنع الحضارة وتدفع العالم إلى التطور والتقدم . فقال السيد الرئيس : « وانى لأقول أمامكم هنا باسم الجمهورية العربية المتحدة ، وتعبيرا عن فكرها وضميرها ، أننا نؤمن أن مشكلة السلام والحرب ملك جميع الشعوب باعتبارها قدر شعوب الأرض جميعا ومصيرها .

« أن الدول الكبرى لا تملك وحدها كلمة السلام أو الحوب ، وإنما الجنس البشرى كله ، مستمدا الحق من تضحيات شعوبه على اختلافها من أجل صنع الحضارة ودفع التطور . ومن تطلع شعوبه كله إلى الأمن . هكذا فإننا فيما يتطرق بالسلام ننحاز إلى جانب السلام وضد الحرب . وإذا كان لنا من تحفظ واحد على هذا الموقف القاطع الذى لا حياد فيه ، فهو أن السلام الذى نريده هو السلام القائم على العدل دون تفرقة ودون تمييز . بهذا الايمان فى أعماق ضمائرنا . وبهذا الهدف أمام عيوننا . جئنا إلى هذه الدورة مؤمنين انه فى مجالها ، فى مجال الأمم المتحدة، يكون

العمل الفعال من أجل السلام ومع أننا نؤمن بكل جهد يندل من أجل السلام معها كان مجاله . فأننا نؤمن في نفس الوقت أن احتمالات النجاح أقوى في نطاق الأمم المتحدة منها في أي مجال آخر خارجها .

أن الرسالة الانسانية للعالم العربي تنمو مع نضال وكفاح الأمة العربية ، وتبلور من خلال تماريها ، وهي في جوهرها تعبير عن حيوية هذه الأمة ، التي تستهدف ارساء جميع العلاقات الدولية على أسس الحق والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة . وهذه هي رسالة العالم العربي في بعثه الجديد ، فالعرب يضعون أيديهم في يد المؤمنين بالحرية مثلها حتى يسير الجميع على قدم المساواة في الموكب البشري الكبير .

تحقيق الوحدة الافريقية :

تحدث الميثاق عن ايمان العرب بضرورة قيام جامعة افريقية ، وتضامن أسوي أفريقي ، من أجل تحقيق السلام العالمي ، والجمهورية العربية المتحدة جزء من الوطن العربي الكبير ، وجزء من قارة أفريقية ، وجزء من العالم الاسلامي . ولاستطيع أن تعيش بعيدة عن هذه الشعوب ، فهم جميعا أعضاء في الأسرة البشرية الكبرى .

فقال الميثاق : « وإذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية فهو يؤمن بجامعة افريقية ، ويؤمن بتضامن أسوي أفريقي ، يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحي وثيق يشده إلى العالم الاسلامي ، ويؤمن باتنائه إلى الأمم المتحدة ، وبولائه لميثاقها الذي استخلصته آلام الشعوب في محنة حربين عالميتين تخللتها فترة من الهدنة المسلحة .

أن الايمان بهذا كله لا يتعارض مع بعضه ولا يتصادم ، وإنما هي حلقات سلسلة واحدة .

إن شعبنا شعب عربي ومصريه يرتبط بوحدة الأمة العربية . أن شعبنا يعيش

على الباب الشمالى الشرقى لأفريقيا المناضلة . وهو لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن
تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

• ان شعبنا ينتمى إلى القارتين اللتين تدور فيها الآن أعظم معارك التحرير
الوطنى ، وهو أبرز سمات القرن العشرين . أن شعبنا يعتقد فى السلام كبداً .
ويعتقد فيه كضرورة حيوية ، ومن ثم لا يتوانى عن العمل من أجله مع جميع الذين
يشاركونه نفس الاعتقاد . أن شعبنا يعتقد فى رسالة الأديان وهو يعيش فى المنطقة
التي هبطت عليها رسالات السماء . ان شعبنا يعيش ويناضل من أجل المبادئ
الانسانية السامية التي كوتها الشعوب بدمائها فى ميثاق الأمم المتحدة . ان فقرات
كثيرة فى هذا الميثاق قد كتبت بدماء شعبنا ودماء غيره من الشعوب .

وضع الصحفي العالمى (جون جنتز) كتاباً بعنوان (فى داخل افريقية) ،
فكتب فيه تحت عنوان (مملك مصر نحو افريقية) فقال : لهذا المملك ناحيتان :
الأولى أن مصر قوة عظيمة تكن وراء انتشار الاسلام فى العالم ، وهى بطبيعة
الحال ترجو أن ترى أكبر شطر ممكن من افريقية السوداء يتحول إلى الاسلام
أما الناحية الثانية . فهى أن مصر تعتبر نفسها أما أو أبا للحركات الوطنية فى أى
مكان من افريقية وقد كتب جمال عبد الناصر فى كتابه (فلسفة الثورة) يقول :
ليس بوسعنا أن نقف جامدين مما تكن الظروف ، إزاء الصراع الدموى الرهيب
الذى يدور فى افريقية اليوم بين خمسة ملايين من البيض و ٢٠٠ مليون من الافريقين
ولسوف تظل شعوب افريقية تنطلع إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ،
ونمثل همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجى) .

ووصف هذا الصحفي العالمى مصر باعتبارها فى مقدمة دول افريقية المتحضرة
فقال : ومصر ليست ذات ماضى مجيد فحسب ، بل أن لها حاضراً ، فهى بلاد
مشبوبة بالحياة ، والتفوق تؤمن بالواقعية المعاصرة ، ففيها شبكة حديثة للسكك
الحديدية ، والطرق الجيدة ، ولها تجارة مزدهرة . مطردة الاتساع ، وقد بلغ

دخلها القوى مستوى عاليا بالنسبة لأفريقية ، كما أن لها صحافة وإذاعة صوتها مسموع والقاهرة أكبر المدن جميعا في أفريقية . ولعلها أرقاها وأغناها ، وقد ارتفع عدد سكانها من نحو مليون نسمة ، منذ عشرين سنة إلى أكثر من مليون ونصف مليون في الوقت الحالى . والقاهرة أكبر مدينة في العالم الإسلامى ، تبلغ مساحتها ضعف مساحة باريس . وليس في قارة أفريقيا سوى مدينتين يربو عدد سكان كل منهما على مليون نسمة ، وهما مصرتان : القاهرة والاسكندرية التى أنشأها الاسكندر الأكبر سنة ٣٣١ ق م . وفي القاهرة أكبر معهد إسلامى في العالم هو الجامعة الأزهرية) .

أصبحت الجمهورية العربية المتحدة رائدة الاستقلال والحرية في العالم كله ، وخاصة في قارة أفريقية . فقد وقفت إلى جانب جميع الدول الأفريقية في كفاحها الشعبى من أجل التحرر والحرية . وضربت الجمهورية العربية المتحدة أمثلة كثيرة لمنصرة الحق والعدل والتحرير ، وموقفها المعروف المشهور من قضية الكونغو لا يزال حديث الألسن في كل مكان في العالم . وهى تدافع عن جميع القضايا الأفريقية في الهيئات العالمية ، وخاصة في مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة ، وتحارب الاستعمار والاستغلال والاحتكار في أفريقية ، وتناهض سياسة التفرقة العنصرية التى تتبعها حكومتى روديسيا وجنوب أفريقية . وقد شهد السيد الرئيس جمال عبد الناصر جميع المؤتمرات الأفريقية ، وسام في قيام منظمة الوحدة الأفريقية مساهمة فعالة . وقد أدت جهود الجمهورية العربية المتحدة إلى تدعيم التعاون بين الدول الأفريقية ، وحل المشاكل التى قد تؤثر في هذا التعاون ، مثلا الخلاف بين الصومال وكل من ألبانيا وكينيا ، ومشكلات اللاجئين الأفريقيين ، ومثل الخلاف على الحدود بين الجزائر والمغرب ، وبين السودان وتشاد .

ويحاول الاستعمار القضاء على جهود منظمة الوحدة الأفريقية ، وقد حاول فعلا تعطيل أعمالها في الدورة الأخيرة في أكتوبر ١٩٦٦ ، وبدأ هذا واضحا في خطف وفد غينيا ، كما حاول المستعمرون التخلص من لجنة تحرير أفريقية .

المتفرعة عن المنظمة ، فأوعزت إل بعض الدول العملية بطلب تصفية هذه اللجنة .
وتعاونت الدول المتحررة في المنظمة الافريقية على القضاء على مناورات الدول
الاستعمارية وعقد رؤساء الوفود في اللجان السياسية في يوم الخميس الثالث من
نوفمبر ١٩٦٦ اجتماعا منطلقا لبحث مناورات الاستعماريين وحدث مناقشات حامية ،
وكان أول المتحدثين رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة الذي قال :

« اننا لسنا على استعداد لتناقش مبدأ هل تبقى أو لا تبقى لجنة التحرير ، لقد
تمهد رؤساء الدول الافريقية بالعمل على تحرير افريقية تحريرا تاما . والمسألة هي
هل نحن نؤيد حركات التحرر أولا نؤيدها ؟ اننا لانستطيع أن نتحمل أن نرى
نصف افريقية قد تحرر ، بينما لا يزال نصفها الآخر يرزح تحت وطأة الاستعمار .»

وهكذا أعلنت الجمهورية العربية المتحدة رأيها الحر ، وتبعه مندوب فانزانيا
الذي قال : « ان تصفية هذه اللجنة معناه أن منظمة الوحدة الافريقية تصبح عاطلة
بلا هدف ، وقد تنهار . وأيدت معظم الدول رأي الجمهورية العربية المتحدة ،
وانتهى الأمر باخفاق محاولات الاستعمار وأذئابهم ، وانتصار الجمهورية العربية
المتحدة والدول الافريقية التقدمية المتحررة .

٥ - دفعة الاسلام والعالم الاسلامي

القيم الروحية في الميثاق :

في الميثاق جوانب روحية كبيرة تبرز اهتمامه بالقيم الروحية ، حتى أصبح الميثاق يمثل روح الحضارة الاسلامية . وتضمنت عبارة اعلان الميثاق اشادة بالايمان باقه وشريعته ، وأكدت معاني القيم الدينية والخلقية والروحية ، وأشارت الى التراث الاسلامي والحضارة الاسلامية التي تتبر الطريق أمام العالم الاسلامي ليحقق أجداد عظيمة .

جاء في اعلان الميثاق : و ايماننا بالله ، وبما أنزل من شريعة الحق والخير والسلام ، وتقديسنا لحق الانسان في العزة والكرامة ، وفي الكفاية والعدل . واستمسكا بحق أمتنا في الحياة والتحرير والانطلاق . وثبتنا لخطانا على طريق ثورتنا الانسانية والاجتماعية والسياسية ، وسعيا الى تحقيق التكافل وتنويب الفوارق بين الطبقات وتوكيدا لمعاني الفضيلة والايثار في ملوك الفرد وصلات الجماعة ، وتحليله لطابعنا الشعبي وحياتنا الأصلية في اطار قيمنا الروحية والدينية والخلقية . واعتازا بترائنا في الماضي وجهادنا في الحاضر ، وعملنا من أجل المستقبل وبقيننا بأمتنا جزء لا يتجزء من الشعب العربي ، وأن أمتنا العربية أمة واحدة ، وأداء لواجبنا التاريخي ورسالتنا الخالدة في بناء الاسلام القائم على العدل ، بذلك كله ، ومن أجل ذلك كله ، نقر هذا الميثاق ، ونعلنه اطارا لحياتنا ، وطريقا لثورتنا ودليلا لصلتنا من أجل المستقبل نعلن ميثاقنا ، ونعاهد الله على أن نستمسك بكل ما فيه من معاني الحق والخير والعدل في الحياة ، وأن نبذل كل ما أودعنا الله من طاقة لنضع هذه المعاني جميعا موضع التنفيذ .

نظر الميثاق الى الأديان السماوية على أنها ثورات انسانية ، تسمر بالحياة البشرية ، وترفع من كرامة الانسان ، وتحقيق له الرخاء والرفاهية . كما أبرز لميثاق حقيقة ملازمة الأديان لحقائق الحياة . والأديان لا تتعارض مع النظريات

العملية الحديثة ، وليس هناك تناقض بين الدين والعلم ، فالدين يحقق حضارة
البشرية ويدعو الى تعاون البشر من أجل السلام والرخاء والتقدم .

فقال الميثاق : « ان رسالات السماء كلها في جوهرها كانت ثورات انسانية
استهدفت شرف الانسان وسعادته ، وأن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو
الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته . ان جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع
حقائق الحياة ، وانما ينتج التصادم في بعض الظروف من محاولات الرجعية أن
تستغل الدين — ضد طبيعته وروحه — لمرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له
تتصادم مع حكمته الالهية السامية . »

ونمحدث الميثاق عن أثر الاسلام في وحدة الشعب المصري بما حقق له أسباب
الدفاع عن الحضارة والانسانية ، ف جاء في الميثاق : « وان شعب مصر العربي ، في
اطار التاريخ الاسلامي ، وعلى هدى من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد قام
بدوره الحاسم دفاعا عن الحضارة والانسانية ، وتحمل نصيبا كبيرا من المسئولية
المادية والعسكرية في صد أولى موجات الاستعمار الأوروبي في العهد العليي ، وفي
رد غزوات التتار ، كما شارك مشاركة خائدة الاثر في المسئولية الفكرية والثقافية
من أجل حفظ التراث الحضاري العربي ودخاثره الحافلة . »

الاخوة الاسلامية في الميثاق وفلسفة الثورة :

أبرز الميثاق أثر تنمية الروابط بين الشعب العربي والشعوب الاسلامية ،
الذين تجمعهم جميعا روابط الحضارة الاسلامية ، من أجل تحقيق السلام العالمي ،
فقال الميثاق : « وان شعبنا المؤمن ليشر بقوة الروابط الروحية والثقافية التي تربط
الشعب العربي بسائر الشعوب الاسلامية ويتطلع الى المزيد من التعاون معها في
مسيل الحرية والسلام العالمي . »

كما تحدث الميثاق عن الوحدة العربية فقال انها تسير جنبا الى جنب مع الاخوة
الاسلامية ، فقال : « العالم العربي هو قلب هذا العالم الاسلامي ، والعالم الاسلامي

بشعوبه المتجارية مع الأمة العربية والمتداخلة معها في أكثر أعدادها يعد درءا للعالم العربي ، وبأحكام الخطة وصدق النية ومواصلة الجهد في هذا السدد نستطيع أن نكسب الكثير لأهدافنا ومبادئنا ، فنخدم قوميتنا وعروبتنا ، وفي الوقت نفسه نؤدي مااستحق في أعناقنا نحو أخوة لنا في العالم الإسلامي نحس برباط روحى وثيق يشدنا إليهم ، وما أوثق الوشائج بين العروبة والإسلام ، والإسلام روح العروبة .

وتمر الأمة الإسلامية اليوم في فترة انتقال هامة ، فهي تتخلص من بقايا الحكم الاستعماري الذي كان يسىء إلى معالم الحضارة الإسلامية ، وهي تتطلع إلى مستقبل مشرق باسم ، أكثر حضارة ورخاء ، بما يتيح الأمة الإسلامية أن تعبر عن معنى وجودها في رسالة إيجابية إنسانية .

وهذه الرسالة لن تتحقق إلا بتمية مشاعر الأخوة الإسلامية ، وبأحكام الخطة ، وصدق النية ، ومواصلة الجهد . ولذا فالمسلمون ليسوا في حاجة إلى أحلاف أو تكتلات دولية . فيكفى أن يكون الإسلام هو محور أخوتهم والرباط الروحى الذى يربطهم ، وأن انصراف المسلمين إلى الخوض في الصراع الدولى يشتت شملهم ، ويفرق صفوفهم ، ويعثر جهودهم .

وصور كتاب (فلسفة الثورة) الحبيب على أنه (برلمان إسلامى عالمى) يحقق الأخوة الإسلامية ، وينمى الروابط الروحية ، ويبرز دورهم فى العالم . فقال السيد الرئيس فى (فلسفة الثورة) : . . . ولقد وقعت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ، ثم وجدتني أقول لنفسى : يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

• يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة . ويجب أن تترع صحافة العالم إلى

متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه قادة الدول الإسلامية ورجال الرأي فيها ، وعلماؤها في كافة أنحاء المعرفة وكتابها وملوك الصناعة فيها وتجارها وشبابها ، ليضعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يمين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

ويجتمعون خاشعين ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع لكن عاملين ، مستضعفين لله ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم حاملين بحياة أخرى ، ولكن مؤمنين أن لهم مكاناً تحت الشمس يتمين عليهم احتلاله في هذه الحياة . .

والإسلام لا يعترف بالحدود الصناعية التي وضعها المستعمرون ليفرقوا بين صفوف المسلمين ، ولا بالحدود العنصرية التي وضعها أصحاب المصالح في إيجاد تفرقة عنصرية في العالم . وقد خلق الله البشر أخوة متحابين ، متعاونين ، مما كانت أوطانهم ، ويكمل الإسلام للجميع الحرية والقوة والاخاء والمساواة والسلام العام .

جاء في كتاب فلسفة الثورة : « وحين أسرح بخيالي إلى ثمانين مليوناً من المسلمين في أندونيسيا ، وخمسين مليوناً في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون في باكستان وأكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفيتي وملايين غيرهم في أرجاء الأرض المتباعدة . حين أسرح بخيالي إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس كبير بالإمكانات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة . »

لقد امتزجت العروبة بالدين ، وأصبح الدين خير ما يدعم القومية الحققة

المصادقة ، والتاريخ يربط بين الإسلام والعروبة ، ويجعلها في وعاء واحد. فيقول السيد الرئيس في كتاب فلسفة الثورة : « وامتزجت هذه الدائرة — العربية — معنا أيضا بالدين ، فنقلت مراكز الاشعاع الديني ، في حدود عواصمها ، من مكة إلى السكوة ثم إلى القاهرة . ثم جمعها في إطار ربطته بكل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية . »

الأزهر الشريف في عهد الثورة

حوى الميثاق كثيراً من الجوانب الروحية ، وأشاد بالإيمان في كثير من صفحاته . وكان للأزهر الشريف نصيب وافر في صفحات الميثاق ، باعتباره من أكبر المراكز الإسلامية في مصر وفي العالم الإسلامي أجمع . فأبرز الميثاق دور الأزهر الشريف في بلورة الروح القومية الوطنية في العصر العثماني فقال الميثاق : « ثم كان — أي الشعب — قد تحول المسئولية الأدبية في حفظ التراث العربي الحضاري وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهر الشريف حصناً للمقاومة ضد عوامل الضعف والتمتت التي فرضتها الخلافة العثمانية استعماراً ورجعية باسم الدين ، والدين منهم براء ، ، .

ووضح الميثاق أن الأزهر هو صانع اليقظة المصرية ، وليست الحملة الفرنسية على مصر كما يذكر بعض المؤرخين ، فقد أصبحت جدران الأزهر تضم تيارات وطنية ، فأصبح الأزهر مركز إشعاع قومي ، امتدت أشعته إلى أرجاء مصر والعالم العربي ، تثير حماسهم للخلاص من الاستعمار العثماني . فقال الميثاق : « ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هي التي صنعت اليقظة المصرية في ذلك الوقت — كما يقول بعض المؤرخين — فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يهجم بتيارات جديدة تتعدى إلى الحياة في مصر كلها ، كما وجدت الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المنقح باسم الخلافة ، والذي كان يفرض عليه دون مامبر حقيقى تصادماً بين الإيمان الديني الأصيل في هذا الشعب ، وبين إرادة الحياة التي ترفض الاستبداد ، .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو المباركة ، عملت حكومة الثورة على النهضة بالأزهر الشريف ، ليعود كما كان منبعاً للعلوم الدينية وعملت على تطويره بحيث يرتبط الدين بالحياة والعلوم الحديثة ، حتى يؤدي رسالته المجيدة ودوره الكبير لرفعة الإسلام والثقافة الإسلامية ، وتدعيم الصلات بين الشعوب الإسلامية جمعاء . فجاء في الميثاق : « وفي يقيننا أن الأزهر الشريف بما له من تاريخ حافل مجيد ، وفي

ظل قانونه الثورى الجديد ، قادراً أبدأ على التوسع بهذا الاصلاح الدينى ، وعلى تطوير الثقافة الدينية مرتبطة بالحياة والعلم الحديث ، حتى تكون العلوم الدينية مستوحاة من منابعها الاصلية فى عصور الازدهار والقوة ، وبذلك تكون أجهزة الدعوة للدين فى كل مجالات التعليم والوعظ والاعلام على وعى بروح الدين الحق ووظيفته فى الحياة .

« إننا بذلك نتمكن من تثقيف الشعب ثقافة دينية صحيحة ، ومن تثبيت القيم الخالدة النابعة من جوهر الدين ، ونتمكن كذلك من مواصلة رسالتنا المجيدة فى تعريف العالم بالدين الإسلامى على حقيقته ، وفى تقوية الروابط الدينية والروحية التى تربطنا بالشعوب الإسلامية . »

أشار الميثاق إلى قانون الازهر الثورى الجديد . فقد أصدر الرئيس جمال عبد الناصر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بتاريخ ٥ يوليو ١٩٦١ ، وقد جعل هذا القانون الازهر مركزاً لثورة ثقافية تتعاون مع سائر الجوانب الثورية الأخرى فى مصر من أجل رفعة الاسلام والقومية العربية والمجتمع المصرى .

وكان الازهر الشريف فى ظل القانون القديم (رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦) معهد على اسلامى ، كل واجباته ومهمته أن يحافظ على الشريعة الغراء واللغة العربية وأن يعمل على نشرهما ، وأن يخرج علماء يؤكل اليهم تعليم علوم الدين واللغة فى مختلف المعاهد والمدارس والوظائف الشرعية فى الدولة .

ولكن الازهر الشريف فى ظل القانون الثورى الجديد أصبح أكبر وأقدم جامعة اسلامية فى العالم أجمع ، وأصبح حمتنا للاسلام والعروبة ، يربط بين الدين والعلم الحديث ، ويعيش فى القرن العشرين ، ويخرج علماء قد جمعوا بين الدراسة الدينية وبين العلوم والخبرات ، يساهمون فى الانتاج القومى ، ويشاركون فى

مركب البشرية الكبير . ويحطم هذا القانون الحواجز بين جامعة الأزهر وسائر الجامعات ، وأصبح خريجي الأزهر يتساوون مع سائر خريجي الجامعات في الحقوق والواجبات ، وتتاح لهم نفس فرص العمل والانتاج .

استهل قانون الأزهر الجديد بأن عرف الجامع الأزهر بأنه : « هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى ، التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي ودراسته وتجليته ونشره وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب ، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر ورفق الحضارة وكفالة الأمن والطمانية وراحة النفس لكل الناس في الدنيا وفي الآخرة .

« كما تهتم ببحث الحضارة العربية والتراث العلمي والفكري للأمة العربية ، وإظهار أثر العرب في تطور الإنسانية وتقدمها ، وتعمل على رفقي الآداب وتقدم العلوم والفنون وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية ، وتزويد العالم الإسلامي والوطن العربي بالمختصين وأصحاب الرأي فيما يتصل بالشريعة الإسلامية والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن .

« وتخرج علماء عاملين متفهمين في الدين ، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح ، كناية عليية ومهنية ، ، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة ، والربط بين العقيدة والسلوك ، وتأهيل عالم الدين للمشاركة في كل أسباب النشاط والانتاج والزيادة والقُدوة الطيبة ، وعالم الدنيا للمشاركة في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية والأجنبية .

وتطبيقاً لهذا القانون . قامت (جامعة الأزهر) لتتولى التعايم العالي في الأزهر ، وتعمل على إحياء التراث العلمي والفكري والروحي للشعوب الإسلامية والعربية ، وإعداد العلماء الذين يجمعون بين الدراسات الدينية وبين الخبرة العلمية والعملية حتى يشاركوا في الانتاج والنهضة الحديثة . وأصبحت جامعة الأزهر تضم كليات

جديدة إلى جانب الكليات التي تهتم بالدراسات الإسلامية والعربية ، مثل كلية المعاملات والإدارة ، وكلية الهندسة والصناعات ، وكلية الزراعة ، وكلية الطب كما عملت حكومة الثورة أن تنال الثمناة نصيبها من الدراسات الإسلامية والعربية، فأنشأت كلية البنات الإسلامية لتخريج الفتاة المسلمة الحديثة، والمرأة هي نصف المجتمع .

واعتمدت حكومة الثورة بالمعاهد الأزهرية ، ونصت المادة ٨٥ من قانون تطوير الأزهر على مهمة هذه المعاهد ، فنصت على أن الغرض منها هي : « تزويد تلاميذها بالقدر الكافي من الثقافة الإسلامية وإلى جانبها المعارف والخبرات التي يتزود بها نظراؤها في المدارس الأخرى المماثلة ، ليخرجوا إلى الحياة مزودين بوسائلها واعدادهم الاعداد الكامل للدخول في كليات جامعات الأزهر ولتهيء للمواطنين جميعا فرص متكافئة في مجال العمل والإنتاج . كما تهيأ لهم فرص متكافئة للدخول في كليات الجامعات الأخرى في الجمهورية العربية المتحدة وسائر الكليات ومعاهد التعليم العالي . »

واختفى نظام الأروقة القديم ، حين كان طلبة الأزهر يسكنون الأروقة المحيطة بصحن الجامع ، ولكل فئة منهم رواق خاص بهم له شيخه وجرايته . وأقامت حكومة الثورة مدينة ناصر للبعوث الإسلامية (في ١٥ سبتمبر ١٩٥٩) يسكنها طلبة الأزهر من قارتي افريقية وآسيا وتنسج لاكثر من خمسة آلاف طالب ، ووفرت لهم الحكومة فيها كل وسائل الراحة والدعاية الصحية والاجتماعية حتى يتفرغوا لطلب العلم في كليات ومعاهد الأزهر المختلفة .

قطاف الكفاح

هذه هي مراحل كفاح شعب مصر في الحقيقة الأخيرة من تاريخها مردناه
بإيجاز شديد وعطينا باظهار ملاحم البطولة وصور الكفاح — ذكرى لشهداءنا
الذين سقطوا خلال المعارك التي خاضوها ، فإن ذهبت أرواحهم مدى ؟؟ لا لم
تذهب أرواح الشهداء الذين سقطوا أثناء كفاحهم الطويل مدى فقد رووا بدمائهم
الزكية الطاهرة شجرة الحرية منذ كانت نبينا كامنا تحت الثرى .

وظلوا يتعهدونها حتى نمت وترعرعت وآتت أكلها ودنت قطافها فاذا هي خير
قد عم الوادى من أدناه إلى أنصاه حتى فاض على ما جاوره من بلدان .
فارتوى بعد أن طال عليه الظلما واخضرت أوراقه بعد ييوس وأينعت ثماره وفاح
أريج وروده . وأسدل ستار كثيف على السنين العجاف الطويلة الماضية بأوزارها
وسيثاتها ، واستقبل الجيل الجديد عهد آخر كله نور وعدل وخير ، لم تعرفه الأجيال
الماضية ، ولم يكن لها به عهد لأنها لم تحي فيه أو تذوقه . فاستقام ظهر الفلاح
بعد أن تحطمت الأغلال والأصفاد التي كانت تكبله ، وتسم الحرية لأول مرة في
حياته الطويلة المليئة بالذل والاضطهاد والعبودية .

وتغيا العامل الظلال الوارفة التي هيأتها له معارك النضال وجنت ثمرة صواعده
التي شرعت تسام في البناء والعمران . واستشعرت الطوائف الأخرى من الطبقات
الكادحة بالمساعي المتواصلة التي تبذل من أجلها في سبيل الوصول بها إلى حياة أفضل ،
وأينا تلفتنا نرى من حوانا وفي كل مكان معاني الخدمة العامة وقد شيدت لتخدم
وتعالج وتعلم ، ودخلت مناحى وقرى لم تدخلها من قبل .

وسارت عجلة التقدم في سرعة مذهلة وشاركت الصناعة والزراعة مسارا جنبا
إلى جنب وأصبح الآلة المقام المرموق والقذح الممل .

ودخرج المستثمر الغاصب من بلادنا مدحورا مهزوما بعد سنوات سود من

الذل والعبودية . وعادت إلى الوطن قطعة عزيزة عليه — فاسترددنا القناه بعد أن
ظلت هايقرب من قرن من الزمان تدار وتحكم وتستغل بأيدي أجنبية وأمام أعيننا

وأقام الانسان المصرى أعظم بناء فى العصر الحديث فشيده السد العلاء حاملا
لنا الرخاء من جنباته والنور والعمران من آلاته ، وخرجت من مصر مبادئ
جديدة سامية تدعو إلى المساواة والأخاء والحياد ، وتقارم الاستملاء والاستعمار
والحروب . وأصبحت القرية العربية حقيقة قائمة لامراء فيها ، وانطوى تحت
لوائها تسعون مليونا من العرب وأصبحت قوة مرغوبة الخائب لها كيائها واعتبارها
فى العالم أجمع بما فيه من تيارات متضاربة وأعواء متعارضة وأثر الكفاح
الشعبى ، الذى حمل لواءه أخيرا وطنى قل أن تجود به بلد من البلاد وسار به فى
الطريق السليم القويم بثبات وعزم وإيمان . متخطيا كل العقبات متجاوزا العوائق
والحدود حتى أملىنا إلى بر الأمان والسلام .

ذلك هو البطل

جمال عبد الناصر

قمة الكفاح الشعبى وذروته ومنشئ الجمهورية العربية الحديثة .

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة ...	٥
الباب الأول	
كفاح الشعب المصرى الأطماع الفرنسية والانجليزية في مطلع القرن ١٩ ...	٧
الكفاح الشعبى العملة الفرنسية ...	٩
الشعب المصرى يكافح استبداد محمد على ...	٢١
الكفاح الشعبى للانجليز في رشيد ...	٢٧
الباب الثانى	
الشعب والجيش في الثورة العرابية ...	٣٧
أسس الثورة ...	٣٩
الجيش أمل الشعب ...	٤٦
الشعب والجيش يواجهان الاحتلال ...	٥٧
الباب الثالث	
الشعب المصرى يكافح الاحتلال البريطانى ...	٦٣
الاحتلال لم يطفىء شعلة الثورة ...	٦٥
صور من الكفاح الشعبى للاحتلال ...	٧٢
ثورة الشعب المهنرى سنة ١٩١٩ ...	٧٩
الباب الرابع	
الشعب يكافح الانجليز وأسرة محمد على ...	٩٩
استقلال زائف ...	١٠١

هذه السلسلة

تعد الثورة المصرية التي تفجرت في ٢٥ يناير ٢٠١١ موجة جديدة ورائعة من موجات ثوراتنا الوطنية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. ولما كان تاريخنا الوطني الحديث والمعاصر قد مر بثورات وطنية ضد النفوذ الأجنبي والاستعمار والاستغلال والاستبداد. فقد أرادت دار الكتب والوثائق القومية أن تقدم هذه الإصدارات - غير الدورية - التي تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة. سواء عن مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، خاصة ونحن على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخنا الوطني. لتخاطب بها عقول الشباب وعامة المثقفين، ولتصلهم بتراث الفكر المصري الحديث والمعاصر، والتراث العالمي على حد سواء.

ودار الكتب إذ تحيي ثورة الشباب تقدم بهذه الإصدارات - بسعر رمزي ومعرفيا يذكى معارك النهضة والتحرر لبنى معاصر جديدة وطننا للحرية والعدالة كما كانت عبر تاريخها المجيد



دار الكتب والوثائق القومية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة